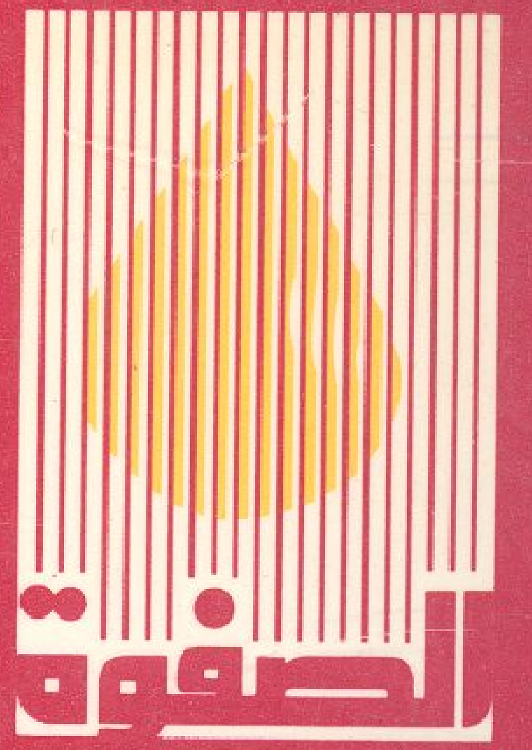


مصطفى صادق الرافعي

رسائل الأحزان
في فلسفة الجمال والحب

السحاب الأحمر

أوراق الورد
رسائلها ورسائله

قدم لها بدراسة
الدكتور عبد القادر القط
أستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس

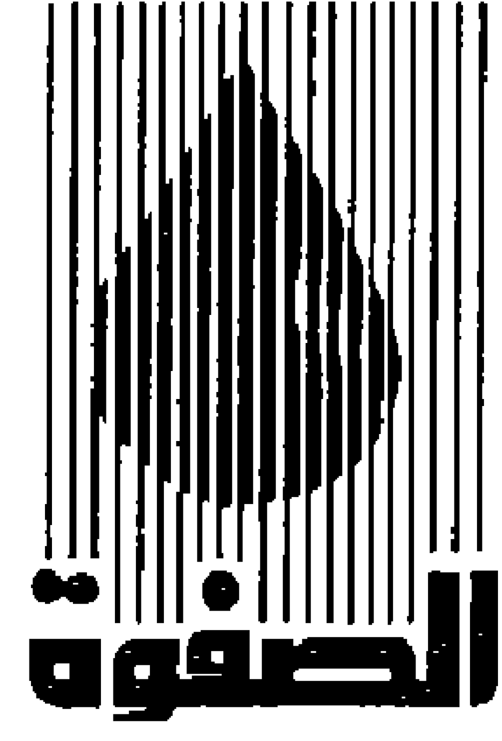




الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الصفوة

رسائل الأحزان
السحاب الأحمر
أوراق الورد



مصطفى صادق الرافعي

رسائل الأحزان — في فلسفة الجمال والحب

السحاب الأحمر

أوراق الورد — رسائلها ورسائله

تدقيق وضبط
إدارة النشر العربي

قدّم لها بدراسة
الدكتور عبد القادر القط
أستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٤

رقم الكتاب 01 C 199107

رقم الإيداع ٥٦٠٩ / ٩٢

الترقيم الدولي ISBN 977 - 16 - 0105 - 0

غلاف : جوزيف حكيم جرجس

دار نوبار للطباعة - القاهرة

يطلب من: شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة



المحتويات

كَلِمَةُ النّاشِرِ

تَعرفُه شاعراً وأديباً ، و تقرؤُه فيلسوفاً ؛ تفرّد بلونٍ من النّثر الفنّيّ يكاد يكونُ نثراً شعريًّا أو نثراً منظوماً ؛ تصدّرَ الاتّجاه الرّومانسيّ في الشّعر ، ثم عدَل عنه إلى النّثر الفنّيّ ؛ أرّخ للأدب العربيّ بأسلوب أظهرَ براعةَ نهجِه وسَعةَ اطّلاعِه وقدرتَهُ على الإحاطة بفنون هذا الأدب ؛ خاضَ مَعارِكَ أدبيّةً عنيفةً مع عمالقةِ عَصْرِه من الأدباء والمفكّرين أثْرَتِ الحياةَ الثّقافيّةَ وَقْتَها ؛ اقترنَتْ باسْمِه ثلاثيّةٌ مُتكامِلة من الإبداع الأدبيّ الّذي اتّخذَ من فلسفة الحُبّ والجَمال وأوصافِهما مَوْضوعاً :

هذا هو مصطفى صادق الرّافعي ، وروائعاته الثّلاث : « **رسائل الأحزان** » ، و « **السّحاب الأحمر** » ، و « **أوراق الورد** » ، تَضمُّها دَفّتا مُجلّدٍ جديد في سِلسلة « الصّفْوة » ، الّتي اصْطَفَتْ من قَبْلُ رائعاتٍ لمصطفى لطفي المنفلوطي ، وثروت أباظة ، وجبران خليل جبران ، وأحمد شوقي .

ويُزيِّن صَدْرَ هذا المُجلّدِ دراسةٌ عميقةٌ ضافيةٌ ، وضعها الأستاذُ الجَليل والنّاقدُ القدير الدّكتور عبدالقادر القطّ ، الأستاذُ بكلّيّة الآداب ، جامعة عين شمس ؛ أبرزَ فيها سماتِ أدب الرّافعي عموماً ، وحَلّلَ فيها هذه الأعمالَ الثّلاثةَ بصفةٍ خاصّة .

وقام مُحرّرو إدارةِ النّشر العربيّ بالشّركة بتدقيق هذه الأعمال ، وضَبْطِ مَواطِن اللّبْس في مُفرداتها ، وتعليق الشّروح لما غَمُضَ منها ، وهذه مَقْرونةٌ بعلامةٍ نَجْميّة (*) تَمْييزاً لها عن الشّروحِ والتّعليقات الّتي وضَعها الرّافعيُّ أصلاً .

إنّ مصطفى صادق الرّافعي علامةٌ بارزة في تاريخ الأدب العربيّ ، وهي حقيقةٌ لن يختلفَ فيها اثنانِ ، حتى لو اختلفَ الكثيرون حول سماتِ إبداعاته الأدبيّة وقِيَمِها .

وجدي رزق غالي

مديـر النشـر العربـي

الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان

مدخل لدراسة مصطفى صادق الرافعي

بقلم الدكتور عبد القادر القط

تمهيد

يعرف قرّاء الأدب العربي الحديث مصطفى صادق الرافعيّ كاتباً عربيًّا كبيراً صاحب فكر متميز وأسلوب بيانيّ فريد ، في « وحي القلم » . ويذكر كثير منهم بعض خصوماته و « معاركه » الأدبية مع أعلام عصره من الأدباء والمفكرين وما أثمرت من مقالات وكتب ؛ كخصومته مع طه حسين حول القديم والجديد ، في كتابه « تحت راية القرآن » ؛ ومعركته الحادة مع العقاد في كتابه « على السّفّود » . لكنّ أغلب الظن أن قليلاً منهم من يعرف الكثير عن بدايات الرافعيّ الأولى في عالم الأدب ، ودوره في ريادة الاتجاه الوجدانيّ – أو الرومانسي [1] – في الشعر ، ثم ابتداع لون جديد من النثر الفني الحديث قريب الصلة بالشعر شارك في تأصيله مع أدباء آخرين معروفين كأمين الرافعي ، وجبران خليل جبران ، ومصطفى لطفي المنفلوطي وغيرهم ، وعُرف في وقت مبكّر باسم « الشعر المنثور » .

والحق أن الرافعيّ بدأ حياته الأدبية شاعراً في المقام الأوّل ، وثيق الصلة بحركة التّجديد في مطلع القرن العشرين ، ملتمساً طريقه إلى الحداثة – كالمألوف حينذاك – في المزاوجة بين التّراث وطبيعة العصر الحديث ، كما صنع غيره من روّاد التّيار الوجداني في البداية .

وصدر ديوانُه الأوّل عام ١٩٠٣ ، وبعد عام واحد ظهر ديوانه الثاني ، وفي سنة ١٩٠٦ أصدر ديوانَه الثالث ، ثم ديوانَه « النظرات » عام ١٩٠٨ ، مقدِّماً له بآراء في الشعر تمثّل فكر الشباب من روّاد الحركة الوجدانية ، وحرصهم على أن تنبع التجربة الشعرية من « القلب » لتخاطب « القلب »، وعلى أن يكون للشاعر أسلوبٌ جديد متميز عن القديم في معجمه وأسلوبه وصُوَره وإيقاعه ، وإن لم يَخْلُ من امتدادٍ لتراث الشعر العربيّ في مرحلة انتقال كان لا بدّ أن يمتزج فيها القديم بالجديد .

على أن هذه الرؤية الوجدانية قد تجلّت منذ البداية في مقدمة ديوانه الأوّل ، مؤكّدةً النّزعة الذاتية التي انطلقت منها حركةُ التّجديد ، وإن عبّرت عنها بأسلوب « مهوّم » لا يُفصح عن نظر نقديّ واضح أو محدّد : « فما الشعر إلا لسانُ القلب إذا خاطب القلب ، وسفيرُ النفس إذا ناجت النفس . ولا خير في لسان غير مبين ، ولا في سفير غير كليم .. ولو كان طيراً يتغرّد لكان الطبعُ لسانَه ، والرأسُ عُشّه ، والقلب روضته . »

غير أن الديوان نفسه يبدو شعرَ شاعر مبتدئ ما زال « يَروض القول » ويتلمس طريقه نحو الاكتمال والنضج ، وتغلب على أسلوبه سمات تقليديّة واضحة وإن تسرّبت إليه بعض صور يسيرة من المجاز أو التّجسيم الحديث .

على أن رؤية الرافعي لطبيعة الشعر وغايته تبدو أكثر وضوحاً ، وإن لم تخلص من خصائصه

---

(١) اقترحت في كتاب لي بعنوان « الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر » أن نَعْدِل عن مصطلح « الرومانسية » إلى « الوجدانية» إذ رأيت أن الرومانسية الغربية في فلسفتها وفنون إبداعها كانت تحوّلا حضاريا شاملاً ، ونقلةً أدبية كاملة ، لم تتحقق في « الرومانسية العربية » وفي مقدمة الكتاب تفصيل لهذا الرأي .

الأسلوبية التي تغيم معها فكرته ، في مقدمة « النظرات » . ولعله قد تأثر فيها بنظرية المحاكاة عند أرسطو وببعض آراء النقد الحديث في طبيعة الخيال الشّعري ، كقوله : « .. ليست هذه المعاني الشعرية إلا ظلالاً لما في الطبيعة ، وإن مثّلتْها القلوب حقائق منفردة – فإن قلب الشاعر بينها وبين الطبيعة كالمرآة تُظهر أشباحاً قاتمة ، وهي على الحقيقة غير أشباح ، وتمثّل تلك الأرواح في الأجسام وليست على انفرادها من الأجسام ولا من الأرواح ... »

ثم أخذ الرافعيُّ بعد ذلك يتحوّل إلى النثر الفني فكان عنده وجهاً آخر من وجوه الشعر ، يراه أكثر قدرة على الإفاضة دون كثير من القيود ، ويراه أدعى إلى مزج الشّعور بالفكر ، وإلى بيان خطراتٍ شبه فلسفية في النفس والحياة والطبيعة .

وكان الحب أو « التجربة العاطفية » عند الوجدانيّين – أو الرومانسيين العرب – في الشعر والنثر تعبيراً ذاتيًّا عن شعور الفرد في إطار تلك التجربة ، ومنطلَقاً – في الوقت نفسه – للتعبير عن موقف الأديب من التحولات الحضاريّة الكبيرة التي كانت تجري في المجتمع العربي حينذاك ، فيقبل على بعض جوانبها ، ويَعزِف عن بعضها ، أو يقف منها موقف الحذر والتوجّس ، فأصبح لكثير من نماذج الشعر والنثر الفنيِّ مستويان : يصوِّر الأول التجربة العاطفية في إطارها الذاتي المحدود ، ويتجاوزها الثاني إلى رؤية يستشفُّها القارئ خلال رموز ودَلالات تشير إلى بعض المعاني في الأخلاق والسياسة والنفس والمجتمع والوجود .

ولعلّ ما نلمسه من مبالغة في تصوير عاطفة الحب ، وإلحاح على بواعثه ومظاهره وفلسفته – أثرٌ من آثار ارتباط هذه العاطفة بتلك المعاني الكثيرة التي كانت تشغل خواطر هؤلاء الرومانسيين ، ويحفل بها وجدانهم ؛ فهم يخلعون على الحب كلّ ما يمكن أن يحتمل من صور تلك المشاعر والهموم .

وكُتُب الرافعي الثلاثة « رسائل الأحزان » ، « والسحاب الأحمر » ، « وأوراق الورد » إبداع مبكّر مكتمل في تجربته وصيغته البيانية لذلك اللون من النثر الفنيّ – أو الشعر المنثور – انطلق من تجربة حبٍّ شخصية ، ثم اتّسع فشمل ما أسماه كاتبه « فلسفة الحبِّ والجمال » ، وتضمّن كثيراً من الخواطر والنظرات يصبح الحب معها مجردَ « مثير » أو « حافز » للفكر والخيال ، في أمور قد تبدو لصيقة بالحب ؛ لكنها تتجاوزه إلى آفاق كان من عادة الرومانسيين أن ينطلقوا إليها ، فكانوا يتخذون من التوفيق في الحب أو الفشل فيه ، ومن التّوزُّع بين الحب والبغض ، والافتتان بمظاهر الجمال في الإنسان والطبيعة – ذرائع لبيان ما في نفوسهم وعقولهم من شعور وإدراك رومانسيٍّ للحياة ، بوجه عام.

والأديب الرومانسيُّ – شاعراً وناثراً – يعتقد أنه صاحب رسالة تقوم على مُثل عليا من الأخلاق لا سبيل إلى سعادة المجتمع الإنسانيِّ بدونها . وهو مدفوع إلى بلاغ هذه الرسالة بما يحسّ في عالمه الوجداني من وجود روحيّ يحنُّ إلى عالمه الروحي القديم ، ويسمو به على شهوات الحياة الدنيا وأطماعها ، ويفتح عينيه على ما في حياة الناس حوله من انعدام المحبة والتّعاطف والوفاء ، ومن السعي وراء المال والجاه ، وعلى ما في مجتمعه من مآسي الظلم والفقر ومظاهر الدّمامة .

لذلك عانى الأديب الرومانسيُّ – في تشبُّثه بمثله العليا وحنينه إلى عالمه الروحي – أزمة مزدوجة،

يتّصل جانب منها بالمجتمع ، ويتّصل جانب بوجوده الباطنيّ ، وبما يدور فيه من صراع بين الجسد والروح والشّر والخير .

لذلك تبدو عاطفة الحبّ عند هؤلاء الرومانسيين وكأنها تجربة روحية ترتبط بمعاني الطُّهر والصُّمود أمام الشّهوات ، ويسمو الشاعر فيها بخياله إلى عالم نورانيٍّ من الأحلام .. والأوهام ، متّخذاً من حبه مجردَ إلهام لموهبته لترقى إلى ما يستطيع من رحاب الروح والفنّ .

ومن هنا كان وجود المرأة – عند من يَنْحون هذا المنحى من الرومانسيين – وجوداً مطلقاً غائماً لا يحدّه في الأغلب اسمٌ أو زمانٌ أو مكانٌ . يتحدّث الشاعر أو الناثر فيه حديثه إلى غائب مجهول ، أو يخاطب مَنْ يحب كما يخاطب مثالاً سامياً خالصاً من أدران الحياة وأطماعها فيسمو به إلى مرتبة القداسة . وتبدو المرأة كاليد الرحيمة التي يرجو الرومانسيُّ أن تمتدّ إليه لتنتشله من وهدة الحياة وآثامها ، فهو يهيم بها ويقدّسها إلى حدٍّ يتجاوز طبيعة الحب في واقع الحياة .

وفي الطَّرف المقابل لهذا الخشوع والتّقديس المسرف يعبّر بعض هؤلاء الشعراء والكتّاب عن خيبة أملهم في مُثُلهم العليا التي صاغها وجدانهم المرهف ، و وشّاها بالخيال والأحلام والأوهام ، فيصوّرون المرأة مخلوقاً طائشاً نَزِقاً ، قليل الوفاء ، كثير التّقلّب والخيانة . وكأنها في كلتا الحالين معادِلٌ للحياة فيما تمنح الرجل من ساعات الصّفاء والإقبال ، وفيما يجدُ فيها من شقاء وإدبار وتحوّل مفاجئ في المصير .

أبدع الرافعي كتبه الثلاثة بعد أن خاض تجربةً طويلة من هذا الحبّ المثاليّ الذي ينبع – في الأغلب – من « تخيُّل » الأديب الرومانسي لمواقفَ قد لا تزيد في حقيقتها على صداقة أو مودّة أو تقارب فكريٍّ ؛ لكنه يخلع على النظرة العابرة دلالة لم تكن فيها ، وعلى العبارة التلقائية معانيَ « مقصودة » لعلّها لم تخطر على بال قائلتها ، ثم ينهار الصرح الخياليُّ في النهاية أمام أول مواجهة حقّة للواقع .

« رسائل الأحزان »

كانت الأديبة اللبنانية المعروفة « ميّ زيادة » قد اجتذبت إلى « صالونها الأدبيّ » ، في يوم معهود كلّ أسبوع ، عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء المعروفين . وكان شيئاً جديداً في المجتمع العربيّ حينذاك أن تستقبل امرأة في بيتها أمثال هؤلاء الرجال ، فتجلسَ إليهم وتحاورهم في أمور الأدب والفكر . ولم تكن الصّلات بين الرجل والمرأة مُتاحة كما هي في هذه الأيام ؛ فَفُتنوا جميعاً بها ، وخيّل إلى كل واحد منهم أنها تصطفيه – أو تحبّه – دون الآخرين .

ويبدو أن الرافعيَّ كان أكثر هؤلاء حبًّا « لفكرة الحب » وأبعدَهم خيالاً ، وأقدَرَهم على التأويل لمواقفَ وأحاديثَ وإشاراتٍ لا تعني بالضرورة تعبيراً عن الحب . يقول في « رسائل الأحزان » :

« رأيتُها مرّة في مرآتها ، وكانت قد وقفت تُسوّي خصلةً من شعرها ، ولم يكن قصدها ذلك كما علمتُ ، وإنما أرادتْ أن تطيل نظرها إليَّ من حيثُ لا أستطيع أن أقول إنها هي التي تنظر ؛ فإن ذلك الذي ينظر كان خيالَها ! فلمّا نظرتُ إلى المرآة خُيّل إليَّ أني أرى مَلَكاً قد تمثّل في هيئتها وأقبل

يمشي في سحابة قائمة من الضَّوء ، أو أنَّ يدَ الله في لمح النظرة قد رسمتْ هذا الجمال على تلك الصَّحيفة يتموّج في ألوانه الزّاهية ، أو هي قد أرادتْ أن تبعث إليَّ بكتاب يحتويها كلّها ولا يكون في يدي منه شيء ، فأرتني مرآتها ! »

وكان طبيعيًّا لمثل هذا الحب الذي يُبنى على التخيّل أو الوهم أن ينهار في لحظة أمام ما يمكن - أيضاً - أن يكون من الوهم أو التخيّل . فقد دخل الرافعيُّ إلى صالونها يوم الثلاثاء ، وكان في مجلسها شاعر معروف جلستْ تحدّثه ويحدثها ، فاستقبلته كما ينبغي ، ثم انصرفت تتمّ حديثها مع الشّاعر . وحين طالَ انتظاره خُيِّل إليه أنها قد اتجهت بعواطفها إلى ذلك الزّائر ؛ فخرج غاضباً وكتب إليها رسالة قطيعة ، ولم يرها بعد ذلك إلا مرة عابرة في حفلٍ عام .[1]

وانقلب ما كان حبًّا جارفًا إلى بُغْضٍ جارف ، وبين هذين الوَجْهَيْنِ من « الحب » راح الرافعيُّ يطيل النظر في نفسه وفي نفوس الآخرين ، ويتأمل وجوهاً من الجمال والقبح ويدير في فكره و وجدانه خواطرَ ومشاعرَ حول « فلسفة الحب والجمال » في كتابه « رسائل الأحزان » .

والكتاب مجموعة من الرسائل أغلبها شعر منثور وبعضُها قصائد منظومة ، كتبها الرافعيُّ إلى صديق بعيد تخيّله ، وهو في الحقيقة يكتب إلى نفسه ، مستعيداً ذكريات تجربته الأليمة .

وفي مقدمة الكتاب يتحدّث الرافعيُّ عن « الذّكرى » فيصور المرأة تصويراً فيه كثيرٌ من التّقديس الرومانسيِّ المعهود في حالة الرِّضى ، وترد في ثنايا أسلوبه كثيرٌ من المفردات والعبارات والمجازات الدّالة على الرّوح والطُّهر والنّور ، والتي تشير إلى الملائكة والجنة والعوالم العُلويّة ، وتربط بين المرأة والسماء بأسباب وثيقة ، فيقول في مواضعَ متفرقةٍ من الكتاب :

« .. فلمّا انتصبتْ إلى المرآة خُيِّل إليَّ أني أرى مَلَكًا من الملائكة قد تمثّل في هيئتها ، وأقبل يمشي في سحابة قائمة من الضوء ... فالمرأة في عين محبِّها المفتون أجملُ مَنْ مسحتْ يد الله على وجهها من النساء ؛ فتركت الأثر الإلهيَّ يتسلّط في سحر عينيها ، وأودعتْ روح الجنة أمانةً بين شفتيها ، و وصلت بين الرحمة والنُّفوس بذلك النّور المتلألئ في ثغرها ، وأضافت إلى النّواميس النّافذة في الكون فُتور عينيها وتنهُّداتِ صدرها .. ويراها المحبُّ فما يحسب إلا أن قطعة من السّماء قد صارت ثوبًا لجسمها .... ولو أن نجمة سألت الله أن يخلقها امرأة فتنزل على الشعراء بوحي السماء وخيال السماء وأسرار السماء - لكانَتْها ! »

ويقول في إحدى رسائله الشّعرية :

حـوريّةٌ شهـدتْ لها جنّاتُها ... وجـمالُ عَيْنيها شهادتَها لها

وكأنّما المرآةُ من أفق السّما ... وكـأنّها مَلَكٌ يلوح خِلالَها

والمرأة عنده مدارُ الكون وضالّة الشاعر والحكيم والرجل من عامّة الناس ، يجدون جميعاً عندها ما ينشدون :

« .. إذا كنتَ شاعراً فأضْلَلْتَ نفسك فنشدتها طويلاً وقلّبتَ عليها آفاق النُّفوس وأفلاكَ القلوب

---

(١) استقينا هذه الوقائع من « كتاب حياة الرافعي » للأستاذ محمد سعيد العريان ، ص ١٠٢ . وقد جاء فيه أن الشاعر الذي أثار غيرة الرافعي كان الشاعر المعروف إسماعيل صبري ، وأن صلة الرافعي بالأديبة « مي » انقطعت منذ ذلك الحين عام ١٩٢٣ .

فلن تصيبها إلا في نفس امرأة جميلة ، يجعلها مهندسُ الكون مركزاً للدّائرة التي تنفسح بأقطار نفسك ذاهبةً بكل قُطْر إلى جهةٍ من أمانيّ الحياة .

« وإذا كنتَ حكيماً فسألتَ نفسك سؤالَ الفلاسفة : « مَنْ أنا ؟ » و وجدت في نفسك ذلك السرَّ الخفيَّ ، يقول عنك : « مَنْ هو ؟ » فإنه لن يظهر لك معنى « أنا وهو » إلا إذا وضع الحبُّ بينهما « هي » ...

« وإذا كنتَ رجلاً من عامة الأرض فإن نفسك لن تحسّ جوهرها الإلهيَّ إلا في نفس حبيبة وإن كانت من عامة النساء .. فالحبُّ يجعل الناس ، أعلاهم وأسفلهم ، صاعدين أبداً من أسفل إلى أعلى ... »

لكنَّ هذا الحب الذي يبلغ حدَّ التّقديس للمرأة لا يلبث أن يتحوّل إلى بُغْضٍ وازدراء لمن كان يحب وللنساء جميعاً دون سبب معلوم ، إلا أن يكون القارئ قد ألمَّ بشيء من تاريخ الحياة العاطفية للرافعيِّ فيما كتب عن صلته بالأديبة اللبنانية المعروفة . وذلك جانبٌ من جوانب العواطف الرّومانسية المتقلّبة التي تستجيب لأهواء النفس أكثر مِمّا تستمع إلى صوت العقل .

وقد يُبرِّر المحبُّ الرومانسيُّ مثل هذا التحوّل الكبير المفاجئ فيصور البغض على أنه وجه آخرُ من وجوه الحب ، محاولاً أن « يُفلسف » الأمر فيجعله تحوُّلاً طارئاً على النفس تتبدّى فيه على أحوال متناقضة ؛ لكنها هي في ذاتها باقيةٌ على جوهرها وطبيعتها كما يتحوَّل الماء في برده وحرارته :

« فيا ويحك ! أ لا تعلم أن مِرْجَل الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللّهب الأحمر ، فيرمي بسهام من الذّرِّ المحرق لو كان في جهنم وَهَجٌ يثور لما كان إلا دِقاقَ ترابها ؟ أم تُراك لم تدرك من رسالتي أني أسَعُ من بُغض مَنْ أحببت فوق ما يملؤني ، وأنَّ هذا البغض وجه آخر من وجوه الحب ، كالجرح ، ظاهرُه له ألَمٌ وباطنه له ألَمٌ ، وما يمسّه من ظاهره غيرُ ما ينكت فيه من باطنه . »

وقد تبدو طبيعة الوجدان المشبوب عند الرومانسيين عامة ، وعند الرافعي في كتابه بوجه خاصٍّ ، في تلك الصّورة الحادة البالغة التّجسيم لتحوُّل الماء في مرجل الباخرة ، وكأنما وجدانه هو الآخر أتونٌ متّقدٌ يبدو فيه الحب المقدس بغضاً مدمِّراً ، وإن كان لا يزال في جوهره هو الحبّ الذي يعشق « فكرته » المحبُّ الرومانسيُّ .

ويعبِّر الرافعيُّ مرة أخرى عن هذا المعنى فيقول : « ولكنْ دعني أقلْ لك إني أبغض مَنْ أحبُّها . على أنك لو رأيتَها لرأيتَ نفسها تلوح في وجهها ، جميلةً كجماله ، رقيقةً كرقّته ، محبوبةً كحبه . ولكني مع ذلك أبغضها – والله – بُغْضَ المحرور لما يتلذّع من أشعّة الشّمس ، وبغضَ العين الرّمداء لما يتلألأ من إشراق الضحى ، فلا يداخلك في ذلك ريب ولا شكّ . وسيبقى هذا البغض من سرِّ الحب الذي لا يُعرف ... »

وقد تمثّلت هاتان الصورتان المتناقضتان للحب في نفس الرافعي منذ أقبل على إبداع رسائله ، فقال في مقدمته مخاطباً صديقَه الذي تخيّله ليُفْضيَ إليه بدخيلة نفسه :

« وأرجو – عافاك الله – ألا تتطلع في قلمي بنقد أو اعتراض أو تعقيب ، بل دعني وما أكتبه ، فإن لكل شيء طرفين ، وإنَّ طرفَي الجمال هما الحبّ والبغض ... »

وتتوالى أحاديث الرافعي عن هذين الوَجْهَيْنِ المتناقضين من وجوه العشق ، يخص بها أحياناً صاحبته ، كأنها طرازٌ متفرِّد بين النساء ، في مثل قوله :

« إن بعض الرجال يكون في صفاته كذباً على الرجال ، فهذه ، والله ، كذب على النساء . ولو جاز لقلتُ إنها وُلدت خطأً في هذا الجِلْد ، بل ما وضعها الله فيه إلا لعلمه بها ، وليجعلَ منها عِلْماً لمن شاء أن يدرس بروح الرجل المحبّ أو المبغض جمالاً شاذًّا في روح امرأة تحتمل الحبَّ والبغض معاً ... »

وأحياناً يتّخذ منها مثالاً للنساء جميعاً فيصوِّرهن متقلّباتٍ خاوياتٍ يُخفين وراء ما يبدو من حرارة حسنهنّ جبالاً من الثّلج :

« .. عدتُ أراها - هي وأمثالها من الحبيبات - كفقاقيع الرّغوة في ألوانها وجمالها . وانتفاضها.. وفراغها ! وصرتُ أعتقد أن الهول الهائل من النساء الجميلات إن هو إلا كذلك الرعب المخيف من جبال الثلج في القطب ، لا يمسك الجبل الشامخ بما حوله إلا خيوطٌ واهنة من غزل الماء لو قطعَتْها نسمةٌ لانهار وانكفأ ... »

وبين هذين القطبين من الحب والبغض ، والوهم والحقيقة ، يعيش المحب الرومانسيُّ مشدوداً بين « الأمل الحلو والألم الممتع [1] » متخذاً من كليهما نَبْعاً للإلهام والإبداع ، وإن كان نبع الألم - في أغلب الأحيان - أكثرَ تدفُّقاً وأشدَّ حرارة .

والألم محور جوهريٌ في تجربة الحب وفي صورته الفنية ، ويبدو المحب الرومانسيُّ وكأنما يخلق بنفسه أسبابَ الفشل وقد تهيأت له دواعي النجاح ؛ حتى لا يفقد تلك اللذعة الممتعة والمبدعة .

يقول الرافعي : « ولن تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزليّة إلا إذا حملك على بغضه بعد أن يحملك على حبه ، فيقتلك مرّتين ، كلّ مرة بسلاح ، وكل مرة بأسلوب ، وكل مرة بنوع من الألم ! ... إن ساعةً من ساعات هذا الضعف الإنساني الذي نسميه « الحب » تنشئ للقلب تاريخاً طويلاً من العذاب ، إن لم تكن آلامه هي لذّاتِه بعينها - فهي أسباب لذّاتِه . »

ويسمي الرافعيُّ الإبداع في الشّعر والنّثر الفني « دمع العين ودمع القلب » ويربط بينه وبين « بلاء الحب » مؤكداً أن الألم - كما كان يراه الوجدانيّون - غايةٌ مشتهاة ينصهر فيها وجدان الشاعر والكاتب فيفيض بما يكنُّ من صورٍ للإبداع ، تتجاوز معنى الحب المحدود إلى تصوير الحب الإنسانيِّ العام :

« ما أحسبني قطُّ رأيت امرأة جميلة كما هي في نفسها وتركتها كما هي في نفسها ، بل هناك نَفْسي .. وآهٍ من نفسي ! وما أسرع ما يمتزج في هذه النفس بعضُ الإنسانية المحبّة ببعض الإنسانية المحبوبة ، فإذا أنا بشيء إلهيٍّ قد خرج من الإنسانيَّتَيْن ، هو هذا الشعر ، هو هذا البلاء ، هو هذا الحبّ .. فقدتَني صديقاً يهزّ يَدَيْك بتحيته ، والآن أعود إليك شاعراً يهزّ قلبك بأنينه ، أعوضك برسائلي كلاماً فيه دمع العين ودمع القلب . »

---

(١) يقول قيس في وقفته على قبر ليلى في مسرحية شوقي « مجنون ليلى » :

هنا الحادثاتُ ، هنا الأملُ الحلـــ ـــوُ يا ليْل ، والألم الممتعُ

ويزيد من متعة المحب الرومانسيّ بالألم أنه يرى الحبَّ قدَراً مقدوراً لا سبيل إلى اتّقائه ولا ملجأ منه إلا بالرّضى به . فالحب عند الأديب الرومانسي – في الأغلب – ليس شعوراً إراديًا يتوجّه إليه المحبُّ ليُرضي في نفسه تلك الرغبة الفطرية المسيطرة ، كما يرى المتنبي :

وما الحبّ إلا غِرّة وطماعة يُعرّض قلبٌ نفسَه فيصابُ

بل هو – كما كان رآه العذريّون من قبل – لقاءٌ وافتتان ، ثم بَيْنٌ وصدّ ، والمحبان بين الوصل والهجر ، ألعوبتان في يد القدر ، وإن بدا لهما أحياناً أنّ أحدهما قد أراد ما كان .

يقول الرافعي :

« .. إنما أحبُّها لأنها هي هي كما هي هي ، فإن في كل عاشق معنى مجهولاً لا يحدُّه علمٌ ولا تصفه معرفة ، وهو كالمصباح المنطفئ ينتظر مَنْ يضيئه ليضيء فلا ينقصه إلا مَنْ فيه قدْحةُ النور أو شرارةُ النار . وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين . ولكن الشأن في تحرّك القلب حتى يُدني مصباحه لتَعَلّق به الشُّعلةُ فيتّقد ، وما يحرّكه لذلك إلا القدر . وما أحكم الناس إذ يقولون في بعض حوادث الحريق إنها « وقعت قضاءً وقدَراً » ، فكلُّ حريق القلوب لا يقع إلا هكذا ... »

ويقول مرة ثانية :

« كانت – والله – قدراً مقدوراً ، لو علمتُ كيف تنتهي لاتّقيتُ كيف بدأتْ ، ولكني جئتُها وأنا أقدِّر أن أراها كما هي وأدَعها كما هي ، فإذا القَدَرُ مخبوء فيها ، وإذا هو قد طلع عليَّ في ألحاظها ، وإذا أنا أراها فلا أدعها ... »

ومرة ثالثة :

« .. ويراها المحبُّ فما يحسب إلا أن قطعةً من السماء قد صارت ثوباً لجسمها ، وأن قدراً من الأقدار قد نشأ على الأرض وسُمِّيَ باسمها ، وإذا نظر إليها عَلِم بدلالة وجهها أنها من القمر ، وإذا نظرت هي أعلمتْه بدلالة لحظها أنها من القدر ... »

وكان على الرافعيّ – وقد قصد أن يخرُجَ من نطاق التّجربة الفردية في الحب ، إلى حديث الناثر الشاعر من خلالها عن « فلسفة الحب والجمال » – أن يتأمل طبيعة الحب وأحوال المحبّين وينتهي إلى خطراتٍ فكريّة يُفلسف بها بعض المواقف واللحظات والمشاعر التي رآها ذات دَلالاتٍ خاصة في تلك التجربة .

وقد تجيء هذه الخطرات من المألوف الذي لا يقترب كثيراً من الفلسفة أو الفكر العميق ، لكنها تبدو للرافعيّ في ثوبها البيانيّ الذي يُضفيه عليها بأسلوبه الخاص آراءً عميقةً مبتكرة . وهو في هذا المجال لا يستطيع أن يخلّص الفكرة من طبيعة الشعور الوجدانيّ المسيطر ؛ فيتكشّف ما يظنُّ أنه فلسفة عن « عاطفية » مسرفة موشّاة بأسلوب بيانيّ منمّق ، فيه من التشبيهات والمجازات ما يخرج عن طبيعة الفكر الفلسفيّ ، أو القريب من الفلسفة :

« إن ألذّ المعاني في هذا الجمال ما جعل ينبو في يَدَيْكَ كلما ألقيتَهما عليه كيلا تستمكنَ منه ، ففي كل نَبْوَة يظهر لك منه جانبٌ ، وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً . ولا تزال تجري ويجري ؛ أمّا أنت فتشتدُّ جهداً في سبيله ، وأمّا هو ففي سبيل منبعه من الجمال الأعلى الذي أفاضه موجةً منه ، فكأنك ذاهب إلى الجنة حيًّا ، لا يمرّ بك إلا في رَوْح و ريحان على طريق من لذة النفس لا

تنتهي ؛ إذ هي من حيث لا تعرف إلى حيث لا تعرف ، وتغدو كأنك في تلك اللذات الروحية طفلٌ لا يكبر ما دام في عمر الحب . والحبُّ الروحيُّ الصحيح إنما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى إلا شبيهاً بوجه الفتاة ، فليس فيه تذكيرٌ ولا تأنيث ، بل حالةٌ متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء الحِسُّ فيها إلا من جهة القلب ... »

ومن هذا القبيل قوله أيضاً :

« السعادةُ تنصرف عنّا في أكثر الأحيان ليكون تلهُّفُنا عليها واهتياجُنا لها سعادةً على وجه آخر ، وكأنما أوشكت لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة . وإذا لم يكن الإنسان بأشدّ حاجةً إلى الطعام في وقتٍ منه إلى الجوع في وقتٍ غيره ، فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه ، يفقد السعادة وقتاً كالجوع ، و وقتاً كالصّوم . وإن هذا لهو بعض أسرار الحكمة الإلهيّة في الشقاء الإنسانيّ ؛ ولكنه كذلك من أسباب سوء فهم الإنسان . »

على أنه حين يقف وسطاً بين الشُّعور والفكر ، وحين يسوق الفكرة بُرْهاناً على الشعور ، يُوَفَّق إلى صياغة فكرة قديمة في بيانٍ يخرجها على نحوٍ مبتكر جديد أقرب إلى الذهن منها إلى الإحساس ، وذلك في مثل قوله :

« كانت تقول لي : إن القلوب الضّعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تلحُّ عليها حتى تتأكّل صدأً ثم تتفتّت ، فإذا حدثَتْ عليها الحادثةُ انكسرت ولم تقم لها ، وبقيت زمناً طويلاً في الهموم حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة في أيام تتصرّف بعد أيام إلى أن تجمع من حطام القلب قلباً متحطماً...

« ولكنّ القلوب القوية الصّارمة ذاتَ الصُّدور الجريئة الواسعة تكوّنها القُوَى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئةٍ تجعلُها مَرِنة في صلابة ، فهي تلتوي ولا تنكسر ، وما أسرع ما ترجع كما كانتْ إذا لَوَتْها الخيبة أو نجمت لها قاصمةٌ من الحوادث التي هي مطارق القلوب ، لا تضرب إلا عليها ولا تحطم إلا فيها ... »

وقد يحاول أن يفسّر العشق تفسيراً علميا لكنه لا يخلو من غلبة تلك النَّزعة الرومانسية التي تجلب إلى عبارته جوًّا خياليًّا وطابعاً بيانيًّا يحوّلان ما قصد به أن يكون فكراً منطقيًّا إلى صورة من صور « التّفنُّن » البياني :

« لا أرى سرّ الجمال إلا أنه شيء حقيقيٌّ من تلك القوة السماويّة التي نسمّيها « الجاذبيّة » . فكأنّ الله حين يُبدع الجميل يرسل في دمه مع الذّرّة الإنسانية ذرّةً من مادة الكواكب هي سرُّ عشقه وجاذبيّته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لا يزال الجميل يُخضِع بها كما يُخضِع الفلكُ المُدار ، ويتسلّط على عاشقه كما تتسلط الأقدار ، ويبثُّ في الدم الإنسانيِّ مع مادة الدم مادة النار ...

« وما أساليب الدّلال – أو ما نراه دَلالاً – في الجميل المعشوق إلا اضطراب تلك الذّرّة من سكونها ؛ فإنها متى تحرّكتْ للجاذبيّة جعلتِ الجميل يتلألأ من كلِّ جهاته ، وانبعثت في كل ناحية منه نوراً ، فوضعتْ لكل شيء فيه معنى من المعاني الخيالية ؛ إذ هي معنى كل شيء فيه . »

وأسلوب الرافعيِّ – في « رسائل الأحزان » – يجري على ما كان يجري عليه النثر الفنيُّ

حينذاك ، وإن تميَّز بميزات خاصَّة في ذلك الإطار العام .

وكان على النثر الفنيِّ وقد غدا – كالشعر – تعبيراً عن تجاربَ شخصية وذاتية ترصد الآخرين – أن يسلك نهجاً فنِّيًّا جديداً ذا طابع حديث أو عصريٍّ ، قد تكون فيه بقية من خصائص الصَّنعة البديعيَّة في النثر العربيِّ القديم ، لكن طبيعة الموقف النفسيِّ أو العاطفيِّ الواحد جعلت سياقه أكثر اتِّساقاً ، وبيانَه أقلَّ احتفالاً بالسِّمات الشكلية المألوفة في ذلك النثر القديم .

وقد فرضت بعضُ الفنون الأدبية الجديدة كالقصة أو الرِّواية على النثر مساراً مختلفاً عن مسار النثر الفنيِّ في المقالة والرِّسالة – فاستجاب لطبيعة السَّرد والحوار ورسم الشَّخصيات والمواقف وخلصَ من كثير من ظواهر التَّقليد للقديم ، إلا ما جاء أحياناً عند بعض الكتاب من استجابةٍ لإغراءِ مشهدٍ طبيعيٍّ أو موقف عاطفي بالإلحاح على البيان اللفظيِّ المصنوع . أما النثر الفني فظلَّ في برزخ وسَطٍ بين الشعر والنثر المُرْسل في تلك الفنون الأدبية الجديدة .

وللرافعيِّ وَلَع ظاهر ، في تأكيد خواطره عن الحب ، بالجُمل المتوازنة المتشابهة في بنائها وإيقاعها ، يجيء بها متتابعةً ليُجسِّم الخاطرة حين تتجلَّى في أكثرَ من وجه من وجوه الحياة والطبيعة؛ كما في قوله :

« وما أرى الشَّجرة حين تخضرُّ إلا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذاتُ حروف كثيرة ، ولا الزَّهرةَ حين تتعطَّر إلا قد لاح في جمالها معنى بديعٌ من حكمة الكلمة الإلهية ، ولا الإنسانَ حين يعشق عشقاً صحيحاً إلا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النَّقية الجميلة المعطَّرة ... »

وقوله : « فالمرأة في عين محبِّها المفتون أجملُ مَنْ مسحتْ يدُ الله على وجهها فتركت الأثر الإلهيَّ يتسلَّط في سحر عينَيْها ، وطبعتِ المعنى الناريَّ يتلهَّب في شعاع خدَّيْها ، وأودعتْ روح الجنة أمانةً في شفتيها ، و وصلتْ بين الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألئ في ثغرها ، وبين النِّقمة والقلوب بتلك النار المستعِرَة من هجرها ، وأضافت إلى النَّواميس النافذة في الكون فُتور عَيْنَيْها وتنهُّدات صدرها ... »

وقوله عن صلابة الجبل و روعتِه مؤكداً المعنى بتلك العبارات المتماثلة المتقاربة في الدِّلالة :

« لقد أقمتُ من نفسي لهذا الخَلْق جبلاً ، وإنَّ هذا الجبل ليتدحرج عليه الصخر الصَّلْد ، ويلصق به الحَصى المسنون ، و ينغرز فيه الشَّوك الدَّامي ، وتنبت منه الفروع المُرَّة ، وترسو بين أطباقه العروق الضَّاربة ؛ ولكنه على ذلك جبل . وهو بذلك أتمُّ روعةً ورهبة . »

وقد يجيء تأكيد الخاطرة أو الإحساس في صورة تشبيهاتٍ متتابعة ، و عبارات متوازنة تتفق أيضاً في الدِّلالة ، وتتشابه إلى حد كبير في إيقاعها وبنائها الأسلوبيِّ :

« .. أحببتُها ، لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع به في رواية تبتدئ وتنتهي في جزأين من رجل وامرأة ، ولا كالحب الذي يؤلِّفه الكتَّاب والشعراء حين يجمعون عشرين معنى في كلمة أو يرسلون عشرين كلمة لمعنى ، ولا كالحب الذي يُباع ويُشرى فتأخذ منه بالدِّينار أكثرَ ممَّا تأخذ بالدِّرهم . »

وقد تجيء تشبيهاتُه المتتابعة ، تشبيهاتٍ تقليديَّةً مألوفة في النثر الفنيِّ والشعر العربيِّ القديم ، في صيغ يسيرة ليس فيها قصد إلى تركيب جديد ، وكأنما يستغني بوجوه التشبيه المتعددة عن التجديد ، كقوله :

« .. وهي الصّافية كرقّة النسيم ، والنّاعمة كملمس الماء ، والضّاحية كطلعة الشمس ، فإن غضبتْ بدّلتِ النسيم قيظاً ، والماءَ ظمأ ، والشمسَ الطالعة غيماً يلفُّ نهارَ الحب في ملاءة ليل أسود ... وتتمايل أعطافُها ، فلو خُلق غصن البان امرأةً لَمشى يتهادى في مثل مِشيَتها . »

وتَرِدُ تلك التّشبيهاتُ التقليدية في رسائله الشعرية ، وَإن أضفت عليها طبيعةُ الشعر إيقاعاً خاصّاً ؛ فالمرأة في قصائده ظبيةٌ وقمرٌ وحوريةٌ وغصنٌ :

أما السّما ، فَجَلَتْ عليهِمْ بَدْرَها — والأرضُ قد عرضَتْ لذاك غَزالَها
لكنّها نظرتْ فأخجلتِ الظِّبا — وتَلَفَّتَتْ لِلبدرِ فَاستَحْيا لَها

هيفاءُ قد حسب النَّسيمُ قَوامَها — غصناً فإنْ خَطَر النسيمُ أمالَها

حوريةٌ شهدتْ لها جَنّاتُها — وجمالُ عَيْنَيْها شهادتَها لَها

يا ظبيةَ الوادي الّذي نبتَ الهوى — بِثَراه بين الزَّهرِ والريحانِ
واديكِ من طولِ التّدلّلِ قدْ بَدا — شِبْهُ القُدود بِه على الأغصانْ
وكأنَّ طيبَ نسيمهِ مسٌّ من — شفتَيْكِ موضعَ قُبْلةٍ و أتاني

وقد يوشّي تلك التشبيهاتِ والتعبيرات ببعض الصّنعة البديعية المألوفة ، كما في قوله :

فتذكّرتْ « شمسٌ » الجَمال متيّماً — تركتْهُ من فَرْطِ النُّحول « هِلالَها »
ما زال يَشْكو « الصّدَّ » حتى بغّضتْ — في نفسه «صادَ» الحروفِ و «دالَها»

وقوله :

لمّا حَباهـــا اللهُ « جـلَّ جـــلالُه » — بالحُسنِ مُنفَرِداً .. « أجلَّ جَلالَها »

وتتردّد في عباراته مفرداتٌ كان قد بدأ الرومانسيّون يلحّون على استخدامها وإن كان لوجودها أصول في الشعر العربيِّ القديم ؛ لكنها في سياقها الوجدانيِّ وفي تكرارها تنبئ عن اتجاه جديد نحوَ « معجمٍ » شعريٍّ محمَّل بالدّلالات الشعورية ، يقنع الشاعر منه بالألفاظ المفردة دون الصُّور المركبّة إلا من بناء أسلوبيٍّ يسيرٍ مسجوع في بعض الأحيان .

ومن تلك الألفاظ ما يدل على النور ومشتقّاته ومصادره ، ومظاهر للشمس والقمر والنجوم ، وأوقات الليل والنهار ، وما يرتبط بالعطر والجنّات والملائكة والعالم السّماويّ :

« .. ولَمّا لقيتُها كانت ألحاظها تقول لي بفصاحةٍ **أوضحَ من نور الصُّبح** ... وكنت ذا عزيمة قوية **مضيئة** كالنهار الذي يتغذّى من دم الشمس . فما أسرع ما فتح هذا القمر باب سمائه وطلع عليَّ من سحره بمثل ما يطلع قمر الأرض على الأرض فيبدِّلها من نهارها ذلك **الصبحَ الرّطب** ... فهي تُقبل بوجهها الفتّان كما تُقبل السعادة بالأمل الوسيم ، وتختال بمعانيها النّسائية كما تهبّ **روائح الأزهار** في النسيم ، رفّافةً على الحب كأنها خُلقت في جنة الحب **ريحانة** ، **مُسكرة** للعاشقين كأن **نهرَ الخمر** في الجنة جعل فَمَها لهذا العشق حانةً ، صافيةً يترقرق في حسنها ماءُ دلالها ، **وتُشرق** بالقمر الأزهر من وجهها سماءُ جمالها .. فهي بجملتها ليس فيها من الحسن إلا وحيٌ

وتنزيل ، وهو «أي المحب» بجملته ليس فيه من الحب إلا تفسيرٌ وتأويل ... فيفرغها « الشاعر المحبُّ » في القالب الذي لم يَخْلق الله فيه امرأةً قطّ ، ويصبّها لعينيك ممثّلةً من **النور السماويّ** المحض ، تضيء كل قطرة منه وجهَ مَلَك من الملائكة ، ثم يجري كلامه فيها شعراً خالداً **مطّرداً** كنهر الكوثر في رياض الجنة : حافّتاه من ذهب ، ومجراه على الدُّر والياقوت ... فالكوكب **يضيء** في أعماق الفضاء ، والوجهُ الجميل **يضيء** في أعماق النفس ... ولعلّها رفعتْك إلى الشمس والقمر والنجوم لأنهم عشيرتها وأهلها ، فأنت تخاطبني في رسالتك الأولى وكأنك مرتفق تحت جناح جبريل ، أو متّكئ على بساط الريح ... تلك حياة الصّديق وكانت **ليلاً طويلاً** انبسط عليه فَنَنٌ من **الظلام** كأنه مُورق بالسُّحب والغمائم **السّوداء** ، حتى كأنّ **صباحه** مات فيها منذ أربعين سنة . ثم انبعث آخرُ من وجه فتاة أحبّها **فأشرق** له من غُرّتها **واستضاء** عليه في وجهها ، وطلعت **شمس** حبّه من خدّيْها حمراءَ في لون الورد إذا امتزجت أشعتها **بظلماته** . »

وعلى هذا النحو يجيء كثير من أبياته بما فيها من مفردات وتشبيهات وصيغ أسلوبية يسيرة تدور حول تلك الدّلالات والمعاني النفسية الوجدانية ، والإسراف العاطفيّ في كثير من الأحيان :

في منظر الأقمار ألمحُ وجهَها ... وتحسّ في لمسِ النّسيم غَرامي

في كل نجم من نجومك بسمةٌ ... وقفتْ تُشير إلى الهوى بِسَلام
وكأن أفْقك – والنجومُ سُطورُه – ... تاريخُ ما أسْلفتُ من أيّامي

وكأنّما المرآةُ من أُفُق السّما ... وكأنها مَلَكٌ يلوحُ خلالها

ومضيتُ أصعدُ ذِرْوةً في ذروةٍ ... كالنّجم مشتمِلاً عَليّ غمامي
في كلِّ منزلةٍ وكلِّ ثَنيّةٍ ... يضعُ الهوى قمراً يُضيء أمامي

والحب الرومانسيُّ بطبيعته حبٌّ متقلبٌ بين لحظات شعورية متباينة ، وإذا ظلّ يَدور في فلكٍ من العاطفة المطلقة التي لا ترتبط بمواقف أو وقائع خاصة من الحياة – فإن هذا التّباين الشّعوريّ ينقلب إلى « تباين بياني » ، إن صحّ التعبير ، قائمٍ على التخيّل وعلى إغراء العبارة البلاغية وما تتضمّن من تناقض ظاهريٍّ أو حقيقيٍّ . لذلك تكثُر « المقابلات » في أسلوب الرافعي ، وبخاصة حين يريد أن يصوِّر الجمال في صورة فذّة تستعصي على الإدراك التقليديِّ للجمال المألوف ؛ لأنها مركبة من ظاهر وباطن ، أو من جليل ودقيق أو غير ذلك من وجوه التّقابل :

« .. وهي كالملائكة قادرةٌ على التّشكُّل ، إلا أنها **تتشكل في الذّهن** . فبينا **تراها شخصاً جميلاً** ، إذا هي **فكرة جميلة** تتعطف عليها حواشي النفس ، وبذلك تستطيع أن تُشعرني أنها **فيّ وإن** كان **بيننا من الهجر** بُعْد المشرقين ، وأن تَنْزِل **بالسّلام** على قلبي وإن كانت هي نفسُها **الحرب** ، وأن تجعلني **أحبّها** وإن كان **بغضها** يأكل من جوانحي ... فإن ذلك الحبّ جعل فيّ عقلين لا عقلاً

واحداً ، أحدهما يُقرّني **في هذه الدنيا** والآخر **ينقلني إلى ثانية** ، دنيا **الناس جميعاً** ، ودنيا **امرأة واحدة** ، دنيا **السموات والأرض** ، **ودنيا قلبي** .. في العقل الأول **تنحلّ** كل المشكلات .. وفي الثاني **تتعقّد** كل البسائط .... ثم هي من وراء ذلك كلّه فيها روحُ بُلْبل يفرّ بأغانيه من ظلٍّ إلى ظل في رياض الجمال، وأما أنا ففيَّ روح نَسْر يتراقى بصفيره من جبل إلى جبل في قفار الحب . »

وفي شعره كثير من هذه المقابلات التقليدية التي تجري على سُنَّة الشعر العربيّ القديم .

وفي سبيل التأنّق في التعبير أو المبالغة في الإحساس والمعنى أو الزهو بالمعرفة اللغوية – يَعْدِل الرافعيُّ عن اللفظ الشائع المألوف فيزيد في بعض حروفه فيكسبه إيقاعاً جديداً ، قد يكون مقبولاً حيناً، وقد يبدو العدول فيه مقصوداً متكلّفاً في كثير مِن الأحيان. ومن نماذج زيادته في بنية الفعل قوله:

« .. وهي في لونها ذاتُ بياض أسمر مُحْمرّ وضيء **يغترق** العين حسناً .... فإذا كتبتْ – وقليلاً ما تكتب – **اختبطتْ** مثل البحر اللجيّ ففرّتْ إلى الساحل و رقصت هناك على رشاش الموج ... وهنا لمست كفّي **وانتهضتْ** وقد أشارت إلى زهرة حمراء كوجه المستحيي **فاقتطفتْها** و رجعت .. وخُيِّل إليّ أن نسيم الرَّوضة يرتمي عليها **ليتخطّف** تنهُّدها ، فجعلتُ **أتخطّف** هذا النسيم ... فلو صحّ الحب وأطاقوا أهله وصبروا على ما يحزّ في الصدور منه **وتوجّروا** على شربه (أي أساغوه) .... وليس من طبعي أن **أتصفّح** على الخَلْق (أي ألتمس عيوبهم) ... فأنت **تَنْتشط** الحزنَ من كل شيء وتأتيني به **لأتحزّن** وأتألم ... ولكني مع ذلك أبغضُها بُغْضَ المحرور لما **يتلدّع** من أشعة الشمس ... »

ومن اختياراته اللفظية الخاصة قوله :

« .. وإن السحابة التي تراها تدمع حيناً ، لا يبعد أن تراها قد تلفّفَت عليّ ثم اجتمعت **أرجاؤها وبَواسقها** ثم ارتـجّت ثم تفجّر (أي أعاليها (أسافلها) .. لو كانت تلك الفتاة شجرةً قد **تحاتّتْ** (أي تساقطت أوراقها من اليُبس) ، وكان النساء كلُّهنّ شجراً أخضر ، لأورقتْ عليك وأثمرت .. فإن عهدي بهذه النفس أنها مصمِّمة حكيمة إذا فَزِعت تفزَعُ إلى ضِرْس حديد (كناية عن العقل والرأي القويّ) .. وإنه لن يكون لها رأيٌ إلا إذا كان لها **بَدِيًّا** (أي قبل ذلك) .. وترى الناس **يستكفون** (أي يستديرون) حول هذه البيوت الخُضر ، ولكنك إذا **احتجرت** في عريش منها وكنت منفرداً أشعرَكَ أنّك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه .. وكنا نمشي وقد انتفخ النَّهار (أي قُبيل الظهر) وبدأت الهاجرة ترجّل معانيها الذّهبية ... وخرجنا **مُتَنَدِّيَيْن** ذات صباح في طريق تبعثرتْ فيه الشمس على النّدى وعلينا (أي مُتنزّهين غِبَّ النّدى) . »

« السحاب الأحمر »

فرغ الرافعيُّ من « رسائل الأحزان » في فبراير ١٩٢٤ ، وبعدها ببضعة أشهر صدر « السّحاب الأحمر » بعد أن كانت ثائرة المحبّ قد هدأت قليلاً ، وتحوّل الغضب الجامح إلى شيء من التّأمل فيما كان وما يمكن أن يجلبه إلى الفكر والوجدان من خواطرَ عامة ، تنطلق من التجربة الذّاتية لتتّسع فتشمل نظرات عامة في الحياة والمجتمع والنفس والأخلاق ، وما يعرض للأديب في حياته من مواقف ، أو يَلقى من شخصيات .

على أن ذكرى الحب القديم كانت لا تزال تتسلّل إلى صور الرافعي وآرائه فإذا هو يتحوّل –

دون أن يُدرك – إلى الحديث الخاص عن امرأة بعينها بعد أن كان يتحدث حديثاً عاماً عن صلة المرأة بالرجل وعن ألوانٍ من الحب تتسع فتشمل الود والصداقة . لكن القارئ لا يحس بتلك اللذعة الحادة التي كان يلقاها في « رسائل الأحزان » ، ولا بذلك الاستغراق الصّوفيّ في تجلّيات الحب في حال الصفاء والرضى ، أو الغضب الجامح عند القطيعة والبغض .

وكان على الرافعي – نتيجة هذا التحوّل – أن يجد لنفسه منهجاً جديداً للتعبير عن تلك النزعة الفكرية أو « الموضوعية » الجديدة ، لا يتخلى كلية عن طبيعة « رسائل الأحزان » ولكنه يسير في إطار يتّسع فيجمع بين ما هو ذاتيّ أو شخصيّ ، وبين ما يعبر عن نظرة عامة في أحوال النفس والحياة والمجتمع .

ولو قُدِّر للرافعي حينذاك أن يخلص تماماً من ذكرى فشله في حبّه المتخيَّل ، ومن إحساسه المثاليّ الحادّ في الحب والبغض ، ولو استطاع أن يحرِّر قلمه من نزعته البيانية الغالبة ، لكان قد تحوّل إلى كتابة القصة القصيرة فضَمَّنها – في نَسَق القصة ومقوّماتها – كثيراً من آرائه تلك .

الحقُّ أنه قد جنح في « السحاب الأحمر » إلى شيء يُشبه القصة القصيرة ؛ لكن « ذاتيته » المسيطرة لم تُطق صبراً على ما تقتضيه القصة من خفاء شخصية الكاتب وراء المواقف والشّخصيات ، فما يكاد الموقف عنده يبدأ بما يُبشّر بشيء من القصص حتى يتحوّل إلى معرِضٍ لخواطر الكاتب ، ويغدو الموقف أو الشخصية مجرَّد منطلق إلى الفكر والتأمُّل والتأنّق في البيان .

يرى الكاتب سجيناً في طريقه إلى الحبس والمحاكمة فيبدأ وصفه كما يفعل كاتب القصة القصيرة ، ويتحدث عن مظهره الجسديّ والنفسيّ ، ويصف أمه وزوجته وأولاده وما يشعرون به في تلك اللحظة الحزينة ، لكنه – بدل أن يعرض لما كان يمكن أن يعرض له كاتب قصةٍ من جريمة الرجل أو حياته مع أسرته ، أو تكوينه النفسيّ ، أو صلاته بالناس – ينصرف إلى الإفاضة في الحديث عن فلسفة الجريمة ، وطبيعة الأمومة والزوجيّة والبنوّة ، ويسوق آراء عن الحياة والموت والغيب والحقيقة .

يكتب عن « الرَّبيطة » ، أي الخليلة ، فلا يتّخذ من « سقوطها » أو من طبيعة علاقتها بخليلها مادة قصصية ، بل سرعان ما يدير بعد المقدمة القصيرة حواراً طويلاً بينه وبين المرأة حول الأخلاق والمتعة والحب والجمال ، يفلسف فيه الأمر بأسلوبه البيانيّ الخاص ، متّخذاً من المرأة « نِدّاً » فكريًّا له حتى يستخرج من الحوار المتكافئ كل ما يمكن أن يدور حول الفضيلة والرّذيلة .

وفي « الشيخ علي » يقدّم صورة لشخصية تصلح محوراً لقصة قصيرة ، لكنه لا يلبث أن يتخذها بوقاً يتحدث من خلاله عن آرائه في المرأة والحب .

ويتحدث عن الإمام محمد عبده حديثاً فيه كثير من الإكبار والإجلال كان يمكن أن يحقّق للصورة شيئاً من الطابع القصصيّ ؛ لو تطرّق إلى بعض مواقف من حياته أو لشخصيات من أصدقائه أو مُريديه ، لكنه يعدل عن ذلك إلى كلام طويل عن الحب والنِّساء وقلوب الرجال ، قائلاً : « هكذا توحي إليّ روح الشيخ ! »

ولعلّ أقرب ما قدّم من صورٍ في هذا الكتاب إلى طبيعة القصة القصيرة – صورةٌ أسماها « الصّغيران » عن طفلين افترقا عن أمّهما فضَلّا طريقهما إلى البيت . فقد رسم الرافعيُّ كثيراً

من النّماذج الإنسانية في مجلس طائفة من الأدباء في مقهاهم ، وعُني بأديب ذي شخصية فريدة من بينهم ، كان يسرف في الشراب فأجاد تصويره ، ثم روى كيف لقيَ الأدباءُ الطفلين بعد منصرفهم من المقهى ، و وصَف حال الطفلين وصفاً قصصياً فيه كثير من التوفيق ، لكنه – كعادته – اتّخذ منهما ذريعة للحديث عن الطفولة والأمومة والحب ، في أسلوب بيانيٍّ يكشف عن ذات الكاتب أكثر مما يتحدّث عن الموقف .

وينطلق الرافعيُّ في رسمه للشخصية أو الموقف من الرؤية الرومانسيّة التي تتأرجح بين الأضداد ، وترصد المواجهة بين الطّرفين النّقيضين ، في الحب والبغض ، والفضيلة والرذيلة ، والإخلاص والخيانة ، وغير ذلك من المواجهات ؛ فيصبح كلُّ طرف من الأطراف مثلاً كاملاً لصفته لا يتّسم بسمات شخصية مميزة كما تتسم الشّخصية القصصية ؛ فإذا كان رجلاً قويًّا جاء « نموذجاً » مكتملاً للقوة ، وإذا كانت أمًّا أو زوجاً أو ولداً كانت مثالاً للحب أو الإخلاص أو البرّ .

ويغري الرافعيَّ بهذه النزعة المثالية أنها تتيح له التفنّن في رسم « المثل الأعلى » بأسلوب يجري على نَسَق واحد من الألفاظ المنتقاة ، والعبارات المحكمة ، والإيقاع المطّرد ، دون أن يُضطر إلى التّخلّي عن نزعته البيانيّة المفضّلة ؛ لكي يزاوج بين الأسلوب وطبيعة الموقف ومستوى الشخصية الوجدانيّ والفكريّ. وسواء أ كان الوصف جسديًّا أم نفسيًّا فإنه دائماً يجيء على هذا النّحو من البيان الرّصين المتماثل البناء والإيقاع ، تضيف فيه العبارة جديداً إلى الصورة المثالية ، أو تزيدها توكيداً على الأقلّ :

« .. وظهر لي وجه الشّيخ ، وما أدراك ما الشّيخ ! ثم ما أدراك ما هو.! رجل كان في تركيب العالم الإسلاميّ أشبه بالجبهة من جسم المؤمن ، هي مَجْلى نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعين ؛ ولكنها مع ذلك أوّل ما يسجد لله من هذا الجسم كلّه !

« خُلِق فصيحاً مُبين اللهجة ؛ لأن لسانه أُعِدَّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة ، فكان لسانه – ولا غَرْوَ – معجزةً في الألسنة . وكان له بيان ينبَثُّ من طبعه المصقول كالشعاع الذي تُوامضك به المرآة إذا انقدحت جمرةُ الفَلَك عليها (يريد الشمس) .. وكان له عقل لو وُزِن في رجحانه لعُدَّ بين العقول من موازين التاريخ ، وقلْبٌ – إن يكن في جَنْبيه كالقلوب التي وُضعت على مُنْحدر المعاني الأرضية – فإنه كان – دون القلوب – على مهبط السّموات ... رجلٌ لم يُخلق من قبل زمنه ؛ لأنّ الأقدار المصرِّفة ذخرته للقرن الرابعَ عشرَ ، لجعله وأصحابه النهضة الثالثة في الإسلام ، وكُتِب له أن يكون الكنز الثمين الذي يُفجأ العالمُ بانكشافه ليعود القديم الذي كاد يُنْسَى فيتمكّن في الأرض بأسلوب جديد . وما يدريك ، لعلّ هذا الحكيم الفَذّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون « التّمثال العقليّ » المشرِف على الأجيال ، يفصل في تاريخ الإسلام بين ثلاثةَ عشرَ قرناً مضت ، وثلاثةَ عشرَ قرناً تأتي ... »

وشخصياتُ الرافعيِّ تبدو في المطلق من المكان والزمان ؛ ليتحدّث حالها بالعبرة ، أو ينطق لسانها بالحكمة المطلقة دون قيدٍ من لحظة نفسية ، أو ارتباط بأوضاع اجتماعية ، وذلك حين تصلح مثاراً للتأمل المجرد في ذهن الكاتب و وجدانه . وهو – في الأحوال النادرة التي ترتبط فيها الشخصية بشيء من تلك اللحظات أو الأوضاع – لا يتلبَّث كثيراً عندها ليجعل لشخصياته وجوداً أعمّ من وجودها الذاتيّ ، إلا حين يتّصل الموقف ببعض الأفكار والمشاعر التي تمتّ بسبب أو بآخر إلى الحب

بصوره المختلفة . وهكذا يبدو « السَّجين » تمثيلاً لمعنًى مجرّدٍ يقف بين ماضيه في الجريمة ومستقبله في السجن لحظةً عابرة لا تدوم إلا بمقدار ما تقدح في عقل الكاتب و وجدانه من أفكار وأحاسيس ، وهكذا تبدو أمه وزوجه ، ويبدو بَنُوه .

وفي لوحة « الصغيران » يتجاوز الكاتب طبيعة المكان ومَنْ فيه من الأدباء فلا يزيد على قوله: « جلستُ ليلة مع صحبة من الأدباء في نَدِيٍّ على عنق شارع بالقاهرة . » فإذا بدا له أن يربط المكان بلحظة من الزمان اختار لحظة « رومانسية » تصلح لما يُؤْثره من تعبير بيانيٍّ رومانسيٍّ : « وكنّا في الوقت الذي يُقْبل فيه الليل على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلةٍ واحدة (يريد ساعة واحدة) تلك الساعة التي هي أوّل عهد الليل بالتنفُّس تحت الأجنحة السماوية ، تنزل لتختم على أعمال الأرض في يومها الغابر، ثم تأخذ في تهيئة الجمال السماويّ البديع الذي سيُخلق منه الفجر ... »

وهو يلتقط من بين الحاضرين جميعاً شخصيةً فريدة تصلح ليدير حولها بعض آرائه في النفس الإنسانية ، وفي سلوك بعض نماذجها ، بأسلوبه الذي ينقل المشهد الخارجيّ إلى إحساس الكاتب الباطنيّ و رصيده من ذخائر البيان ؛ فيعيد تصويره على نحوٍ فيه ما يشتهي من العبرة والتأمل والتأنّق البيانيّ :

« وكان إلى جانبي أديب سكّير نُسَميه «« دمياط الحانة »» لأن فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه كما ينصبّ فرع النيل عند دمياط . وكان في تلك الساعة قد حَطَّ عليه الساقي حتى انتهى في سماواته الوهمية إلى الأفق الزجاجيّ ، فعاد كلامه رنيناً وطنطنة ، لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده .. فلمّا دهته الداهية من كرْب الخمر ، تخطّى حدّ إنسانيّته إلى البهيميّة السائمة ، وما كاد يرتفع الستار الإنسانيُّ عن مسرح أخلاقه ؛ حتى رأيتني في رواية عجيبة يُمثّلها أربعةً اجتمعت أرواحها في شخص واحد : سفيه ، ومعتوه ، وأحمق ، وأديب ! »

ويمضي الكاتب في تأمُّله أحوالَ هذا « النموذج » وأمثاله حتى ينتهي إلى الخروج هو وأصحابه إلى الطريق فيشهدوا الطفلين الضّالّيْن ، ولا يكون المقهى إلا مجرّد منطلق إلى هذا المشهد المحمَّل - بطبيعته - بكثير من المعاني والأحاسيس التي تتّصل بسبب قويٍّ بمعانٍ من الحب أوسع من تلك التي تكون بين محبّيْن اثنين ، والتي كان الرافعيُّ في هذا الكتاب يحاول أن يخرج من أسرها فيفلح أحياناً ، ويرتدّ إليها - دون أن يدري - في بعض الأحيان .

وحين يخلص الرافعي من أسر الحب الذي يتخذ صورة العشق ، تَرْحُب رؤيته الإنسانية ، ويتّسع مفهوم الجمال عنده ؛ فلا يعود مجرّد مظهر جسديٍّ ، بل يصبح تجسيماً لمشاعرَ وجدانية تخلع على الناس والأشياء جمالاً لا يخضع لمقاييس تقليديةٍ ثابتةٍ . وينسى الرافعيُّ إلى حينٍ ضغينتَهُ التي يحملها للمرأة المعشوقة فتغدو المرأة عنده زوجةً وفيّة صالحة ، أو أمًّا حانية محبّة ، ويصبح إحساس الطفل بجمال أمه تعبيراً مطلقاً عن تلك الفِطرة من البنوّة والأمومة مهما يكن حظّ الأم من الجمال ضئيلاً ، أو تبلغ من ذلك حدّ الدّمامة :

« .. أ فرأيتَ وَلَد الشّوهاء يَعرف في كل ما طلعت عليه الشمس أجملَ من وجه أمّه ، أو يرى طائلاً في وجه سواها ، أو يحنّ إلى غير طلعتها ، أو يسكن إلى صدرٍ غير صدرها ؟ حتى كأنّ الله لم يخلق وجه حبيب لقبلات مُحبّهِ إلا وجهها هي لقبلاته ! إنّ مَنْ لم يرَ أمًّا أشفَى طفلُها على الموت

في حادثة أخذته بغتةً ثم نهض سليماً معافى ، أو ضلّ عنها مُدّة حتى يئست منه ثم اهتدت إليه ، لا يكون قد رأى شيئاً من سعادة الإنسانية العالية النّادرة التي لا تكون إلا في الأمهات خاصة ، ولا يشهدها الناس إلا في ساعة حرجة تلمس فيها يدُ الله قلب الأم ... ! »

وحين يخلص الرافعيُّ من ذكرى تجربته الشّخصية في الحب ، يرى للحب وجوهاً كثيرة : بعضُها ماديٌّ وبعضها معنويٌّ ، لكنها جميعاً تسمو بالإنسان ، وتُدنيه من عالم الروح والإيمان : « ولا سموَّ للنفس إلا بنوع من الحب مما يشتعل إلى ما يتنسّم ، من حبّ نفسك في حبيبٍ تهواه ، إلى حب دمك في قريب تعزّه ، إلى حب الإنسانية في صديق تبرّه ، إلى حب الفضيلة في إنسان رأيتَه إنساناً فأجْلَلتَه وأكبرته .. فإذا أنت أصبْتَ في الخليقة مَنْ أغفل الله قلبَه عن تلك الأربعة ؛ فلا حبّ ولا صلة ، فذلك هو الذي لا نفس له مع نفوس الناس كأنه سبع من السّباع الضّارية ... الحبُّ بعضُ الإيمان ، وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قُوى النفس ، فإن الطريق إلى الحب من قوّة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلاً ، والخطوةُ التي تقطع مسافةً قصيرة إلى القلب تقطع مسافة طويلة إلى السماء ! »

على أن خَلاص الرافعيّ من تجربة « العشق » يبدو خلاصاً مؤقّتاً ، ولا تزال تعاوده خواطره حول المرأة « المحبوبة والمكروهة » حتى يَنْقُض تلك الصورة المثالية الرحبة للحب بألوانه الإنسانية العديدة ، فإذا هو ينظر في طبيعة المرأة وأصل تكوينها ، وإذا بأسلوبه الذي كان مُرْسلاً يسيراً إلى حدٍّ كبير يعود إلى شيء من « تركيبه » المعهود في المعنى والبناء :

« تُرى ما هذا الشبه بين المرأة وبين السماء ؟ أ كانت المرأة في أصل الخِلْقة مادّة سماءٍ بدأت تتخلّق في الغيب فحبسها الله في ضلع الرجل عقاباً لها ، ثم عاقبها ثانية فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجنه ... ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرّتين ؛ لتتعلّم هي بطبعها كيف تتجنّى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعَدُّ ؟ أ يمكن أن يكون هذا الجمال الفتّان في المرأة الجميلة خُلاصة سماءٍ من السّماوات ، خُلقت عَيْنَيْنِ وخدّين وشفتَين ، تضحك أحياناً بالنور ، وتلتهب أحياناً بالبَرْق ، وتنفجر أحياناً بالرّعد ؟ ؟ »

ويختم الرافعيُّ « السحاب الأحمر » بما يبدو أنه خلاصة رأيه في الحب ، وإن كان في الحقيقة مظهراً لتناقض الخواطر لديه بحسب نظرته إلى الحب تجربةً عاطفيّةً شخصيّة ، ونظرته إليه شعوراً إنسانيًا عامًّا يتخذ أشكالاً عديدة من الصّلات النّفسية والاجتماعية والأخلاقية . وهو رأي يذكّر بما كان يطبع خواطره وأسلوبه في « رسائل الأحزان » من حدّة ومبالغة :

« إن لِنارِ الآخرة سبعةَ أبواب ، وكأنَّ كل باب منها أُلقي جمرةً على الأرض : فبابٌ أَلقى الوهم ، وآخر قذف الخوف ، وثالث رمى بالطمع ، والرابع بالحرص ، والخامس بالألم ، والسّادس بالبغض . أما السّابع فرمى بالشرّ الذي يجمع هذه الستّة كلّها ، وهو الحبّ ! »

والحبّ الذي يقسو عليه الرافعيُّ كل هذه القسوة ، كما قدّسه من قبل فجعله جانباً من الإيمان، يبدو من وجهة نظر الرجل وحده ، فالرجل هو الذي يحب وهو الذي يبغض ، وهو الذي يتقلّب في عالم المرأة بين الرضى والغضب ، وبين السّعادة والشّقاء ، وهو الذي « يُفلسف » تلك العاطفة ويلوّنها بألوانٍ من وجدانه الخاصّ ، ولا يكاد يكون للمرأة وجود لديه إلا من حيث هي « إثارة »

لخواطره وعواطفه ، وخياله .. و وهمه في كثير من الأحيان ! وحين تصبح المرأة « موضوعاً » للدراسة والملاحظة على هذا النحو ، وتختفي مشاركتها في التجربة الوجدانية ، تختلط صورتها عند الرجل بكثير من « المأثورات » التقليدية عنها في مجتمعاتنا . وينتقي الرجل من تلك المأثورات ما يناسب موقفه العاطفيّ فيبدو « تعميماً » على جانب كبير من الظلم للمرأة ، أو الإدراك غير الصحيح لطبيعتها و وضعها في المجتمع الإنسانيّ .

وهكذا تتردّد في الكتاب أمثالُ هذه الآراء والأحكام :

« قِيل لحيَّةٍ سامَّة : أ كان يسرُّك لو خُلقتِ امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة ، غير أن سُمّي في النّاب وسمَّها في لسانها ! .. يُخيَّل إليّ أن عَقْل بعض النساء مثلُ وجوههنّ المزوَّرة : تحته ما تحته ، وليس عليه إلا « غبار » من العقل ... شرُّ النساء عندك وعندي هي التي تجعلك تنتبه إلى ما في النساء من شرّ .. يا هذه ، لا أدري ما تقولين ، ولكنّ الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتّسختْ — كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون .. وهيهات ! أيُّها العاشق ، أ ما صَدَمتك بهيمة من البهائم أو رمَحتك (أي رفستك) أو جمحتْ بك ، ولم يتعاظمك من أمرها شيء في الوهم ولا في الحقيقة ؟ ألا ويْحَك ! ألْبِسْها جِلْدَها وحوافرها (أي تخيل المعشوقة على هذا النحو الحيوانيّ من الأذى) ولا تُمثّلها في مخيلتك إلا وجهاً جميلاً على جسمِ حيوان ؛ فإنك إن تفعل ذلك وتأخذ نفسك به — تطمسْ عليها في محبتك طمساً ، ولا تجد لها في قلبك إلا النّفرة والاشمئزاز ، وتُعجز فيها الشيطان لا يدري من أين يأتيك ، ولا كيف يتدسَّس بها إلى دواهيك ، ما دام لها عندك الجلدُ والحافر ! ... كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تثور يوماً فلا تدلُّ ثورتها على شيء ، إلا كما يدلّ المستنقع على أن الوحل في قاعه . فأغضِبِ المرأة تعرفها ! »

ويلتمس الرافعيُّ للرجل في إثمه المعاذير المألوفة ويُلقي المسئولية بكاملها على المرأة في سقوطها ، فيقول في حواره مع من أسماها « الرُّبيطة » أي الخليلة :

« قلتُ : لقد فَجَر من الرجال مَنْ لا تحصيهم الملايين ، فهل علمت أن فاجراً منهم حمل تسعة أشهرٍ و وَضع ؟ أ لا تَرَيْن أن الطبيعة جعلت لكلٍّ حُكماً ، وهيأت لكلٍّ موضعاً ؟ »

ولَمّا كان الموقف لا يعتمد على حدث نامٍ ؛ بل يدور — في الأغلب — حول ما يمكن أن يوحيه إلى من يشاهده أو يطّلع عليه من أفكار ومشاعر ، فإن الرافعيَّ يدور حول الفكرة أو الشعور الواحد مؤكداً هذا الإيحاء بِجُمل متتابعة ، متشابهة البناء ، قريبة الدّلالة ، كانت مألوفةً حينذاك في النثر الفنّي بوجه عام وإن تميَّزت ببعض الخصائص من كاتب إلى آخر . ولا شك في أن الرغبة في تأكيد الإحساس وتجسيمه هي — أيضاً — سمة غالبة على النثر ذي الطبيعة الوجدانية ، « أو الرومانسية » ، تنطق بما في وِجْدان الأديب من شعور مرهف حادّ .

ومن نماذج هذا التأكيد البيانيّ قولُ الرافعيّ في حديثه عن وَلَدي « السّجين » : « صورةٌ بشعة على تلوينها ، إذ لا سواد فيها إلا من الخطوط ، ولا بياض إلا من الدموع ، ولا صُفرة إلا من الوجوه ، ولا حُمرة إلا من لهب القلب .. » ومن ذلك قوله عن « المنافق » مضيفاً إلى اتّساق أبنية الجُمل وتقارب معانيها شيئاً من السجع :

« لونُه في الحوادث ألوان ، ودينُه في المنافع أديان ، ونفسُه من الناس حشرةٌ في إنسان ، وإذا عرفته

نظرتَ إليه كما ينظر المهموم لما جرَّ عليه من الهَمّ ، وإذا جهلتَه كان كالدَّواء المغشوش ذهب منه صوابُ العلاج و وقع فيه خطأ السُّمّ .. »

ومنه قوله في « الرَّبيطة » :

« ما لكم تُنزلون أنفسَكم منزلة الطفل البِكر من أهله : ليس له إلا حظوظه وشهواته ، مسوِّغاً كلَّ ما يقترحه عليهم لأنه هو كان اقتراحَهم على الله ، محمولاً على قلوبهم لأنه بعض قلوبهم ، يفسد المتاع ، ويحطم الآنية ، وتنزو به النعمة نزوتها فتجعل نصف عقله جنوناً ، ونصف أدبه حمقاً ، ونصف المنفعة به ضرراً ، ونصف ظَرْفه عَنَتاً ، ونصف لِينه مشقّة .. »

ومنه حديثُه عن امرأةِ السجين وقد جمع قلبُها بين عذابها وعذاب زوجها ، وعذاب ولدَيْه الصغيرين. والجملة في هذا الحديث تقوم على الإضافة المتبوعة باسم مجرور يوضح صفته اسمٌ موصول ، ثم بعض « اللواحق » :

« .. فهي تجمع على قلبها عذاب ثلاثة قلوب ، وتتألم بنفسها الواحدة **أَلَمَ الرِّثاء لزوجها الذي نزلت به** العقوبة في جسمه وروحه ، **وأَلَمَ الإشفاق على مجدها الذي نُصِب** على أعيُن الشّامتين في موضع الذلّة ، **وأَلَمَ الرحمة لطفلها الذي بلغ** سنّ الهمّ وهو لا يزال في الثّدي ، **وأَلَمَ اللوعة لحياتها التي لم تعد** الأيام تناجيها بغير لغة الدمع ، **وأَلَمَ الأسى على شبابها الذي تساقطتْ** آماله كما تحط الشجرة الخضراء أوراقها لتجفّ ! »

ومن هذه « التراكيب » الأسلوبية المتوازية على نَسقٍ مكرر قولُه مشيراً إلى العائدين من أوربا ، جامعاً بين التّماثُل والسَّجع :

« .. ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريثَ بدلاً من هذه المواريث ، وجئتم بالسَّماد بدلاً من هذا الوساد ، وبالبهائم للسَّواني ، لا بالحلائل والغواني ، وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت .. وليتكم، إذ كنتم رجالَنا ، لم تغلبكم نساؤهم ، وإذ كنتم سيوفَنا ، لم تأسركم دماؤهم .. »

وقد تتضمن الجملُ المتشابهة بعضَ التشبيهات التقليدية اليسيرة التي تقوم على عناصر رومانسية مألوفة في الطبيعة أو الوقت :

« .. أما صاحبتُه فامرأة فرنسية ، جميلةُ الوجه **في طلعة الصبح** ، شابة الجسم **شباب الضُّحى** ، ملتهبةُ الأنوثة **كشعاع الظهيرة** ، رقيقةُ الطبع **رقة الأصيل** .. »

وكان التَّرادف سمةً مميزة للنَّثر الفنّيّ في ذلك العصر ، يتخذه الكاتب للتأكيد ولتحقيق ضَرْب خاصٍّ من الإيقاع ، وللإدلال بمعرفته الواسعة بمفردات اللغة وإيحاءاتها المتقاربة . وكلما دار القول حول شعورٍ أو فكرة مجردةٍ لا تتلبّس بوقائعَ خاصة – أغنتِ الألفاظُ عن الأحداث ، وقام الترادف مقام التتابع ، كما في قوله عن الفتى العائد من باريس مع رفيقته الفرنسية :

« .. وأصبح يحسُّ أن كل شيء في هذا المجتمع الشرقي سُلِّط على نفسه **الرقيقة النحيلة بالغلظة والجفاء والعَنَت والأذى** » ... « قلتُ فعليكم **غضبُ** القاعدة **ومَقْتها وسخطتها** .. » ... « وقولهم : إن ذلك **سياسة ومخالقة وظَرْف وأدب** من الذوق .. »

ومن سمات الرّصد الرومانسيّ لأحوال النفس والمجتمع والحياة الالتفاتُ إلى كلّ ما يبدو للراصد من مفارقات أو تضادّ أو تقابُل ، لا يقوم بينها شيء من « التّداخل » ولا يتوسّط فيها الأسودَ والأبيضَ شيءٌ من الظلال .

ويعبّر الرافعيُّ عن هذا الإحساس بالأضداد في بعض عباراته المحكمة التي يسوقها كالأمثال في ثنايا بعض مقالاته ، فيقول :

« كلُّ ما يخطر ببالك فقدِّر معه ضدّه ، إذا كنت تفكر في الحب والبغض ! »

وطبيعيٌّ أن تقوم صورة « المنافق » على الخلاف بين الظاهر والباطن ، وأن يرسم الرافعيُّ ملامح هذه الصورة بخطوط التّقابل والتّضاد ، لكنه يظل تقابُلاً « بيانيًا » يكتفي بالتّجريد دون ارتباط بشخصية أو بواقعة أو بموقف . ويظل للجملة عنده ذلك التركيب الأسلوبيّ الخاص :

« ... وهو من الذين يمكرون **السيئات** لينتهوا منها إلى **حسناتهم** ، ويقاربون **الذّم** ليخلصوا منه إلى **الحمْد** ، **ويسفلون ليرتفعوا** ، كما يبتدئ المقلاع دورته من **الأسفل** ليرمي بحجره رميةً **عالية** . »

على أن المفارقة لا تأتي في أسلوب الرافعيِّ من الطبيعة الواضحة للشخصية على هذا النحو فحسب ؛ لكنها تجيء – كثيراً – تعبيراً عن رأي خاصّ متعمّق عند الكاتب في النفس الإنسانية من منطق النّظرة المثالية في الأخلاق والفضائل والرذائل . وهكذا يتحدّث الرافعي عن التحوُّل من النقيض إلى النقيض في النفس حين تعلو على « شهواتها الأرضيّة وترفعها فوق الطبيعة » :

« .. فهناك لا تجد الأشياء ؛ بل معانيها وأسرارها ، ولا الحوادث ؛ بل أسبابها وأقدارها ، ولا نيران النفس ؛ بل أضواءها وأنوارها ؛ فترجع من ثَمّ وفيك الناموس الذي يُنْبت الخضرة من العود المغْبَرّ ، ويُخرج النار من الشجر المخضَرّ ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكان من البَرّ .. »

ومما يجيء على سبيل « المثل السائر » من المفارقات قولُه :

« مِنَ المرأة حلوٌ لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يُشبع منه بلا أكل ! »

وكما يستمدُّ الشّاعر الرومانسيُّ مفرداتِ صورته ومجازاتها من عناصرَ عُرفت بِدَلالاتها الجماليّة في بعض مظاهر الطبيعة وأوقاتها – يعتمد الرافعيُّ على طائفة من الألفاظ ذات الإيحاءات الجمالية والعاطفية . فيسوقها متتابعة مرسَلة أحيانًا ، أو في صورةِ تشبيهات ومجازات « بسيطة » في بعض الأحيان :

« رأيت وجه فتاة عرفتُها قديماً في ربوة من لبنان ، ينتهي الوصف إلى جمالها ثم يقف ! كنتُ أرى الشمس كأنما تجري في شعرها ذهباً ، وتتوقد في خدِّها ياقوتاً ، وتسطع في ثغرها لؤلؤة . وكنتُ أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم ، فإذا تأمّلتُ شفتيها رأيتُ ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنّته ! وكانت لها حيناً خِفّة العصفور ، وحيناً كبرياء الطاووس ، ودائماً وداعة الحمامة المستأنسة ، وكانت روحها عَطِرة تنفح نفح المسك .. وكنتُ إذا رأيتها بجملة النظر من بعيد ، صوّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه موتةً ثم يحيا ، فإذا جالستُها رأيتُها في التفصيل شيئاً بعد شيء بعد شيء ، كما أنظر نجماً بعد نجم بعد نجم ، كلُّها شعاع ، وكلُّها نور ، وكلُّها حُسن ! »

ومن ذلك أيضاً قولُه متحدِّثًا عن ألوانٍ مختلفة من النساء :

« .. أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتّان عاطلة من كل حِلْية ، ومع ذلك ترفُّ على حسنها روحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ ممّا عليها من البريق والشعاع ، أو المطويَّة الممشوقة المسترسلة كأنها في قوامها و وجهها غصنُ الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللعوب المزّاحة ، كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطلَّ في ليلة من ليالي الربيع يُداعب أوراق الورد النائمة .. »

وقد ينطلق – في رصده للمفارقات وإحساسه الحادّ بها – من تلك الصور الطبيعية ذات الإيحاء الجماليّ الشائع إلى صورةٍ مقابلة تنأى عن مجالي الجمال الطبيعيّ لتلتصق بِقُبح « الطبيعة » البهيميَّة:

« .. آهٍ ! لقد كنت كالغدير الصافي ، لا يعرف ماؤه إلا وجه السماء ، وضوء القَمَرَيْن ، وأخيلة النجوم ، وظلالَ الشّجر والنبات ، فأصبحت كالماء الذي كثرتْ واردَتُه من البهائم فهي تخبِطه بأرجلها وتضيف إلى وُحولِهِ وحولَها ، ولا تستعذِبُه إلا أن تُغشي أعلاه بطبقة من أسفله ، وكلما تراءت صورُها في كدورة الماء حسبتْ ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية .. »

ويظل الرافعيُّ حريصاً في « السحاب الأحمر » حرْصَه في « رسائل الأحزان » على العدول عن اللفظ في بِنْيته « البسيطة » المألوفة إلى لفظ مؤكدٍ للفكرة أو الإحساس ؛ بزيادة بعض الحروف التي توحي بالتأصل أو الحدة أو الامتداد . وهي ألفاظ تبدو في كثير من الأحيان على جانب غير قليل من « الحَذْلقة » اللغوية ، ومنها : « فمن هذه السماء **توكَّفْتُ** هذا السحاب (أي استمطرته) ، والنسوة **يهتلِكْن** في جَرْيهن ، وكلما علت الحافلة علا صراخهنّ ليبلغ السجين ، فهو يتدَسَّس إليها مع ملائكتها أو شياطينها ، فتركت له روحه **تتطعّم** الحياة غير مستقرّة في شيء كما **يتطعّم** النسيم رائحته من ورق الزهر فهو **يتسحّب** عليه ولا يستقرّ فيه ، فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمر ولكنه ينقع غُلّة أحزانه بجرعة من السرور ، ولا **يتوحّل** في السُّكر ، ولكنه يستمطر على خموله سحابة نشاط ... ويخيّل إليّ أني كنت ماضياً فيما أكتبه كما **تتعكّس** الأفعى في مشيتها ؛ إذ يندفع نصفها ليجرّ النصف الآخر ... وأشدُّ ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة اجتماعُ شهواتها في صوتها النّديّ **المستطرب المتحزّن** ... وبين ظَهْرَيْ ذلك أراني ساعةً **مُمْتَلِخ** القلب ، وساعةً مدلَّه العقل ... وجاءوا به والناس **متقصّفون** عليه من ازدحامهم ، ينثني بعضهم على بعض لينظروا إلى الرجل الكامل . »

« أوراق الورد »

انقضت سبعُ سنوات منذ أن فرغ الرافعيُّ من « السّحاب الأحمر » هدأت خلالها ثائرتُه ونقمته على المرأة وتوزُّعه الجامح بين الحب والبغض . وكان « السحاب الأحمر » مرحلة انتقال فنّيٍّ ونفسيٍّ، راضَ فيها الكاتب نفسه على شيء من الاعتدال العاطفيّ ، وتحوّل من رَصْد لحظات الحب المطلق إلى الالتفات إلى بعض لحظاتٍ من الحياة وشخصيات من المجتمع ، وإلى التّعبير عن أفكارٍ ومشاعرَ تدور حول تلك اللحظات والشخصيات . وأصبح أسلوبه – بعد أن أصبح للتجربة بعضُ ارتباط بالواقع – أكثرَ « يُسرًا » وأقدرَ على التعبير المبين عن خواطرَ يمتزج فيها الفكرُ بالشعور ، وإن لم يَخلُ تماماً من سمات أسلوبه السّابق في « رسائل الأحزان » .

وفي عام ١٩٣١ كتب « أوراق الورد » وقد غدت تجربةُ حبِّه الواهم ذكرى تُعاوده من بعيد ، دون أن يكون لها لذع التّجربة الحيَّة أو مرارة الفشل في الأمس القريب . لكن الرافعيّ – وكانت

الرومانسية حينذاك ، شعراً ونثراً ، في أوج ازدهارها – لم يخلص من انشغاله بأمر الحب والمحبّين . وكان النثر العربيُّ حينذاك يبتدع لنفسه طرائق مختلفة كلها ذات طابع رومانسيّ لكنها تتباين من كاتب إلى كاتب ، ومن فنٍّ إلى فنٍّ ، في المقال والقصة والرواية . ولم يكن الرافعيُّ صاحب موهبة في القصة والرواية ، فكان المقال سبيلَه المفضَّلَ إلى التّعبير عن نظراته في أحوال النفس وبعض شئون الحياة والمجتمع .

وقد تطور النثر في القصة والرّواية – في ذلك الإطار الرومانسيّ العام – فتحرر من كثير من النزعة البيانيَّة الغالبة في المقال ؛ ليصوِّر ألواناً من المواقف ونماذجَ من الشّخصيات ، ويروي أحداثاً ومواقفَ تفرض على الكاتب أسلوباً أكثر مرونة وأقدر على التّعبير عن عواطفَ ، إن تكن رومانسية ، فإنها لم تكن مجرَّدة أو مطلقة ؛ بل كانت شديدة الاتّصال بأوضاع اجتماعية ، وتقاليد خلقية ، ونماذجَ بشرية مختلفة من الرجال والنّساء ، تتباين مشاعرها ومواقفها من تلك الأوضاع والتّقاليد .

أما المقال فظلَّ يتأرجح عند كتّاب ذلك العصر بين مقالٍ يجمع إلى الفن البيانيِّ التفاتاً ملحوظاً إلى بعض مشاهد الحياة و وقائعها وشخصياتها فيقترب أحياناً من طبيعة القصة ؛ ومقالٍ ينطلق من صورة ذاتية للحياة والمجتمع تترسّب في وجدان الكاتب من خبرات ومشاهدات عامة ، تنصهر فتفقد وجودها الواقعيَّ ، ثم تنبثق في وجود خياليٍّ متأجّج ؛ وأسلوب يغلب عليه الحذق البيانيُّ والسيطرةُ على اللغة وأساليبها ، والتفنُّنُ في توليد المعاني وبناء العبارات والجمل ، والجنوحُ إلى صور مختارة من المجاز .

وكان مصطفى لطفي المنفلوطي من أبرز من يجمعون في نثرهم بين طبيعة المقال والقصة ، وكان الرافعيُّ في الصدارة بين كتاب « المقال الفنّيّ » . وهو في أكثرَ من موضع من الكتاب يعبِّر عن اتّخاذه الحب – كما يتخذه كثير من الرومانسيين – مجرد وسيلة إلى الفن :

« وما أريد من الحب إلا الفنّ ... والحبُّ الصحيح ، إذا سلمت فيه دواعي الصّدر واعتدلت به نوازي الكبد ، وتوثّق فيه عقد النيّة ، واستوى غيبُه ومشهدُه – كان أشبهَ بقوة سماويَّة تعملُ عملها لتبدع من الإنسانية شعراً أسمى من حقائقها ، كما كانت الإنسانية نفسُها قوةً عملت أعمالها لِتُبدع من حقائِق الطبيعة أخيلةً أجمل من مادتها ... إن جمالكِ أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنّين ، وإلا فقد شركتْكِ الحسان فيه ، لكنه – بكلمة واحدة – « فنٌّ » قلبي أنا ! فكأنَّ الجمالَ في حقيقته وسيلةٌ طبيعيَّة لخداع صورة بشرية بصورةٍ بشرية مثلها ، ومتى كان كذلك فلا حقيقة له في الوجود ، ولم يعد صورة في الطبيعة ، بل عملاً أداتُه الصورة ... إن البلاغة التي كتبتُ بها رسائلي من قبل ، وما احتَلْتُ لها به ، وما صوَّرتُ من فنونها – هي بعينها التي تنتهي في هذه الرسالة إلى أن جمال المرأة الجميلة ليس في ذات نفسه إلا أسلوباً من الخداع ، كالذي يكون في تزويق الكلام ، وتمويه الحقيقة ببلاغة التركيب ... »

والكتاب « رسائل » متخيَّلة تدور كل رسالة حول موضوع يختاره الكاتب أو تختاره له أحياناً صاحبةٌ يُفترض أن تكتب له ويكتب لها . وأغلب الظن أن الرافعيَّ كان هو « المرسِل والمرسَل إليه » معاً ، وأنه ابتدع هذه الطريقة ليستعيض بها عمّا يبدأ به كاتب القصة من رَصْدٍ لموقف أو لحظة أو شخصية ، وليجد منطلقاً للكتابة فيما يختار من موضوع عاطفيٍّ أو فكريٍّ . وعن هذا الرأي يقول الأستاذ محمد سعيد العريان : « إن في « أوراق الورد » طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هي الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ويتحدّث بها إلى نفسه ، أو

يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، ويترسّل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام ، إلا رسالتين أو ثلاثاً ممّا في « أوراق الورد » .. فلمّا أتمّ تأليفها ، وعقد عقدتها بعث بها إليها في كتاب مطبوع ، بعد سبع سنين من تاريخ الفراق ! »

ومع أن الأستاذ العريان يربط بين الرسائل وتجربتَيْ حبٍّ عند الرافعيّ : إحداهما مع فتاة من لبنان أوحت إليه من قبل « حديث القمر » ، والثانية مع الأديبة اللبنانية المعروفة – فإنه يعود فيؤكد أن الرافعيّ كان حينذاك – بعد مضيّ سبع سنينَ – يتّخذ من الحب « إلهاماً » لرسائله وشعره :

« لقد مضت سبعُ سنينَ منذ فارق صاحبته « فلانة » ، كان قلبه في أثنائها خالصاً لها ؛ ولكنّ فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا وهناك ، فلما اجتمع له ما أراد ضمّ أوراق الورد إلى أشواكه وأخرجها كتاباً ، للفنّ أوّلاً ثم لها من بَعْد ... هو كتابٌ يصوّر نفسه وخواطره في الحب ، ثم يصوّر فنّه وبيانه في لغة الحب ، ثم لا يصوّر شيئاً من بعدُ ، ممّا كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته .»[1]

وحين يكون الفنُّ غاية الكاتب الأولى من الحب ، وحين يجيء الفن في قالب المقال الرومانسيّ، تغلب العاطفيّة المسرفة – بالضّرورة – وتبدو صورة الحب على نحو مثاليٍّ ، فيه كثيرٌ من التّقديس الذي كان مألوفاً عند كثير من الكتّاب والشعراء في ذلك العصر ؛ إذ كانوا يخلعون عليه أشواقهم الغائمة إلى حياة خيالية روحية بعيدةٍ عن حقائق الواقع وماديّاته . وبدون هذا الإدراك الذي يتجاوز الصّلة بين المحب والمحبوب إلى مشاعرَ إنسانيةٍ أعمّ تتّخذ من الحب منطلقاً لها – تبدو خواطر الرافعيّ وغيره من كتّاب ذلك العصر وشعرائه غريبةً على قارئ عصرنا ، بعد أن أصبح الحبُّ مرتبطاً بكثير من القضايا الواقعية في الحياة والمجتمع ، وبعد أن لم يَعُد مقصوراً على إحساس الرجل وحده دون مشاركة من المرأة ، وبعد أن تغيرتْ أساليب التّعبير البيانيّ فأصبحت تجنح إلى الاقتصاد في تصوير العواطف ، وإلى تحقيق قدر مقبول من التّوازن بين عواطف المحبّ وحقائق الحياة .

ومن نماذج ذلك التّقديس في صور بيانية مقصودة قولُه في رسالة عنوانها « وَ زدتِ أنّك أنتِ » :

« وما رأيتُكِ مرّة إلا خيّلتِ لي أن بعض النّواميس المادية القاهرة في هذا الوجود قد تحولتْ إنسانيّةً فيك .. ولو وُلِد النّور لكان وجهَك الجميلَ المشرق ، ولو وِلدتِ الكهرباءُ التي هي سرُّ النور لكانت أسرارَ عينيك ، ولو تولّدتِ القوة التي هي سرّ الكهرباء لكانت فتنةَ حبِّك ، وكلّ المعاني التي في نفسي لا تتّخذ صُوَرها إلا منك ؛ لأنك بجُملتكِ تمثالُ الشعر ! .. في نفسي عالمُ أحلام من خَلْق عينيك الذّابلتَيْن ، وفي نفسك عالم أسرارٍ من خَلْق أفكاري المعذّبَة . خرجنا كلانا بالحب والجمال من حدّ الإنسان إلى حدّ العالم .. كيف تجدين ما فيَّ وإنك لتعلمين أنكِ فيَّ ؟ أما أنا فأجد كلّ ما فيك حلواً حلواً ؛ لأن طعمه حلوٌ في قلبي ! »

وقد يقف القارئ في عصرنا هذا وقفة المتسائل أمام هذا الإحساس المثاليّ المطلق بالحب والمرأة ، إذا لم يضعه في إطار مرحلته الرومانسية ، ويحاولْ أن يجد وراء عباراته البيانية شيئاً من حنين روحيّ إلى عالم مجهول ، كان يداعب خيال هؤلاء الكتّاب والشعراء ، وتتسلّل صورُه المطلقة إلى مجازات الشاعر أو الكاتب وأخيلته ؛ فتوشّيها بألوانٍ مقتبسة من أكثر مشاهد الحياة والطبيعة صلةً بالجمال والطّهارة وعالم الروح ، في مثل قول الرافعيّ :

(١) حياة الرافعي ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

« جاءني كتابُكِ ، بل جئتني أنت في كتابك ، فضممتُ الصحيفة إلى قلبي ضمّة عرفتك فيها من خفقات هذا القلب واضطرابه ! وقبّلتُ الكلمات قُبلاً شعرتُ من سحرها في نفسي أن هذه الألفاظَ قد خرجت من فمكِ الورديّ ؛ فجاءت عطراً وحياة وجمالاً ، ونقلَتْ في الكتاب جوًّا رقيقاً نديا كان مطيفاً بشفتيكِ عند كتابتها ، **كأنه نسمة من الفجر حول وردة تتنفّس بعطرها الزّكيّ** .. كلما قرأت لكِ شيئاً **نفَذ إلى روحي بالعطر الذي عطّرَكِ** الله به . كأنّ الكلام بيننا أثير تسبح فيه مادةُ نفسَيْنا ، ولو كلُّ الجميلات في العالم لفَظْنَ كلمة واحدة ، ثم لفظتِها أنت – لكنتِ أنت وحدكِ القادرة على أن تصنع روح الجمال وروح الحب وروح المرأة في تلك الكلمة ؛ لأن روحي لا تعرف الجمال والحب والمرأة إلا فيك ! .. كنتُ أعرف أن اللغة موضوعةٌ لكل أهلها ، شائعةٌ في ألسنتهم جميعاً ؛ ولكنَّ بلاغتك التي يتهلّل بعضها تهلُّلَ جبينك ، ويستحي بعضها استحياء خدّيْك ، ويفترُّ بعضها افترار شفتيك ، وتأتي مفتّنَة ناعمة كأنها جسم بديع ناضج للحب – قد جعلتني أعرف أن الكلمة التي يُلقيها حبيب إلى محبّه تأتي وكأنها لغةٌ مخلوقة لساعتها ! »

وإذا كان الكاتب قد استقبل رسالة صاحبته بكل هذه الحفاوة ، ورأى فيها كل هذه المعاني – فإنه يرسل بدوره رسالة إليها مع « زجاجة عطر ثمين » تنضح – أعني الرسالة – بهذا الخيال الرومانسيّ الجامح ، والإحساس العاطفيّ المسرف بالحب ، فيقول :

« يا زجاجة العطر ، اذهبي إليها ، وتعطّري بِمسِّ يديها ، وكوني رسالة قلبي لديها . وها أنذا أنثر القبلاتِ على جوانبك ، فمتى لمسَتْك فضَعي قُبلتي على بنانها ، وألْقيها **خَفيّةً ظاهرة** في مثل حنوّ نظرتها وحنانها ، وألْمِسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها ... وها أنذا أصافحك ، فمتى أخذَتْك في يدها فكوني لمسة الأشواق . وها أنذا أضمُّك إلى قلبي ، فمتى فتحتْكِ فانثُري عليها في معاني العطر لمسات العناق ! »

وبهذا الإحساس الرومانسيِّ الحادّ نفسِه ، وبالتّعبير الرومانسيِّ المفرط أيضاً تتحدث إليه زهرةٌ ذابلة جاءته مع إحدى رسائلها « المتخيَّلة » :

« بل أنا كوكبُ عطرٍ من يدها الجميلة في فَلَكٍ زهريٍّ غضّ ، ثم انتثرتُ من فَلكي ، وذبلتُ لأني انتثرت من فلكي .. وقد نشأتُ في روضتي على أملودٍ ناعم ريّان ، فلمّا صِرْتُ في أناملها على أغصان اللحم والدم في روضة الجمال ، أحسستُ أني بِتُّ قلباً يحبُّ ويعشق ، ومرضتُ لأني بِتُّ قلباً يحبُّ ويعشق . »

وفي إطار هذا التّصور المطلق للحب ، وإضفاء دَلالات واسعة على موقفٍ عابر أو مشهد صغير – ينحو النثر الفنيُّ في ذلك العصر منحى الشِّعر ؛ فتُصبح مفردات اللغة و « تركيب » العبارة وإيقاعها وسيلةً للخروج من المعاني المحدودة إلى الدّلالات الرحبة الموحية ، ويخلو النثر – أو يكاد – من الفكر إلا حين يتحرّر الكاتب – حيناً – من سلطان الصورة المجرّدة ، ويمعن النظر في بعض أمور النفس ومشاهد الحياة والمجتمع .

وقد كان للشعر والنثر الفنّيّ في تلك المرحلة الرومانسيّة مفرداتهما المختارة ، وأبنيتهما الخاصّة للعبارة ، ومجازهما ، وإيقاعهما المتميّز الذي يعتمد على تماثل الجمل في بدايتها وبنائها وتأكيدها بفواصل متتابعة للشعور الواحد ، وكأن الكاتب « يدور » حول الشعور ولا يسير به لكي ينمو في صورة ممتدة مركبة تقوم على تعدُّد الأجزاء وتكاملها أكثر ممّا تقوم على التكرار . وهكذا تصبح

الصّورة عند الكاتب الرومانسيّ معرضاً لِلَوْن واحد لا تتداخل معه ألوانٌ أخرى ، ولا تختلف درجاتُه باختلاف موضعه من اللوحة . وهكذا تتحدّث الزهرة الذابلة التي أرسلتها « الحبيبة » إلى الكاتب في جُمل تُقارن كل منها بين حال الزهرة في مهدها ومنبتها ، وحالها بعد أنِ اتّصلت أسبابها بتلك الحبيبة ، على سبيل « المفارقة » التي هي إحدى وسائل البيان المفضلة عند كثير من هؤلاء الكتاب والشعراء :

« وكنت أنفح بالعطر والشّذى الفيّاح ، فلمّا لمستني شفتاها لمسةً عُدْتُ أفوح بالحبّ ، وهجرَتْني لأني عدت أفوح بالحب ..

« وكنتُ تمثال النشوة والفرح ، فلمّا رفّتْ بي على خدّها رفّتين – صرتُ تمثال السُّكْر والعربدة ، واطّرَحَتْني لأني تمثال السكر والعربدة ..

« وكنتُ بِمِلْءِ النّضرة أفيض منها على الكون ، فلمّا وضعَتْني ساعةً على صدرها – التهبتُ كشعلةِ هوى ، ونبذَتْني لَمّا أحسّتْ بي على صدرها كشعلة هوى .. »

وكما يستخدم الشاعر الأساليب « الإنشائية » التي تثير المشاركة بين المبدع والمتلقي ، يبدأ الرافعيّ بعض عباراته المتماثلة باستفهام تتلوه محاولة « للتفسير » نابعة من تصوّر وجدانيّ خالص .. يقول متسائلاً عن حقيقة الزهرة الذابلة :

« **أ فمِنْ لغة القبلة أنتِ ، وقد جئتِ رسالة من شفَتَيْها إليّ** ؛ فانكمشتِ من حياءٍ وخَفَر ؟

« **أم أنتِ من لغة الابتسام ، وقد جئت تحيّةً** من وجهها ، وفيك ذلك المعنى من غموض الدّلال ؛ فأنتِ موجَّهة إليّ ، ولستِ موجَّهة إليّ ؟

« **أم أنتِ من لغة اللمس ، وقد جئت سلاماً** من يدها ، وهذا التّجعيد فيك شدة حبٍّ وضغطة شوق ؟

« **أم أنتِ من لغة النظر ، وقد جئت ذابلة** متناعسة ؛ لأن فيك نظرة من غرامها تنظر ولا تنظر ؟

« **أم أنتِ من مادة العناق ، وقد جئتِ هالكةً** ضَمّاً من انطباق صَدْرَيْن تحتهما زلزلتا قلبين تَرجُفان ؟ ؟ »

ومن نماذج هذا الأسلوب البيانيّ الخاص ، وما يحمل من عاطفية مفرطة قولُه – معتمداً أيضاً على التساؤل والتفسير والبناء المتماثل – في « رسالة الابتسامة » : « أ هناك نزاعٌ على حقيقةٍ خفيّة من الحقائق الجميلة لم تجد لها مخبأ إلا ثغرك الجميل ؟

« **أم لك فكرٌ** شعريٌّ موسيقيٌّ **فهو يرقص دائماً** على وزن من ابتسامك ؟ **أم في قلبك** مادة من النُّجوم، **فهي دائماً تلمح** لـمْحها في سماء وجهك النيّرة فيسمُّون لمحها ابتساماً ؟

« **أم ثغرك يبتسم** دائماً لأنه بطبيعة جمالك وظرفك يتهيأ دائماً لِقُبْلة ؟ »

وهكذا يغلب جوُّ « الإنشاء البيانيّ » على رسائل الرافعيّ ، كلما خطر له أن يتحدث عن شعور المحبين ، حين يخلص الموقف للنّجوى الصافية التي لا تشوبها مرارة الخيبة أو وساوس الشّك أو بغضاء المهزوم ، فينسى إلى حين « فلسفته » عن الحب والجمال ، وتحليله لنفس المرأة ومتناقضاتها ، ويصبح المشهد الطبيعيّ في تلك النجوى وسيلة للمقارنة التي تجلو فضل الجمال البشريّ مجسّماً في امرأة مثالية ، تخلع على الطبيعة بعض جمالها فتبثُّ فيها معاني لم تكن لها من قبل ، فالقمر عنده

برهانٌ على فضل ذلك المثيل الذي يتخيّله كمالاً للجمال :

« .. واستويت متّسقاً كأن عملك لي أن تتمّم فنَّ جمالها بإظهارها أجملَ منك .. »

ويتحوّل إحساس المحبّ بجمال القمر من إحساس بجمال سطحيٍّ لا حياة فيها إلى وجود روحيٍّ يربط بين القلب وعالم السماء : « كنتَ جميلاً ولكنْ جمالَ ورق الزّهر الأبيض ... وكنتَ ساطعاً ولكنْ سطوعَ المصباح الكهربائيِّ .. وكنتَ زينة السماء ولكنْ كما تُناط مرآة صغيرة من البلّور إلى حائط . وأمّا بعد حبّها فأمسيتُ أراك – أيّها القمر – ولستَ إلا طابع الله على أسرار الليل في صورة وجهٍ فاتن . »

على أن التشبُّث بالمقارنة والسعيَ وراء « التّفنّن » البيانيِّ يقود الكاتب إلى كثير من التشبيهات التي تخلو من التّركيب والجدّة المعهودة في تشبيهاته ومجازاته ، حين كان يعبر عن وجدان مزعزع ، وخاطر قلق في « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » . وكأنَّ الصُّور هنا وليدة ذهن يرسم بالألفاظ شيئاً يقصد إلى « رسمه » أكثر مما يقصد إلى بيان شعور وجدان صاحبه به ، فما يكاد الكاتب يلمّ بذلك الوجود الروحيِّ للقمر حتى يعود فيقول :

« فأنتَ جميل جمال الجسم البضّ العاري ، تكاد تُشبه صَدْر الحبيبة ، كشفتْ أعلاه فظهر في بريق الفضة المجلوّة .. وأنتَ فاتن تحاكي في ضوئك وجهها ، لولا أنك بلا تعبير ! وأنت ساطع بين النجوم ، ولو تجسمتْ صورةٌ من أجمل ضحكات ثغر معشوق لكانَتْك ، ولو تجسّمتِ القبلاتُ المنتثرة حول هذا الثغر لكانَتْها . »

وقد يتسلّل إلى هذه التشبيهات بعضُ ما يلحُّ على الكاتب من تطلّع إلى عالم الروح ، فيعود مرة أخرى إلى ما بدأ به : « وأنتَ زينة السماء ، ولكن السماء منك كمرآة سحريّة أطلعتَ فيها حوريّةً من حور الجنة فأمسكتَ خيال وجهها في لجة النور ، فأنتَ خيالُ وجهها .. أ تذكر وقد رأيتك ثمة قريباً من الحبيبة تصبُّ عليها النور حتى خُيّل إليَّ أنها إحدى الحور العين مُتّكئة في جنّتها على رفرف خُضْرٍ وقد وقف لخدمتها قمَر ؟ »

وتقوم بعض رسائل الرافعيّ الشعرية في الكتاب على هذا التخيُّل المثاليِّ والمفاضلة البيانيّة ، وإن لم تُتح له العبارة الشعرية مجالاً للإفاضة وامتداد الصورة كما يتيحه النثر الفنّي ، لكن القمر عنده على أية حال لا يستمد ألوان جماله وتلوُّن لحظاته إلا من بعض معاني المرأة الجميلة المحبوبة . ويعتمد الرافعيُّ في كثير من صور هذا الشّعر على وسائل معروفة في القصيدة القديمة من التّقسيم ، وحُسْن التّعليل ، وتتابع الإيقاع المتماثل ، والكلمات المتقاربة في الدّلالة :

أمّا أنا فأتاني البدْرُ مُزْدهياً ... وَقال : جئتُ بِمعنًى مِنْ معانيها
فقلتُ : مِنْ خَدّها ، أمْ مِنْ لَواحِظِها ... أمْ مِنْ تَدَلُّلِها ، أمْ مِنْ تأبِّيها
أمْ مِنْ مَعاطِفِها ، أم مِنْ عَواطِفِها ... أم مِنْ مَراشِفِها ، أم مِنْ مَجانيها
أمْ مِنْ تَفتُّرِها ، أم مِنْ تكسُّرِها ... أم من تَلَفُّتِها ، أم مِنْ تثنّيها ؟
كُنْ مِثْلَها لي ، جذْباً في دمي وهوًى ... أو كُنْ دَلالاً ، وكن سِحرًا ، وكنْ تيها
فقالَ وهوَ حزينٌ : ما استَطَعتُ سِوى ... أني خَطفْتُ ابْتِساماً لاحَ مِنْ فيها

وما زال الرافعيُّ يستعين في تصوير جمال المحبوبة وعواطف المحبِّ – كما كان يفعل في كتابَيْه السّابقَيْن – بعناصر الطبيعة التي ارتبطتْ بدلالةٍ جمالية وشعورية خاصة ، ويلتفت إلى ساعات من الليل والنهار جرى عُرْف الأدباء والشعراء على أن يتّخذوها رمزاً للصّفاء أو الطّهارة أو الجمال الروحيِّ . وهي عند الرافعيِّ – وغيره من كتّاب تلك المرحلة الرومانسية – ملاذٌ من دمامة الحياة وقبح الطبائع ، وتجسيمٌ لحنين الروح إلى عالم النور ؛ فالنُّورُ ومشتقّاته ومصادره مفرداتٌ أثيرة عند الشعراء والكتّاب في ذلك الزمان :

« .. كلامكِ بيان **كإشراق الضُّحى** ، وإن فيك لمنبع سحر **كالنّهار الذي ينبع من شمسه** ، فلا تخطُّ أناملُك سطراً إلا **تضوّأت** فيه الحياة .. وقد جلسنا تحت خيمة من النّدى مطرّزة بِشَفَق عريضة **من حرير الشمس** .. ومن بعض هذا السّرِّ تلك الابتسامة الواقفة على ثغرك ترقّ **فيها الروح مرّةً** وتتكاثف مرّة ، حتى كأنها وهي الرسم ، **لونٌ روحيٌّ** ظهر يتموّج على شفتيك ، فما أقلّب فيه عَيْنَيَّ إلا شعرت أن روحي تذوب فيه **كما يتمازج لونان في السماء على الشّفق الأحمر** ، ... وهل في الحسن أحسن من هذا الوجه الذي يرفُّ على القلب **بأندائه ويتلألأ بنضرته** ، حتى **كأنه خُلِق من نور الفجر** ، **وكأن علامة الفجر فيه إنما هي هذا الروح الذي يحيط القلبَ** من وجهك بمعانٍ كنسمات الصُّبح .. وعندما أنظر **إلى ازدهاء الشفق بألوانه وأصباغه** كأنه صورة جديدة في الخَلْق ؛ **أحسبني** على مرمى السَّهم **من جنة السماء** ، فُتحت أبوابها ، ولاحت أطراف أشجارها ... وعندما **أتأمّل انبثاق الفجر** يُخيَّل إليَّ من جماله وروعته أن الوجود في سكونه وخشوعه نفس كبرى تستمع مصغية **إلى كلمة من كلمات الله لم تجئ في صوت ، ولكن في نور** .. أرَيْتِني جمال الشعر في خيالاتي العطشى الحائمة **على نهر النور من جسمك** ، وعلى ذلك النبع الأحمر الصغير ، نبع الياقوت المتفجِّر دائماً بابتسام شفتيك ، وجعلتني من وحي جمالك المتنزِّل على قلبي ، أشعر أن هذا الجمال السماويَّ أنشأ فيَّ **صفةً ملائكية** ترفعني فوق إنسانيّتي ، ومن ذلك يُبدع لي الحب فكرة عنكِ لو هي كانت في خاطر **مَلَك من الملائكة** يمرّ بها في السّماوات ؛ لما زادت ولا ارتفعت عمّا هي في نفسي ، **ولو دخل بها الجنة** ! »

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الخصائص النفسيّة والفكريّة والفنيّة في هذه الكتب الثلاثة – فإن القارئ سيجد فيها إبداعاً متميِّزاً لكاتب عربيٍّ كبير ، وصورةً صادقةً لبدايات مرحلة من أكثر مراحل الأدب العربيِّ عطاءً وخصباً ، أنجبت كثيراً من المواهب الكبيرة في الوطن العربي ، وصوّر أصحابها – كلٌّ بفكره وأسلوبه – تلك التحوُّلاتِ الحضاريةَ الجسيمة التي كان يمرّ بها ذلك المجتمع . ولقد كانت الحركة الوِجْدانية المنعطفَ الأول للأدب العربيِّ الحديث ؛ ليواكب روح عصر جديد ، وعبرّت في إبداعها عن كثير من التميُّز والتّنوع في إطار واسع من التّصوُّر الوجدانيِّ للحياة والمجتمع ، ومن الأساليب البيانيّة الجديدة التي شقّت طريقاً عصريًّا للشعر والنثر .

وقد انقضت تلك المرحلة بعد أن عاشت نصفَ قرن حافلاً بالعطاء ، وتحوّل الأدب العربيُّ إلى تجاربَ وأساليبَ جديدة ، لكنّ إبداع هؤلاء الرّوّاد ما زال حيًّا في عقولنا وقلوبنا . وعلينا ، إذا أردنا أن

نستمتع بما فيه من أصالة ، أن نضعه في إطار مرحلته الحضاريَّة ، وألا نقيسه بمعايير الإبداع في المرحلة التي تلتْه ؛ وعندئذ سنجد فيه ألواناً من الفكر ، وأساليب من البيان ، تُعدُّ تراثاً مرموقاً للأدب العربيِّ الحديث .

وسيجد القارئ عند الرافعيِّ تميُّزاً خاصاً بين كتّاب ذلك العصر في نظراته النَّفسيَّة والخلقيَّة ، وفي أسلوبه الذي يمزج مزجاً فريداً بين مفردات التُّراث القديم وأساليبه ، والتَّجربة العاطفيَّة الحديثة ، والمعجم الحديث ، والأسلوب العصريِّ المبتكر .

الدكتور عبد القادر القط

ملاحق خاصة بدراسة الرافعي وأدبه

١ – تواريخ هامة في حياة الرافعي
(١٨٨٠ – ١٩٣٧)

١٨٨٠ * في شهر يناير ولد مصطفى صادق بن عبد الرزّاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعيّ ، وكان مولده في بيت جده لأمه الشيخ الطوخيّ ، في قرية « بَهْتِيم » إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر .

وهو ينتمي إلى أسرة سوريّة الأصل من حيثُ الأب والأم ، وإن كان خير الدين الزركلي يقول في « الأعلام » : إن لقب الأسرة – قبل أن يتحوّل إلى الرافعيّ – كان « البيساريّ » نسبة إلى قرية « بيسارة » بمحافظة أسيوط بصعيد مصر . وإذا صحّ ما ذكره الزركليّ فإن الأسرة تكون مصرية الأصل ، سوريةَ الإقامة .

وأول مَنْ شقّ منها الطريق إلى مصر هو الشيخ محمد الطاهر الرافعيّ في عام ١٨٢٧ ليتولّى قضاءَ الحنفيّة في مصر بأمرٍ من السُّلطان العثمانيّ ، وتبعه آخرون ، حتى كادت هذه الوظائف تكون مقصورةً عليهم .

١٨٩٧ * حصل مصطفى صادق على الشّهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية . وهي كلُّ ما ناله من الشّهادات ؛ فقد أصابه في نفس العام مرضٌ ترك وَقْراً في أذنيه ، وحُبْسةً في صوته ؛ فلم يستطع مواصلة الدراسة ، ولكنه أكبَّ على الاطلاع بِنَهَمٍ في مكتبة والده ، وكان هو الأستاذَ والتلميذَ .

١٨٩٩ * عُيِّن كاتباً بمحكمة طَلْخا الشّرعية ، وكانت إقامته في مدينة طنطا ، فمنها مَغْداه وإليها مَراحُه . ثم نُقل إلى محكمة إيتاي البارود ، ثم إلى طنطا ، وظلّ فيها حتى يومه الأخير .

١٩٠٣ * أصدر الجزءَ الأول من ديوانه ، وصدّره بمقدمة ناقش فيها مفهوم الشعر ، وأوّليّته ، وفنونه ، ومذاهبه .

١٩٠٤ * تزوّج بشقيقة الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ، صاحبِ مجلة البيان، وكانت صلة الأدب بين الرجلين سببَ هذا الزّواج ، وقد أنجب الرافعي من زوجته هذه أحدَ عشرَ مولوداً ، اِفْتَرط منهم واحدة في سنتها الأولى ، وخلّف عشرة ، أكبرهم « محمود سامي » ، وبه كان يُكنّى « أبو السّامي »

١٩٠٤ * أصدر الجزء الثاني من ديوانه .

١٩٠٥ * أنشأ قصةً عنوانها « الدَّرس الأوَّل في علبة كبريت » دخل بها مسابقة أدبية ، أثارتها مجلة « المقتطف » بين الأدباء ، وأعاد نشرها بعد ذلك بعنوان « السَّطر الأخير من القصة » .

١٩٠٥ * نشرتْ له مجلة « الثُّريا » في عدد يناير أولَ مقال في النَّقد الأدبيِّ عن شُعراء العصر ، وقَّعه بالرمز حَذَر التُّهمة ؛ إذ جعل فيه الشعراء ثلاثَ طبقات ، و وضع اسمَه في الطبقة الأولى مع الكاظميِّ والباروديِّ وحافظ ، في حينَ جعل شوقي من شعراء الطبقة الثانية مع إسماعيل صبري وخليل مطران وشكيب أرسلان وغيرهم ، أمَّا شعراء الطبقة الثالثة فمنهم المنفلوطيُّ وأحمد محرم .. ولكنه لم يثْبُتْ على هذا الرأي ، فقد عدل عنه فيما كتبه بعد ذلك بتوقيعه الصريح .

١٩٠٦ * أصدر الجزء الثالث من ديوانه .

١٩٠٨ * أصدر الجزء الأول من ديوانه الجديد بعنوان « النَّظرات » فقد كان معنيًّا بالشعر ، يرجو أن يبلغ فيه مكانة سامية ، يَخْلُد بها اسمه بين شعراء العربية .

١٩٠٩ * من منتصف هذا العام انقطع لتأليف الجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب العربية » وفرغ منه في نهاية عام ١٩١٠ . وكان تأليفه استجابةً لدعوة الجامعة المصرية « جامعة القاهرة » إلى تأليف كتاب في تاريخ الأدب العربيّ ، رصدتْ له مكافأة مادية مقدارُها خَمسمائة جنيه مصري. وكان كتاب الرافعيِّ ثاني كتاب قُدِّم إلى الجامعة ؛ فقد سبقه جرجي زيدان بالجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » .

١٩١١ * أصدر الجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب العرب » .

١٩١٢ * أصدر الجزءَ الثاني من كتاب « تاريخ آداب العرب » ، تناول فيه البلاغةَ القرآنية والبلاغةَ النبوية ، ويعرفه القراء بعنوان « إعجاز القرآن » .

١٩١٢ * أصدر كتابه « حديث القمر » إثر عودته من رحلة إلى لبنان ، التقى فيها شاعرةً من شواعرها ، وكان بينهما شيءٌ من الحب ، فلما عاد إلى مصر وجد في نفسه حاجةً لأن يقول ، فقال « حديث القمر » وهو أوّلُ كتاب يُصدِره الرافعي في أدب الإنشاء .

١٩١٧ * أصدر كتاب « المساكين » متأثِّراً بمآسي الحرب العالمية الأولى . وهو الكتابُ الرابع في المنثور ، والثاني في أدب الإنشاء ، أراد به الرافعيُّ – كما يقول – بيانَ شيء من حكمة الله في أغلاط الناس .

١٩٢٣ * وقعتِ القطيعة بينه وبين الأديبة « ميّ زيادة » فآذت نفسه إيذاءً منكراً، وأرهقت خاطره إرهاقاً بالغاً .

١٩٢٤ * أصدر كتابه « رسائل الأحزان » بعد أن ثابتْ إليه نفسُه أو شيءٌ من نفسه بعد القطيعة . وقد بدأ كتابته في شهر يناير ، وفرغ منه في مساء السابعَ عشرَ من شهر

فبراير . وهو عبارة عن رسائله إلى صديقه الذي خصَّه بسرِّه ، ولعله يَعني نفسه ، يشكو إليه لوعة العاشق ، ومرارة الموتور .

١٩٢٤ * وقعتِ الواقعة بينه وبين الدكتور طه حسين ، إثر نقد الدكتور لكتاب « رسائل الأحزان » في مجلة السّياسة الأسبوعية .

١٩٢٥ * نشرت مجلة « المقتطف » ، في عدد ديسمبر ، القصة الثانية للرافعيّ ، وعنوانها « عاصفةُ القدر » .

١٩٢٦ * اشتدَّتِ المعركة النَّقدية بينه وبين طه حسين ، إثر إصدار طه حسين كتابه « في الشِّعر الجاهليّ » ونَقْدِ الرافعيّ له ، وثورته عليه .

١٩٢٦ * تَقَدَّم إليه ناظرُ الخاصَّة الملكية آنذاك محمد نجيب باشا ليكون شاعرَ الملك ؛ فلقيَ ذلك العطفَ الكريمَ بحقِّه من الشكر ، وظل يُرسل قصائده في مدح الملك حتى سنة ١٩٣٠ .

١٩٣٠ * أقصيَ عن القصر الملكيّ ، وتبوَّأ مكانَه عبد الله عفيفي ؛ فأخذ الرافعيُّ ينقد شعره نقداً مُرّاً . ثم استَعَر أوار هذه المعركة النقدية في مجال الشعر مع العقاد ، وكانت حصيلتُها كتابَه « على السَّفود » الذي نُشر – أول مرة – على أنّه من تأليف إمام من أئمة الأدب العربي .

١٩٣٢ * تهيَّأت مجلة « المقتطف » لكتابة فصل عن أحمد شوقي بعد وفاته ، وعهدتْ بذلك إلى الرافعيّ ؛ فأنصف شوقي ، وجلّى عبقريته ، وكشف عن مذهبه وفنه ، ولكنه أخذ عليه بعض هِناتٍ نحويّة ؛ فانبرى العقادُ يردّ على الرافعيّ مآخذه ، ويباهي بشوقي وعلمه اللغويّ وفنه العبقريّ . وردّ عليه الرافعي مُفنّداً .

١٩٣٣ * أصدر العقادُ ديوانه « وحي الأربعين » فنقده الرافعيّ في مجلة البلاغ نقداً لاذعاً ، امتزجت فيه ثورةُ نفسه ، وحِدَّة طبعه ، وحرارة غضبه ، و روعة فنه . وهذه المقالة – كما يقول محمد سعيد العريان – خيرُ ما كتب الرافعيّ في نقد الشعر، وأقربُها إلى المِثال الصحيح ، لولا هفوات قليلة ، يُعفيه من تبعتها أنه إنسان .

١٩٣٤ * أنشأ قصته الثالثة « سعيد بن المسيَّب » .

١٩٣٤ * دعتْه مجلة « الرسالة » – التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات – ليكتب فصلاً عن الهجرة النَّبوية في عددها الممتاز ، فكان مقاله « وحي الهجرة في نفسي » ونُشِر في العدد الثّاني والسِّتين . وظلّ حبلُه متَّصلاً بها حتى وفاته .

١٩٣٧ * في العاشر من شهر مايو لبى نداء ربه ، وحُمِل جثمانه إلى حيثُ رقد رقدته الأبدية في جوار أبويه بمقبرة الرافعي بطنطا ؛ فأصبح ميراثاً نتوارثه ، وأدباً نتدارسه ، وحناناً نأوي إليه .

٢ - آثاره

أولاً - المطبوعة :

- « ديوان الرافعي » ، وهو ثلاثة أجزاء ، صدرت بين سنتي ١٩٠٣ - ١٩٠٦ ، وهي مذيّلة بشرح يُنسَب إلى أخيه محمد كامل الرافعيّ ، ولكنه من إنشاء الرافعيّ نفسِه .
- « ديوان النظرات » ، أصدر منه الجزء الأول عام ١٩٠٨ .
- « ملكة الإنشاء » ، وهو كتابٌ مدرسيٌّ يحتوي على نماذجَ أدبيةٍ من إنشائه ، وقد نَشر بعضاً منه في ديوان النظرات ، وضاع باقيه .
- « تاريخ آداب العرب » .
- « إعجاز القرآن » .
- « حديث القمر » .
- « المساكين » .
- « نشيد سعد باشا زغلول » : كُتيّبٌ صغير عن نشيده « اسلمي يا مصر » الذي أهداه إلى سعد زغلول في سنة ١٩٢٣ .
- النشيد الوطنيّ المصريّ « إلى العلا ... » .
- « رسائل الأحزان » .
- « السحاب الأحمر » ، وهو الطور الثّاني من أطواره بعد القطيعة التي حدثت بينه وبين « ميّ » ، صدر بعد « رسائل الأحزان » بثلاثة أشهر .
- « المعركة تحت راية القرآن » : قصةُ ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين لمناسبة كتابه « في الشعر الجاهلي » .
- « على السّفود » : قصةُ الرافعيِّ والعقاد ، نشرتْه مجلة العصور في عهد مُنشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر .
- « أوراق الورد » : الفصل الأخير من قصته مع « ميّ » .
- « رسالة الحجّ » : أنشأه في صيف عام ١٩٣٥ ؛ استجابةً لرأي صديقه الأستاذ حافظ عامر ، وإليه يُنسب .
- « وحي القلم » : مجموع مقالاته في الرسالة وغيرها ، طُبع منه جزءان في حياته . وطُبع الجزء الثالث بعد وفاته .

ثانيًا – غير المطبوعة :

– « أسرار الإعجاز » : فيه فصولٌ تامةُ التأليف ، وفصول أجملَ فكرتَها في كلمات وأشار إلى مصادرها .

– « ديوان أغاني الشعب » : وهو ديوانٌ جعل فيه لكل طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنيةً تنطق بخواطرها ، وتصوِّر أمانيها .

– الجزء الأخير من ديوانه « النظرات » .

٣ – دراسات متعلقة بأدب الرافعي

١ – **أنور الجندي** : المعارك الأدبية في الشعر ، النشر ، الثقافة ، اللغة العربية والقومية العربية ، الحضارة . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .

٢ – **خير الدين الزركلي** : الأعلام ط ٧ . بيروت ، ١٩٥٤ .

٣ – **سعد مصلوح** : الأسلوب ؛ دراسة لغوية إحصائية . بيروت ، دار البحوث العلمية ، ١٩٨٠.

٤ – **طه حسين** : حديث الأربعاء ، الجزء الثالث . القاهرة ، دار المعارف .

٥ – **عبد القادر القط** : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٨ .

٦ – **عمر رضا كحالة** : معجم المؤلفين . دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٦٠ .

٧ – **كمال نشأت**: مصطفى صادق الرافعي . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ . (أعلام العرب – ٨١)

٨ – **محمد سعيد العريان** : حياة الرافعي . القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٥٥ .

٩ – **محمد عبد المطلب** : البلاغة والأسلوبية . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

١٠ – **محمود أبو رية** : من رسائل الرافعي . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .

١١ – **مصطفى الشكعة** : مصطفى صادق الرافعي ، كاتباً عربيًّا ، ومفكراً إسلاميًّا .

بيروت ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٠ .

١٢ - نعمات أحمد فؤاد : دراسة في أدب الرافعي . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣.

ومن الرسائل الجامعية التي تناولت أدبه بالدراسة :

١ - **أمين سعيد المبروك بن مسعود** : نثر مصطفى صادق الرافعي . ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٢ .

٢ - **حسن عبد القادر عبد الدايم** : أثر القرآن في أدب الرافعي . ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٦٩ .

٣ - **طه عبد الرحيم عبد البر** : مصطفى صادق الرافعي الناقد الأديب . ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٦٧ .

رَسَائِل الأَحْزَان

في فلسفة الجمال والحب

مقدمة

كان لي صديقٌ خَلَطْتُهُ بنفسي زمناً طويلاً ؛ وكنت أعرفه معرفةَ الرَّأي كأنه شيء في عقلي ، ومعرفة القلب كأنه شيء في دمي ؛ ثم وَقَعَ فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني ، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري ، والتفتّ عليه مذاهبُهُ فما يقع إليّ من ناحيته خَبَر ؛ وامتدّ بيني وبينه حَوْلٌ كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه ؛ كأنه العامُ الأول من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التي لا تنسى.

وطلعت الشّمس يوماً في غَيْمِ يناير من سنة ١٩٢٤ ، فأحسستُ قلبي من الذُّعر كالطّائر يَنفُضُ ندى جناحيه في أشعتها ، ولم تكد ترتفع وتتلألأ حتى وافى البريدُ يحمل إليّ خطّه وإذا فيه :

« يا عزيزي الحبيبَ !

« فقدتَني زَمَناً ، إن يكن في قلبك منه وَخْزَةٌ ففي قلبي منه كحَزِّ السيف ؛ لم أنسك نسيانَ الجحود ، وإن كنتُ لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعثَ إليك بخبر يترجم عني ؛ إذ كنتُ في سجن وأنا السّاعةَ مُنْطَلِقٌ منه . لا تجزع ولا تَحْسَبَنّه سجن الحكومة . إنْ هو إلا سِجْنُ عينين ذابلتين كان قلبي المسكين يَتَمَزَّع [١] في أشعة ألحاظهما . كما يكون المَقْضِيُّ عليه إذا أحاطت به السّيوفُ وجعل بَريقُها يتخاطف معاني الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه الروح بل سجنُ فكري الذي ابتُليتُ به وبخياله معاً ، فلا يزال واحدٌ منهما يُبالغ في إدراك الجمال والآخر يبالغ في تقديره ، حتى تكاد تطلعُ نفسي من نواحيها [٢] ؛ لكثرة ما يُسْرِفان عليها ، كما يريد الأطفالُ أن يملئوا القدحَ ليستفيض لا ليمتلئ ، وليرسلَ الماء لا ليُمسِكه ؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافَةِ قدح صغير .

« ما أحسبني قطُّ رأيت امرأة جميلة كما هي في نفسها وتركتها كما هي في نفسها ؛ بل هناك نفسي . وآه من نفسي ! وما أسرع ما يمتزج في هذه النَّفس بعضُ الإنسانية المحِبَّة ببعض الإنسانية المحبوبة ، فإذا أنا بشيء إلهي قد خرج لي من الإنسانيتين ؛ هو هذا الشّعر ؛ هو هذا البلاء ؛ هو هذا الحب .

« فررت منك ومن سواك ، يا عزيزي مُصَيْف [٢] ، إلى امرأة كالتي جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة ؛ وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً أحياناً لتكوين عالَم كامل يسبح في فَلَكٍ وحده ؛ عالمٍ مسحور ، في فلك مسحور : لا يخضع إلا لجاذبية السِّحر ، ولا يعرف إلا تَهاويل السِّحر .

« على أنك لم تفقد مني في هذه السَّنة إلا بضعة كُتُب وكلاماً كنا نترسَّل به وليس فيه إلا الحِبْر ؛ فسأردُّ عليك من ذلك كُتُبَ سنوات ، وأعوِّضك برسائلي كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب .

---

(١) يتقطّع . * (٢) إذا امتلأ الشيء إلى آخره ، قيل : كاد يطلع من نواحيه . (٣) مصيف : تصغير « مصطفى » على قاعدة التّرخيم ، وكان الصّديق يَتَحبَّبُ إليّ به .

فقدتَني صديقاً يهزُّ يديك بتحيته ، والآن أعود إليك شاعراً يهز قلبك بأنينه . فقدتني شخصاً وسأرجع إليك كتاباً .

« أما أنت فاكتب لي رَجْعَ كل رسالة تأتيك من قِبَلي ، واذكر لي موقعها من نفسك ، وكيف كان دبيبُها أو طيرانها عندك ؛ فإني راميك بأسهُم لا قاصرات عن قلبك تنزل دونه ، ولا زائداتٍ تمر عليه وتتجاوزه ؛ بل مُسدَّداتٍ يقعن فيه .

« وأرجو عافاك الله ، أن لا تَتَطلّع في قلمي بنقد أو اعتراض أو تعقيب ، بل دعني وما أكتبه كما أكتبه ؛ فإن لكل شيءٍ طرَفين ، وإن طرَفي الجمال هما الحب والبغض ؛ ورسائلي هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه ، فلقد – والله – أحببتُ حتى أبغضت ، ولقد – والله – يُضْجِر العملُ السّامي إذا أصاب غيرَ موضعه ، كما يُضْجِر العملُ السّافلُ إذا نزل في موضعه .

« ومتى انقطعَ هذا المَدَدُ المتلاحق من كتبي ، فاجمع الرّسائل وقدّم لها كلمةً بقلمك ، ثم اطبعها وسمِّها « رسائل الأحزان » ؛ إنها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ليحدُثَ منها تاريخ ، وسكنتْ بعد ذلك ليحدث منها شِعْر وكتابة .

« فإن نجتمع بعدُ نظَرْنا فيها معاً وقرأتْها عيناك لقلبي ؛ وإن ارتاح الله لي برحمته [1] ، رفّت عليها روحي ، فأسمع صوتَك في الغيب يرسل إلى هذه الرّوح تحيةً من أنغام قلبها الميت .»

صديقك

٢١ يناير سنة ١٩٢٤ (...)

* * *

وجَعَلت رسائلُ الصَّديق تترادَفُ إليّ مُسْهَبَةً ضافية ، تقطر فيها نَفْسُه كما تُرْسِل السَّحابةُ المنتشرة قطراتٍ انعقدت وانحلّت . ثم جعلت نفسُه تنطوي على نأي حبيبته ، واشتدَّ عليه أمرها ، ثم أسْهلَ وانقاد ، واعتادها هاجِرةً فَراتَ [2] قليلاً ثم كفَّ ؛ ومرّت الظبية تَطْفُو [3] و وهبها للبر الواسع . وانقلب عنها بعد أن ملأت نفسَه كما يقول في بعض رسائله : « بمثل البحر مِلْحاً ومرارة .»

أما هذا الصّديق فأعرفه أسلوباً من الكِبْر ولكن على نفسه ، ومن الشُّذوذ ولكن في نفسه ؛ كأنما فُتحت أفواهُ عروقه جنيناً وملأتْها الوراثةُ من دم مَلِك كان في أجداده مُسْتَصْعِبَ شديدُ المِراس ، فهو أبداً في حياته كالمِلِك الذي حالت السّيوفُ والأسِنّة والقوانين بينه وبين تاجه ، فجعلتْ له حياتين يفصل الموت بينهما . اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيِّفاً وأربعين سنة ؛ فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائلُه في فصول وأبواب ، جفَّ القلم منها على نيِّف وأربعين جزءاً ، كلماتها في حوادثها ، وإنَّ السطر منها ليُرْعَدُ في صحيفته من الغيظ ، وإن الكلمة لتبكي بكاءً يُرى ، وإن الحرف ليئنّ أنيناً يُسْمَع ، وإن تاريخه كله لينتفض ؛ لأنه مصيبة مَلَكية مصوّرة في ملِك .

* * *

(١) كناية عن الموت . (٢) أي أبطأ ؛ وأَسْهَلَ : عاد سهلاً . (٣) تعدو لخفتها عدواً شديداً .

لقد سَبَقَ الكِتابُ وجَفَّ القلمُ الأزَليُّ على عِلْم الله ؛ فما أتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثِّل كلُّ واحد منا فصلاً من معاني الشَّقاء الإنساني في تلك الثِّياب التي هي مِلْك لصاحب المسرح ، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضُها ليلبسنا بعضُها الآخر ؛ فلسنا نَبْتَدِع ولكن يُلْقَى علينا ، وما نحن بمختَرعين ولكننا نحتذي ؛ والرواية موضوعة تامَّة قبل ممثِّليها . وَضَعَها ذلك القلمُ الأعلى الذي كتب مقاديرَ كل شيء كان أو يكون ، حتى تُمْحَى من صفحة الأرض هذه الأحرف السَّوداء المتحرِّكة والسَّاكنة .[1]

والمشكلة الإنسانية الكبرى ، أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرِّواية ومَثَلَها البِكْر ، حتى ذلك الشَّخص الذي جيء به لتنزل عليه اللَّعنة في سِياقها . غير أنَّ الرِّواية مُفصَّلة من قَبْل ، وَيأتي فصلُ اللَّعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه ، فينْصَبُّ على ممثِّله جملةً واحدة ، على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدْفع [2] ، كما يلبسه النَّومُ فإذا هو يَفْتِل [3] فيه فَتْلاً ، وإذا رَجُلٌ على أعين النَّاس باللعنة حالٌّ وباللعنة مُرْتَحِل .

النَّوم والقَدَر والموت كالشَّيء الواحد ، أو ثلاثتُها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرج الحيَّ هنيهةً من الحياة وهو فيها على حالة أخرى ، والموت غَفْلة تُخرجه من الحياة كلها إلى حالة أخرى ، والقدر مَنْزِلَةٌ بين المنزلَتَيْن : يقع هيِّناً على أهل السَّعادة بأسلوب النَّوم ، ويجيء لأهل الشَّقاء عنيفاً في أسلوب الموت . ولن يجلب شيئاً أو يدفع عن نفسه شيئاً من هذه الثَّلاثة ، إلا الذي لم يُخْلَق على الأرض ؛ ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على اللَّيل والنَّهار فلا ينام ، أو يحفظ نفسه على الصِّغَر والكِبَر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مَدار الفَلَك فيمْسكه ما شاء أو يُرْسِله .

* * *

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيَّرين ونذهب غير مُخَيَّرين ، إن طَوْعاً وإنْ كُرْهاً ؛ فمُدَّ يدك بالرِّضا والمتابَعَة للأقدار أو انزعْها إن شئت ؛ فإنك على الطاعة ما أنت على الكُرْه ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب . ولن تعرف في مذاهب القَدَر إذا أنت أقبلتَ أو أدْبَرْتَ : أيّ وجهيك هو الوجه ؛ فقد تكون مُقْبِلاً والمنفعة من ورائك ، أو مدبراً والمنفعة أمامك ، والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهِّما شاء .

وَحَرِيٌّ [4] بمن يوقِن أنه لم يولد بذاته ، أن لا يشك في أنه لم يولد لذاته ؛ وإنما هي الغاية المقدورة المتعيِّنة ؛ فلا الخلْق يتركونك لنفسك ، ولا الخالق تاركٌ نفسَك لك .

كذلك كان صديقي ، وما هو إلا إنسان من النَّاس ؛ وقد بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يُحِسّ منذ الصِّغَر أنه رجل هَرِمٌ ، أو كما يقول بعض الفلاسفة [5] في تعليل ذكاء الأذكياء : « إنهم يتذكَّرون ما يرونه ولا يتعلَّمونه ؛ لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالاً ». وتلك خُرافة ؛ ولكِنَّ من نقص هذا الانسان أنه لا يستطيع التَّعبير عن أكبر الحقائق وأدقها إلا بأسلوب خرافي .

(١) كِناية عن النَّاس . * (٢) يُرَدّ . * (٣) يلوي ويطوي ، والمراد يفعل به ما يريد . * (٤) جدير وخليق . *
(٥) ينسب هذا الرَّأي لأفلاطون .

قال لي هذا الصديق يوماً : « إني بلغت أربعة عقود ، ولكنَّها فيما عانيتُ كأنما تضاعفت إلى أربعين عَقْداً ؛ وقد انتهيت من دَهْري إلى السِّنّ التي ينقلب فيها الآدميُّ من وَفْرة القوة ليثاً [1] ، ويرجع من قوة الحِكْمة نبيًا ، ويعود من تمام العقل إنساناً ؛ غير أن هذه الأربعين بما تعاوَرَتْ [2] عَلَيَّ قد هَدَم فيَّ بعضُها بعضاً . فإن أكنْ بناءً فذلك صَرْحٌ مُمَرَّد [3] عمل فيه أربعون مِعْولاً فما أبقت حجراً على حجر ؛ وإن أكن حَوْمَةً [4] فقد اعْتَرَك فيها للأقدار أربعون جيشاً فما تؤرِّخ بنصر ولا هزيمة . يا ويلَتا من هذه الدُّنيا ! إنَّ مصيبة كل رجل فيها حين يصير رجلاً أنه كان فيها طفلاً وما علم أنه كان طفلاً .»

تلك حياة الصديق ، وكانت ليلاً طويلاً انبسط عليه فَنَنٌ من الظَّلام كأنه مُورِقٌ بالسُّحُب والغمائم السَّوداء لا يتقشع بعضها عن بعض ، حتى كأن صباحه مات فيها [5] أربعين سنة ثم انبعث أخِراً من وجه فتاة أحبها ؛ فأشرق له من غرتها ، واستضاء عليه في وجهها ، وطلعت شمسُ حبِّه من خَدَّيْها حمراءَ في لون الوَرْد ؛ إذ امتزجت أشعتُها بظُلُماته .

ويؤخذ من رسائله أن صاحبته كانت من قوة الجاذبيَّة كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر ، ومن فِتْنَة الحُسْن كأنها رسالة إلهية إلى هذه الأرض ، بل إليه وحدَه في هذه الأرض . أدارتها هذه الحياةُ طويلاً وأدارتها ليجيء موضعُه إلى جانبها ، فكأنما أدارت منه فلكاً عاتياً لا يتزحزح إلا بعد أربعين سنة كاملة .

رجلٌ وامرأة كأنما كانا ذَرَّتين مُتَجاوِرَتَيْن في طينة الخَلْق الأَزَلِيَّة وخرجتا من يد الله معاً : هي بروعتها ودلالها وسِحْرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، فكان منهما شيء إلى شيء ، كما تُوضع زجاجة الحِبْر الأسود إلى جانب يتيمة [6] من الألماس أجيد نحتُها وصقلُها وتكسَّر على جوانبها شعاعُ الشَّمس ، فإذا هي من كل جهة ثغرٌ يتلألأ ، وإذا بالزُّجاجة ولو على المجاز « ألماس أسود » .

كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد ، نَشَرَ منه ما نَشَر وطوى ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملَك الوَحْي للأنبياء ، ورأى في وجهها من النّور والصَّفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعاني السَّامية كمرآة المِرْصَد السَّماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه .

* * *

هدمت الأقدارُ هذا الصَّديقَ حتى انحط كلُّ ما فيه من العَزْم والقوة ؛ فجاءت « هي » تبنيه وتشدُّ منه ، وترمِّم بعض نواحيه المتَداعِيَة ، وتقيمه بسِحْرها بناءً جديداً ، وتَحَفَّتْ [7] به عنايتُها زمناً حتى صَلَحَ على ذلك شيئاً ، فأيسرت روحُه من فقرها إلى الجمال والحب .

ويقول صديقي : « إنه ليس على الأرض مَن يشعر كيف ولدته أمه ، ولكنّي رأيت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبةُ نفسي : مرّت بيديها على أركاني المتهدِّمة ، وأعانتها الأقدارُ على إقامتي وبنائي ، غير أن هذه الأقدارَ لم تَدَعْها تبنيني إلا لتعود هي نفسها بعد ذلك فتهدمني مرَّةً أخرى .»

(١) أسداً . * (٢) تداولت وتتابعت . * (٣) مُمَلّس مُطوّل . * (٤) حَوْمة القتال : أشد موضع فيه ؛ لأن الأقران يحومون حوله . * (٥) أي في حياة الصديق . * (٦) الثمينة التي لا نظير لها . * (٧) حَفَّت وأحاطت . *

يصف حبيبته في هذه الرّسائل كأنه مسحور بها ، فيجيء بكلام عُلوي مُشْرِق كتسبيح الملائكة ، يُمازِجُه أحياناً شيءٌ يَحارُ فيه الفَهْمُ ؛ لأن أحدنا إنما يُرسل فكرَه وراء قلمه ، أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ، ويستمدّ قلمُه منهما ؛ فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ، ومنزلتنا أن نفهم كلمتين ؛ والإنسان منّا كاتِب مُفَكِّر ، أمّا هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتباً مفكراً ، وملْهَماً .

ومما لا أكاد أفهمه أنه يكتب كتابةَ مُحِبٍّ أحياه الحبُّ ، ومُبْغِضٍ قتله البغضُ ؛ فإني لأعلم أن كل شيء حبيبٌ ممّن نحبه ، حتى البغض إذا كان يدلُّ على حبه ولو دلالةً خَفِيّةً . بَيْدَ أن صاحبي يجفو جفاءً شديداً ، فلعلها أَنَفَةٌ [١] غلبت بها النَّفسُ على القلب ، فحوّلت الحبَّ إلى جفاء ، والجفاءَ إلى غَيْظ ، والغيظَ إلى مَقْت . وإنما المقتُ أول البغض وآخره .

* * *

يا صديقي المسكين ! لا يَحْزُنْك ؛ فإن آخر الحب آخرَ لأشياءَ كثيرة . وإن من بين النِّساء نساءً أولهُن كالشّباب ، وآخرهن من أشياءَ كالهرم والضَّجَر والضّعف والموت .

ويا جمالَ النساء ، إن كان في الأشياء ما هو أحسن وأجمل ، فإن في الأشياء ما هو أنفع وأجدى . وقد تكون الجدوى والمنفعة من الجمال في بغضه أحياناً أكثر مما تكون في حبه .

ويا رحمة الله من فوق سبع سماواته ! لقد علّمتِنا بما نجده فيسرُّنا ، وما ننساه فلا يضرُّنا ، أن لا نيأس منكِ أبداً ولو كنّا من الهمّ تحت سبع أراضيه .

مصطفى صادق الرافعي

---

(١) عِزّة وترفُّع . *

الذكرى

ما أشدَّ على قلبي المتألِّم أن لا يأخذَ بصري من الناس إلا من يتدحرج في نفسي ليَهْوِيَ منها ، أو يتقلّبُ في أجفاني (١) ليثْقُلَ على عينيَّ ؛ وأحاول أن أرى تلك الطَّلعةَ الفاتنة التي انطوى عليها القلبُ فانبثَّ نورُها في حواشيه المظلِمَة ، وأن أملأَ عيني من قمر هذا الشُّعاع الذي جعل السَّماءَ في جانب من صدري ؛ فإذا ما شئتُ من الوجوه إلا وجهَ الحبِّ ، وإذا في مطلع البدر من رُقعةٍ سوداءَ لا تبلغ مدَّ ذراع ويغشَى الكونَ كلَّه منها ما يغشى ؛ فاللهمَّ أوسعْ لقلبي سَعَةً (٢) يلوذ بها .

العالَم لكل النّاس ؛ غير أن لكل إنسان عالمًا هو خالِصَةُ نفسه (٣) ؛ وعلى أن هذه الدُّنيا مُتَرامِيَة إلى كل جهة تتدلّى عليها السَّماء ، فإن أراضيها الخمس بما رَحُبَتْ لا تقوم عندي بتلك الجدران الأربعة التي رأيت فيها من أحببتُها ؛ رأيت من هذه صورة قلبي ، فلا عَجَبَ أن تكون تلك الجدران صورة ضلوعي ؛ وما أدري أ ذلك سِحْرٌ أم تلبيسٌ أم تخييلٌ (٤) ؛ أم هو الحب ؟

إذا كنتَ شاعراً فأضْلَلْتَ نفسك فنشَدتَها طويلاً وقلّبت عليها آفاق النُّفوس وأفلاكَ القلوب . فإنك لن تصيبها إلا في نفس امرأة جميلة يجعلها مهندسُ الكون مركزاً للدّائرة التي تنفسح بأقطار نفسك ، ذاهبةً بكل قُطر إلى جهة من أمانيِّ الحياة .

وإذا كنت حكيماً فسألت نفسك سؤال الفلاسفة : من أنا ؟ و وجدتَ في نفسك ذلك السِّرَّ الخفيَّ يقول عنك : من هو ؟ فإنه لن يظهر لك معنى « أنا وهو » إلا إذا وضع الحب بينهما « هي » .

وإذا كنت رجلاً من عامَّة الأرض اندَمَجَ في جِلْدة من الثَّرى (٥) ، فإن نفسك لن تُحِسَّ جوهَرَها الإلهي إلا في نفس حبيبةٍ ، وإن كانت من عامّة السماء ؛ فالحب يجعل الناس أعلاهم وأسفلهم صاعدين أبداً من أسفل إلى أعلى .

* * *

إني أخطُّ في هذه الصَّفحات صورة من الزّمن الفاني تصوِّر خَطْفَةَ البرق التي خطرت في سماء العمر من ابتسامة ملتهبة كانت سيّالة بكهربائها ؛ وإنّ في القلم لشيئاً إلهيا يدفع الموتَ والنِّسيان عن المعاني التي تُكتب إلى أجَل طويل ، كأن القلم ينتزعها من الإنسان الذي هو قطعة من الفَناء ؛ ليُبْعد الفَناء عنها. هي « رسائل الأحزان » لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ؛ ثم لأنها من لسان كان سِلْماً يُتَرْجِمُ عن قلب كان حرْباً ؛ ثم لأن هذا التّاريخ الغَزَليَّ كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر .

ليس بيني وبين الهوى شأنٌ ولا عَداوة ، ولكنها تركت فيَّ ثلاثاً : قلبٌ أخلص لها وأوغرْتُهُ (٦) عليها ، وبقايا آلام كأنها أشلاء (٧) من فريسة تشير إلى تاريخ من الموت والألم والتّمزيق ؛ وتركت مع هذين اسمَها الذي أحفظُها فيه بجملتها . وقد يُحْسَمُ الدّاء (٨) ولكن اسمه يبقى داءً ما بقي ؛ فهذه الأسماء أكثرَ ما أنتَ واجدُها، إمّا زيادة على أصحابها في الحب ، أو زيادة في البغض ، أو زيادة في الألم ؛ إذ هي عند أشخاصها تُطْلَق على أشخاصها ، ولكنها في النّاس تُنَبِّه إلى المعاني والحوادث والصِّفات

(١) كناية عن الثّقل ، وفلان يتقلّب في أجفان عيني : أي ثقيل . (٢) أي اجعل له سَعَة لا تضيق به السّلْوة . (٣) ما يستخلصه لنفسه ممن يحبهم كأنهم من نفسه . (٤) ما يخيِّل للعقل ويجعل الأمورَ مُلْتَبِسَة .

(٥) كناية عن الرّجل من العامّة ، لا همّ له إلا همّ العيش فلا يعلو عن الأرض . (٦) أحفظته وملأته حقداً . (٧) أجزاء . (٨) تنقطع مادته ويبرأ .

المجسَّمَة التي تنتشر عليها النَّفس أو تنقبض ، ويتحرك لها الدَّمُ حُبًّا أو بغضاً ، ورغبةً أو رهبة ، وعطفاً أو غِلظةً ، وأحياناً : إهمالاً أو ازدراءً .

والحبيب قد يتحوَّل إلى كلمة ، أو قُبلة ، أو معنى من المعاني ، إذا أراد مُحِبُّه أن ينقُلَه معه إلى أي مكان وهو باق في مكانه ؛ الكلمة والقبلة والمعنى : هذه هي الجهات الثلاث التي تنفذ منها النَّفس إلى أحبابها حين يُخفيهم الغَمامُ الفاصل بين الحياة والحياة ، إذا ابتعدوا أو هجروا ؛ أو الغمامُ الضّاربُ بين الحياة والموت ، إذا لحقوا بالأبد . أما الجهة الرَّابعة فحين تُفتحَ للمحب يُلقي جسمه ويصعد بروحه ويختفي هو فيها . ولَعَمْري إني لأريد أن أنساها ثلاث مرات لا مرة واحدة ؛ ولكنها في ذِكْراي كأنها ثلاث نساء : واحدةٌ في الرِّضا ، وثانية في الغضب ، وثالثة بين ذلك : واحدة في كلمة ، وأخرى في قُبلة ، وثالثة في معنى من المعاني .

* * *

السَّعادة تنصرف عنا في أكثر الأحيان ليكون تلهُّفنا عليها واهتياجُنا لها سعادةً على وجه آخر ، وكأنما أوشكتْ (١) لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة . وإذا لم يكن الإنسانُ بأشدَّ حاجةً إلى الطَّعام في وقت منه إلى الجوع في وقت غيره ، فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه : يفقد السَّعادة وقتاً كالجوع و وقتاً كالصَّوم . وإن هذا لهو بعضُ أسرار الحكمة الإلهية في الشَّقاء الإنساني ، ولكنه كذلك من أسباب سوء الفهم في الإنسان . ولقد ذهبت هي كالسَّعادة فلا أطمع أن يتنفَّس قلبها على قلبي ، أو يتنهَّد صدرها لصدري ؛ غير أن الشّاعر الرّوحاني الذي يَسعد بالحب إذا أرضى الحبُّ نفسه ، يكون أسعد بالهجر إذا أرضى نفسه كذلك ؛ ومع الحب عالَم كثيف يُنشئ في كل يوم ألمًا ، ومع الهجر عالَمٌ مجرَّد يُحْدِث في كل يوم سَلْوة .

(١) أي قربت وعرضت .

فلنترك المادة للمادة ، يتحطَّم البغض والغيظ فيهما وتتخلَّص الرّوحُ إلى الرّوح ، كنور في المشرق ينبعث إلى نور في المغرب ؛ وإذا ابتعد نجمٌ عن نجم استطاع كلاهما أن يَلْمَحَ للآخر لمحةً متبَسِّمة من بعيد ، يجعلها البعد شعاعاً صافياً ، وإن كانت في ذات نفسها شعلة من جحيم يتضرَّم .

إن هذه الذكرى حياةٌ أبثُّها مني في نسيانها ، فما أهنأني أن يجيئني من نسيانها شيء تبثُّه هي في حياتي !

(....)

بعدما كنتَ وكنا (١)

يا رياضَ الغَزَالِ في سَرْحِكِ الفَيْـ
نَانِ (٢) يَهْـفُو بنـا النُّحـولُ غُصـونَا
ما الّذي يَجْعَلُ المحِبَّ سَعيـداً
غَـيْرُ مَـنْ غـادَرَ المحِـبَّ حَزِينـا
لَيْتَنـي في ثَـراكِ نَبْـعٌ (٣) ويأتي
يَتَـراءَى الغـزَالُ فـي النَّبْـعِ حينـا
لَيْتَنـي فـي رُبـاكِ ظِـلٌ ظَليـلٌ
لِيَـلُوذَ الغـزَالُ بـي ويَلِينـا

* * *

بعـد ما كـنـتَ يـا غـزالُ وكُنّا
ما الّذي تَحْسَبُ الهوى أنْ يكونا ؟

(١) كل ما يأتي في هذه الرّسائل من الشّعر فهو منها .
(٢) أصل الفينان : الحَسَن الشَّعْر الطَّويلُه ، واستعيرت هنا للشَّجر .
(٣) عين الماء .*

الرّسالة الأولى

سأكتب هذه الكلمات المرتَعِشَة ، وسأبسطُ رِعْدةَ قلبي في ألفاظها ومَعانيها ؛ أكتبُ عن (...) ذلك الاسم الذي كان سنةً كاملةً من عمر هذا القلب ، على حين أن السّعادة قد تكون لحَظاتٍ من هذا العمر الذي لا يُعَدُّ بالسّنين ولكن بالعواطف ؛ فلا يسعني إلا أن أردَّ خواطري إلى القلب لتَنْصَبِغَ في الدَّم قبل أن تنصبغ في الحِبْر ، ثم تخرج الى الدُّنيا .

« من هناك » بين ما يَخفُقُ وما يَزْفِر وما يَئِنُّ . « من هناك » .. آه ! مَنْ تُرى في الناس يعرف معنى هذه الكلمة ، ويتسّع فكره لهذا الظّرف المكاني (١) الذي أشير إليه ؟

إن العقل ليَمدُّ أكنافَه (٢) على السّماوات فيسعها خيالاً ، كما ترى بعينيك في ماء الغدير شبكة السّماء كلها محبوكةً من خيوط الضوء ، مفصَّلةً بعقد النُّجوم . ولكن هناك : في القلب ؛ عند مُلْتقَى سِرِّ الحياة وَسِرِّ مُحييها ؛ وهناك : في القلب ؛ عند النقطة التي يتقطّع فيها الطَّرف (٣) بينك وبين من تحب حين تريد الجميلةُ أن تقول لك أوّلَ مرة : أحِبُّكَ ؛ ولا تقولها . هناك : في القلب ؛ وعند موضع الهوى الذي يَنْشَعِبُ فيه خيطٌ من نظرك وخيط من نظرها فيلتبسان (٤) فتكون منهما عُقدة من أصعب وأشد عُقد الحياة ؛ هناك . هذا معنى « هناك » .

* * *

سأكتب أشياء وأضمِرُ على أخرى لا أبوح بها ؛ ما دام لكل امرئٍ باطِنٌ لا يشْرِكُهُ فيه إلا الغيبُ وحده ، ففي كل إنسان تعرفه إنسانٌ لا تعرفه . وليست على المعاني والخواطر سِماتٌ (٥) تميز بعضَها من بعض كبياض الأبيض وسواد الأسود ؛ فأنا وحدي أعرف سبب الزَّلْزَلَة التي أصفها ، والناس بَعْدُ كأولئك الخياليين القدماء الذين كانوا يقولون متى اهتزّت أثقال الأرض (٦) : إن إله المصارعة يَخبِطُ قلبه الآن ، وأعرف سببَ البُرْكان المنْفَجِر ، وكانت خُرافة الأقدمين عندما تتمزّعُ الأرضُ من الغيظ وتلعنهم بألفاظ من النار : أن إله الحِدادة ينفخ في الكِير ؛ أنا وحدي أعرف ما أندمِجُ عليه (٧) وما يُكِنُّهُ (٨) قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها ، نافرةً تتململ ، إن عَفَتْ عنها نَسمةٌ لا تعفو النّسمات كلها .

فسآتيك في رسائلي بالكلام الصحيح والكلام المريض ، ويتشعّب عليك من خبري أمور وأمور ؛ فلا تحاول أن تَهتِكَ سِتْرَ هذا القلب . وإذا صح أن الإنسانَ انطوى فيه العالَمُ الأكبر ، فقد صح أن السّماء انطوت في قلب الإنسان . ما أبعدَكَ عن السّماء ! انظر انظر ، فإن السّماء تقول لك أيضاً : إنها معنى « هناك » .

* * *

لَم تحيِّرني المتناقضاتُ ولا المتشابِهات ، ولا ضِقتُ بأسباب الفكر فيها ، فإن ذلك الحب جعل فيَّ عقلين لا عقلاً واحداً ؛ أحدهما يُقِرُّني في هذه الدُّنيا ، والآخر ينقلني إلى ثانية ؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السّماوات والأرض ودنيا قلبي .

في العقل الأول تنحلُّ كل المشكلات ، وفي الثاني تتعقّد كل « البسائط » : أحدهما قويٌّ فلو اجتمعت عقول أعدائه في عاصفة واحدة لكان وحده عاصفة تَلِفُّ بها لفًّا ، والآخر ضعيف ضعيف تُمْرِضه الابتسامةُ الواحدة مرضاً طويلاً . ذلك يكسِر النَّفس كسراً ويَرُضُّها (٩) رَضَّ الهشيم (١٠) ويَزَعُها (١١) من جَمَحاتِها (١٢) ؛ وهذا - كان الله له

(١) « هناك » من ظروف المكان . (٢) جوانبه ، والمفرد كَنَف . (٣) تقطّع النّظر : أن ينظر في إغضاء وفتور ، كنظر المستَحي . (٤) يختلطان وينعقد أحدهما بالآخر . (٥) أي علامات ، جمع سمة .

(٦) كناية عن الزلزلة . (٧) أنطوي عليه . (٨) يخفيه ويحفظه ويصونه. * (٩) يدقّها ويكسرها ، والمراد يملك أمرها. * (١٠) الهشيم : ما يَبِس من دقيق النَّبات ، فكسْره أهون الأشياء . (١١) يمنعها . * (١٢) نزواتها ورغباتها . *

- لا يُشْبه إلا الفضاء: ما نُسِبَ إلى شيء ولا حُسِب في شيء . الأول جبّار يلد المحنة ويُميتها ، فهو عقل ما ينقطع له من الحيلة مَدَد ؛ والثّاني خَوّار ⁽¹⁾ يُمتَحَن بالنّظرة الفاترة المتهالِكَة دلالاً ، فتحمِل هذه المحنة وتلد في طريقها إليه ، فلا تصل حتى تكون محنتين .

وأنا بين هذين العقلين كأني عالَم عجيب ، حقائقه هي خرافاته ، وما مَثَلي إلا مَثَلُ النّهر الطّامي ⁽²⁾ يتدفّق إلى البحر وقد فار فائِرُهُ ؛ فلو سألت أحْفَى مسألة ⁽³⁾ واستعنت بالفنون والأدوات جميعاً ؛ لتعرف ما هو ذلك الموضع المعيّن الذي يصل بين منبعه ومَصَبّه لكان الجهلُ والعلمُ في ذلك سواء ؛ إذ الموضع في النهر هو كل موضع فيه ، على طول ما يجرى ويمتد .

كذلك حَيرةُ الحياة والحبّ يُجاب عنهما بجواب واحد هو نفسه حَيرة أخرى ؛ ولكني أكتب الآن وقد تركت الحب وتركني ؛ خرجت من المعركة فنشِبَتْ نفسي في معركة أخرى لا أدري أ هي قائمة بين الحب والبغض أم بين الحب والحب ؟

أ رأيتَ قَطُّ ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرْفِرُها ⁽⁴⁾ بأظافره وأنيابه وهي تنتفض يائسةً هالِكة ؟ إنْ تكنْ رأيته فذلك ذئب رحيم لو أنت كنت عاشقاً فرجعتْ لك مَن تهواها مِمّا تحب إلى ما تكره فرأيتَ البغض وما يصنع بقلبك . إنما الذّئبُ نابٌ وظُفرٌ وسَوْرَةُ ⁽⁵⁾ وَحْش يَعْتري ⁽⁶⁾ أكيلَتَه ⁽⁷⁾ فيسطو بها فيُذْهلها عن نفسها ، ثم لا يزيد بعد ذلك على طبيب جاهل في « عملية جراحية .»

أما البغض فذئبُ الدّم : يُساورك سَوْرَةَ الحمّى فإذا هو شُعلةٌ طائرة في عروقك ، لا تدع منك موضعاً إلا مسّتْه ، ولا تمس منك موضعاً إلا نَقَعَتْ فيه ⁽⁸⁾ مثلَ ناب الأفعى من وهَج الحب وسمّه وغيظه وألمه ؛ فما تدري في أيّ ناحية عذابُك من هذا البغض ، ولا من أي الآلام هو .

ولن تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزلية إلا إذا حملك على بغضه بعد أن يحملك على حبّه ؛ فيقتلك مرّتين ، كلّ مرة بسلاح ، وكل مرة على أسلوب ، وكل مرة بنوع من الألم . وذلك ضَرْبٌ من العذاب لا تملكه قوة في الأرض ، لا في الملوك ، ولا في الجبابرة ؛ ولكن تملكه بعض النساء الضعيفات ، ويُعَذِّبْنَ به حتى الملوك والجبابرة .

مهما يبلغ الألم في عذاب إنسان فلن يجاوز حالة معيّنة ، ثم يُغْمَى على المتألّم ويستريحُ ، ولو دُقّت في عظامه المسامير ؛ كالماء : مهما تُوقدْ عليه فلن يَعْدُوَ ⁽⁹⁾ درجةً معروفة في غليانه ، ثم يثبت عندها ولو أضرمتَ عليه من النّار التي وَقودُها النّاسُ والحِجارة . غير أن ألم الحب الشّديد حين يُكْرِهك على بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم ، كانفراد « ذئب الدّمِ » في جميع ما خلق الله من المعاني الوَحْشيّة .

* * *

لم أرَ وصفاً كهذا أفظعَ ولا أبعثَ على الرُّعْب ؛ لأنه إنما هو موصوفُه . فسأخفّف عليك فيما يلي هذه الرّسالة ، ولا أذكر لك ثمّة إلا ما يكون كوصف الجنّة تَزَخْرَفَتْ له ما بين خَوافق السّماوات والأرض ⁽¹⁰⁾ ؛ ولكن دعني أقل لك : إني أبغض من أحبّها ، على أنك لو رأيتها لرأيت نفسها تلوحُ في وجهها ، جميلةً كجماله ، رقيقةً كرِقّته ، محبوبةً كحبه ؛ ولكني مع ذلك أبغضها والله بُغْضَ المحْرور لما يَتَلذّعُ ⁽¹¹⁾ من أشعة الشّمس ، وبغضَ العين الرَّمْداء ⁽¹²⁾ لما يتلألأ من إشراق الضُّحى ؛ فلا يداخِلْكَ في ذلك ريبٌ ولا شَكٌّ . وسيبقى سبب هذا البغض من سِرِّ الحبِّ الذي لا يُعْرَف .

إن بعض الأسرار فيه ضربةُ العنق ⁽¹³⁾ فلا يباح به ، وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يُباح به

---

(١) ضعيف لا جلد فيه . (٢) الممتلئ . * (٣) بغاية التدقيق . (٤) يمزقها وينفضها . (٥) السَّوْرَة : الحدة والبطش . (٦) يصيب . * (٧) والأكيلة : المأكولة ، أي الفريسة . * (٨) غرزت .

(٩) يتجاوز . * (١٠) هذه الكلمة من حديث في صفة الجنة ، والمراد ملء السّماوات والأرض . (١١) المحرور : الحرّان ، ويتلذع : يَتَضرّم . (١٢) المصابة بالرّمَد .
(١٣) كالأسرار السياسيّة مثلاً .

كذلك ، ولكن اعلم أنها هي هي ، وأنه أنا هو . هي الكبرياء كلها : لا تَستَعْذرها من شيء فتُعذِر ، ولا تسمع بشيء إلا التَوَتْ به (١) ؛ وأنا كِبْرياءُ الكِبرياء : ما خُلِقْتُ إلا مُحْكَمَ المعاقِد (٢) لا أتثلّم (٣) ولا أتحطّم ، وتقلّبني في يدك ما تُقَلّبُ عَضَلَةَ الحديد فلا تراها من كل جهة إلا حديداً . هي يمينٌ حَلَف الدّهر بها ليَكذِبنّ كذبة بيضاء مُغشّاةً (٤) ، يَغُرّ بريقُها ويلتمع ماؤها لَمَعَ السراب فتبصر فيها الرّوح معنى الرِّيّ لتلتهب منها بالظمأ القاتل يُفيضها على رمل ذهبي صِبْغَته الشّمس ... وأنا ؟ أنا كلمة قد استوى ظاهرها وباطنها ، فإمّا أن تَصْدُق كلُّها وإما أن تكذب كلها ؛ كلمةٌ ليس فيها جزءٌ محبوب وجزء مكروه ، فلا تحتمل أبداً معنيين . هي كالسَّيل تنحلُّ به السُّحُب ؛ وأنا قمة من الصّخر الصَّلْد تغسلها السُّيول ولا تشقّقها .

ثم هي من وراء ذلك كله فيها روح بلبل يفرّ بأغانيه من ظل إلى ظل في رياض الجمال ؛ وأما أنا ففيّ روحُ نَسْر يترامى بصفيره من جبل إلى جبل في قِفار الحب . حاول العصفورُ الصَّغيرُ الظّريفُ أن يطويَ النَّسْرَ في جناحيه وهو لا يبلغ قصبةً في ريشة في جناح هذا النسر ، ولكنه .. آه .. ولكنه طواه في غير جناحيه .

* * *

أين العقل في الحب والبغض وبخاصة إذا أفرطتْ عليك أسبابهما ؟ أما إن كل طريق لِينفُذَ فيه الإنسانُ على بصيرة إلا هذين ؛ فإن أحدهما إذا احتواك لم يُفْلِتْكَ وأصبحت فيه كالذي يُطافُ به الدّنيا ويداه في قيد ، فمهما سُوِّغ (٥) من الحركة والاضطراب ، ومهما انفسحت له الآفاق ، فإن قَدْرَ ذراع من وثاق حريته الذي يشدُّ يديه هو قياسُ دنياه في طولها وعرضها ما بلغَتْ . فأنا ، على ما كنت أشعر من أن لي عقلين ، كنت أراني في ذلك الحب كأني بلا عقل ، بل كأني مجنون من ناحيتين .

ويسرف عليّ بغضُها أحياناً فأتلهّبُ عليها في زَفَرات كمعْمَعَة (٦) الحريق حين ينطبق مِثْلُ الفَلَكَ من جَهَنَّمَ على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مَضْغَ الخبز اليابس ؛ ثم يُسْرِفُ عليّ حبُّها أحياناً فينحطُّ قلبي في مثل غَمَرات الموت وسكَراته يتطوّحُ من غَمْرَة إلى غَمْرَة ؛ فأنا بين نِقْمَةٍ تَفَجّأ وبين عافية تتحوّل ، وكأنه لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة . أما ماذا يَرُدُّ عليّ الصُّعودُ والنُّزول فسَلْ قصَبَة الزِّئبق (٧) ولا تسلني . إنه سيّال يترجرج في القلب بين شيء مني وشيء منها ؛ وكانت عروقي كأنما ينصبُّ فيها أحياناً دَمُ قتيل فيهجم بالموت (الأحمر) على حياتي يريد أن يَغُولَها (٨) .

إن تلك الفتاة لتُغضب الملائكة الذين لا يغضبون ؛ وقد خُلق النِّساءُ لامتحان الرجال ، وخُلق الرِّجال لامتحان عقول النساء ؛ وخلقت هي وحدها لجلب الجنون لا لامتحانه .

* * *

أراني سأبتدئ أيامي من آخرها ، فإني لا أقصُّها عليك وهي تولَد ، بل وهي تموت ؛ بعد أن تركتني كالقنبلة فَرَغَ الحبُّ من حَشْوها وتريد أن تنفجر . لم أكتب لك إذ كان هواها ناشئاً يَرْتَعُ ويلعب ؛ إذ كان ينكسر انكسار فرخ الطائر حين يهدِلُ (٩) جناحيه لتمسحه أمُّه بجناحيها ؛ ولا كتبتُ إذ كان هواها الجِدَّ أشدَّ الجِدّ ، وإذ كان كالريح المرْسَلَة ، لا تَقف ولا تَنكَسر إلا إذا تدلّى من السَّماء جِدارٌ يبلغ الأرضَ أو رُفِعَ من الأرض حائطٌ يبلغ السَّماء ؛ ولا حين كان الهوى يركض بي رَكْضَ المجنون الذي يجري وكأنه يجري وراء عقله الذّاهب على غير طريق ولا جادّة (١٠) ولا علم ، فلا عقله يقف له ولا هو يدرك عقله ولكني سأكتب وقد ركد الهوى ؛ وقد ماسَحْتُ(١١) قلبي حتى لانَ من غضبه ؛ وقد اجتمع إليّ رأيي الذّاهب . ولا تحسبنّ أني سأَخُطُّ لك قصة

(١) التَوَت : غدرت ومنعت ، وأعذرت : جعلتك تَعْذُرها .

(٢) جمع المَعْقِد ، وهو المفصل ، والمراد : صُلْب . *

(٣) أتكسر . * (٤) مُغَطّاة . * (٥) سوغ : أبيح له .

(٦) صوت الحريق . (٧) الترمومتر .

(٨) يهلكها ويأخذها من حيث لا تدري . * (٩) يرخي جناحيه عند لقاء أمه . (١٠) الجادّة : الطّريق المستَوِيَة ، والمراد الجري اعتسافاً . (١١) لاينتُهُ في القول . *

فيها اليوم والشّهر والسّنة ، وفيها الزّمان والمكان وذلك السُّخْف الذي يُطوِّلون ويُعرِّضون به ؛ إذ يستنهجون سبيلَ الحادثة من حيث تبتدئ إلى حيث تنحدر ؛ فإن هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج ، أما أنا فسأقدِّم إليك تاريخَ لؤلؤة فريدة . هم يخطّونك بقبّة الليل يلمع في بعض جوانبها نورُ كوكب يظهر ويغيب . أما أنا فأضعك في ساعة من السَّحَر بين نَسيمها وجمالها ورقتها وذبول اللّيل فيها ، ثم ينشقّ لك الأبيضُ ذو الحواشي .(١)

* * *

ودعني أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه . إن اللّين في القوّة الرّائعة أقوى من القوّة نفسها ؛ لأنه يُظهر لك موضعَ الرّحمة فيها ، والتّواضع في الجمال أحسن من الجمال ؛ لأنه ينفي الغرور عنه ؛ وكل شيء من القوّة لا مكان فيه لشيء من الرّحمة فهو مما وضع اللهُ على النّاس من قوانين الهلاك .

اجمع ، يا عزيزي ، إن استطعت سِرْبًا من الوحوش الضارية وصَفِّفْها لونًا إلى لون ، وصنِّفها شيئًا إلى شيء ، فإنك سترى في « جلودها » مكتبة ضخمة من هذه القوانين . والوباء الذي يَحْلِقُ النّاس حَلْقَ الشّعر فيتساقطون ألوفًا بجرّة من يد الموت ؛ والزّلْزال الذي يَرُجُّهم في غِرْبال الأرض رَجَّ الحصى ينَفْيه من هنا وهنا (٢) ؛ والمصائب التي تبسط العقوبةَ على النِّعَم في سطوة كهدير الموجة العاتية حين تصارع العاصفة ؛ والجميلة المغرورة التي تراها في أخلاقها من طِراز كدماغ السّكّير الفارغ مُزيّنًا بخيالات الخمر وسَوْرَتها — كل تلك من « قوانين العقوبات » في العالم الذي خَلَق مُتّهمين وقضاةً ولا مَن يحامي .

وهٰذه التي سأقصُّ عليك منها فلسفة الجمال والحب ، قوة من القوى لم يجعل اللهُ القسوةَ فيها إلا لعلمه بها ؛ وما ابتساماتها الفاتنة إلا كسجن من البلّور الصّافي يختنق من يُحبَس فيه وهو يتلألأ .

وكنت أراها أحيانًا في جمالها وتأثير جمالها كأنها طاووس من طواويس الجنّة على كل ريشة فيه لون من ألوان النار .

نصيحتي لكل من أبغض مِن حُبٍّ : أن لا يحتفل بأن صاحبته غاظته ، وأن يُكْبِرَ نفسَه عن أن يغيظ امرأة ؛ إنه متى أرخى هذين الطَّرفين سقطت هي بعيدًا عن قلبه ؛ فإنها مُعلّقة إلى قلبه في هذين الخيطين من نفسه .

ما من قُفْل بلا مِفْتاح وإلا فما هو بقُفل ؛ والإهمال والازدراء وسموُّ النّفس ثلاثة مفاتيح لقفل واحد ، هو قفل الغيظ .

الرّسالة الثّانِيَة

لقد هَوّلْتَ عَليَّ في كتبك حتى أخرجتَني عن غيظي إلى غيظ آخر . تقول : « ويحك ! أراك أخرجتَ القمر من دارَتِهِ (٣) ، وجئتَ به على أعين النّاس ؛ وإلا فمن تلك التي لمستَ الفلكَ الأعلى حين لمست قلبَها ؟ فكأنما اجترأتَ على القَدَر فِيها حَلَفَ لَيُتيحَنّك فِتْنَةً (٤) تَدَعُك وما يلوي منك شيءٌ على شيء . ومَن عساها تكون هٰذه التي ليس فيها إلا ما في الطاووس الميت من ريشه الجميل ، وهي مع ذلك رضاك (٥) في الحب وفي البغض سواء ؟! »

ثم تقول : « ولعلها رَفَعَتك إلى الشّمس والقمر والنُّجوم ؛ لأنهم عشيرتُها وأهلها . فأنت تخاطبني في رسالتك الأولى وكأنك مُرْتَفِق (٦) تحت جَناح جبريل ، أو مُتّكِئٌ على بِساط الرّيح ؛ فتصف ما لا عهدَ لنا به من كلام مُفَوَّف (٧) كأنه عُرَف الجنّة ، تَفويفها لَبِنَةٌ من ذهب وأخرى من فضة ، وتفويفٌ

(١) الصُّبح ، من قول القائل :

فلمّا شَقَّ أبيضُ ذو حواشٍ له حالٌ وللظَّلماء حال

(٢) هذا التّعبير مأخوذ من قول الشاعر : *

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نَفْيَ الدّراهيم تنقاد الصّياريف

(٣) هالته . * (٤) ليَقدُرنَّ لك فتنة . (٥) أي كافيتك .

(٦) مستند إلى مرفقه . (٧) مُرقّق مُزيّن . *

كلامك جُمْلَةٌ من الحب وجملةٌ من البغض . وتَنْعَت غراماً كأنما فُصِّل لك ثوبه من سَحابة يمر فيها مِقْراض البَرْق ، ففي كل ناحية منه فَتْقٌ من النار .»

وتسألني : كيف أجعل نفسي كالميت فلا أكتب إليك إلا يوم تحين الوصية ، ولا أخبرك إلا وقد حُلّت عقدُة القلبين وانفسحت أُلْفَةُ ما بينهما ؟

* * *

فيا ويحك ! أ لا تعلم أن مِرْجَل الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللّهب الأحمر يَنْفث نَفْثَةَ المارد الممدود بسلاسله في قاع الجحيم ؛ فيرمي بسهام من الذَّرّ المحرِق لو كان في جهنم رَهَجٌ يثور لما كان إلا دُقاق ترابها (١) ؟ أم تُراكَ لم تُدْرِكْ من رسالتي أني أسَع مِن بغض مَنْ أحببت فوقَ ما يملؤني ، وأن هذا البغض وجهٌ آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم ، وباطنه له ألم ، وما يمسّه من ظاهره غير ما ينْكُتُ (٢) فيه من باطنه ؟ أم حسبت أني أزَيّن لك صورَ الكلام وأزخرفها بألوان لا تُلْتمَسُ إلا لرونقها وانساجمها وحسن تآلفها ، فمنها الأسود لأنه أسود ، ومنها الأحمر لأنه أحمر ، ومنها لون قلبها لأنه لون قلبها ؟

كَلّا ثم كلّا ! فلا تتهَدّم عليَّ (٣) بمثل ما كتبت ، واعلم أنه هو ما وصفتُ لك ؛ وأن السَّحابة التي تراها تَدْمَع حيناً لا يَبْعُدُ أن تراها قد تلفّفَت على صاعقتها ثم اجتمعت أرحاؤها وبواسقها (٤) ثم ارتجّتْ ، ثم تنفجر .

ولم أكتب إليك من قبل ؛ لأني أحب بلا غاية أباهيك بها ، ولا غَرَض أستعينُك عليه ، ولا سر أستودعك إياه . وهل رأيت الحب ينكشف إلا في واحدة من هذه الثّلاث ؟ وهل انكشف قطُّ إلا تتابعت عليه أمور وأمور ، وامتلأت منه الأنفس بالظُّنون والغَفَلات ؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية في ديوان شعر ، لا خطبة سياسيَّة في حفلة . فما ثَمَّ إلا معنى دقيق لطيف خلاب ساحر ؛ كل قولي له : أريد أن أفهمك ؛ وكل قوله لي : تأمّلْ تَفْهم .

إن ألذَّ المعاني في هذا الجمال ما جعل ينبو (٥) في يديك كلما ألقيتَهما عليه كيلا تستمكن منه ؛ ففي كل نَبْوة يظهر لك منه جانب ، وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً ، ولا تزال تجري ويجري : أما أنت فتشتد جهداً في سبيله ، وأما هو ففي سبيل منبعه من الجمال الأعلى الذي أفاضه موجة منه ، فكأنك ذاهب إلى الجنة حيًّا ؛ لا يمرُّ بك إلا في روح وريحان على طريق من لذة النَّفس لا تنتهي ؛ إذ هي من حيث لا نعرف إلى حيث لا نعرف ؛ وتغدو كأنك في تلك اللّذّات الرّوحية طِفْلٌ لا يكْبَر ما دام في عمر الحب .

والحب الرّوحي الصّحيح إنما هو كالطفولة : لا تَعرف وجه الفتى إلا شبيهاً بوجه الفتاة ، فليس فيه تذكير وتأنيث ، بل حالة متشابهة كاخضرار الشّجر تبعث عليها الحياة ، حين لا يجيء الحسُّ فيها إلا من جهة القلب . وما أرى الشّجرة حين تخضرُّ إلا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف كثيرة ؛ ولا الزَّهرة حين تتعطّر إلا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الإلهيَّة ؛ ولا الإنسان حين يعشق عشقاً صحيحاً كما تُرَوِّحُ الشّجرِة وتنفطر (٦) إلا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النَّقيَّة الجميلة المعطَّرة .

كذلك يكون هذا الحب عند الذين خُلقوا للشّعر والحكمة إذا هم اتصلوا به ؛ فإنه لا يهبط إليهم من السَّماء إلا ليملأ أوعيتهم ؛ وفي هؤلاء خاصَّة يكون الحبُّ الإنساني هو السَّرَب (٧) الذي يتخذونه سبيلَهم إلى غَوْرٍ (٨) ما في الأمواج الإلهية العظمى التي لا تنتهي أعماقها ، فيغوصون ويخرجون وفي أيديهم أفلاذُ الحكمة ولآلِئُها ؛ ومن شَفَتَي المرأة الجميلتين يخرجون للنّاس كلامَ السّماوات .

(١) الغُبار الدَّقيق ، والرَّهَج والغُبار واحد . (٢) يضرب . *
(٣) تتهجّم . (٤) أعاليها وأسافلها .

(٥) يتباعد . * (٦) أي على هذا الأسلوب الطبيعي الذي لا صنعة فيه حين ينفطر الشّجر ويخرج أوراقه .
(٧) الطّريق تحت الماء . (٨) العُمق .

أما الآخرون فتلك عقول كادَها بارئُها . (١) عقولُ النّاموس الأصغر العامل في حَرْث الأرض...(٢) يضم أحدُهم يديه على الجمال فيتلقّفه فيجعل أصابعه أعواد القفَص لهذا الطّائر ، ويقول له : « لطالما التمَسْتُك في جَوّ السّماوات ، وطالما كنتَ وكنتَ ؛ فههنا فاستقِرّ ! »

ولا يراه بعد قليل إلا كما اغْتَرَفَ غَرْفَةً من الموجة : كانت حركة تفور فأصبحت سكوناً هامداً ، وكانت ملءَ البحر فصارت ملء الكف ، وكانت مَوْجَة فصارت ... آه ، فصارت بصقة .

* * *

أقول لك : أحببتُها لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع به في رواية تبتدئ وتنتهي في جزءين من رجل وامرأة ؛ ولا كالحب الذي يؤلفه الكُتّابُ والشُّعراء حين يجمعون عشرين معنى في كلمة ؛ أو يُرْسلون عشرين كلمة لمعنى ؛ ولا كالحب الذي يُباع ويُشْرى فتأخذ منه بالدّينار أكثر مما تأخذ بالدّرهم ؛ ولا كالذي تجيئه وأنت من الإشراق والنّور كزجاجة الخمر ، فيعيدك وأنت من الظُّلمة والسّواد كزجاجة الحبر . أحببتها ولا كالحب نفسه .

منذا الذي قال : « من يُهلِكْ نفسه من أجلي يَجِدْها ؟» أظنه المسيح ، وقد كانت هي تتمثّل بها كثيراً (٣) ؛ ولكن هذه الكلمة بعدُ كلمةُ الحياة الأزلية التي تقول للنّاس حين يشكّون فيها : موتوا لتعرفوا . كلمةُ الجمال الأعلى الذي يقول للشّمس حين تصفَرُّ : اغْرُبي لتُصبحي بيضاء حيّةً في النّهار . كلمة الحب الصّحيح الذي يقول للمُبْتَلى به : تعذّبْ لتعرف كيف تتخيّل السّعادة وتتمناها . كذلك ترانى ، لا أحب إلا لثلاث : لأعرف وأحس وأتخيّل ؛ ولا أهلك بالحب إلا لثلاث : لأوجَدَ في نفسي ، وأبقى في نفسي ، وأضمَّ نفساً إلى نفسي .

* * *

أ فهمت أيها الصديق أم أزيدك ؟ ها أنا أهبط عليك من الفَلَك الذي تقول إني لمسته حين لمست قلبها ؛ فأعلم أني لا أحب فيها شيئاً معيّناً أستطيع أن أشير إليه بهذا أو هذه أو ذلك أو تلك ؛ حتى ولا « بهؤلاء » كلها . إنما أحبها لأنها هي هي ، كما هي هي ؛ فإن في كل عاشق معنى مجهولاً لا يحدُّه عِلْم ولا تصفه مَعْرِفة ؛ وهو كالمصباح المنطفئ : ينتظر من يُضيئه ليضيء ، فلا ينقصه إلا من فيه قِدْحَةُ النّور (٤) أو شرارة النّار . وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين ، ولكن الشّأن في تحرُّك القلب حتى يُدني مصباحه لتَعْلَقَ به الشُّعلة فيتّقد ، وما يحركه لذلك إلا القَدَر ؛ وما أحكَمَ النّاسَ إذ يقولون في بعض حوادث الحريق : إنها « وقعت قضاءً وقدراً » ، فكل حريق القلوب لا يقع إلا هكذا .

ومتى قَدَحَت الجميلة على قلب رجل أضاءته ، فيضيئها نوره بألوان من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدّق بها إلا صاحبُ هذا القلب ، فلو أن الشّمس دامت تصبُّ أشعتَها على طلعة هذه المرأة ألف سنة تحياها جميلة شابّة لا تضعف ولا تَرِقُّ سِنُّها (٥) لما كشفت لأعين النّاس شيئاً من تلك المعاني السّحرية التي يكشفها ضوءُ قلب عاشقها لعينيه ؛ وما ضوء قلبه إلا منها ، فلن تكون فيه إلا ما أحبت أن تكون فيه .

بَيْدَ أن مصائب المحبّين إنما تأتي من انقلاب المصباح فيستطير حريقاً لا ضوءً ، وترى النّار تَعْتَلِجُ (٦) في القلب وذُؤابتُها (٧) تتلوّى في الرّأس ، ويُصبح العاشقُ مُرَنّحاً (٨) بما اعتراه من الوَهن والضَّعْف ، كأنه في جملته وفيما لبسه من الهمّ والسّواد ما تراه من بقية بيت محروق .

---

(١) أرادها بسوء . (٢) في القرآن الكريم : « نساؤكم حَرْثٌ لكُم » ، وهو مجاز على التّشبيه لا نظير لبلاغته ، يُفْهِم معاني كثيرة ، فافهَمْ ...!

(٣) فتاة هذه الرسائل سورية مسيحية تعرّف إليها الصّديق في لبنان ، ثم قدمت إلى مصر أشهراً فاتّصل بها ، ثم ضرب الدّهر بينهما وسافرت إلى حيث لا يدري ، بعد أن سافرت من قلبه .

(٤) الشُّعلة من النّور (٥) كناية عن الهرم . (٦) تشتعل وتتقاتل. * (٧) قمتها ولسانها. * (٨) متساقطاً من الضعف.

رأيتها مرّة في مرآتها وكانت قد وقفت إليها تُسوّي خُصْلَةً من شعرها الأسود الفاحِم المتَدَلّي عَناقيدَ ، ولم يكن بها ذلك كما علمت بعدُ ؛ وإنما أرادت أن تطيل نظرها فيَّ من حيث لا أستطيع أن أقول إنها هي التي تنظر ؛ فإن ذلك الذي ينظر كان خيالها . فلما انتصبت إلى المرآة خُيِّل إليَّ أني أرى مَلَكاً من الملائكة قد تمثّل في هيئتها وأقبل يمشي في سَحابة قائمة من الضوء ؛ أو أن يد الله في لَمْح النَّظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصَّحيفة يتموّج في ألوانه الزّاهية ؛ أو هي قد أرادت أن تبعث إليَّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون في يدي منه شيء ؛ فأرتني مرآتها .

أ لا فاعلم أن هذه التي في المرآة ، وهذه التي أمام المرآة ، وهذه التي هي في قلبي – ثلاث في واحدة ! ولو هممتُ أن أضع يدي عليها فرَّت من يدي لتختبئ في مرآتها ، وتفرّ من المرآة لتختبئ في قلبي ، فكأنما كنت أعشق مخلوقة من مخلوقات الأحلام لا تُدرك بجميع أجزائها ، وإذا أدْرَكْتُ بقيت وهماً لا تناله يد . وهي كالملائكة قادرة على التَّشكُّل إلا أنها تتشكّل في الذّهن ، فبينا تراها شخصاً جميلاً ، إذا هي فكرة جميلة تتعطّف عليها حواشي النَّفس ؛ وبذلك تستطيع أن تُشْعِرَني أنها فيَّ وإن كان بيننا من الهجر بُعْدُ المشْرِقَيْن ، وأن تنزل بالسَّلام على قلبي وإن كانت هي نفسها الحرب ؛ وأن تجعلني أحبها وإن كان بغضها يأكل من جوانحي .

تراها مع أيّ أحوالها كالسّعادة : تَخيُّلُها هو هي .

ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها ؛ وإنّ لها لَغضباً تَجْمَحُ (١) فيه فتملأ جوَّ النَّفس بمثل الغُبار الذي يُثير الجَوادُ الكريم إذا انجَرَدَ للسَّبْق وترك أعناق الخيل تتقطّع عليه (٢) ولا تلحقه ، فتراه يغضب ويتميّز ويحاول أن يسبق جِلْدَه ، وأن يخطف أرض الله كلَّها في حوافره . تغضب على أسلوبٍ من هذا الطِّراز ، أو من طراز البحر الزّاخر حين يَتَقلّع في أيدي الأعاصير ، أو من طراز الأرض حين تَتخلّع في أيدي الزّلازل . وأحياناً من الطِّراز الرَّقيق ، حين تتجاهل في غضبها مُحِبًّا هي بعض تاريخه ، فتدعه يشعر أن فيه مكاناً مجهولاً ، وأن من قلبه قطعةً منزوعة ؛ ومرّة من الطِّراز العسير حين تلوي وتُعَقّد حتى تتركني وكأني ما أجد في الدُّنيا مكاناً ليست فيه ، ولا مكاناً هي فيه .

وكلُّ هذه الأساليب شروحٌ وتَفاسيرُ ؛ أما المعنى الذي تدور عليه فهو هذا : داء الحب نقداً والدَّواء عند السِّين وسوف ... عند هذه الجميلة التي هي أكذبُ ما في الصِّدق عند مُحبِّها ، وأصدقُ ما في الكذب على محبها .

(١) تركب هواها ، ولا يمكن ردها ، والمراد : تشتط . *

(٢) لا تلحقه . يقال : تقطعت على هذا الجواد أعناق الخيل ، أي لم تلحقه . *

الرِّسالة الثّالِثَة
« حيلة مِرآتِها »

حَسْناءُ ، خالِقُهـا أتَـمَّ جَمالَهـا
سَـألَتْهُ مُعْـجِزَةَ الهَـوى فَأنالَهـا
لَمّا حَباهـا الله (جَلَّ جَـلالُهُ)
بِالحُسْنِ مُنْفَرِداً ، أجَلَّ جَلالَهـا
تُضْنـي المُحِـبَّ ، كَأنّمـا أجْفانُهـا
ألْقَـتْ عَـلَيْهِ فُتـورَهـا وَمَلالَهـا
هَيْفاءُ ، قَدْ حَسِـبَ النَّسيـمُ قَوامَـا
غُصُنًا ، فإنْ خَطَرَ النَّسيمُ أمالَهـا
سَيّالَةُ الأعْطافِ (١) ، أيْنَ تَرَنَّحَتْ (٢)
تُطْلِقْ لِكَـهْرَبَةِ الهَـوى سَيّالَهـا
طَلَبوا لَهـا شَبَـهاً يُضـيءُ ضِياءَهـا
لِهَـوى النَّواظِرِ ، أوْ يُدِلُّ دَلالَهـا
أمّا السَّمـا ، فَجَلَتْ عَلَيْهِمْ بَدْرَها ،
وَالأرْضُ قَدْ عَرَضَتْ لِذاكَ غَزالَها

(١) المراد لينة القوام . *   (٢) تمايلت . *

لكِنّها نظَرَتْ ؛ فَأَخْجَلَتِ الظِّبا
وَتَلَفَّتَتْ لِلْبَدْرِ فاستحيا لَها
هُمْ يَطْلُبونَ مِثالَها ، فَلْيَرْقُبوا
مِرْآتَها يَجِدوا هُناكَ مِثالَها

* * *

مِرْآةُ فاتِنَةِ النُّفوسِ ، وَصَفْحَةٌ
تَتْلو بِها أَرْواحُنا آمالَها
لَمّا عَجِزْنا أَنْ نُفَصِّلَ وَصْفَها
جَمَعَتْ لَنا مِرْآتُها إِجْمالَها
واهًا لِمِرْآةِ البَخيلَةِ : لَوْ رَنَتْ
يَوْمًا فَأَهْدَتْ في الجَفاءِ خَيالَها
تَتَلألأُ الضَّحِكاتُ في جَنَباتِها
فَتَخالُ ضَوْءَ الشَّمْسِ هَزَّ صِقالَها (١)
مَنْ ثَغْرِها ؛ مِنْ مَنْبَعِ النّورِ الَّذي
نَبَعَتْ بِهِ ضَحِكاتُها فَأَسالَها
تَتَنَقَّلُ اللَّحَظاتُ في أَنْحائِها
قَتّالُهـــا مُسْتَتْبِـــعٌ قَتّالَهـــا
جَرَحَتْ بِها وَبِهُدْبِها ، وَكَذا الهَوى
أَبَدًا يَعُدُّ مِنَ السُّيوفِ ظِلالَها
حورِيَّةٌ شَهِدَتْ لَها جَنّاتُها
وَجَمالُ عَيْنَيْها شَهادَتُها لَها
وَكَأَنَّما المِرْآةُ مِنْ أُفُقِ السَّما ،
وَكَأَنَّها مَلَكٌ يَلوحُ خِلالَها

* * *

وَقَفَتْ لَها يَوْمًا فَأَلْقَتْ نَظْرَةً
حَيْرى ، تُشابِهُ وَعْدَها وَمِطالَها (٢)
نَظَرَتْ بِلَحْظٍ نافِذٍ لَوْ أَنَّهُ
لَقِيَ الإِرادَةَ نَفْسَها لاغْتالَها

(١) صِقال المِرْآة : ماؤها ورونقها . (٢) تسويفها . *

نَظَراتِ حَوّاءَ الَّتي أَوْهَتْ بِها
عَزَماتِ (٣) آدَمَ ، يَوْمَ ضَلَّ ضَلالَها
فَرَأَتْ عَلى المِرْآةِ وَجْهًا ظَنَّهُ
مَلَكَ الجَمالِ يُحاوِلُ اسْتِقْبالَها
راعَ المَليحَةَ مِنْهُ فَرْطُ جَمالِهِ
أَمْ راعَها أَنْ لا يَكونَ جَمالَها ؟
فَرَنَتْ (٤) بِنَظْرَتِها إِلَيْهِ تُطيلُها ،
وَرَنا بِنَظْرَتِهِ لَها فَأَطالَها :
لَحْظانِ لَوْ رَجَفا عَلَيْكَ تَراجَفَتْ
كُرَةُ الفُؤادِ فَزَلْزَلَتْ زِلْزالَها

* * *

نَظَرَتْ لَها حُسْنًا إِذا ما احْتَلَّ في
دُوَلِ النُّهَى (٥) ، سَلَبَ النُّهَى اسْتِقْلالَها
وَرَأَتْ لِسِحْرِ جُفونِها ما راعَها ،
وَرَأَتْ لِفَتْكِ لِحاظِها (٦) ما هالَها
فَتَذَكَّرَتْ شَمْسُ الجَمالِ مُتَيَّمًا
تَرَكَتْهُ مِنْ فَرْطِ النُّحولِ « هِلالَها »
ما زالَ يَشْكو « الصَّدَّ » حَتّى بَغَّضَتْ
في نَفْسِهِ « صادَ » الحُروفِ « وَدالَها » ،
وَرَأَتْ صَفا المِرْآةِ يُشْبِهُ قَلْبَهُ :
مَهْما تُحَمِّلْهُ يَكُنْ حَمّالَها
فَتَنَهَّدَتْ أَسَفًا عَلَيْهِ ، وَأَنْشَأَت
عَبَراتُ رَحْمَتِها تَجولُ مَجالَها
جَزِعَتْ لَهُ ؛ يُعْنَى العِنايَةَ كُلَّها
وَتُريهِ كُلَّ ثَوابِهِ إِهْمالَها
حالانِ : خَيْرُهُما وَشَرُّهُما سُوًى (٧)
وَمِنَ المَنافِعِ ما يَجُرُّ وَبالَها (٨)

(٣) ما له من ثبات وصبر فيما يَعْزِم عليه . *
(٤) رَنَت : أدامت النظر في سكون طَرْف . *
(٥) النُّهى : العقل . * (٦) اللحاظ : مؤخر العين . *
(٧) سواء . * (٨) الوَبال : سوء العاقبة . *

جُهْدُ المُقامِرِ أنْ يُحاوِلَ حيلَةً
وَلَكَمْ أضرّتْ حيلَةٌ مُحْتالَها
وَالعُمْرُ آمالٌ ، وَما جَلَبَ الشّقا
إلا ابْتِغاءُ الطّامِعينَ مُحالَها
إنّ الّذي أعْطى النُّفوسَ عُقولَها
جَعَلَ القَناعَةَ لِلنُّفوسِ عِقالَها (١)

* * *

جَرَتِ الخَواطِرُ بِالمَليحَةِ لَحْظَةً
شَغَلَتْ بِأحْزانِ المتَيّمِ بالَها
فَبَدا عَلَيْها بَعْضُ ما قَدْ نالَهُ
وَبَدا عَلى المِرْآةِ ما قَدْ نالَها
وَرَأتْ لَها وَجْهاً تَغَشّاهُ الأسَى
والحُسْنُ قَدْ مَنَعَ الأسَى أمْثالَها
كادَتْ تَقولُ : « رَضيتُ عَنْهُ » ، فَأمْسَكَتْ ،
وَمَضَتْ عَلى عَجَلٍ لِتُخْفِيَ حالَها
أوّاهُ لَوْ مِرْآتُها نَجَحَتْ ... وَلَو
فَمُها تَبَسَّمَ عِنْدَ ذاكَ « وَقالَها »

الرِّسالة الرّابِعَة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدي هذا الذي تقوله في كتابك :

« لو كانت تلك الفتاةُ السّاحرةُ شجرةً يابسة تحاتّتْ (٢) ، وكان النّساء كلّهن شجراً أخضرَ لأورقت عليك وأثمرت ؛ فإنّ فيك وفيها القوّةَ والسّبب ، ومن مثل هذه القوّة وهذا السّبب تخرج معجزات الحب .»

آهِ لو صحّ ذلك ! إنّ بعض الرجال يكون في صفاته كذباً على الرِّجال ، فهذه والله كذبٌ على النّساء . ولو جاز لقلتُ إنّها وُلدت خطأً في هذا الجلْد ؛ بل ما وضعها الله فيه إلا لعِلْمه بها ، وليجعل منها عَلَماً لمن شاء أن يَدْرُسَ بروح الرَّجل المحِبِّ أو المبْغِض جمالاً شاذًّا في روح امرأة تحتمل الحب والبغض معاً . لم يكن فيَّ وفيها القوّةُ والسّبب بل القوّةُ والقوّة ، وما كنّا إلا كدولتين مُتحالِفتَين : تمنع قوّتُهما أن تعتديَ واحدة على واحدة ، وَيشقُّ ذلك عليهما فتعبّران عن لفظ القوّة بلفظ أرقّ وأجمل وهو المخالَفَة ؛ ثم يرقُّ هذا اللّفظ فتخرج منه الصّداقة ، ثم ترقُّ هذه فيجيء منها الحب ؛ ولا حُبَّ هناك ولا صَداقةَ ولا محالَفَةَ ، بل هي أساليب سياسيّة في لغة القوّة ، حين تخشى وحين تطمع .

لقد أذكَرْتَني بالشّجرة اليابسة يوماً جميلاً وكلاماً أجمل منه ، فأنا باعثٌ به إليك وإن كان قد بَعُدَ به العهد ؛ إذْ وقع أوّلُ معرفتي بها في قرية (...) بلبنان . هناك زهرٌ أصفرُ يلوح للعين كوجوه الدّنانير يسمّونه « الوزّال » ، وهو طيِّب الرّائحة ولكنه خبيث النَّبْتة ، لا يكون إلا في مثل الرّماح من الشّوك . وكان لها وَلَعٌ شديدٌ بهذا الزّهر لِطَبع من أشواكها وأشواكه فقد نلتُ من كليهما . وسنحتْ لها على زهرة منه فَراشةٌ زاهية مصبوغة فوثبت إليها واشتدّت وراءها ، وكانت الفراشة تفوتها وتستطردُ لها وتعبَثُ بها عبثاً بين أن تلوح وتختبئ ، ثم رجعت « الفراشة الكبيرة » بعدما انقطعت (٣) ، وقد تزاحمت الأنفاسُ على صدرها ، وجعل قلبُها يغيظني بدقّاته غيظاً شديداً ؛ إذ كان يخفق من البُهر والإعياء لا من شيء آخر ... وتساقطتْ تحت شجرة من التين ، فلما أراحتْ وثابتْ إليها نفسُها قالت : « فراشةٌ لا تبلغُ عُقدةَ إصبع من ثوبي وتُعَنّيني هذا العناءَ كُله ثم أرْتَدُّ عنها خائبة ؟ »

قلت : « بل خائبةً خيبةَ المفْلِس يعدو يومه وراء « الدّينار الطّائر » فلا يدركه . »

فاجتذبها إليّ كلمةُ « الدّينار الطّائر » ، ومن خصائصها أنّها لا تُعْجب بشيء إعجابَها بدقّة التّعبير

(١) العقال : الحبل الذي يقيد به البعير . *

(٢) تساقَطَتْ أوراقُها من اليُبْس أو عارضٍ ما .

(٣) انقطعت : تعبت . *

الشِّعريّ ، وسأستوفي لك هذا في رسالة أخرى . إنها تريد أن تجمعَ إلى صفاء وجهها وإشراقِ خَدَّيْها وخلابتِها وسحرِها صفاءَ اللّفظ ، وإشراقَ المعنى ، وحسنَ المعْرِض ، وجمالَ العبارة ، وهذا هو الحب عندها : تحبك كما تحب كلمةً تكتبها ، أو معنى تتخيله ، فإذا سئمتك لم تكن عندها إلا الثّالثة ؛ إلا صحيفة تمزّقها .

* * *

ورفعتْ رأسَها إلى الخيمة الخضراء ثم قالت : « هذه شجرةُ تين . »

قلتُ : « وماذا في أنّها شجرةُ تين ؟ »

قالت : « أ لا تعرف تينةَ الإنجيل ؟ »

قلت : « وإنّ في الإنجيل لَتينةً ليست كغيرها ؟ »

قالت : « كان من خَبَرها [1] أن المسيح مَرّ في جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فَيْنانةً خضراءَ تهتزّ كأنها تدعوه ولم يكن إبّان [2] هذه الفاكهةِ ؛ فَعدَلَ إليها لعلّه يجد فيها شيئاً يَطْعَمُهُ ، فلم يجد غير ورقها الذي لا يؤكل ؛ فقال لها : « خَسِئْتِ ، لا يأكلنّ منك أحدٌ ثمراً بعد اليوم ! » وانحدروا إلى أورشليم ؛ ولما أصبحوا انقلبوا فمرّوا بشجرة التّين فإذا هي خاويةٌ قد نزعت ثوبَ نَضْرتها والتَفّت في كَفَن من اليُبْس وماتت واقفة . فرماها بطرس بعينيه وقال : « انظر يا سيِّد ! إن هذه التّينَةَ التي مَرَدَتْ [3] عليك فلعَنْتَها قد ماتت وثَراها حَيٌّ بعدُ . » »

قلت : « هذه لَعَمْري هي المعجزة ، تموت الشّجرة وثراها حيٌّ ، وتجري اللّعنة في أعوادها فَتَتَشَرَّب ماءها وتتركها يَبَساً لا تصلح إلا للحريق ، وتنقلب الشّجرة الخضراء في ليلة من خشب الله إلى خشب النّاس . ولكن ما ذنبُ الشّجرة المسكينة إذا لم يكن موعدَ فاكهتها ويريدها المسيحُ على غير طبيعتها ؟ »

قالت : « فإنّ الذّنب في اخضرارها كأنها ذاتُ ثمر . »

قلت : « أ و ليس للثّمر وقتٌ قد مضى ، وهل الشّجرة إلا شجرة ؟ أم تحسبينها تُدير الشّمس وتقلب الفصول لتعقِد الماء ثمراً حلواً ؟ أ لا إن الشّمس تدور ، ثم يحين الفصل ، ثم ينعقد الماء ، ثم يحلو التين فينضج فيؤكل . »

قالت : « إنك لتجيء بالدّواهي ، فماذا تقول أنت ؟ »

أقول : « اعلمي أنّ فيلسوفاً يونانيًّا كان قبل المسيح [4] ، وكان يرى أن تلك الشّجرة ومثلها مما سَفَل وعلا من قَدَم الكون إلى ذؤابته إنما هي الإرادة البشرية بعينها إلا أنها لم تكتمل لِعلّة ما . فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سَوِيٍّ ، ذهب طوله في عرضه فلم يُعْرَفْ شيءٌ من شيء ، وكأن الإنسان هو الذي نما وتَمّ . فالشجرة إن لم تكن من الإرادة كما يقول هذا الفيلسوف ، فهي من الحياة ؛ وقد التقى منها ومن المسيح إنسانٌ حي وشيء حي ؛ والتقيا على خِلاف انقلبت فيه إلى حياة ذات إرادة ، وإرادة ذات كبرياء ، وكبرياء في رُعونة ، يختال بها جِذْعٌ خشبي غائر في الأرض على جذع روحاني باسِق في السّماء ؛ وتتيه عشبةُ الطّين على زهرة الفلك الأعلى .

« والكبرياءُ كانت من شرِّها أولَ ما تمرّد به الشيطانُ على الله [5] ، وأولَ ما لعن الله به الشيطان، وحَسْبُها من الشّرّ أنّها ذهبت بجميع حَسَنات شيخ الملائكة (كان [6] ...) فهوى بعدها من لعنة الله في أعماق لا تنتهي ، ولا يزال فيها طائراً إلى أسفل . وما برحت هذه الكبرياءُ ثقيلةً على الأرواح الصّافية الكريمة ، ولو كانت ممن تحِقّ له ، ولو كانت من شجرة تحييها الشّمس ويقوم على حفظها ناموسُ الكون .

« والمسيحُ لم يفرّ إلى ظلّها من حَرّ ، بل إلى ثمرها من جوع ؛ فلما أتاها بجوعه تلقّته بزَهْوها .

(١) هذه القطعة من إنجيل مرقس ، يرويها الرافعي بأسلوبه . *

(٢) إبّان الشيء : أوله ، والمراد هنا : أوانها . *

(٣) عتت وعصت وتكبرت . *

(٤) هو سيدوكليس ، كان قبل المسيح بأربعة قرون .

(٥) حين تكبّر فأبى السّجود لآدم .

(٦) أي سابقاً .

قال لها بلسان قلبه العظيم : « هأناذا ! » فقالت له : « وهأناذِه ، أخرى غير التي تريد ! » ظل جائعاً وظلت خضراءَ تتموّج لعينيه شِبَعاً وريًّا ، ما تستحي ولا تتواضع بجفاف ورقة منها تسقط عذْراً عند قدميه . كانت في غير حالته القائمة بروحه ، وكان في غير حالتها القائمة بروحها ؛ فكل ذنبها في روحه هو ، وفي حالته هو ، وفي حِسّه هو ؛ فاشمأزّ منها فيبست ، ولعنها فماتت ، ورآها ظلاماً فأطفأ سُنّتَها إلى الأبد . »

« هكذا يفعل الرّوحُ الأقوى بالرّوح الأضعف حين يختلفان ، والمتكبّر دائماً هو الأضعف وإن ظهر أنه الأقوى ؛ فلو صدمته روحٌ عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوقعت منه موقعَ أظْلافِ الفيل من النّملة الضّعيفة ؛ فإن فوق كبرياء المخلوق ناموساً ثابتاً من كبرياء الخالق ، ما لجأ إليه مكسورُ القلب بكاسر قلبه إلا وضعه والله ثمة موضعَ حَبّة القمح تحت حَجَرِ الطّاحون الضّخم ، لا يُبقي ولا يَذَر .» (١)

* * *

وكنت أتكلّم وكأني مُرْتَفِقٌ تحت جناح جبريل كما قلتَ ، وإنّ الكلامَ لينفذ إلى دمها مع أنفاسها ، فما أتيتُ على آخره حتى رأيتها قد اصفرّت وارتاعت .

وقالت : « ويلي منك ! فهل أنت مسيحٌ جديد ؟ إني لأسمعُ ألفاظك هذه وكأني أسمعها من يوم بعيد لم يأت بعد ، ولكنه أتٍ ؛ لأنه يتكلم ويقول بكلامه: أنا موجود وإن كنت بعيداً عنكِ . »

فأردت أن أخفّف عنها ، فرفعتُ طَرْفي إلى خيمتنا وقلت : « اسمعي ، يا شجرةَ التّين . »

فانفجرت ضاحكة وقالت : « كم قلت لي أنتِ دُوَيهيَة ، وزعمتَ أن هذا يسمّونه تصغيرَ التّعظيم ، فأنت دُوَيْهِيَتان .»

فضحكتُ وقلت : « أ و لستِ معي ؟ »

لقد حلّ ذلك اليومُ الذي سمعتْه يتكلّم في الغيب ، وآه من تلك الدويهية ومن كبريائها وفلسفتها ! آه من فتاة تقول لك فيما تقول :

« إن أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني ؛ فلا تَرْجُ أن تصيب فيّ طباعَ أنثى وإلاّ ضَلّ ضلالُك أيُّها الحبيبُ . »

قلتُ : « فماذا بقي من معنى ‹ أيها الحبيب › إذن ؟ »

فضحكتْ مِن عبوسها ، وهي حين تتفلسف تُظَلّلها سُحُبٌ من الفكر فتراها قد غامت فيها ، ولا يبقى لك أملٌ إلا في وميض من ابتسامها يلمع أحياناً ، كما تنظر للشّمس من فَتْق في السّحاب يتمزّق ثم يُسْرِع فيَلْتَئم . أ تدرى ماذا كان جوابها ؟

قالت : « خُلِقنا لهذا الحب من قبل يومنا ؛ ولعلّ يومنا إذا جاء كان يوم بغض منك أو مني . »

قلت : « فمعنى ‹ أيها الحبيب › في فلسفتكِ : ‹ أيها البغيض › ؟ »

قالت : « كلا كلا ! .. لا أدري ، ولكني أتكلم بلغة النُّطق ؛ وفي ناموس الفَهْم الإنساني لغةٌ غيرها ، وفي ناموس الأقدار لغةٌ غير اللُّغتين ؛ فإنك لتراني ولكني أرى فيَّ أخرى ، والأُخرى ترى فيها ثالثة . هذا أشعر به ولا أدري كيف أصِفُه ، فإن عبّرتُ عنه بلغة النُّطق انقلب كلامي عن جهته فصار من كلام المُوَسْوسين والمَمْرورين والمجانين . أنا أحسن الكلامَ مع السّماء ، وأنت تحسن الفَهم عن السّماء ؛ فحاجتي إليك هي أن تتكلم في روحي ، وحاجتك إليّ هي أن أتكلم في قلبك . أ تستطيع أن تُلبِسَني جلدك وتَخيطَه عليّ و ... »

فقلت : « مهلاً مهلاً ! إنك أنتِ الآن لا تتكلّمين ، ولا التي فيك ، بل تلك الثّالثة . وإذا كان استهلالُ كلامها سَلْخَ جلدي ... »

وهنا وضعت يدَها على فمها ، وجعل يَغُتُّ (٢) ضَحِكها ويتكسّر على صلابة قلبها تكسُّرَ قِطَع البلّور الثّمين في غير نظام ولا مَهَل .

(١) يَذَرُ : يترك . *

(٢) يختفي ، لما سترت فمها بيدها . *

ولما سكنت مِمّا غَشِيها قالت : « أنت بِرَهْمِيّ [1] ؟ »

قلت : « وهذه شرٌ من الأولى ؛ فهل خطر لكِ أني أعبد بقرة ؟ »

قالت : « وهذه شرٌ من الاثنتين فقد انتقمتَ مني بلطف . ولكن : أ لا تعرف أن الحبَّ في رأي أكثر النّاس كزواج البراهمة : إذا اقترن الرّجل منهم بامرأة فقد أعدّها للحَرْق إن بقيت بعده ، وللموت إن بقي بعدها ؟ » قلت : « أعرف هذا في عَقْد البراهمة وحَسْبُ ، فلا تَنْزُ بك الفلسفة نَزوَتها ؛ فلسنا في النّار ولا في دُخانها . »

قالت : « وما تقول في نار تعرِفُها ؟ »

ولفظتْ هذه العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذَبَ قلبَها وفرّ إليّ فراراً ؛ وأنزلتْ في مقطَعها نبرة استفهام حلو رقيق يُمازجُه شيء من التّوبيخ في منتهى الظّرْف .

فأطرقتُ شيئاً وقلت : « اسمعي ؛ ما أنت مُحاطةً بست جهات ، بل بست علامات استفهام ؛ وإنّ فلسفتك هذه جعلتك ما لا أدري : أ لُغزاً في إنسانة أم إنسانة في لُغز ؛ وعلى أيّهما فإن العمرَ يذهب في فهمك ، وأحتاجُ بَعْدُ إلى عمر جديد في حبك ، ولن تبعثني فلسفتُك من قبري يوماً إذا سُوّيت بجسدي الحفرة . لقد وضعك حسنُك في طريقي موضع البدر: يُرى ويحَبُّ ولا تناله يد ولا تَعلّق بنوره ظلمةُ نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نِصبَة الجبل الشّامخ : كأنه ما خُلق ذلك الخَلْق المنتَشر الوَعْر إلا لتدقَّ به قلوب المُصْعِدِين فيه وتهتزّ أجراسها اهتزازاً عنيفاً متّصلاً في حبال الأنفاس والزّفرات .

« كوني من شئتِ أو ما شئتِ ، خَلْقاً مما يَكبُر في صدرك أو مما يكبُر في صدري . كوني ثلاثاً من النساء كما قلتِ أو ثلاثةً من الملائكة ، ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفحي العِطْر الذي يُلْمسَ بالروح ، وأظهري مظهر الضّوء الذي يُلْمس بالعين ، ولكن دعيني في جوِّك وفي نورك . اصعدي إلى سمائك العالية ، ولكن ألبِسيني قبل ذلك جناحين . كوني ما أرادت نفسُكِ ، ولكن أشعِري نفسَك هذه أني إنسان . »

أيُّ حُب هذا ؟ لقد امتُحِنْتُ منها بفتاة أبحث عنها في النّساء فلا أجدها ، وأبحث عنها في نفسها أجدها ؛ وكل تاريخ هواها كالرِّحلة في أغفال الأرض ومجاهِلِها [2] ؛ يأخذ الرَّحّالةُ رجليه بالمشي على قير في عرض الصحراء ، ويكون له من الحذَر في كل بادِرَة عقل ؛ ولا يزال يَلْفِظُه مَجْهَلٌ إلى مجهل ، ولا يزال يتتابع في تلك الأرض التي تَغولُ سالكيها [3] حتى يقطعَ إلى مَعروفها مُنكراتِها جميعاً.

الرّسالة الخامِسَة

(أيامُ لبنان)

فَجْرُ الهَوى مِنْ ثَغْرِها البَسّامِ
مُتَطايِرُ اللَّمَحاتِ فَوْقَ ظَلامي
رَفَّتْ [4] عَلَيَّ ظِلالُهُ وَتَنَفَّسَتْ
بِنَدَى الشَّبابِ عَلَى فُؤادِيَ الظّامي
ذَهَبَتْ هُمومٌ جِرْتُ في أَسْمائِها ،
وَأَتَتْ هُمومٌ ما لَهُنَّ أَسامي
في حُبِّها ؛ وَالحُبُّ في بَأْسائِهِ
أَهْنَا لأَهْلِيهِ مِنَ الإنْعامِ
حَسْناءُ صَوَّرَها الهَوى في صورَةٍ
كادَتْ تُعيدُ عِبادَةَ الأَصْنامِ
في مَنْظَرِ الأَقْمارِ أَلْمَحُ وَجْهَها ،
وَتُحسُ في لَمْسِ النَّسيمِ غَرامي

(١) من يؤمن بالديانة البراهمانية ، وهي هندية تقول بإله مجرد أعلى ، خلق العوالم كلّها ، وتجعل الناس طوائف مغلقة على رأسها الكهنة .

وتدعو إلى تقديم القرابين ، وتأخذ بالتناسخ ليتخلص المرء من القيود التي تربطه بالدنيا . وذهب مؤرخو الفرق الإسلامية إلى أنها تنكر النبوّات والبعث وتحرّم لحم الحيوان . (مج) . *

(٢) الأماكن المجهولة والمغْفَلة .

(٣) تُهْلكهم ببعدها ومصاعبها .

(٤) اضطربت وتحرّكت .

وَلِكَهْرَباءِ الحُبِّ مِنْ لَحَظاتِها
سَيّالُهــا المُتَدافِــعُ المُترامــي
يَنْسابُ في مَجْرى دَمي مُتَلَهِّبًا ،
فَكَأَنَّهُ تَيّارُ بَــحْرٍ ضِــرامِ (١)
يا كَهْرَباءَ الحُبِّ ، رِفْقًا ؛ إنما
هٰذي « الأنابيبُ » الضِّعافُ عِظامي

* * *

ذَهَبَ المَنامُ وَمَنْ يُذَكِّرُهُ الهَوى
قَمَرًا فَلا يَلْقى الدُّجى بِمَنامِ
يا لَيْلُ ، أَنْتَ صَحيفَةٌ مِلْءُ الفَضا
ءِ وَما بِها سَطْرٌ مِنَ الأَحْلامِ
في كُلِّ نَجْمٍ مِنْ نُجومِكَ بَسْمَةٌ
وَقَفَتْ تُشيرُ إلى الهَوى بِسَلامِ
وَكَأَنَّ أُفْقَكَ ، وَالنُّجومُ سُطورُهُ ،
تاريخُ ما أَسْلَفْتُ مِنْ أَيّامي
مُتَأَلِّقُ الجَنَباتِ مَشْبوبُ الضِّيا
خَضِلُ النَّدى صافي الشَّمائِلِ سامي
يا لَيْلُ ، أَيْنَ الفَجْرُ ؟ أَيْنَ زِمامُهُ ؟
أَيّامَ يُمْسِكُهُ الهَوى بِزِمامِ
أَيّامَ « لُبْنانٍ » وَكانَتْ ساعَةٌ
غَفَرَتْ ذُنوبَ الدَّهْرِ في أَعْوامِ
غَفَلَ الزَّمانُ هُناكَ مِنْ غَفَلاتِهِ
فَفَرَرْتُ لِلَّذّاتِ مِنْ آلامي
وَقَطَعْتُ مِنْ ثَوْبِ الشَّبابِ عِصابَةً ،
وَرَبَطْتُ مِنْ جُرْحِ الحَياةِ الدّامي
وَمَضَيْتُ أَصْعَدُ ذِرْوَةً في ذِرْوَةٍ ،
كَالنَّجْمِ مُشْتَمِلاً عَلَيَّ غَمامي
في كُلِّ مَنْزِلَةٍ وَكُلِّ ثَنِيَّةٍ
يَضَعُ الهَوى قَمَرًا يُضيءُ أَمامي

وَعَلَوْتُ حَتّى عَنْ أَمانِيِّ الحَيا
ةِ ، وَغِبْتُ حَتّى غِبْتُ عَنْ أَوْهامي
وَسَمَوْتُ في أُفُقٍ يَذوبُ نَسيمُهُ
شَغَفًا إذا اهْتَزَّ غُصْنُ قَوامِ
أُفُقٌ يُطِلُّ عَلى الحَياةِ وَهَمِّها
إِطْلالَ مَغْفِرَةٍ عَلى الآثامِ
لُبْنانُ فَنٌّ في الطَّبيعَةِ قائِمٌ
دَقَّتْ مَحاسِنُهُ عَلى الأَفْهامِ
مُتَكَبِّرٌ حَتّى عَلى إِكْبارِها ،
مُتَعَظِّمٌ حَتّى عَلى الإِعْظامِ
قِمَمٌ تَغَطّى بِالسَّماءِ كَأَنَّها
في الكَوْنِ أَمْثِلَةٌ عَلى الإِبْهامِ
شُمٌّ فَوارِعُ ، عَلَّمَتْ أَبْناءَها
عِنْدَ الحَوادِثِ كَيْفَ رَفْعُ الهامِ
وَمَدارِجٌ تُنْبيكَ مُنْحَدَراتُها
أَنَّ الحَياةَ مَذاهِبٌ وَمَرامي
تَرَكَتْ بَنيها أَيْنَما حَكَمَتْ بِهِمْ
نَفَذوا عَلى الأَسْبابِ كَالأَحْكامِ
وَتَرى هُنالِكَ كُلَّ شَيْءٍ ناطِقًا :
أَنْ لا يَعيشُ هُنا سِوى المِقْدامِ
جَبَلٌ تَمَنَّعَ في الطَّبيعَةِ عِزَّةً
وَمَهابَةً ، كَالنّابِ في الضِّرْغامِ
يَتَقَلَّبُ التّاريخُ مِنْ أَبْنائِهِ
في الغُرِّ بَيْنَ فَوارِسٍ وَكِرامِ
فَالنُّورُ لَمْ يَبْرَحْ عَلى أَرْجائِهِ
مِنْ مَبْسَمٍ أَوْ مِنْ فِرِنْدِ حُسامِ
جَبَلٌ إذا وَصَفوا الرَّواسِيَ لَمْ يَكُنْ
أَبَدًا لِصَدْرِ الأَرْضِ غَيْرَ وِسامِ

* * *

يا نَفْحَةَ الجَنّاتِ مِنْ تِلْكَ الرُّبى ،
كَمْ ذا يَطولُ تَلَهُّفي وَهُيامي ؟

(١) اشتعالُ النّار . *

بيْني وَبَيْنَكِ بَحْرُ دَمْعٍ يرْتَمي
مِنْ عَيْنِ مَهْجورٍ وَبَرُّ خِصامِ
لَهْفي عَلى ريحِ الشّآمِ وَنَظْرَةٍ
مِنْ أَرْضِها لِهَوًى هُنالِكَ نامي
أَرْضٌ بَنوها الصِّيدُ (١) كَيْفَ تَواثَبوا
عَنَتِ الحَياةُ لَهُمْ بِكُلِّ مَرامِ
حَمَلوا النُّبُوَّةَ وَهْيَ روحُ بِلادِهِمْ ،
وَمَضَوْا بِوَحْيِ العَزْمِ وَالإِقْدامِ
فَهُمُ بِأَيِّ الأَرْضِ حَلَّ نَزيلُهُمْ
قَوْمٌ قَضَتْ لَهُمُ السَّما بِمَقامِ
أَرْضٌ كَساها الوَحْيُ جَوًّا عاطِرًا
وَبَنى لَها أُفُقًا مِنَ الأَنْغامِ
اللهُ زَيَّنَها بِكُلِّ بَديعَةٍ
باحَتْ بِأَسْرارٍ مِنَ الإِلْهامِ
فَهُنا يُريكَ الحُسْنُ صَفْحَةَ شاعِرٍ
وَهُنا يُريكَ صَحيفَةَ الرَّسّامِ
والحُسْنُ مُخْتَلِفُ المَواطِنِ في الوَرى
لكِنَّما حُسْنُ الطَّبيعَةِ « شامي »

الرّسالة السّادسة

تقول أيُّها العزيز : « فصِفْها لي على حَقِّها (٢) ، وصفها على هواك بما يُزَخْرِفُ الهوى من كَذِبه ، وانقُلها إليَّ من مرآتها نقلاً ، ووافني عنها برسالة كليلة من ليالي القمر في الصَّيف : تتنفس كلُّ ساعة منها برائحة الفجر . »

آهِ ما كان لي ولهذا البلاء الجميل ! فإنَّ عهدي بهذه النَّفس أنها مُصَمِّمَةٌ حكيمةٌ ، إذا فزعت تفزع إلى ضِرْس حديد ، وإذا همَّت أمضتْ عزيمتها فما يَنِدُّ منها شيء إلا ضَبَطَتْه (٣) وأحكمته ؛ وإن عهدي بهذا العقل أنه نافذ دَهِيٌّ ذو حرب وسِلْم في أساليب الحكمة والسِّياسة . ولكن الإنسان يُبتلى ثم يُبتلى ؛ ليعرف أن كل ما فيه إنْ هو إلا وديعةُ الغيب فيه ؛ فما شاء الله نَفَعَ وإن كان سبباً من الضُّرِّ ، وما شاء الله ضَرَّ وإن لم يكن إلا نفعاً ؛ والأسبابُ كالعمر : لا يملك الإنسانُ استمراره لحظةً واحدة ، وقد يستمر على ذلك ما يستمر .

إنَّ وصفها لَهَمٌّ جديد ، وإنها الآن في نفسي غير من كانت ؛ فالكتابة عنها ضربٌ من العَنَت ، كالتَّرجمة من لغة إلى لغة ، فلولا كان ذلك والهوى مُتَّفِق . ولكن يا شمسَ السَّماء مُجِّي (٤) من ريقِك على هذا القلم حتى ينسج وَشْيَه وزُخْرُفَه ، واجمعي في هذه الصحيفة نورَ الابتسام وماءَ الدَّمع ، وأخرجي منهما ما يُخرج النَّباتُ من الضَّوء والماء زهراً وثمراً وورقاً أخضرَ وحَطباً يابساً بَعْدُ .

* * *

أما إنها فتنةٌ خُلقتِ امرأةً ، فإذا نظرتْ إليك نظرتَها الفاترة فإنما تقول لقلبك : « إذا لم تأت إليَّ فأنا آتيةٌ إليك ! » خُلقتْ مُقَدَّرَة تقديراً كأن كل شيء فيها وُضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووُزن هناك بأهواء القلوب ومَحابِّها . وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكةُ في دمها نقطة عِطْرٍ فهي تَنْفُح على القلوب برائحة الجنَّة . وهي أبداً تشعر أن في دمِها شيئاً لا يُوصَف ولا يُسَمَّى ، ولكنَّه يَجذب ويَفتن فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى لَيظنّها كلٌّ من حادثَها أنها تحبُّه وما بها إلا أنَّها تفتنه .

رشيقةٌ جذّابة تأخذك أخذَ السِّحْر ؛ لأن عطر قلبها ينْفُذ إلى قلبك من الهواء ؛ فإذا تنفَّسْت أمامها فقد عشقتَها .

وتراها ساكنةً وادِعَةً أمام عينيك ، ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قَلِقاً نافراً يَتَمَلْمَل .

أمَّا أنوثتها فأسلوبٌ في الجمال على حِدَة ؛ فإذا

(١) الأسود ، والمراد : الشجعان . (٢) على حقيقتها .
(٣) لا يفلت منها إلا أمسكته ، والضِّرس الحديد : كناية عن العقل والرأي القوي .
(٤) مَجَّ الشيء : رمى به ، والمراد : اسكبي . *

لقيتَها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سرِّ هذا الأسلوب البديع ، فلا تعثُر فيهما بالسرِّ ولكن بالحبِّ . وإذا كنت ذكيًّا فأضافت إلى ما فيها من بواعث الهوى إعجابَها بك فقد أحكمتْ لك العُقْدَةَ التي لا حَلَّ لها .

ومهما تكن من رجل باذخٍ فإنك بإزائها ترى كيف يَنْقاد جزءٌ من الطَّبيعة لجزء من الطَّبيعة فلا براءةَ لك ولا مَخْرَجَ من حبها ؛ ومهما تكن من جبل شامخ فإنك تتهافت تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبالُ الثَّلج في القُطْب إذا زاحَها عمّا حولها شعاعٌ رقيق من أشعة الشمس تتنهَّد فيه نسمة ضَعيفة.

وهي في لونها ذاتُ بياض أسمر مُحْمَرٍّ وضيءٍ يَغْتَرِق (١) العين حُسْنًا ؛ وكأن ائتلاف الألون الثَّلاثة فيها جملة مُرَكَّبَة من لغة النّور والهواء والحرارة ، معناها الجمال القوي الصحيح . هيفاءُ مُلْتَفةٌ لم يَهْبط جسمُها ولم يَرْبُ (٢) ، تملأ قلبَك كما تملأُ ثوبَها ؛ وتتمايل أعطافها ، فلو خُلق غصنُ البان امرأة لَمشى يتهادى في مثل مِشْيَتها . وتنظر نظرةَ الغزال المذعور أُلْهِم أنّه جميل ظريف ، فلا يزال مُسْتَوْفَزًا يَتَوَجَّسُ (٣) في كل حركة صائدًا يطلبه . وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها كما يتفجَّر أمام الظَّمآن يَنبوعُ الماء العَذْب وما رأيتها مَرَّة إلا أحسست نفسي تُصَوِّرها تصويرًا كأن الشَّمس والقمر قد صنعاها في الحسن صنعة جديدة . وتنتحِل هذه الظَّبية أحيانًا كبرياءَ الأسد ، فيكون ذلك منها في باب الدَّلال مُخاشَنَة بين طبعي وطبعها تبثُّ بها في الحبِّ قوَّةً تبلغ قوَّةَ الافتراس في أسد جريح .

تريد الهوى وتعرفه ، وتنفخ في ناره وتذكي ضِرامها بما لا يخمد ولا ينطفىء ، ولكن ... ولكن لترى من كل ذلك كيف أحترق .

تلك هي أيها العزيز : من أيِّ الجهات اعتبرتَها لا ترى أوصافها تنتهي إلا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في رمال كالأقيانوس الجافِّ ، تُقْحِمك

(١) يشغلها بالنّظر إليه . * (٢) لا سَمينة فَضْفاضَة البَدَن ، ولا هَزيلة نحيلة . (٣) يخشى ، والغزال دائمًا كالمذْعور .

المتالفَ (٤) وتبثُّ لك مصايِدَ الموت في كل جهة ، ولا يخرجك منها إلا أن يكون عمرُك أوسعَ منها ؛ ومع ذلك فلا تخرج إلا حيًّا نصفه موت أو ميتًا نصفه حياة .

إنَّ عاشقها المسكين في كل ما يناله من حبها ليمشي إلى الجَدْبِ بخطواتٍ خُضر تعد عليه واحدة واحدة ، فههنا نبع يروي وهناك روضة تتنفس وثمَّ سَرْحَة (٥) تفيء بظلّها ، وما شئت من متاع أحسنَ ما تنظر ، ومن رَوْح أجمل ما تبتغي ، ومن نعمة أبدع ما تتحقَّى بك النُّعْمة ؛ ثم تنتهي من الواحة لأنك كنت تندفع ولا تُحسّ ويُسارُ بك ولا تدري ؛ وتنتهي بعد الفضاء الجميل الأخضر إلى ذلك الفَضاء المخيف الأبيض بَياضَ عِظام المَوْتى ؛ فَضاء الصَّحراء المهْلِكَة التي تقول لك أوّلَ ما تتلقّاك :

« ليس من يُحِسّ بك ههنا فحيث شئت فمتْ ! »

كانت ، والله قَدَرًا مَقْدورًا ، لو علمتُ كيف تنتهي لاتَّقيتُ كيف بدأتْ ، ولكني جئتها وأنا أقدِّر أن أراها كما هي وأدعها كما هي فإذا القَدَر مخبوء فيها ، وإذا هو قد طلع عَلَيَّ في ألحاظها ، وإذا أنا أراها فلا أدعها . وكان طريقي إليها بين رؤيتها وتركها ، أبدأ وأعود ، فلما تخطيتُ أوّلها لم أرَ لها آخرًا ، ولما بدأتُ عدلتْ بي إلى النّاحية التي كنت أجهلها فلم أدرِ كيف أعود .

* * *

وهي شاعرة تغمُر أفقًا واسعًا بأشعة خيالها ، ولو أن نجمة سألت الله أن يخلقها امرأة فتنزلَ على الشُّعراء بوحي السَّماء وخيال السَّماء وأسرار السَّماء لكانَتْها . غير أنّها لا تُحْسِنُ عربية الكتابة الفُصْحى فإذا كتبتْ ، وقليلاً ما تكتب (٦) ، اختبطت (٧) في مثل البحر اللُّجّيّ (٨) ، ففرَّت إلى السّاحل ، ورقصت

(٤) تورطك في المهالك . (٥) شجرة طويلة . *
(٦) يُسْتَعْمَل هذا التّركيب للنُّدْرة ، والعرب يستعملونه في نفي أصل الشّيء ، وفي القرآن الكريم : « فقليلاً ما يؤمنون » : أي لا يؤمنون أصلاً ، وهو إعجاز عجيب لمن يتأمّله . (٧) المراد : تحيَّرت واضطربت وغرقت. * (٨) أي العظيم ، كثير الماء . *

هناك على رَشاش (١) الموج . وهي تألم لذلك النَّقص فيها وما أظرفَ ما تراه في سببه إذ تقولُ :

« إنَّ المصريَّ والسُّوريَّ ومَن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التّاريخية بحيث يريد أكثرهم الكمالَ لشخصه لا لتاريخه ، ولنفسه لا لأمته ؛ فينسلُّ أحدهم من تاريخه ويُغامر في آداب أمة حيَّة كالفَرَنْسيَّة والإنجليزية ، ويَستَفْرِغ فيها كلَّ همّه ؛ فيدرك في خمس سنوات ما لا يأتيه به التّاريخُ المصريُّ أو السّوريُّ في خمسين سنة ، لو بقي في أمّته وادعاً يترقّب نُضْجَ تاريخها . والشّرقي إذا خرج من الشّرق أحَسَّ أنّه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنَّطة واستقبل بلاداً أصبحت الطّبيعة فيها أسرع من أهلها في العمل للحياة والأحياء ، فهم يخدمون نواميس الكون لتخدمهم على الأرض لا في السّماء . »

وكانت إذا انتهت إلى مثل هذا قلت لها: « إنّك لتتكلّفين أن تجعلي للانهاية حدوداً أربعة ، بل أربعةً ذات قياس ومساحة ، وإلا فابتلي أوربا بمثل ما بُلي الشّرقُ منها أربعين سنة في جِدِّ السّياسة وهَزلها ؛ فإنك والله لا ترين منهم يومئذ إلا الزُّنوج البيض . »

وكانت تقول : « ما أعجَزَني في أجناس الكتب إلا كتبُ اللُّغة العربية ؛ لقد أحضرتُ شيخاً يُدارِسُني كتاباً منها فكانا كتابين ... الذي أراه هو الذي أسمعه ، والذي أسمعه هو الذي أراه . » ثم تُغرقُ في الضّحك وتقول في كلام ظريف ، كأنه يضحك ضحكاً آخر : « فأنا ، والله ، في حاجة لإتقان هذه اللُّغة إلى عمامة وعشرين سنة في الأزهر . »

* * *

قلت لك إنّها شاعرة تملأ سماءً من السّماوات فتكاد لا ترى فيها من جهات الأرض شيئاً (٢) ، كأنما تركت المادة الإنسانية في أبويها وخرجت من ذلك الحطب والورق مخرجَ الزّهرة النّاعمة ؛ بِنْيَةٌ من اللّون وجِسماً من العطر ونسيجاً مُتماسِكاً من الشّعاع . خرجت عاطِفَةً مولودة تكبُر وتنمو لتبلغ في العواطف سِنَّ شباب القلب ؛ لا يتصل بروحها شيءٌ إلا نبت واخضرَّ ثم نَوَّر (٣) وأزْهَرَ ، كأن طبيعة الجمال خبّأتْ في قلبها سِرَّ الرَّبيع . وهي الصّافية كرِقَّة النّسيم ، والنّاعِمَةُ كملمس الماءِ ، والضّاحِيَة كطَلْعَة الشّمس ؛ فإن غضبت بدَّلت النّسيمَ قَيْظاً ، والماءَ ظَمَأً ، والشّمسَ الطّالعة غَيْماً يلفُّ نهارَ الحب في مُلاءة ليل أسود .

ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلامُ المُفَنَّنُ المشْرِق المضيء بروح الشّعر فهو حِلاها وجواهرها ، وما لِسوق حبها من دنانير غيرُ المعاني الذّهبية ؛ فإنها لا تُبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خَفْقَة قلب على قلب .

وما عسى أن أقول في فلسفتها ، واهتدائها إلى موضع السِّرِّ من الأشياء ، ونزولها وراء الحُجَّة إلى الأعماق البعيدة التي تغوص الحجة فيها ، واستبانة المشكِل باللّمح وتقليب المعاني في أصابعها كأنها مُلَقَنَّة ما تحاوله ، وأخْذِها في سبيل البُرْهان حين تُجادِل مأخذاً لا يُقامُ له ، وإظهارِ خيالها البديع في معانٍ لامعة كأنما تتدَلّى عليها الشّمْس ؟ فلو كنا نقولُ بالرَّجْعَة (٤) لقلتُ إن (أرسطو) قد رجع بفكره الجبّار إلى هذه الدُّنيا لِيُمارِسَ حياة الأنوثة ويَتِمَّ امرأةً كما تمَّ من قبلُ رجلاً فينتظم كمالُ الجنسين في نفسه .

على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قُواها ذلك الجمودَ الذي تستعين به على الحب « جمودَ إحساس الكُتب ... » حتى ملأت نفسي بمثل البحر ملْحاً ومرارة .

الجمالُ هِبةُ الله فليس لامرأة فيه عمل ، ولكن العجيب أن أكثر ما يكون من عمل المرأة إنمّا يكون في إفساد هذه الموهبة ؛ كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبته : تفسدها بالجهل إذا كانت جاهلة ، وتفسدها بالعلم إذا كانت عالمة ، وتفسدها بلا شيء

(١) ما تناثر وتطاير. * (٢) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية.

(٣) نوّر : أخرج النّوّار . (٤) مذهب يقول به الهنود وغيرهم ، فيزعمون أن النّفْسَ ترجع إلى الدُّنيا في جسد آخر لتستوفي كمالها .

إن كانت هي لا شيء .

* * *

على أنّها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها وتقول : « ينبغي أن تتحولَ الفلسفةُ إلى شعر ، كالتُّراب نُعالجه ليَسْتَوِيَ مُخْضَرًّا فإذا هو لم ينْبِتْ فارْدِمْ به المسْتَنْقَعاتِ ، واملأ منه الحُفَر ، وافتح فيه القبور . والفلسفة وإن كانت من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض النّاس أعجب شيء ، وعند آخرين شيء عجيب ، وعند الشُّعراء لا شيء عجيب .

« أعرفُ العلم والمنطق ، ولكن الطِّباع غير العقول ، فمن كان في سنِّ العقل استطاع أن يحمل في فلك رأسه السّماوات السّبع والأرض ومَنْ فيهنّ ، وذلك هو الفيلسوف في سَمتِهِ وهيبته ووقاره ، كأن فيه مكتبةً كبيرة أو كأن فيه ثِقلاً خاصًّا ؛ ومن كان في سنِّ الطّبع فلا يعرف إلا ما يميل إليه طبعُه . فإن يكن هناك منطق وعِلم فهما في كيفية إيجاد الميل في نفسه ، ثم في استخراج اللّذاذة الرّوحيّة لنفسه من هذا الميل ، ثم في تهيئة الاستمتاع من هذه الرّوحانيّة بكل ما فيها لكلِّ ما فيه . »

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ أنه رأيها الفلسفي ، وأنه لن يكون لها رأيًا إلا إذا كان لها بديًّا (١) فلسفةً قد جعلت من طباعها « جمودَ إحساس الكتب » ؛ وههنا المصيبة ؛ فإنها إنْ عَمَدتْ إلى غيظك اختبأت نفسُها في كتبها وأوراقها ورأت هذه الكتبَ والأوراقَ دنيا غير الدنيا ، لها أشخاص غير الأشخاص . أما بين الكتب والأوراق فهي تحمل في رأسها السّماوات السّبْعَ والأرضَ ؛ فكيف تشعر بك إذا أنت وحدك وقعتَ من السّماوات السّبع والأرض ؟

ولكن هل أنتَ إلا أنتَ وحدك ؟

* * *

(١) أي قبل ذلك ، أو كما يقول النّاس : (أوّلاً) .

الرّسالة السّابِعَة

نالتْ مِنّي رسالتُك ، يا عزيزي ، وما كنتَ ظالمًا ولقد ظلمتَ . جاءتني سطورُك جُمَلاً فانصبّت على قلبي انصبابًا فغشيَته من حروفها بموج أسود كالظُّلمَ . (١) لك الله أن تحسبني هالكًا ، وتقول إنّ روحي محمومة بتلك الفتاة ، وإني في حاجة منك إلى علاج مُرٍّ ؛ إلى بضع نصائح من الكينا .

فأمّا أني محموم بها فلا وما أبْعَدتَ ؛ ولكن هي كانت أشبه بالهذَيان في الحبّ ، وأن الدهر ليُحَمّ مِراراً عِدّةً ، متى رَكِبَتْهُ الأقدارُ المُلتهِبَة ، فإذا هو حُمّ جاء من هَذَيانه نابغَةٌ يهذي في رجل أو امرأة . وكان من علامة نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدُّنيا وسخونتها .. فيها والله برد شديد ، ويكفي أنه برد الفلسفة .

قالوا : « جَلّت الحقيقة أن تكون البشريةُ مَحَلّا لتلقّيها . »

وأقول : جَلّتْ مرّة أخرى أن تكون المرأة هي هذا المحل ؛ فما للمرأة الجميلة والفلسفة ؟ اللهمّ لا تبتل بها من النّساء إلا كلّ ذات وَجْهٍ غَضِنٍ (٢) ، لا يضرُّه ولا يضرُّ أحداً أن تزيد فيه كُرْبَةً أو عُقْدَة أو مسألة حسابية .

ولكن ما أجملَ الحقيقةَ تُرْسِلُ أشعّتها وألوانَها في قلب الجميلة فتَمْتَهِدُ لها فيه أرضًا من الشُّعاع ، ثم تهبط من السّماء الكبرى إلى هذه السّماء الصغرى ، جمالا في جمال ، وحقيقة على حقيقة ، وشعراً على شعر ، ومعنى يوحى به إلى مَنْ هي تفسير له ! تلك حقيقة الجمال الذي لا يُفْهَم إلا بمثال عليه من امرأة . وإنّ من النّساء تفسيراً بديعًا لهذه الحقيقة ، ومنهن تفسير ناقص ، وبعضُهن مُغالَطَة في التّفسير ، وبعضهن مَسْخٌ ، وبعضهن كالتّضْريب والشّطْب ، لا يُفَسِّرُ شيئًا ولا يُصَحِّحُ شيئًا ، ولكن يمحو ويطمس .

(١) جمع ظُلْمة ، أي ذَهاب النّور . *

(٣) الذي فيه تكسُّر وتجعُّد من الهم والكَرْب والقبح أيضًا .

* * *

سآتيك بها الآن من جهة الشِّعر وقد وصلتُ جناحَها بجناحي بعد مَقْدَمِها إلى مصر بأيام وخرجنا مُتَنَدِّيَيْن (١) ذات صباح في طريق تبعثرتْ فيه الشَّمْسُ على النَّدى وعلينا. كانت هي صبحًا في ذلك الصُّبح وقد وافت كعادتها مُتَكَسِّرَة وللفتور مَسٌّ فيها؛ فتورها النَّسائي (٢) البديع الذي يُنْبِئُك في لُطفٍ، أيِّ لطف، أنَّ عواطفَها تُبْعِدُك عنها ولكن بشرط أن لا تَبْتَعِد؛ فتور في الجسم تظهره الأنوثة التي نراها لِتَطَّلِع منه على سِرِّ الأنوثة التي لا نراها؛ وفتور في اللَّحَظات تدلُّ به على أن في قلبها منك شيئًا تحب أن لا يظهر لك، وتحب كذلك أن لا يخفى عليك.

ومشينا بين الجمال المنظور وبين الجمال المعقول وهي تجمعهما في شخصها ومعانيها، على حين أن الطَّبيعة لا تكاد تُرضيك من هذه الجهة إلا إذا عرضت لك ألف شيء جميل. ثم فِئْنا (٣) إلى رَوْضَة على شاطئ النِّيل، يسافر النَّظَرُ في أرجائها، وتَتَمَوَّجُ للعين كأنها بحر أخضر، تهتزُّ عليه هنا وهناك أمواجٌ مُلَوَّنَة من الزَّهر.

وقلتُ: «فَلأَكُنْ آدَمَ هذه الجنة اليوم.»

قالت: «ثم تخرج منها كما خرج.»

قلت: «فإن الخروجَ لا يأزَفُ إلا عند غروب الشَّمس، ‹كقانون المجلس البَلَدِيِّ› فضحكت وحَضَرَتْها النَّفْسُ الثَّالثة. (٤)»

ثم مَدَّت عينيها الذَّابِلَتَيْن في شواطئ ذلك البحر الأخضر وقالت: «أ لا تظن يا آدمُ الصَّغيرُ أن إدراك الجمال الطبيعي في الأرض هو بقيةٌ فينا من نفسيَّة آدم الكبير لَدُنْ كان في السماء وقد ورثناها عنه؟»

قلت: «لا أظن ظنًّا، بل أنا مُسْتَيْقِنٌ؛ فإننا طُرِدْنا من الجنة ولكننا اسْتَرَقْنا منها قَدْرَ ما وَسِعَ خيالنا؛ فإدراك الجمال في أي أشكاله، وبأي طُرُقه، إنَّما هو مَتاعُ الرُّوح الإنسانيَّة على طريقتها الأولى في عهدها الأول. إنَّ هذا الجمالَ لم يُخْلَق إلا للحِسِّ والتَّخَيُّل، فهو كلام بين السَّماء وباطن الإنسان.»

قالت: «فأنت الساعة تُكلِّمك السَّماءُ؟»

قلت: «وتقول لي.»

قالت: «يا ويحي! ماذا تقول لك السَّماء؟»

قلت: «فإنها تقول ما لكَ مُنْصَرِفًا عني بمَلَكٍ من ملائكتي، ونسيتَ حتى الشَّمس فلم تنظر إليها؟»

قالت: «وجوابُك؟»

قلت: «جوابي هو أنَّ بعضَ الأسرار الإلهية يُبْحَثُ في العلم عنها، وبعضها يكون من الجلال والإشراق والسُّمُوِّ بحيثُ يُبْحَث فيها عن العلم؛ فالسِّرُّ الكامن في هاتين العينين وفي هذا التكوين وفي هذه الطَّلعة هو الذي أبحث فيه عن علم قلبي.»

قالت: «أنت شاعر يُعَدُّ قلبك شيئًا عجيبًا، وكثيرًا ما أحاول الابتعادَ عن ألفاظك.»

قلت: «ولِمَهْ؟ أ يكون فيها أحيانًا صوتُ شَفَةٍ يمسُّكِ؟» فسكتت وجعلت تَنْكُتُ (٥) الأرض.

ومَضَيْتُ أقول: «إن الجمل يَسْتَرْوِحُ الماءَ (٦) مَسيرَة ميل، وإن بعض الحيوان يحمل إليه الهواءُ رائحةَ ما يخشاه أو يحبه؛ فكيف لا تحمل إليَّ ألفاظُكِ عِطرَ خَدَّيْكِ وشَفَتَيْكِ فتستحيل ألفاظي كلها قُبُلات؟ إن السَّائل المسكين حين يدعو لمن يُحْسِن إليه يُقَبِّل يدَه بألفاظ الدُّعاء؛ لأن كلماته لا ترتفع إلى السَّماء إلا بعد أن تمسَّ هذه اليد الكريمة المحْسِنَة من كل لفظةِ دعاءٍ بقُبْلَة شُكْر؛ والمحبُّ حين ينظر في وجه من يهوى نظرات كالألفاظ، وحين يتكلم بألفاظ كالنظرات ...»

وهنا لمست كتفي وانتهضت وقد أشارت إلى زهرة حمراء كوجه المستحيي، ثم مشت إليها فاقتطفَتْها ورجعت؛ فعلمتُ أنَّ الكلام كان سَقْطَةً مني فتداركَتْه وأردت أن أقلبه عن جِهَته، ولكنها

(١) مُتَنَزِّهين غِبَّ الندى، وهي كلمة استعملناها قياسًا وليست في كتب اللغة. (٢) يظن بعضهم أن النَّسائي غلط وصوابها النِّسَوِيّ، وكلاهما صحيح، والأولى أفصح أحيانًا.

(٣) جلسنا في ظلها. * (٤) مرَّ تفسير ذلك في الرسالة الرابعة.

(٥) تضربها بعصا أو بإصبعها، وهذا حال التفكُّر. *

(٦) يشم رائحته لخاصة فيه؛ إذ خلق للظمأ.

تنهّدت ثم قالت : « ما أحببتك شخصاً بل شعراً ، ولا إنساناً بل فكراً . ولولا أسبابُ القَدَر التي باعدت ذاتَ بَيْنِنا ... » وأخذ كلامها يرقُّ ثم يرقُّ حتى خرج من معانيه كلام لا يُتَلَقّى إلا بالشّفاهِ ، وخُيِّل إليَّ أن نسيمَ الرَّوضة يَرْتمي عليها لِيَتَخَطَّف تَنَهُّدَها ؛ فجعلتُ أتخَطَّفُ هذا النَّسيمَ وكأني لا أتنفّسه ، بل أشربه شُرْبًا .

* * *

في تلك السّاعة ذكرت هي الشِّعر وقالت : « إنه يُخْرِجنا الآن من حدود العمر الأرضي ؛ فإن في هذا العمر ساعاتٍ لا تُحْسَبُ منه : إمّا لأنها أَبْدَعُ وأَجْمَلُ فلا يلائمها ، وإما لأنها أقبح وأسخف فلا تلائمه ؛ أ فتراها أقبح وأسخف ؟ »

قلت : « يا شاعرتي العزيزة ، إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً ؛ فهي في مثل هذه السّاعة، في مثل هذه الرَّوضة ، في مثل هذه الخميلة لا تُؤَدّي إلا معنى الجمال والحب . أمّا الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا إلا بعد أن نخرج نحنُ ويدخل غيرنا . »

قالت : « يا لك من « عقل جميل » كما يُسَمّي الفَرَنْسِيّون ظُرفاءهم . »

ثم تناولت من المِثْبَنَة [1] في يدها أنبوب قلمها الرّصاصي المصنوع من الذّهب وأخرجت دفتراً صغيراً ، وغمست سن القلم في ثناياها ، وفكرت لحظة ، ثم غمسته ثانية ، ثم كتبت في طُرّة [2] الصَّفْحَة هذه الكلمة : « الشِّعر » .

ونظرت إليَّ باسمة وقالت : « خذ هذا القلم وأكتب كلمة صغيرة في الشِّعر لأنقلها إلى الفرنسية في مقالة لي . »

آهِ ! لو أنَّ الكهرَباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت أسرع مني في اختطافه . وجعلتُ أغمسه في شَفَتَي مَرّةً بعد مرّة ولا أكتب شيئاً ، وهي تضحك وتقول : « ما لك لا تكتب ؟ »

فأقول : « هكذا اعتدت في المدرسة وكنت بليداً . »

ثم كتبتُ ، ولكن بعد أن خالَطَ فمي طَعْمُ الرَّصاص من كثرة ما غمستُ القلم . وكتبت وأنا أشعر بأنفاسها وعِطْرِها ومعاني لحظها يتحوّلن في نفسي إلى كلمات :

* * *

« ما هي العاطفة المهْتاجَة في نفس الإنسان اهتياجاً لا يُريه الحياة أبداً إلا أكبرَ أو أصغرَ مما هي؟

« ما هو المعنى السّاحر الذي يأتي من القلب والفكر معاً ، ثم لا يأتي إلا ليُحْدِثَ شيئاً من الخَلق في هذه الطّبيعة ؟

« ما هو ذلك الأثر الإلهي الكامن في بعض النفوس مستَكِنا يتوثب بها ويحاول دائماً أن يعلو إلى السّماء لأنه غريب في الأرض ؟

« وما هو الشِّعر ؟

« هذه الأسئلة الأربعة يختلفُ بعضُها عن بعض، ويَنْزِع كلٌّ منها إلى مَنْزَع ، ولا جوابَ عليها بالتّعيين والتّحديد في عالم الحِسّ ؛ لأن مَرَدَّها إلى النّفس ، والنّفسُ تعرف ولا تنطق ؛ وشعورها إدراك مخبوءٌ فيها ، وهي نفسُها مخبوءة عنا . ولكنَّ العجيب أنَّ كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات ؛ فالعاطفة هي ذلك المعنى ، وهي ذلك الأثر ، وهي الشّعر . والشِّعر هو العاطفة بعينها، وهو الأثر ، وهو المعنى ؛ وهَلُمّ جرّا .

* * *

« سبحانَكَ يا من لا يقال لغيره سبحانك ! خلقْتَ الإنسانَ سؤالاً عن نفسه ، وخلقْتَ نفسَه سؤلاً عنه ، وخلقتَ الاثنين سؤلاً عنك . وما دام هذا الإنسانُ لا يحيط به إلا المجهول ، فلا يحيط به من كل جهة إلا سؤالٌ من الأسئلة ؛ ولا عجب إذن أن يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها .

« هذه هي الطّريقة الإلهيّة في دقائق الأمور ، تُجيب الإنسانَ الضّعيفَ عن سؤال بسؤال آخر . »

---

(١) المِثْبَنَة : كيس تحمله النّساء تضع فيه بعضَ أداة الزينة .

(٢) حاشيتها . *

« ولقد أكثروا في تعريف الشّعر وجاءوا فيه بكل ألوان القَوْل . ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه . بالغوا في تقريبه إلى الرّوح ؛ فأجْرَوْا في حَدّه كلَّ عناصر الجمال والفضيلة ، ودَلّوا بالخيال على حقيقته ؛ إذ رأوا أنّه لا يدلّ على حقيقته إلا الرّوح وحدها ، وهي غامضة فهو غامض، وتفسيره في مئة تفسير .

« الشّعر وراء النّفس ، والنّفس وراء الطّبيعة ، والطّبيعة من ورائها الغيب ؛ فلو جُمعَ ما قيل في الشّعر لرأيته يَصْلُحُ في أكثر معانيه أن يقال في النفس ، ثم لرأيته مفهوماً من جهتنا وغير مفهوم من جهته . وما الشّعر إلا أوّلُ المعاني المُبْهَمَة والدَّرَجَةُ الأولى من سُلّم السّماء الذّاهبةِ إلى عَرْشِ الله ؛ وهو كذلك أوّلُ ما في الإنسان من الإنسانيّة .

« في هذا الكون مادّةٌ عامّة يسبح الكونُ فيها ، وتنبعث من قوة الله وإرادته ، وهي دائمةُ التّركيب والتّحليل إيجاداً وفناء . وما أرى الشّعر إلا تأثير هذه المادة في بعض النّفوس العالية الكبيرة التي تصلح أن يسبح خيالُ الكون فيها .

« بهذه المادة تمتزج نفسُ الشّاعر بكل ما تراه ؛ ومن هذا الامتزاج يتكوّن الشّعر . فإذا أردتَ أن تتحقّق ذلك فانظر إلى نفس الشّاعر العظيم تمتزج بالجمال الرّائع في نفس الجميلة ، وبالحب في نفس الحبيبة ، وبالطّبيعة في المعنى الطبيعي ؛ وانظر إليها حين تتصل بأسباب اللّذّات والآلام ؛ حين تُثيرها اللّحْظَةُ والابتسامةُ ، ويَهيجُها الصّدُّ والإعراض ، ويَحْزُنها المحزِنُ ويَسُرُّها السّارُّ ؛ حين تخترق بالفكر حجابَ هذه الإنسانية ، وتثِبُ بالعاطفة فوق الطّباق العُليا ، وتستمدُّ من الشُّعْلَة الأزليّة لوناً من ذلك الضِّرام الذي اشتعل به في أصل الخِلْقَة كلُّ كوكب يَتَلَهّب .

* * *

« ما أشقى نفسَ الشاعر ؛ فإنها لِسُمُوِّها تجهل ما هي من هذا العالَم ، فلا تزال تمتزج في أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها لتعرف ما هي ؛ ولن يكون الشّعرُ العالي أبداً إلا التقاءً بين نفس ساميةٍ وحقيقة سامية . ومن ثمّ كان الشّاعر العظيم يُحِبُّ ويُبْغِضُ ، ويَضْحَكُ ويَبْكي ، ويَرْضى ويَغْضَبُ ، ولا يُحِسُّ من كل ذلك وما إليه إلا أن السّماء تَحْكُمُ من داخله على الأرض .

« وعِلّةُ شَقائه هي نفسُها عِلّةُ سروره بشِعره ، وإن نثر هذا الشّعْرُ من عينيه بكاءً ودموعاً ، وإن انفَجَرَ به أحزاناً وآلاماً قاتلة .

« كل النّوابغ لا يُرضيهم إلا أن يرتفعوا ؛ فإنّ من كان له جَناحان للطّيران لا يُسَرُّ إلا إذا طار ؛ وما جناحا الطّائر إلا كتابان من الله يُمَلّكه في أحدهما على الشّرق وفي الآخر على الغرب ؛ بيْد أنّ الشّاعِرَ لا يرضيه أن يرتفع عن الأرض وحدها ؛ فإنّ خيالَه لا يقع إلا ساجداً عند عرش الله ؛ وذلك سببٌ آخَرُ من أسباب شقائه في الدنيا ، فأيّما شَرٍّ مَسَّ كبرياءَ روحه وأمسك من جناحيها رأيتَ أثره في نفسه الرّقيقة ، وكأنما صَدَمَةُ الصَّدْمَة ترمي به من فوق السّماء إلى الأرض في سقطة واحدة .

« يا للعجائب ! إنّ سرور الشّاعر المُلهَمِ سرورُ نفسِه وَحْدَها ، ولكن حُزْنَهُ حُزْنُ العالمِ كُلّه !

* * *

« قيل في أحد القدّيسين : إنّه ما وجد السّبيل إلي الكمال الإنساني الأعلى ، ولا استطاع أن يَكْمُلَ ، حتى كانت له نَفْسُ شاعرٍ عظيم في جسم فقير بائس محزون ، فضرَبَ اللّه بتلك النّفْس على هذا الجسم ، وبهذا الجسم على تلك النّفس ، واستضاء منهما القمرُ الإنساني في ليل حالكٍ من سواد أحزانه وهمومه .

« فواهاً لكَ يا شِعْرَ الشُّعَراء ؛ أنتَ النّقْصُ كُلّه مع لَذّاتِ الدُّنيا ، وأنتَ الكمالُ كله مع آلامها . »

* * *

واستوعبتْ هذه الكلمةُ ، يا عزيزي ، في دفترها الجميل عشر صفحات . فعَدّتها واحدةً واحدة ، ونظرت إليّ أظْرَف ما رأيتها ، ثم شكرتني وقالت . آه

ماذا قالت ؟ لقد كنتُ أكتب وهي تُدير فِكْرَها في اختراع بديع لمكافأتي .

فَكِّر أنت أيُّها الصديق . أحسبك تسمع الآن صوتَ النَّقْدِ اللُّؤلؤيِّ الثَّمين ؛ صَوْتَ عشر قُبُلات .

كلا ، كلا ، لقد كذب عليك الحسنُ ، وكذب عليك القمر . قالت : « لم يبق إلا عشرُ دقائق . » وانفلتَت ضاحكةً ، ونهضت لا تلوي .

* * *

ومِلْءُ شُعاع ِهَذا السَّيْفِ قَتْلُ
ومِلْءُ جَمالِ هَذا الحُسْنِ ذُلُّ
وَلَوْلا سَطْوَةُ الأَقْدارِ فيما
يُحِبُّ النَّاسُ كانَ النَّاسُ مَلُّوا
فَإِنْ كَثُروا يَقِلُّوا كَيْ يَعودوا
كِثاراً ؛ ثُمَّ إِنْ كَثُروا يَقِلُّوا
مَسائِلُ ما لَها حَلٌّ وَلَكِنْ
إذا نسِيَتْ فَفي النِّسيانِ حَلُّ
وسأنسى ، يا عزيزي .. سأنسى !

الرِّسالة الثَّامِنَة

وادي هَواكِ كَأَنَّ مَطْلَعَ شَمْسِه
يُلْقي عَلى يَأْسي شُعاعَ أَماني
وَكَأَنَّ هَذا البَدْرَ في ظَلْمائِه
يَدُ راحِم ٍ مَسَحَتْ عَلى أَحْزاني
وَكَأَنَّ أَنْجُمَ أُفْقِهِ في لَيْلِها
ذِكْرى وُعودِك لَحْنَ في نِسْياني
يا طَيْبَةَ الوادي الَّذي نَبَتَ الهَوى
بِثَراهُ بَيْنَ الزَّهْرِ وَالرَّيْحانِ
واديكِ مِنْ طولِ التَّدَلُّلِ قَدْ بَدا
شَبَهُ القُدودِ بِهِ عَلى الأَغْصانِ
وَكَأَنَّ طِيبَ نَسيمِهِ قَدْ مَسَّ مِن
شَفَتَيْكِ مَوْضِعَ قُبْلَةٍ وأتاني
هُوَ جَنَّةٌ ، كُلُّ النَّعيم ِ بِأَرْضِها
إلا رِضاكِ ؛ فَذاكَ مِنْ نيراني
دانٍ وَما يَدْنو ؛ بَعيدٌ ما نأى
يا شَدَّ ما يُضْني البَعيدُ الدّاني !

* * *

أنا مَنْ عَلِمْتِ : فَتًى كَأَنَّ مَهَزَّهُ (١)
في الرَّوْع ِ مَسْنونُ الغِرارِ (٢) يَماني
كُلُّ الحَوادِثِ حُمْرُهُنَّ وَسودُها
في صَفْحَةِ الأَيّام ِ مِنْ أَلْواني
نَفْسي مِنَ المَلإِ العُلى وَسَجِيَّتي
تَأْبى عَلَيَّ مَذَلَّةَ الإِنْسانِ
وَلَقَدْ أَراعُ إذا لحاظُكِ لامَسَتْ
قَلْبي ، كَأَنّي في هَواكِ اثْنانِ

* * *

الحُسْنُ أَلْوانٌ يُمازِجُ بَعْضُها
بَعْضاً لِتَصْويرِ الهَوى الفَتّانِ
وَأَرى الجَوى والسِّحْرَ وَالإِيمانَ قَد
مُزِجَتْ ، فَمِنْها هَذِهِ العَيْنانِ

وآهِ لو رأيت عينيها أيُّها الصَّديق تَغْزِلان غَزل السِّحر خيوطاً خيوطاً ، يَلْتَمِعُ واحداً من شعاع الحرير في واحد من شعاع الشَّمس آهِ لو يَتَبَيَّن لك مَكْتومُها في بعض نظراتها السَّاجية الطَّويلة التي تَغْفُل فيها عن كل حَذَر وتُرسل فيها كل خواطر الحب وتمدُّها إليك ، وكأنها تقول : « خذ هذه النَّظرة وانظرني أنت بها لتطَّلع على ما في قلبي .» ثم تُرخيها بفتور لَيِّن ، كأنما تُصارحك أنها سَئِمت مقاومة فكرها ، وتريد أن تميل إلى صدرك ولو بلحظة من عينيها . كل شيء فيها من نتائج فكرها إلا تلك النظرات فإنها وحدها

(١) حركته . ＊ (٢) حدّ السَّيف . ＊

نتائج قلبها .

تُنكر عليَّ أيها العزيز وصفي إيّاها بالفلسفة ونعتها بالذّكاء النّادر والشّعر العجيب ، وتقول : « إنّ هذا من سحرها فيك ، وإنها لو بلغت مَبْلغاً مِمّا وصفتَ أو دونه لتَوَكّدَت بينك وبينها علائقُ من تحت النّفس ومن فوق القلب ، ولكنك تصفها بما لا يَتصوَّر في وهم ولا يَهْجِسُ [١] في ظنّ ، إلا وَهْمَكَ أنت وظَنّكَ أنت لأنك أنت . »

فواللّه ما كان أمرُها على ما رَجَمْتَ [٢] وإنها لأبلغُ ذاتِ لسانٍ ، وأبرعُ ذاتِ فِكرٍ ، وأروعُ ذاتِ نفسٍ ؛ ولو كنّا سَلِيلَيْ أَبَوّة [٣] ما شهدتُ لها بأكثرَ من هذا حرفًا ، ولو كان دمي من أعدائها ما نَقَصتُها من هذا حرفًا ؛ وعَلِمَ الله ما أبْغِضُ فيها إلا هذه التي أشهدُ لها . ولو أن الله مكّنها من لغة كتابه الكريم لَغَصَّ منها في هذا الشّرق العربيّ كلُّ كاتب وكاتبة غُصّة لا تُساغ ولا تُتَنفَّس .

وإني لأكتب إليك رسائلي هذه والقلبُ يَنْفُض في أضعافها [٤] ما لو قرأته لَوَرَدَ عليك من أضواء المعاني في جمالها وحبِّها وأوصافها ما يملأ نهاراً بين صُبْحه ومَغْرِبه ، يبدأه بشمس ويَخْتِمهُ بقَمَر .

* * *

لقد كنتُ إذا جاش بي حبُّها وثار منه ثائِرُه فحاولتْ أن تَرْبِطَ على قلبي وتُثَبِّتَ هذا الفؤاد القَلِقَ؛ جاءت بكلام نَضِرٍ تَنبت منه السَّلْوَةُ في الحب القَفْر الذي لا يُنْبِتُ شيئاً ؛ وجعلت الملائكة تنزل في العُشّ الذي بناه الشّيطان لنفسه في القلب وعَشَّشَ فيه . فلو أن كل حبيبة مثلُها وكل محب مثلي لكان الحب تغييراً في الإنسانية ، ولما احتاج النّاس إلى قوانين وملوك ، ولكن إلى حبيبات وإلى حب .

إنّ الرّذيلة واحدة ويتعدّد أهلُها ، فمهما كثُروا ألوفًا وملايينَ فهم واحد في المعنى ؛ إذ يتلو [٥] كل منهم تِلْوَ صاحبه ويقتاسُ [٦] به ، فكأنهم صُوَرٌ متكرِّرة ؛ لأنهم في الرُّتبة المنحطّة كالنّبات ، تُخْرِجُ الحبّةُ منه ألفَ حَبّة مثلها لا تمتاز واحدةٌ من واحدة ؛ ولكن كل من قام بفضيلة فهو فضيلةٌ قائمة بنفسها ، فمهما قلَّ الفضلاء فهم كثيرون ؛ لأنهم في الرُّتبة العُليا ولأنهم وحدهم الناس . فلو صحّ الحبُّ وأطاقهُ أهلُه ، وصبروا على ما يَحِزُّ في الصُّدور منه ، وتَوَجَّروا [٧] العِلاجَ المُرّ إلى ساعة الشّفاء — لكان كلُّ مُتَحابَّيْنِ عالمًا قائماً من اثنين لإنشاء عالَم لا يُعَدُّ من صفات الفضائل وأنواعها .

كانت تقول لي : « إنّ القلوب الضعيفة هي التي تَصْدأ في فكرة واحدة تُلحُّ عليها حتى تَتَأكَّل صَدَأً ثم تَتَفَتَّت ؛ فإذا حَدَثَتْ عليها الحادثةُ انكسرت ولم تَقُمْ لها ، وبقيتْ زمنًا طويلاً في الهمومِ حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة في أيام تتصرّم بعد أيام إلى أن تجمع من حُطام القلب قلباً مُتَحَطِّماً .

« ولكن القلوبَ القويّة الصّارِمَة ذاتَ الصُّدور الجريئة الواسعة تُكَوِّنها القُوَى من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنَةً في صلابة ، فهي تلتوي ولا تنكسر ، وما أسرعَ ما ترجع كما كانت إذا لَوَتْها الخيبة أو نَجَمَتْ [٨] لها قاصِمَةٌ من الحوادث التي هي مَطارِقُ القلوب ، لا تَضْرِبُ إلا عليها ولا تُحَطِّم إلا فيها .

« أقول لك « عدم المبالاة » فافهم عني ؛ فإني أريد أن تحفظَ هذه الكلمة وتَعِيَها من بَوَادي هذا الحب إلى تواليه إلى أعقابه . [٩] إنّ عدم المبالاة يكون في بعض الأحيان وفي بعض الأمور هو كلُّ ما تُكَلِّفنا به الطّاقة البشرية من المبالاة . »

ثم تقول : « إنّما أنتَ منّي في باب من أبواب الفكر ، فإياك لا تتسلّطْ عليك حاسّةٌ من حواسِّك ؛ فإن لهذه الحواسّ ضَراوةَ السِّباع وكَلَبَها [١٠] ؛ والعاطفة تجعل الإنسان أشكَلَ [١١] بالملائكة والحاسة

(١) يقع ويخطر . * (٢) أي ظننت بالغيب .
(٣) أخوين من أب واحد . (٤) بين سطورها وحواشيها .
(٥) المراد يحذو . *

(٦) المراد يقتدي ويتشبَّه . * (٧) أساغوا ؛ يقال : أوجرته الدّواء ، إذا أكرهته على شربه . (٨) ظهرت ، والمراد وقعت .
(٩) من أوله إلى تاليه ، إلى آخره .
(١٠) شِدّة الحيَوانيّة فيها . (١١) أشبه . *

تجعله أقربَ للشياطين . والحب كالخمر كلاهما نشوةٌ وكلاهما دواء ، فلا تُجاوز حدَّ الطِّب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم ؛ وإلا كنتَ كالمدْمِن لا يكفيه إلا مِلءُ جوفه حَرَّةً (١) وظمأً ومرَضاً وجنوناً . وإذا هو مَلأَهُ تَوَهَّمَ أنّه يَسَعُ بحراً من الخمر ، ولا يزال يطمع في الانتشاء ، ولا يزال يُسْرِفُ على نفسه حتى يذهب عقله وينكفئ وما به قدرةٌ على شيء ، ولا على أن يتوهّم شيئاً .

« اجعلِ الحبَّ تَعَلُّلاً ودع مَكارِهَهُ في ناحية ، وميِّز بين ما يجب أن يبقى خيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً . فإن أردت أن تُخرج من كل صورة في خيالك صورةً من الواقع أشقيتَ نفسك واستَفْرَغْتَ كلَّ هَمِّك وقُواك في باطل وعبث ، ليس مثلَهما باطلٌ ولا عبث .

« دع المعاني في ألفاظها إن لم تؤاتِكَ الأسبابُ وعللُ الأقدار على خلقها أعمالاً ؛ فإنك إن داريتَها ولم تجئك بالمسَرّة التي تريدها جاءتك بغيرها وخرج منها على العِلات شيءٌ ما يكون منه أمرٌ ما . وكن في قوّة عواطفك وإحكامها وضبطها كالمصارِع الجبار الذي لا يوضَعُ جنبه (٢) ؛ فإنه – كما تَعْلَم – يعرِكُ بكل جهة من جهاته أنواعاً من أقوى القوة ممثَّلةً في أجسام من أعنف العُنف ؛ فصدرُه الذي لا يُعْطَفُ ، وظهره الذي لا يُضْغَط ، وأطرافه التي لا تَهِنُ ولا تَكِلُّ ، وكل لوحٍ فيه إنما هو رجل تامُّ الخِلْقَة وثيقُ التَّركيب ؛ لأن كل ما فيه قوّة بالغة في قوّة بالِغة ؛ ولأن الرَّجل لم يجتمع كذلك إلا من المكاره والغمَرات (٣) التي خاضها وثبت عليها ، حتى كأنما خرج بها من وزن رجل إلى وزن جبل.»

ثم تقول : « دع الدِّماغ يحلم نائماً أو منتبِهاً ، ولكن متى انعدلَ اللَّيْلُ راجعاً إلى مآبه واستدار النِّصفُ المضيءُ من الكُرَة فلا تجعل حُلْمَ الرَّأس الذي هو أداةُ الخيال سبباً في عذاب الحواس التي هي أدواتُ الواقع . واقطع من نفسك أسبابَ المطْمَعَة الخيالية تجدْ كلَّ شيء قارًّا (٤) في موضعه ، لا ينحرف ، ولا يضطرب ، ولا يتململ ؛ وتذهب أحلامُ النَّوم في النَّوم ، وتأتي حقائق اليقَظَة مع اليقظة وكنا في انتظارها فلا يفجأنا منها شيء . إنك ربما تأتي في أحلامك ما لا يُسَوِّغُهُ عُذْرٌ ، وترى وتسمع ما لا وجود له ، وتجد مَنْزَعاً (٥) من أمور ليس فيها مَنْزَع ، وتموجُ بك العوالِمُ كلُّها وأنت ساكن في نومك مستقلٌّ حتى على الحركة الضَّعيفة . وحَسْبُك بعضُ هذا في الدَّلالة على أن الدِّماغ لا يسكنُ إلى نزواته عاقل ؛ لأنه مصنعُ المستَحيلات كما هو مصنع المُمْكِنات . »

* * *

آه ، يا عزيزي ، لو رأيت كيف تختلط المعاني بأنفاس شفتيها ، وكيف تُقْبل عليك ألفاظها ، وفيها من اللُّطف واللِّين والرِّقة وألوان النَّفْس أكثر مما في خدَّي عذراء سافِرَةٍ بين عشاقها ، لا يفارقها الحياءُ من الألحاظ ولا تفارقها الألحاظ ! إنّها لتُميتُ داءَ الصَّدر من الوساوس والشَّهوات إذا هي كلّمتك بتلك اللُّغة القلبية التي تَمْحَق (٦) حواسَّك مَحْقاً إن كنتَ رجلاً كريم النَّفس ؛ وإذا هي استسلمت بكلماتها إليك ولكن في حماية ضميرك . تُسْمِعُك صوتَ ضعفها مُلْتَجِئاً إلى قوتك ، وكأنها تقول لك: إن نصفَ كلامي هو هذا والنصف الآخر هو ثقتي بشرفك .

في المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً وتَخْلِجُه (٧) عن كل ما في دنياه كما تَخْلِجُه المَنِيَّة عن الدُّنيا ؛ وليس فيها شيء واحد ينقذه منها إذا أحبَّها ، بل تأتيه الفِتْنَةُ من كل ما يُعْلِنُ وما يُضْمِر ، ومن كل ما يَرى وما يسمع ، ومن كل ما يريد وما لا يريد ؛ وتأتيه كالرِّيح : لو جَهَدَ جُهْدَه ما أمسك من مَجْراها ولا أرسل . ولكنَّ في الرَّجل شيئاً يُنقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمتْ عيناها من حافاته وجوانبه . فيه الرُّجولة إذا كان شهماً ، وفيه الضَّمير

(١) عطشاً ، وقيل : شدة العطش . *

(٢) لا يغلب فيرمى على الأرض . (٣) الشدائد . *

(٤) آمناً ثابتاً . * (٥) النزوع أو الاشتياق إلى الغاية . *

(٦) تدحض وتذهب ، وفي القرآن الكريم : « يَمْحَق اللهُ الرِّبا ويُربي الصَّدقات . » * (٧) تنتزعه . *

إذا كان شريفاً ، وفيه الدَّمُ إذا كان كريماً . فوالذي نفسي بيده لا تعوذُ المرأةُ بشيءٍ من ذلك ساعةَ تُجنّ عواطفَه ويَنْفِرُ طائرُ حِلْمِه من صَدْره إلا عاذَت والله بمَعاذٍ يحميها ويعصمها ويمدُّ على طَهارتها جَناحَ مَلَك من الملائكة .

الرُّجولةُ والضَّميرُ والدَّمُ الكريمُ : ثلاثة إذا اجتمعن في عاشق هَلَك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاكُ الأصغر ؛ ثم فِتْنَتِه بها فتنةً لا تهدأ وهو الهلاكُ الأوسط ؛ ثم إنقاذها منه وهو الهلاك الأكبر . أَ لا إن شرفَ الهلاك خيرٌ من نَذالة الحياة ؟

الرِّسالة التّاسِعَة

القلبُ الكريمُ المتألمُ

إنَّ رسائلي إليك ، أيها العزيز ، لَتنْتزِعُ مني دواعيَ [1] هذا الصَّدر المحزون ؛ فإنها كَفَيْضَةِ الملآن [2] ولكني أراها لا تذهبُ بِهَمٍّ أستريح إليه إلا رجعت بهَمٍّ ألتوي عليه . وقد يكون بعضُ العزاء عن المصيبة تفنُّناً من المصيبة نفسها ؛ كدَمْعَة من يرثي لك من النَّكْبَة يجيئكَ بها تعزيةً ، ولها على نفسك الأبِيَّة غَمْزٌ مُؤْلِمٌ قد يكون أشدَّ من ابتسامة العدو الذي يشمت بك .

أكتب إليك في أحزاني اضطراراً أيها الصَّديق ؛ فأنت الجسم الثاني لروحي ، وقد هدم ذلك الحبُّ صورتي الأولى فسكنتُ منك لصورتي الثّانية . وما أعجب رحمةَ الله إذ تحيلُ كلَّ هَمٍّ في هذا الإنسان الضَّعيف إلى قوَّة تبعثه على التماس العطف والرِّقَّة من كل النَّواحي الإنسانيَّة ؛ كأن في النَّفس بجانب كل شيطان مَلَكاً ، إن لم يستطع تحويلَ الشَّرِّ إلى خير أخرج منه نَزْعَة من نَزَعات الخير .

واهاً لهذا القلب الذي أحمله ! فإنمّا هو عَقْلُ فيلسوف خُلق على شكل القلوب ؛ فهو يأتيني من كل شيءٍ بشيءٍ غيره ، حتى تلك التي أُحبُّها جاءني منها بهذه التي أبغضها وبقي مع ذلك يتفلسفُ في حبها .

ولكنه قلبٌ جليل سامي النَّزْعَة ، قارٌّ كالصَّبر ، مُجتَمِعٌ كالإيمان ؛ يقول لكل حاسَّة أو عاطفة أرادت أن تَتَهضَّمَ [3] فيَّ أو تَستَذِلَّ : يا سَرْحَة الوادي، لا يزالُ هناك جَبَلٌ لا ينحني لعاصفتك ؛ قلب لا أدري : أَ وَهَبَني اللّهُ له أو وهبه لي ؟ فهو مَثارُ الألم ومهبِط الرَّحمة جميعاً .

ولقد ورد في أثر من الآثار : « إنَّ العبد إذا دعا لإنسان قد اشتدَّ بلاؤه فقال : « اللهم ارحمه » يقول الله : « كيف أرحمُه من شيءٍ به أرحمُه » » . وكيف يرحمني الله من هذا القلب وقد رحمني به في ذات نفسي ؟

إنمّا عِلَّة البلاء من ناحيتنا نحن ، ثم من هذه الجهة الفانية ؛ جهة الجسم الذي يَستَيْقِن أنه يعيش ليموت ، وهو مع ذلك يقبل المقدِّمات وحدها ، ويحاول دائماً أن يفرَّ من نتائجها ، كأن النَّتيجة ليست في المقدِّمة والآخرةَ ليست في الأولى ؛ أما تلك النَّاحية الخالدة – ناحية الرُّوح – فهي كما قيل في شجرة الصَّنْدَل : تُعَطِّر الفأس التي تضربها وتَحْطِمُ فيها .

هذا القلب هو سِرُّ الجمال الإنساني ؛ لأن فيه بَرَكَةَ النَّفس وزينتها وسَكَنَها ؛ فالبركة تنبت من الخلُق الطَّيِّب ، والزِّينة تخرج من الفكر الجميل ، والسَّكَن يثبتُ بالإيمان واليقين ؛ وما جمال النَّفس الإنسانية إلا خُلُق وفِكْرة وفَضيلة مُؤْمِنَة .

* * *

ما زلتُ منذ وَعيتُ كأنما أفرغ في قلبي هذا قلوبَ النَّاس بتوجُّعي لهم وحناني عليهم ، وكأنما أعيش في هذه الأرض عيشَ من وضع رِجْلاً في الدُّنيا ورِجْلاً في الآخرة ؛ أحفظ الله في خَلْقِه ؛ لأني أحفظ في نفسي الرَّحْمَةَ لهم ، وإن كان فيهم من يُشْبِه في التَّلَفُّفِ على دَواهِيه باباً مُقْفَلاً على مغارة مُظْلِمَة في ليل دامِس . وأتقي طائِلَةَ

---

(١) أسباب الضَّجر ونحوها . (٢) الملآن يفيض فيخف ما به .

(٣) تظلم وتقهر . *

قلوبهم [(١)] ؛ وألبَسُهم على تفصيلهم قِصاراً أو طوالاً كما خرجوا من شِقَّي المِقَصّ المجتَمِعَيْن من الليل والنّهار تحت مِسْمار الشّمس ؛ وأصدِرهم من نفسي مَصْدَراً واحداً ؛ لأني أعلم أن ميزان الله الذي يَشيلُ ويَرْجَح بالخفيف والثّقيل ليس في يدي فلا أستخِفُّ ولا أستثقل . وأعرف أن الفضيلة ليست شيئاً في نفسها وإنّما هي بالاعتبار ، فلا أدري إن كانت عند الله في فلان الذي يُحقِّر النّاسَ أو فلان الذي يُحَقِّره النّاسُ .

وليس من طبعي أن أتصفَّح على الخَلْق [(٢)] ؛ فإن من وضع نفسه هذا الموضعَ هلك بالنّاس ولا يَحْيَوْنَ به ، وتَعَقَّدوا في صدره كما يتعقَّد الماءُ العَذْب بالغُصَص المؤلمة ، ورَمَوْه بذنوبهم من حيث لا يُمَحِّصُ عنهم شيئاً . [(٣)]

وقد خلقهم مَنْ عَلِمَهُمْ كيف يجيئون وكيف يذهبون ؛ وما تَقذِفُ بطونُ الأمّهات في هذه الأرض إلا تَواريخ كُتبت في الأزل كما قَدّر الله ولِما قضاه ، فمن استقامَ فعلى الخَطِّ الذي امتدّ له ، ومن زاغَ فللدّائرة التي انحرف به محيطُها المائل من طرفيه إن سَفَل وإن علا .

لقد أقمتُ من نفسي لهذا الخَلْق جَبَلاً ، وإنّ هذا الجبل لَيتدحرج عليه الصَّخْرُ الصَّلْدُ ، ويَلْصَقُ به الحصى المسنون ، وينغرز فيه الشّوكُ الدّامي ، وتنبت منه الفروعُ المُرّةُ ، وترسو بين أطباقه العروق الضّاربة ؛ ولكنه على ذلك جَبَلٌ وهو بذلك أتمّ رَوْعَةً ورَهْبَةً . ولكل شيء مما عددتُ معنى في نفسه ، ولِكُلّها مُجْتَمِعَةً وَحْدَها معنى آخرُ ، ولجميعها مُبَعْثَرة يَتَخَطّى المعنَيَيْن في الجبل معنى ثالث .

فما أضيقُ بالنّاس ولا أتبرّمُ [(٤)] ، ولي أبداً مع الضُّعفاء والأقوياء سَفحٌ ظليل مُخْضَرٌّ وقمّةٌ عالية [(٥)] مُتَمَرِّدَة ؛ وإني على ما وصفت لأرى في أعماق هذا الطّود الراسي بركاناً يتزلزل به كلما اضطرم جاحِمُه [(٦)] ، ذائباً في الأغوار البعيدة تُمسِكه الأرض إمْساكَ العزيمة وتشدُّ عليه شَدَّةَ الصَّبْر على أنه لُجَجٌ من النّار ؛ فترى الطَّودَ الشّامخ قائماً على الأرض كأنه أرض مستقلة وفي جوفه ما يَحْطِمُهُ مِمّا يمور ويضطرب . [(٧)]

وكأني إذ لا أحاسبُ النّاس أحاسب نفسي بكل ذنوبهم إليّ فأُفَجِّرُ عروقَ دمي عليهم ، وكأن ذلك الكمال الإنساني الذي لا يزال بعيداً عني يحاول أن يقتلعني من أساسي لأثِب إليه في أقاصي عُلُوِّه .

إن النَّمْلة من النَّمل لَتخافُ على قَرْيَتها من قَدَم الطِّفل الرَّضيع ما نخاف نحن على كرة الأرض من أكبر نجوم السَّماء ، متى خشينا أن يَتَنَفَّسَ عليها فيرسلها زَفْرَةً في صَدْر الأبد . وكم بين قرية النَّمل وبين كرة الأرض ؛ وأين وطأة الرَّضيع من صَدْمَة النَّجْم ؟ ولكن كل شيء فإنما هو باعتباره في نفسه وباعتباره لنفسه . أ لا وإنّ الزَّلْزَلَة التي يُضْرَب بها ذلك الجبل القائم من نفسي إنما هي رِقَّةُ الحُبّ .

* * *

وإنْ تعجَبْ فَعَجَبٌ ما ترى أن هذا القلب الإنساني لا يُصبح هَشيمةً [(٨)] في جنبي صاحبه ، يأخذ النّاسُ منه ويَدَعون كيف شاؤوا إلا إذا أنبت الله صاحبَه المسكين من نَبْعَةٍ باسِقَة في مَغْرِسٍ طَيِّب [(٩)]، وأخرجه في صيغة كريمة ، وأودع في أعصابه ميراثاً سامياً من الدَّم . ولقد تجد هذا الرَّجل الكريم ملء ذكائه دهاءً ونُكْراً [(١٠)] ونَفاذاً في أعضلِ الأمور ، يَنْقَعُ [(١١)] في الحوادث فِكْرُه كما يَنْقَعُ الثُّعبانُ نابَهُ المسموم ، وقد تجده في بدنه شديد الفِحْلَة [(١٢)] معصوباً عصباً كأنه من عضلاته في لفائف الحديد ؛ ولكنك تجد قلبه شيئاً غير هذا كله ، لا يُسرع إلا في هَدْمه ، ولا يتركه يدور كما يدور غيره على الخطوط والأضلاع الطّويلة من زوايا الحياة ، بل ينفذ به إلى الهموم من أقطارها على استقامة ، فما أسرع ما

(١) كناية عن الحسَد ونحوه . (٢) تصَفّح عن النّاس : التمس عيوبَهم وفَتّش عنها . (٣) مَحّص الذّنب بالتّوبة : محاه . (٤) أتضجّر ؛ وبَرِم بالشّيء وتَبَرّم . (٥) السَّفح من معانيه : أسفل الجبل . (٦) توقده ولهيبه واشتعاله . *

(٧) يَسيل ويغلي . (٨) مَهْشوماً مُحَطّماً ، وفلان هشيمةُ النّاس ، وهشيمةُ كرم : يأخذه النّاس كيف يشاءون ؛ لانطباعه على الكرم والسُّهولة . (٩) المراد بكل ذلك كرم الأصل . (١٠) أي سياسة ومكراً . (١١) المراد: يُعْمِل ويشحذ . * (١٢) هيئة الفحولة وقوتها في الرجل . *

يَتَهدَّمُ وتتقصَّف سِنُّه بعضُها على بعض (١) ، وربما كان في الأربعين فلا تري إلا أن العمر يخيِّط في ثوب هَمِّه بأربعين إبرة .

بهذا القلب رأيتُني كلَّما كبِرْتُ صغرت الدُّنيا في عَيْنَيَّ ، وكلَّما تقدمتُ دانيتُ أطرافها العليا فأصبحتُ أشعر حقًّا أن هذا العمر إنما هو سُلَّم إلى السَّماء لا إلى غيرها ؛ ومن هذا القلب اعتادت بعضُ سفن الأقدار أن تجد فيه حَلْقَةً ثابتةً متينة تشدُّ إليها حبالها إذا هي أرست على شاطئ الدَّهر بأحمالها ، فالنَّاس يتناولون منها خِفافًا وثِقالاً ، ولكن الحَلْقَة المعَذَّبة لا عمل لها إلا أن تهتز وترتجَّ من الألم والشِّدَّة والعنف .

وفي هذا القلب أعرف موضعَ كل شيء إلا نفسي ، فما أدري : أ هو من الضِّعَة (٢) بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السُّمُوّ بحيث صار نَفْساً وحدها ؟ ولكنه على الحالين أشقاني بهذه النَّفس وطَوح بي وبها في مهاوي الأحزان إلى قَرار بعيد .

* * *

في قلب كل إنسان معنى من الأزل ؛ لأنه كان ذَرَّةً في يد الله ، بَيدَ أن هذه الذَّرَّة تُمْحَقُ في بعض الناس أنواعاً من المحق ، فتصيب الرَّجل وإنه لعظيم جليل ولكنه في ميزان الله لا يَعْدِل مِثْقالَ ذَرَّة من حَسَنَةٍ من رجلٍ حقير ، وتَرْبو في بعض النَّاس وتنتفخ فإذا هي في وزن الجبل الرَّاسخ بأعضاده (٣) المترامي بنواحيه ؛ فيا قلبي المسكين ما أنت منهما . لقد تعذبتُ بك طويلاً وتقلَّدتُ منك بَلِيَّتي فما تَغْمِزُ بعِلَلِك ونزغاتك إلا في صميم الرّوح غَمْزًا كَوَخْزِ الإبر ، ولا تضربُ عروقي التي تستقي منك إلا على ألم تأتيني به إذ كنتَ لا ترميني إلا بشرٍّ ما تجدُ من هموم النَّاس ؛ وإذ ترى أن درس الشرّ والآلام إنَّما هو عُنصر الفلسفة الأسمى ، وإنما هو الفضيلة المنْحَلَّة لمن يريد أن يعلم ويرى كيف تتألم أجزاء الفضيلة في باطنها . فأنت تَنْتَشِطُ (٤) الحزنَ من كل شيء وتأتيني به لأتَحَزَّن وأتألَّم ، فألمس بالحزن والألم مِصْراعَي باب السَّماء ، وأنت تبسط عَلَيَّ رُواقَ (٥) المعاني المظلِمَة من الآلام والأحزان لأرى في ظلماتها أشعة روحي المضيئة بالإيمان والرِّضا .

رضيتَ يا قلبي المسكينَ أن تجتمع من حطامي المتناثِرَة ، وأن تكون سويًّا تامًّا ، وأكون أنا الجسم الحيوانيّ أشلاءً (٦) وبقايا ؛ فإني رأيت شرَّ أهل الدُّنيا ذلك الذي هو أهنأهم بمتاعها حتى كأنه في شهواته ولَذّاته لم يجتمع إلا من حُطام قلبه المتَبَدِّد .

الشَّهوات واللَّذّات تبني عالمًا والآلام والأحزان تبني عالمًا آخَرَ ، وهما يتجاوران كما يلتصق حائطُ اللَّيل بحائط النَّهار ؛ وأنت يا قلبي المتألِّم لا تُشْرِف على العالم الأوَّل إلا ما يُشْرِف النَّظَر العالي من البعيد ؛ لأنك طَوْدٌ باذِخ (٧) رَسَخَتْ جذوره في العالم الثاني .

إنَّ الإبْرَةَ الممَغْنَطَة (٨) التي تَهدي السُّفن باتِّجاهها لهي القلب الذي تحمل فيه السَّفينةُ روحَ الأرض ؛ والقلب الإنساني هو كتلك الإبرة غير أنه يحمل روح السَّماء . ولولا حاسَّة الاتِّجاه الإلهي فيه لتمزَّقت علينا جهاتُ الأرض (٩) في أنفسنا فضللنا فيها وارتبكنا في فُتوقها الواسعة حتى لا يهتدي إنسان إلى الجهة الإنسانية ، ولكنَّا نَتَغافَل عن هذه الحاسَّة فيه ، وترى أكثر الناس لا يُقبلون بأنفسهم إلا على جهة أجسامهم ، ويطوي أحدُهم الدَّهْرَ الفسيح من عمره وما ارتفع قليلاً ولا كثيراً ، بل يكون كالطَّير في قفصه يتخبَّط بين أرض وسماء ، وما بين سمائه وأرضه إلا علوّ ذراع . وإن أشرَّ ما كانت الحياة وأشدَّ ما هي كائنة على من لا يجد لَذَّة قلبه فيها ؛ وأصعب ما تكون الإنسانيَّة على من يعظم بحيوانيته وَحَسْبُ (١٠) ؛ فتراه وكأن مئة حمار رُكِّبَتْ منه في حمار واحد ، ولكنه حمار عظيم .

(١) تمر أيامه مسرعة . (٢) خلاف الرِّفعة في القدْر ، وهي بكسر الضاد وفتحها . * (٣) التِّلال المحيطة به .

(٤) تَخْتَطِف . (٥) ستر . * (٦) الأشلاء : الأجزاء المقَطَّعة . (٧) جبل شامخ . * (٨) البوصلة . (٩) كناية عن الشهوات الحيوانية . (١٠) أي فقط ، وقد عَمَّ استعمالُ هذه الكلمة ، وكُنَّا أوَّل من استخرجها وأذاعها .

وما رأيت قلبي يلتمس لَذّةً من بعد إيمانه إلا في ثلاث : الفِكْر الإنساني الذي يهبط في أدمغة الفلاسفة والشُّعراء من أعلى السَّماوات أو ينبع من أغوار النَّفس ؛ والفِكْر الطَّبيعي الذي يملأ السَّماء والأرض نوراً وألواناً وجمالاً ؛ والفكر الرّوحي الذي يتلألأ لخيالي في عيني الحبيبة الجميلة .

الرِّسالة العاشِرَةُ

لقد وصفتُها لك أيُّها العزيزُ ، وملأتُ رسائلي منها ؛ غير أني والله ما أدري : أ وصفتُها أم وصفتُ بها ، وكتبتُ منها أم كتبتُ عنها ؛ فإنّما ذلك مَطْلَبٌ دونه أن تجعل وصفَ الجمْر يَلْذَع لَذْعَ الجمر ؛ ومهما أكتب فإنّها باقية في نفسي لا تنقصُ على قَدْرِ ما تَزيد. إنَّ فيها شيئين هما الفكرُ والجمال، وفيَّ شيئان هما الخيال والحب ، وهذه الأربعةُ تُنشئُها في نفسي خَلْقاً بديعاً لم أره لامرأة قطُّ ، ففيها وحدها زيادة عن النّساء ؛ لأن فيها وحدها نفسي .

أ ما سمعتَ بذلك الأعرابي الذي قيل له : « ما بَلَغَ من حُبِّك لفلانة ؟ » فقال : « والله إني لأرى الشَّمْسَ على حائطها أحسنَ منها على حيطان جيرانها ! » قد – والله – صَدَقَ وَبرّتْ يمينُه ؛ فإن في كلماته الشِّعريّة لأثراً من عينيه ؛ إذ يرى الشَّمس على حائطها كالشَّمس على البِلّور الصّافي ، لا على الحجر والمَدَر [1] ؛ فهناك أشِعّة أخرى من تلك التي وراء الحائط تنفذ إلى قلب هذا المسكين فإذا هي سطعت لخياله في نور الشَّمس أضافت إلى النّور ألواناً مختلفة من ذلك المعنى الجميل الحيّ ، فلا تكون الشّمس في عينيه أحسنَ ممّا هي وقتئذٍ ، ولو أنها طلعت على حائط من اللُّؤلؤ .

ليس الجمال ما يَعْلَم الكاتب ، أو يدرسه الفيلسوف ، ولا هو مَذْهَبٌ من مذاهب التّلفيق في الجمَل والألفاظ ، ولا هو كما صنع علماء الرِّياضيّات الذين جعلوا الفَلَكَ كلّه بألوانه وجماله وما فيه من غموض الأبد مسئلة حسابية ، والأرضَ بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسئلة هندسيّة ، كأن الأزلَ كلّه خطوطٌ وزوايا وأرقام ؛ وتركوا جانباً حركةَ الفِكْر الأعظم القائم بالإرادة الأزليّة ؛ وهي التي تُطالع العقل من كل شيء بمعنى والخيالَ بمعنًى آخر ، ثم تكون هي في حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً . ولكنك مع ذلك واجدٌ في الأرض من يَتَسكّع ويحمل الشّمعة ليَفَتّشَ في ضوئها عن النّجم العظيم .

* * *

لو أني سُئِلتُ تَسميةً لعِلْم الجمال لَسَمَّيْتُهُ « علم تجديد النَّفس » ؛ فإن الجميل الذي لا يُجَدِّدُ بمعانيه حواسَّك وعواطِفَك ويُعيدها غَضّةً طَرِيّةً ، كما فُطرت من قبل ؛ لا يُسَمّى جميلاً إلا على هذا المجاز الذي سَمّى به أحَدُ القوّاد كِتابَه في الصُّنّاع الفقراء: (غَزْو الخبز) . لا تسل عن الجمال مَنْ يُحْسِنُ الفكرَ والإبانة عن فِكْرِه ، ولكن سَلْ عاشقاً يُحْسِنُ الشُّعورَ والتَّعبير عن شعوره ؛ فذلك هو الشّاعر من جهاته الأربع : جهة قلبه وفكره وحوادثه وحبيبته ، وذلك هو تاريخ الجمال الذي يتكرّر على الأرض أبداً ، وإلى مُنْقَطَع الحياة في صورة واحدة كالحياة نفسها .

أ لا ما أتعبَ الإنسانَ بحياته وموته ؛ إن هذه الحياة مصيبةٌ كُتِبَتْ على الأرواح لإيجاد عيوبها في عالَم العيوب ؛ والموت مصيبة كُتِبَتْ عليها لنقل هذه العيوب معها إلى العالَم الآخر ؛ فما عسى أن يكونَ الجمالُ والحبُّ إلا تخفيفاً من مصيبتين أو .. أو زيادة فيهما ؟

سأحدثك عن هذا الجمال كما أوحته إليَّ عواطفي التي ما تزال تَدْأَبُ [2] لا تأتلي [3] كالنَّحل على الأزهار والألوان ، وكما رأيته في تلك الحقائق السّاحرة التي كانت تفيض بمعانيها على الجميلة فتُكْسبها غرابةَ الجمال ، وتُمَثّلها لعينيَّ في ثلاثة ألوان : لون من وجهها ، ولو من دمها ، ولون من قلبي . سأنثر لك الجميلةَ ، وأسرارَ جمالها ، وتأثيرَ

(١) قطع الطين اليابس . *

(٢) تجِدُّ وتتعب . * (٣) لا تقصِّر ولا تُبطىء . *

جمالها نثراً ألّفني والله قبل أن أؤلّفه ، وما صَعِد إلى فكري وانحدر من قلمي إلا بعد أن وَقَدَتْ عليه الجمَراتُ الحمرُ ؛ فَغَلَى في القلب ، وتبخّر ، واندفع ، وطار إليك في كلام كالنّدى على الورق الأخضر .

* * *

إنَّ في نفس هذا الإنسان أعماقاً بعيدة تنحدر أغوارُها من مَهْوًى إلي مَهْوًى ، إلى ما لا نعلم ؛ لأن النّفس ما بَرحتْ جزءاً من الأزل كبعض النّور من النّور ، ينفصل عنه وهو مُستَقِرٌّ فيه .

وقد نثر الله في أعماق هذه المصابيح المتّقِدَة التي اهتدى في ضوئها الفِكرُ الإنساني إلى شيء من الإدراك الأسمى ؛ من ذلك النّور الذي يَشتَعِلُ ويتَوَهّج في أقطار السّماوات كلها . وكما ترى في أعماق الفضاء ترى في أغوار النّفس ، فلا بدَّ لهذه ممّا لا بدَّ منه لتلك من معاني النور الإلهي ؛ فالكوكب يُضيءُ في أعماق الفضاء ، والوجه الجميل يضيء في أعماق النّفْس .

ألم تَرَ إلى المحبِّ الذي أدْنَفَهُ [1] الحبُّ كيف يشعر أنّه مُتّصِلٌ بالنّور الأزلي من الحسْن الذي يعشقه ؛ وكيف يرى في أطواءِ نفسه أخفى الوَساوسِ وأدَقّها ، كأنها مَكْشوفةٌ لعينه على الضّوء ؛ وكيف يظلُّ أبداً في حُبِّه ، كأنما يبحث في الأرض عَمّا ليس في الأرض ، ويحاول أن يجد في قلبه ما لا يُخْلَق في القلب ، وكأنه وحدَه الذي يعلم من نفسه أن فوق كل طبقة طبقة أعلى ، وتحت كل عمق عمقاً أسفل ، فلا يَقْنَعُ بشيء لا من عاليها ولا من سافلها ؟

وانظر كيف يجعله حبُّه العظيم يرى العالم كلّه صغيراً حقيراً ؛ وإذا اتفقت له ساعةٌ من حبيبته رآها عجيبةً كأنها ليست من الحياة أو ليست إلا الحياة ؛ فهل وَسِعَتْ نفسُه من الحبِّ شيئاً لا سبيلَ لأن يُقاسَ معنى العالَمِ به ؛ أم صارت أعماقها تُطاوِلُ أعماقَ الفضاء ؛ فهو بالحب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه ؟

[1] بَراهُ المرض . *

لا أرى سرَّ الجمال إلا أنه شيء حقيقي من تلك القُوَّة السّماوية التي نُسَمّيها الجاذبِيّة ؛ فكأن الله حين يُبْدِعُ الجميل يُرْسِل في دَمِهِ مع الذَّرّة الإنسانية ذَرّةً من مادّة الكواكب هي سِرُّ عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معني تلك القوّة التي لا يزال الجميلُ يُخْضِعُ بها كما يُخضع الفَلَكُ المُدار ، ويَتَسَلّط على عاشقه كما تَتَسلّط الأقدار ، ويبُثُّ في الدّم الإنسانيِّ مع مادة الدّمِ مادّةً من النّار .

وما أساليبُ الدّلال ، أو ما نراه دَلالاً في الجميل المعشوق ، إلا اضطراب تلك الذّرّة من سكونها ؛ فإنها متى تحرّكت للجاذبية جعلت الجميلَ يتلألأُ من كل جهاته ، وانبعثت في كل ناحية منه نوراً ؛ فوضعت لكل شيء فيه معنى من المعاني الخيالية ؛ إذ هي معنى كل شيء فيه .

ولو أنّك سألتَ عاشقاً أن يُصادِمَ من يحبُّ ويتّسع لهجرها ونبْذِها ويتجافى عن هواها ، لكانت عاقبةُ ذلك في نفسه ويقينه ما يعلم من العاقبة في مُصادَمَةِ الأرض لكوكب من الكواكب ؛ إذ يتحطّم ولا يُغْني شيئاً في تعطيل قوة الجذب المُنْصَبّة من قمره الجميل على كُرَة قلبه الضّعيفة .

وكما نجدُ للكواكب في نظام السّماء نَعْرِفُ نحواً من ذلك لكواكب الجمال في نظام النّفس ، فليس كل ظريف جميل يَجْذِبُ حُسْنُه في كل دائرة على ما شاء وشاء الهوى ، وإلا فَسَدَت الأرضُ وأصبح الجنسان فيها كحَجَرَي الطّاحون لا عمل للأعلى إلا أن يطحن على الأسفل . بل إن لكل جميل فَلَكاً لا تَعْدوهُ [2] قوّة جذبه ، فإذا هي تخطّته إلى فَلَكٍ غيره بَطل عَمَلُها ، أو عملت على ضعف، أو وقعتْ ثَمّ مَوْقعَ صوت القنبلة : يخرج منها وليس فيه شيء منها . ذلك بأن الله قد سلّط على هذه الأرواح السّماويّة موادَّ مختَلِفَةً من ثقل الأرض لا تبرحُ تُدافِعُ تلك المادّة من جاذبية السّماء ، فإما أبطلتْها وإما كسرتْ من حِدّتها ، وإما أضعفتها ، وإما طَمَسَتْ عليها ؛ ما لم تكن النّفسان العاشقة

[2] لا تتعدّاه ولا تتجاوزه . *

والمعشوقة من فَلَك واحد في القَدَر الجاري عليهما .

فلو أنَّ أرَقَّ من غَمَزَ الحبُّ على قلبه من الشُّعراء الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً ، يحدِّثك يوماً عن تلك الجميلة التي كَلِفَ بها واختبلَتْه بحبها [١] ، فأرسلته على وجهه في كل مَذْهَب من مذاهب الهوى ؛ ثم يتفتّح لك في صِفَتها بكل ما تَخيّل حِسّهُ وأَحَسَّ خياله فيُفرْغها في القالَب الذي لم يخلق الله فيه امرأةً قطُّ ، ويصبُّها لعينيك مُمثّلَةً من النّور السّماوي المحْض ، تُضيءُ كُلُّ قَطْرَةٍ منه وَجْهَ مَلَكٍ من الملائكة ؛ ثم يجري كلامه فيها شعراً خالداً مُطّرِداً كنهر الكوثر في رياض الجنّة ، حافّتاه من ذهب ومَجْراه على الدُّرّ والياقوت ؛ ثم يتّفِقُ لك بعدُ أن تراها وتجلس إليها وتُطارِحَها ولستَ من فَلَكها الذي تعمل فيه جاذبيتها — إذن لرأيته قد غارَ من أوصافها في بئر من الكذب ، وتَعلّق في الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل ، ونزل من الحقيقة التي كان يذكرها لك منزلة المُفْلِس يظلُّ مُتَسكّعاً فارغاً يُتْبِعُ نفسَه هواها ويتمنى الأمانيَّ ولا حقيقة ، ولرأيته كالعنكبوت تقضي الأيام الطّويلة في نصب أشراكها وحبائلها لأجمل ظبية في عينها ، ثم لا تكون ظبيتها إلا ذبابة ! وتردُّ عليه سوادَ أمره وبياضه كذباً وزوراً ، وتتّهم ذوقَه ، وتهجّنُ [٢] طبعه ، وتتّقي عليه أن يكون قد تخبّطه مَسٌّ من الشّيطان ؛ وأنت على ذلك مُسْتَيْقِنٌ أنك تُكلّمه فيها بأصَحِّ لفظ ، وأوضح معنى ، وأصدق نصيحة ، وأنك تُلقي في أذنه براهين المنطق وحجج الفلاسفة ، وتُصَحِّحُ له خطأه في رائحة الزّهرة بالزّهرة نفسها . تقوله له : « ها هي ذِهِ في رَيّاها ونسيمها ، فأين ما زعمتَ لها ؟ »

على أنه هو في كل ذلك لا يراك إلا كالأقطع الذي يُقَدِّرُ قياسَ الباع الطّويل ببقايا ذراعيه ، والمُقْعَد الذي يضبط قياس الخُطْوة الفسيحة بمَدِّ رجليه ؛ والأعمى الذي يُفاضل بين لونين ؛ ويُكَذِّب في رأيه ذا العينين ، ويراك مجنوناً فاسد العقل ، أو سخيفاً فاسدَ الذّوق ، أو أحمقَ فاسدَ الرّأي .

وما بك ولا به بأسٌ ، غير أنك تنظر مُدْبِراً وينظر مُقْبِلاً ، وتهزأ بتيّار البحر ؛ لأن قدميك في الشّاطئ ، ويرهبه هو لأنه مُنْدَفِعٌ فيه مُنْخَلِع القلب من فَوَرانه وهَديره .

وأنت تروي فيما وصفتَ لهُ بلسانك عن عينك عن هذه المرأة ؛ وهو يروي فيما صَوّر لك بالسَّنَد الطّويل : بلسانه عن عينه ، عن خياله ، عن آماله ، عن قلبه ، عن روحه ، عن القَدَر المحتوم ، عن هذه الحبيبة . وأنت في نفسك كأنما تنظر من الأرض إلى النّجم فلا تراه بعِلْم ولا يقين ؛ وهو في نفسه إنمّا ينظر من فلك النّجم إلى النّجم ذاته ، فإذا الكوكب ما هو ، وإذا فضاءٌ واسع من النّار وجَوٌّ عميق من المغناطيس ومَظْهرٌ من القُدْرَة العُظْمى : جماله في هيبته ، وهيبته في قوّته ، وقوته في جماله ؛ فهو شيءٌ واحد بعضه من بعض .

* * *

وإذا رحم الله إنساناً من هذا الحبِّ ومن التّعَلُّق بالجمال كَدَّر طينَتَه وأغلظ على نفسه بموادّ ثقيلة من هموم الحياة وأكدار العيش ؛ أو أفرَطَ عليه بآمال النّفس وأطماع الحاسّة فيشغله بكل ذلك أو بعضه ويحوطه منه بمثل أكياس الرّمل التي يتحصّن وراءها المقاتِلةُ ، فلا تنْفُذُها الطّائرات الحُمْرُ [٣] بل تنطفئ فيها ، ويجعل له من دون العيون الذّابلة وألحاظها صدراً مُصَفّحاً بما يتساقط في داخله من جوانب نفسه وما يتصدّع من أركان قلبه بين الكمد والهمّ ، أو الأمل والطّمع ، أو الجهد والتّعب ، أو الثّقل والغلظة ، أو غيرها من هَزاهِز [٤] العيش ودواهيه ؛ فتذهبُ سَطْوَةُ الجمال في سطوة المادة ، وتُخضع الإنسان قوّةٌ بإفلاته من قوّة أخرى ، ويُهْدَمُ من أعلاه ليُشَدَّ بناؤهُ من أسفله .

وما من أحد في الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين هَمِّ الحب وهَمِّ الحياة ، فإن قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالي به ؛ إذ هما حقيقتان مُتَدافِعتان كتَيّاري الكهرباء ، لو أمكن شيء من المستحيل لما

(١) أصابته بالخبل والجنون . (٢) تعيب وتذم . *

(٣) الرّصاص ونحوه . (٤) الفِتَن يهتز فيها النّاس . *

أمكن أن يَطَّرِدا (١) في سِلْك واحد اطِّرادَهما في السِّلْكَيْن . فإن لم تكن محاملُ هذا الجسد (٢) خفيفةً على النَّفس من جهات الفكر والهمّ وإلا انصبغ الذَّوق ؛ فالتبست ألوانُه ، وخالط بعضُها بعضاً ، وضعفت موهبة التمييز بين المعاني المضيئة ، وصار الإنسان هَمًّا كافياً لنفسه ، وعادت النَّفْس هَمًّا كافيًا لصاحبها ، فليس بينهما على ذلك موضعٌ لما ليس منهما . ويحولُ مادَّةُ ذلك الهمّ بغِلظتها وجفائها بين السِّرّ المعشوق في الجمال والسِّرّ العاشق في الروح فلا يُدْرِك منهما شيءٌ شيئًا .

فهذا الجمال ، إن شئت ، قدرةٌ لا قوَّةَ فيها ، وإن شئت قوَّةٌ لا قدرةَ لها ؛ ولو أن الله جعلهُ مجموعاً من القوة والقدرة معاً لأبطل سُنَنَ الطَّبيعة الإنسانية ، ولصار لكل إنسان كونٌ وحدَه في القلب الذي يَرفُّ ليخفق على قلبه ؛ و وطَنٌ على حِيالِه في الجسم الذي يَحِنُّ لِيَنْضَمَّ إلى جسمه ؛ ودينٌ على حِدَةٍ يهبط الوحي فيه نظراتٍ من عينين إلى عينين ، وقانونٌ مُسْتَقِلٌ لا تكون موادُّهُ إلا قُبُلاتٍ من شفتين على شَفَتين .

واعلم أن أشقى المخلوقات هم أولئك التُّعساء الذين يَشِذُّون في تاريخ الناس أحياناً وينفردون دونهم بجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلي)(٣) ؛ إذ يتسلَّط عليهم الجمالُ بضرب ممتزج من القوَّة والقدرة يغمر الطَّاقةَ الإنسانية ، ثم تجيء أقدارٌ غريبة بين الرَّحمة والقسوة فتجذب الحبَّ إلى الحبِّ ، ولكنها تدفع المحبَّ عن الحبيب ، فلا يزال الجمالُ يسوقهم سَوْقًا عنيفاً من ناره إلى باب جَنَّتِه ثم يَرُدُّهم عن باب الجنة إلى النَّار ، حتى يصبح الواحد منهم بين العناصر والنَّواميس المنتَظِمَة في هذا الكون الإنساني كأنه عنصرٌ مجنون أو ناموسٌ مُخْتَلٌ .

* * *

إنَّ هذا الإنسان وعاءٌ من الأوعية لا يملأه إلا الأفكار والنَّزعات . ومتى احتَلَّ الفِكْرُ وتمدَّد ، ثم ضرب فتمكن ، ثم غار بجذوره وانشَعَبَ بفروعه ، صبَغَ الأشياءَ كلَّها في عيني صاحبه بألوان منه ، حتى كأنه لا ينبعث في أشعة النَّظر إلا ليلبس كلَّ ما تنظره العين ، فلا يرى المرء فيما يرى إلا صوراً من فكره ، كما تنبعث أخيِلَةُ السِّيما (٤) في أنوارها على حائطها فإذا هو تاريخ وحكاية وعمل وحَياةٌ ، وإذا هو هي على أنه حائط .

ولم يخلق الله فيما أعرف غيرَ الحبِّ فكراً يتمكن من الإنسان ويضربُ الضَّربات الثَّقيلة فيستطير (٥) في قلبه استطارة الصَّدْع الشَّادخ (٦) في لوح الزُّجاج ، يَشُقُّهُ على مَدِّ ما تتَّصِل إليه حركته ، ويَثْلِمُهُ (٧) على غير قاعِدة من هنا وههنا ، ويَدَعه فُلولاً تَتَشَظَّى (٨) ، وما هذا الحب إلا فكرُ الجمال وأثرُ عمله في النَّفس ؛ إذ كان الجمالُ الفاتن لا يُخْلق على ذلك الأسلوب الذي هو عليه إلا ليستحوذ على التَّخَيُّل والحِسِّ معاً ؛ فهو نوعٌ من جَوْر (٩) الطَّبيعة على الإنسان يجيء من اتصال أحسن ما ظهر في شخص بأحسن ما كَمَنَ في شخص آخر ؛ وهو كذلك نوعٌ من استثارة هذه الطَّبيعة لكل ما في أعماق النَّفس الإنسانية ببعض ما في أعماقها هي .

فالعاشقُ مُقْتَتَلٌ (١٠) بأسلحة طبيعية ، منها كلُّ نظرة من حبيبه ، وكلُّ كلمة ، وكلُّ حركة ، وكلُّ ما مسَّه أو اتصل به منه ؛ وذلك لأن قوَّة طبيعيَّة عجيبة تَنْفِثُها (١١) رَهْبَةُ الكون وتحصرها بين نفسه ونفس حبيبته لتجعل منهما طريقي سلبها وإيجابِها ؛ هذه القوة هي الفكر ؛ هي ذلك الحب ؛ هي الكهرباء المتألِّفة من نفسين . ومثلُ ذلك بعينه في الضَّرب على قلب الإنسان ما يتملَّك هذا القلبَ من هموم الدُّنيا وشِدَّات مصائبها . كِلا الفِكْرين قَتْلٌ من الطَّبيعة ، غير أنها في أحدهما باسمة وفي الآخر عابسة . تقتلُ الإنسانَ بما يُحب كما تقتله بما

(١) ينتظما ويستقيما.* (٢) أغراضه المادية الحيوانية التي تحمله.
(٣) هو مجنون بني عامر الشَّهير ، واسمه قيس رحمه الله .

(٤) السينما . * (٥) يفشو وينتشر . * (٦) الصَّدْع : الشَّقّ ، و الشَّدْخ : الكَسْر ، والشادخ : المائل عن القصد . * (٧) يكسره. * (٨) بقايا تفتت وتتناثر . (٩) ظلمها ، والجَوْر نقيض العدل. * (١٠) مقتول . (١١) تبثها وتنفخها. *

يكره ، وهما طريقتان لا تسلك غيرهما إذا أرادت أن تتنفذ بقَدَر من الأقدار الماحقة إلى باطن النفس لتترك هذا الإنسانَ المعذَّبَ يحسُّ بغَمْزِ القوَى الخفيَّة على فؤاده .

الرِّسالة الحادِيَةَ عَشْرَةَ

تقول أيُّها الصَّديق : « ألا زدني ثم زدني ؛ فإن لَيْلَكَ الحزينَ قد تَفَجَّر لك بصُبح من تلك الشَّمس ، وإن قلمك لَيَجْمَعُ أشعةَ النُّجوم ويُصَوِّر منها ذلك القمر ، وإنك لأنت المحبُّ الذي يخرجُ من جنونه العقلُ الكامل . ولئن كانت تلك الحبيبة قد اختلجت نفسها (١) من يدك فما ذلك إلا أنها مَلَكٌ مَدَّ إليك جناحَه وأمكنك منه ، ثم انفلتَ لِيَدَعَ في يدك الرِّيشَةَ السَّماوِيَّة التي تُصَوِّرُهُ بها . »

كذلك كانت تقول هي: « أنا لا أخشى غضبك؛ فإن غضبك عليَّ لا يكون إلا السَّحابَةَ المطَرَّزَة بخيوط البرق تهبط في ألوانها مُذَهَّبَةً وتُجَلْجِل بأجراسها من بعيد ؛ لأنها تحمل إليك مَلَكَ الوحي الذي لا ينزل عادةً إلا في جَوٍّ من البَرْق والرَّعد . »

* * *

ما كثرت أمراضُ التَّأويل في شيء كَثْرَتَها في تَعَرُّف حقيقة الجمال ؛ على أن هذه الحقيقة لا تُستَخْرَجُ إلا من الدَّم ؛ فلو فَتَشْتَ عنها السَّماء والأرض فلسفةً لجئتَ فيها بملء السَّماء والأرض كلاماً كذباً .

الجمالُ في حقيقته التي لا تختلفُ إنما هو معنًى من المعاني الحبيبة يَعْلَقُ بالنَّفس فيُحْدِث فكراً مُتَمَكِّناً تَتَطاوَعُ له هذه النَّفْسُ العاشقة حتى ينطبع في أعصابها فيستولي على الإنسان كُلِّه بجزء من عقله؛ ومن ثَمَّ يتقيَّد المحبُّ بقَيْدٍ لا فِكاكَ له ؛ إذ لا يجد ما ينتزعُه من عقله أو ينتزعُ عقله منه إلا أن يموت أو يجنَّ ، وهو من ذلك المعنى مُحْتَبَسٌ في قُفْل ، لو ضَغَطَتْ عليه السَّمواتُ والأرض لما تثنى ولا انكسر ، وليس إلا الحبيبة وَحْدَها هي فَتْحهُ وإغلاقه .

بهذا يكون الجمالُ على مِقدار ما يُحْسِنُ الإنسان أن يفهم منه ، ثم على مقدار ما يُؤَثِّر من هذا الفهم، ثم على مقدار ما يَثْبُتُ من هذا التَّأثير . وتلك هي درجاته الثلاث :

فجَمالٌ تَسْتَحْسِنُه ، وآخَرُ تَعْشَقُهُ ، وجمالٌ تُجَنُّ به جنوناً .

والأول تجودُ به الطَّبيعةُ في أشياء كثيرة ، بل هو الأصل في الخَلْق ، ولكنّا لا تنتبه منه إلا لما نجد فيه رَوْحاً (٢) على القلب ورِقَّةً للنَّفس وترفيهاً لهما ؛ وهذا الجمال خاضع للإنسان ، ومن ثَمَّ فلا سلطانَ له إلا بعضُ الميل والرَّغبة في النفس ، ومنه كلُّ مناظر الطَّبيعة .

والثَّاني تعلو به الطبيعةُ عن هذه الطَّبَقَة ، وتُنْزِله منزلة أعْلاقها (٣) وذخائرها النَّفيسة ، وتتسلَّط به على بعض النِّظام الإنسانيِّ ، كما تتسلط بهذا النِّظام على بعضه فيحبُّ الإنسان ويسلو ، ويمرضُ بالحب ثم يصنعُ بيده دواءَ مرضه ويشرب منه السُّلوان والعافية ؛ إذ هو بإزاء الجمال الذي يتسلَّط من ناحيةٍ ويخضعُ من ناحية تقابلها .

والثَّالث لا يَجده من يَجده إلا مرَّة واحدة ، كما أنه لا يموت إلا مرة واحدة ، وهو من خَوارِقِ الطبيعة التي كلُّ نظامها أنَّ العقل لا يعرفُ لها نظاماً ؛ وما هو إلا أن يصوِّب الإنسانُ رأسَه ، فإذا هو عند جنون الحب ، وإذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول .

فالمرأة في عين مُحِبِّها المفتون أجملُ من مسحتْ يدُ الله على وجهها من النِّساء فتركت الأثر الإلهيَّ يتسلَّط في سِحْر عينيها ، وطبعت المعنى الناريَّ يَتَلَهَّبُ في شعاع خَدَّيْها ، و أودَعَتْ رَوْحَ الجنَّة أمانة بين شفتيها ؛ ووصَلَتْ بين الرَّحمة والنُّفوس بذلك النُّور المتلألئ في ثغرها ، وبين النِّقْمَة والقلوب بتلك

(١) انتزعت نفسها ؛ كناية عن الهجر .

(٢) برداً وراحة . * (٣) جمع عِلْق ، وهو النفيس من كل شيء يتعلق به القلب . *

النار المستَعِرَة من هجرها ، وأضافت إلى النّواميس النّافذة في الكون فُتورَ عينيها وتنهُّداتِ صدرها .

ويراها المحبُّ فما يحسب إلا أن قطعةً من السّماء قد صارت ثوباً لجسمها ، وأن قَدَراً من الأقدار قد نشأ على الأرض وسُمِّيَ باسمها ، وإذا نظر إليها عَلِمَ بدلالة وجهها أنّها من القمر ، وإذا نَظَرَتْ هي إليه أَعْلَمَتْه بدلالة لَحْظِها أنها من القَدَر .

و تُسالِمه فيحلُّ سلامُ الدُّنيا كلُّها في قلبه ، وتُغاضِبُه فيقع في حرب هذه الحياة ، وتقع الحياة في حَرْبه . وإذا ضاقت الجميلةُ به ساعةً واحدةً لم يبق له بالعُمر استطاعة ، وإذا كان الهرَم بالسِّنين الطّويلة هَرِمَ في هجرها بالدّقيقة والسّاعة .

ويرى لو أن الجمال نفسه خُلق امرأة لكانَها ، ولو جادل أَحَدٌ في المحاسن لجعَلَتْها المحاسنُ برهانَها ، فهي تُقْبل بوجهها الفتّان كما تُقْبِلُ السّعادة بالأمل الوسيم ، وتختال بمعانيها النّسائية كما تهبُّ روائحُ الأزهار في النّسيم ، رَفّافَة على الحبّ كأنها خُلقت في جنة الحب رَيحانة ، مُسكِرَة للعاشقين كأن نهر الخمر في الجنة جعل فمها لهذا العاشق حانَة ، صافِيةٌ يترقرقُ في حسنها ماءُ دلالها ، ويُشْرِقُ بالقمر الأزْهَر من وجهها سماءُ جمالها ، ولا تشبه إلا نفسها كما لا يشبهها إلا ما تُبدي المرآة من خيالها.

ويَغْلو فيُفَسِّرُ النّظرة منها تفسيرَ الفقيه المتَكلّم للآية ؛ ويقفُ عند الابتسامة وقوفَ السّابق إذا فاز عند الغاية ؛ وينظر إليها في ثوبها ولكن كما ينظر القائدُ إلى مجد وطنه في الرّاية ؛ ويسمع صمتها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ؛ ويعي كلامَها فلا تدري أ أنطقتْ به فمها أم أنطقت به عينها . فهي بجملتها ليس فيها من الحسن إلا وَحْيٌ وتنزيل ، وهو بجملته ليس فيه من الحب إلا تفسيرٌ وتأويل ، ثم هي وحدها القاعدة العامّة في الجمال ، وهو وحده البرهان والدّليل .

وتراه ينظر إليها ولكنه من سحر جمالها كأنه يتوَهّمُها ، ويعرفها ولكنّه من سطوة جلالها كأنه لا يفهمها ، ثم تعلو فما يُشْرِقُ حسنُها عليه إلا كالمعنى الأزليِّ من جانب في الغيب ، ثم تَعْظُمُ فلا يُدْرِك ما فيها من الحقيقة السّماوية إلا على طريقة أهل الأرض في إدراك الحقائق العظمى بالإيمان والرّيْب.

* * *

تلك هي الحبيبة الجميلة لا تعرف إن كان الجمالُ في شخصها أو في الجزء المتّصِل منك بشخصها ، أو في الذي هو متّصِل بك من شخصها. فهي جميلة من ناحيتك ومن ناحيتها ومِمّا بينهما ، وهذا هو الذي يجعلها فوق الجمال الإنساني بطبقتين لا تسمو امرأةٌ إلى واحدة منهما ، و يجعلك ترى ما فيها من الإبهام جمالاً لا تفسيرَ له وما فيها من التفسير جمالاً مُبْهَماً ؛ فكأنّها في كل ذلك دائرةٌ مَرْسومَة من الفكر لا يهديك البحث إلى موضع طَرَفَيْها . وهي محيطةٌ بروحك من ثلاث جهات ، فلم يبق لك إلا الجهة التي تتصل روحُك منها بيد الله . وهذا هو موضع التّأليه في الجمال المعشوق ؛ إذ لا يَدَعُك الحُبُّ معه إلا بين شيئين اثنين : الحبيبة والخالق .

أ لم تر إلى شعراء الدُّنيا ، وهم أنبياء الجمال الذين لا تتصل ملائكتُه بغيرهم ولا يفهمُ غيرُهم ما يفهمون منها ، كيف يُشَبِّهون الحسنَ الرّائعَ بكل ما في الخليقة من مظاهر الرّوعة ، فيتناولون من الآفاق والسُّحب والبروق والرعود ، ومن الشّمس والقمر والنُّجوم والأفلاك ، ومن الخُلْد والجنّة والنّار ، ويأخذون من الجبال والبحار والأنهار ، ومن الرياض والأزهار ثم الطّير والوحش ، ثم من المعادن وأفلاذِ الأرض (١) ، ومن كل ما ختمت عليه يدُ الله بروعة أو طبعت عليه برهبة ، ويجمعون ذلك ثم يُفيضونه في أوصاف الجميلة وجمالها حتى لكأنها ذلك السرُّ الذي قام به حسنُ الخليقة ، وحتى كأن الله لم يخلقها إلا ليكون كلُّ شيء فيها تفسيراً لشيء ما في آيةٍ من آياته ؟

وما ذلك بمبالغة من الشُّعراء ، ولكن أرواحهم

(١) أفلاذ الأرض : كنوزُها . *

الجميلة قد أحيط بها من هذا الجمال النّسائي ، فأينما أحَسّوا رأوا له صلةً بإحساسهم ، وضَرَبٌ في أفئدتهم عِرْقٌ منه ، فانْقَدَحَ له شُعاعٌ يطير إلى الفكر؛ لأنه بعضُ القوّة الموجّهة إليه من الرّوح المفكِّر .

إن الجميلات إنما هُنَّ كواكبُ الأرض يَدُرْنَ في أفلاك القلوب ؛ ولستَ ترى فلكيًّا يرصدُ نجومَ السّماء إلا و لعينيه مِنْظار [١] تكبر فيه الأشياء أضعافًا إلى أضعافها فيدنو بالبعيد ويجهر بالخفي . وعاشق الجميلة حين يهيم بها ، ويرصد منها نجمَ خياله في فلك أمانيّه لا يلبثُ أن يرى الجمال قد جَسّم فيه الحِسُّ وبسط له ضوءَ الفكر ، فإذا عينه في تكبير نجمة الأرض كذلك المِنظار بعينه في تكبير نجمة السماء ، وإذا مِلْءُ العين حَبيبُها . [٢]

فيا كبدي مما ألاقي من الهوى !

الرِّسالةَ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ

وهنا مَغاصُ [٣] الدُّرّة في لُجَج الحبّ ؛ فألْقِ على نفسك قبل أن تقرأ هذه الرِّسالة معنى من رِقّة قلبي حتى تُواثِقني على أنها لا تخرج من نفسي إلا كما أريد أن تتلقّاها فلا أتبسّطُ ولا أتسَرّحُ [٤] بكلامي هذا إلا في مكان من نفسك .

في موضع من شاطئ النيل نَدِيٌّ [٥] فلان اليوناني، وهو رجل في رِقّة المرأة ينهض في خدمة المحبّين بفن من الذّوق امتزج فيه ما تقتحمه جرأةُ العاشق بما يختلج إليه حياء المعشوق ؛ فترى من رقعةِ نَدِيِّه طرازاً أخضر مُفَوَّفا [٦] على ثوب الماء وفيه حَبْكٌ بديع على أغصان الشّجر يلوح طرائقَ طرائقَ وحُبُكًا حُبُكًا [٧] كهذا الانكماش الذي تراه طرازاً لأثواب الغانيات .

وتجد في أطراف النّديِّ أشجاراً متعانقة ، كلٌّ لَفيفٍ منها يبني بيتاً أخضرَ ، ستائره من الأغصان المتدلّية وجدرانه من الفروع المعْروشة ، وكأنما زُخْرِفَ وَطُلِيَ وفُضِّضَ وذُهِّب بألوان الظِّلِّ والماء والسّماء وما يَتَسَحَّب فيها .

وترى النّاس يَسْتكفون [٨] حول هذه البيوت الخضر ، ولكنك إذا احْتَجَرْت في عريشٍ [٩] منها وكنت مُنْفَرِداً أشعرَك بكل المعاني أنك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه ؛ وتساقطت عليك ظلالُه أرواحاً عنيفة تطردك طرداً ، ونالتك من كل ظل ثَقْلَةٌ [١٠] لا تُحْتَمَل ، كأنما تُناجيك أن هذه الأشجار التي تشبه الضلوع ما غُرست إلا لقلب وكبد ، وأن هذا البيت هو بيت الحب لا يَتَكَنَّن [١١] إلا عاشقين .

وهدتني قدماي يوماً إلى ذلك النّدِيِّ بعد أن ضربتُ ساعةً في بياض تلك الأرض وسوادها [١٢] ، فملت إليه أريحُ فيه من الإعياء والحرّ ، فإذا هو يهبط على نفسي بمعانيه ، وإذا أنا من الطّرب كبعض شجره أميل وأصفِرُ وأتغنّى . و أدرت عَيْنَيَّ فأبصرت في سَرارَة [١٣] المكان شجرات يدعونني فقمت إليهن وما هناك أحد غيري وغير الطير ؛ فإذا غرْسٌ قد تَسَطَّح ، وآخرُ قد تَفَنَّنَ [١٤] ، وثالثٌ على ساقه كما تقيم الخيمة وتَسْدِل عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك. وإذا رائحةٌ من نفح الحب وبقايا التّنهُّد والتّشاكي ما يَكْذِبني الحِسُّ فيها أبداً ؛ فاستخَفّتْني الأشواقُ ، وجعلت قلبي المتلَهِّف ينتفض في علائقه، كما يَنْزو الفارسُ في السَّرْج والجواد يُخِبُّ [١٥] به ويعدو .

* * *

ثم تكوّر النّهارُ على اللّيل واللّيْلُ على النّهار [١٦] ، حتى أتت ساعةُ مَوْعِدٍ لها بعد أن

(١) اصطلحوا على تسميته بالمِرْقَب ، وهو التلسكوب .

(٢) هذا التعبير مأخوذ من قول الشاعر : *

أهابُكِ إجلالاً وما بكِ قُدْرةٌ   عَلَيَّ ، ولكنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبيبُها

(٣) مكان الغوص لاستخراج اللآلئ . *   (٤) سرحت ما في صدري : أخرجته . *   (٥) وضعناها للمكان الذي يسمونه (القهوة) ، وهي أحسن ما يؤدّي معناها ، وليس أثقل من قول بعضهم (مشرب القهوة) .   (٦) منقوش .

(٧) الحبَك جمع حباك ، والمحبوك الثوب الذي فيه هذا .

(٨) يستديرون .   (٩) العريش : ما يُسْتَظَلُّ به . *

(١٠) كثَقْلَة الطّعام حين يَثْقل على المعدة .   (١١) يحتوي .

(١٢) عامرها وغامرها .   (١٣) وسطه وسرّته .

(١٤) تفرّع . والمتَسَطّح الممتدّ على الأرض .

(١٥) يُسْرِع ؛ والخَبَب : ضرب من العَدْو . *

(١٦) دخل أحدهما في الآخر متعاقبين . *

تقدَّمَتْها حاشيةٌ عريضة من المواعيد المكذوبة ، والمعاذير الملفقة ، والكلام الذي لا تحلُّ معانيه في ألفاظه أبداً ؛ لأنه لغةُ شفتيها .

وكنا نمشي وقد انتفخ (١) النّهارُ وبدأت الهاجِرَةُ تَرْتَجِلُ « معانيها الذّهبية » في مَدْح الظِّلِّ والماء والنّسيم ؛ وقَلِقَ بنا ظَهْرُ الطريق لأمر ما ، فقالت وأبصرت النّدِيَّ : « نَجوزُ إلى تلك الواحة . » وتحفّى بها المكان حين جاءته كأن أرواح الأشجار تعرفها ، فهبَّ النّسيم الرّاكد يجري ، وجعلت الأشجارُ يصفِّق بعضُها لبعض حتى خُيِّل إليَّ أن هذه مَلِكَة الطّبيعة دخلت إلى قصرها .

ومشيتُ إلى تلك العَريشة بعينها ، فلما احتوتنا قلت : « هذا مجلس السّلام (٢) في هذا البيت . »

قالت : « وما باعثُ هذه الكلمة ؟ »

قلت : « إنَّ كلَّ شيء فيكِ ليتَكَلَّمُ من غير أن يَضْطَرِبَ به صوتٌ ، ولقد يكون من بعض خواطري وخواطرك ما أسمع منه في قلبي صوتاً كصَلْصَلَة الدّرع حين يقع عليها السّيْفُ ، وإنَّك لا تدرين كيف أفهمك ؟ »

قالت : « فكيف ؟ »

قلت: « إني أفهَمُكِ سَعادةً أخشى منها وأخافها؛ فإن السّعادة إن لم تتحقق لا تضرُّ إلا في الحب ؛ فشرُّ أنواع السّعادة فيه تلك التي لا تتحقَّق . »

قالت : « فإذن أنت تخافني ؟ »

قلت : « ولكنَّ ذلك ليس معناه أني أخافك ، بل معناه أني أرجوك . »

قالت: « وعلى هذا يكون لقولك «إني أرجوكِ» معنًى آخرُ ؟ »

قلت : « بل معانٍ عِدَّة منها أني ... »

قالت : « وماذا أفهم من « أني » ؟ »

قلت : « أ ليس فيها ياءُ المتكَلِّم ؟ »

فقالت : « وأيُّ شيء في ياء المتكلّم ؟ »

قلت : « بِرَبِّكِ لا تَتَعَنَّتي . أ ليس فيها المتكلّمُ نفسه ؟ »

فضحكت وقالت : « ولكن ما معنى أنك ترجوني ؟ »

قلت : « إنَّ النّبات لا ينبت إلا حيث يجد عناصرَ غذائه ، وروحي قد وجدت في جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيها نَبْتَةٌ جديدة أخاف أن لا تَتَعَهَّديها فتَذْوي (٣) ؛ ومن هذا الخوف أرجوك .

« وقلبي يخشى منك على ما فيه منكِ ، فإن لكل شخص ظلًّا ، ولكنَّ هواك نقل ظِلَّك إلى قلبي كما تنقله آلةُ التصوير ؛ فإن غضبتِ وتحوَّلْتِ مَزَّق ظِلُّك هذا القلبَ ليغضب ويتحوّل ؛ ومن خوفي هذا أرجوكِ . »

« وكل شيء في عالَم الموت يموت ويُنْسى ، فإذا أنتِ نسَيْتِني فهذا موتي عندك ، وكلُّ من يحبُّ الحياة يخاف الموت ؛ فمن هذا الخوف أرجوكِ . »

« وكلماتي هذه تخاف أن تحمليها مَحْمِلَ الجُرْأَة عليك ؛ فهي كذلك من الخوف ترجوك . »

قالت : « أ فليس في الحب إلا الخوف ؟ »

قلت : « فيه الرّجاءُ ، ولكنه هو الخوفُ بعينه . وللعرب خرافةٌ جميلة في سُلَحْفاة يسمونها : « بِنْتَ طَبَق » فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة ، كُلّها سَلاحف ، وكلها بناتُها ، وكلها من جنسها ؛ ثم تبيض بيضة واحدة تَنْقُفُ (٤) عن حَيَّةٍ تأكل التّسعة والتّسعين كلّها . »

قالت : « آه . »

قلت : « وآه . فلو كان لي في حبك تسعةٌ وتسعون رجاءً ، أي مائة إلا واحداً ، ثم خوفٌ واحدٌ لمحاها كلّها . »

فاسترسلت في إطراقة جميلة ثم قالت : « لقد جئتُ معي بالنُّسْخَة الإنجليزية من ديوان « عُمَر الخَيّام » ؛ إن هذا الشّاعر – ونظرت إليَّ باسِمَة – حبيبٌ إلى قلبي ، وهو مني كالسّعادة ، إن لم أطمع

(١) قبل الظُّهر بساعة ، فذلك انتفاخ النهار .
(٢) هو ما يسمّونه قاعة الاستقبال .

(٣) تجف وتذبل . * (٤) تنقب وتكشف . *

في نيلها لم أيأس من قربها ولا من الفكر فيها . كل قصيدة من قصائده تُنشِئُ فيَّ حُبا جديداً ، ففي قلبي له أنواع كثيرة من الحب لا أدري ما هي ولا ما الفرق بين نوع منها ونوع منها ، ولكن كلُّها حُبٌ ، كلها حب . وهو نجم بعيد عني ، غير أني أراه ساطعاً ، وأعلم أن في قلبي دمًا يحنُّ إليه ، وفي هذا الدّم ينغمس شعاعه الآتي من السّماء ؛ هو حيث يكون ، وحيث يكن فهو في قلبي . »

قلت : « وإذن ، فلا ينبغي « للخيّام » أن يُسَلّط الخوف على رجائه ؟ » فتلألأ ثغرها ضحكاً وقالت : « « الخيّام » إنمّا هو هذا الكتاب في هذا الجِلْد المذهّب . »

قلت : « فأنا أستنزل روحَه إلينا ؛ فإن فيَّ هذه القوّة ، فلا بدَّ له من أن يجيء . »

ثم أطرقتُ وجعلتُ ألمح ابتسامَها حين أدَوِّمُ عينَيَّ [1] يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ثم انتبهتُ ورميتُها بنظرة ارتاعت لها رَوْعًا ظاهراً وقلت : « إنَّ روح الخيّام تجيشُ فيَّ منذ السّاعة وهو يسألك هل تحبينه ؟ »

قالت : « بلى ؛ ولكن على سائلنا أن نسأله فماذا يرى هو فيَّ ؟ »

قلت : « إن كل ما احتساه من الخمر فكان لذّته في الدّنيا يراه الآن قد خُلق جِسْماً جميلاً رائع الجمال ، فهو يَسْكر منه ، ولكن سُكْر أهل الجنّة في الجنة . »

قالت : « أ فلم ينس الخمرَ بَعْدُ ؟ »

قال « الخيام » : « وهل الكتاب الذي في يدك إلا أسطرٌ من شعاع الكؤوس . »

قالت : « والحبيبة التي يذكرها فيه ؟ »

فقال الخيام : « لو كانت مِثْلَك لما ساغ لي أن أذكر معها الكأس ، ولكني كنت أستجْمعُ بها مناظرَ الجمال ؛ فإن الطّبيعة تتزيَّنُ لعين الشّاعر إذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تَغار . »

قالت : « إذن كان يريد الطّبيعةَ لا الحبيبة . »

قال الخيّام : « بل أردتُ أن يكون موضعُ تأمُّلي جميلاً بالجمال وحبيباً بالحب ، وتَوَخَّيْتُ أن تكون فيه كل عناصر الهوى . إنَّ المسجد لا يُبْنى في أيِّ الأمكنة بل يُخْتار له المكان الذي فيه عنصر الصّلاح والمَنْفَعَة ؛ والمسجِدُ نبات مغروس في تربة خاصة تجمع عناصرَ الصّلاة والتّسبيح والتّهليل ؛ والخيّام نباتٌ مَغْروس كذلك ، ولكن في الورود والرّياحين والألحاظ وشعاع الخمر . »

قالت : « وهل يَتَقَبَّل الخيّامُ مني إذا سألته أبياتًا جديدة ؟ »

قال الخيّام : « لقد جئتِ بي إلى الأرض ، فإن لم تُسَوِّغيني طِباعَ أهل الأرض في الحب والهوى والحنين لا أستطيع شيئًا ، وإن كان في وسعي أن أجعل كل شجرة في هذا المكان تُنشد قصيدة خضراء بلُغتها لأبلغتُك . »

قالت : « بل أريد لغتَنا ؛ فإني لا أفهم مَنْطِق الشّجر . »

قال الخيام : « فهاتي الدّيوان . » ثم جعل يُزَمْزِمُ زَمْزَمَةَ العَجَم [2] ، وقلب غلافَ الدّيوان وكتب :

صُبَّ كَأْساً عَلَى الثّرى فَتَراهُ
عادَ قَلْبًا يَطيرُ فيهِ احْتِراقُ
يَتَلَوّى بِها وَيَهتَزُّ مِنْها
إنّه كانَ أكْبُداً تَشْتاقُ
وَيْحَ مَنْ أَسْكَرَتْ إذا تُسْكِرُ الكَأْ
سُ وَيا وَيْحَهُمْ إذا ما أفاقوا !
تَنْسِجُ النّورَ وَالشُّعاعَ خُيوطًا
كُلُّ خَيْطٍ لِلْهَمِّ مِنْهُ وَثاقُ
وَتُريني السَّماءَ في سَعَةِ الصَّدْ
رِ وَصَدْري بِشَمْسِها [3] آفاقُ
أحْتَسيها كَالفَجْرِ يُعْقِبُ لَيْلاً
أَوْ كَلَيْلٍ لِلْفَجْرِ فيهِ انْبِثاقُ
هاتِها فَهْيَ في فَمي قُبُلاتٌ
وَاصْطِدامُ الكُؤوسِ مِنْها عِناقُ

(١) أديرهما وأقلّبهما .

(٢) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشعر وغيره .

(٣) تشبه الخمر بالشّمس .

وقرأتُ الأبيات وأنا أترجْرَجُ ، كأنَّ في الكُرْسِيِّ زَلْزَلَةً ، أو كأن فيَّ روحاً يضطرب ويتقلقل ؛ فما انتهيت إلى « القُبُلات والعِناق » حتى انقلب الكُرْسِيُّ بي فاصطدمتُ بها ولم أقع ولكن .. آه ولكن وقع فمي على خَدِّها .

وجَعَلْنا (الخيَّام) كأسين في يديه فقرع كأساً بكأس ؛ ليسمع منهما في صوت القُبْلَة رَنَّةً مُسْكِرَة .

الرِّسالة الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ

تلك ساعة لا تَطْلُع عليَّ ذكراها إلا طلوعَ الفجر في نور وألوان ونسيم وندى ؛ فإذا أطرقتُ فيها وتمثَّلتُها رأيتُ ذلك الفجر يمتد ويضطرم ؛ وإذا الشَّمس قد بَزَغَتْ منه تُطَوِّح بشعاعها من بعيد تحيَّةً للأرض وأهلها ؛ ثم أُمْعِنُ فيها فترتفع وتَنْساح [1] ضوؤها ؛ وإذا بتلكِ الفاتِنَة قد طلعت لي من الشَّمس ؛ وإذا نحن على تلك الطَّريق ؛ وإذا المكانُ والزَّمان والسِّحْر والجمال ؛ وإذا نور وجهها قد نبع فيه الضَّوء الأحمرُ من لون الحياء ؛ وإذا هي واقفة وعلى خدِّها القُبْلَةُ الأولى .

لمست روحي روحها ؛ ذلك هو معنى القبلة . ولكنها وقفت ذابلة يُعْرَفُ فيها الحزن ، وكان في صدرها التَّنَهُّد ، وكان في لحظها معناه ؛ أما لون التَّنَهُّد فبقي على خَدِّها .

يا الله ما كانت إلا تمثالاً يريني منها صورةَ الاطمئنان الخائف ، وما كنتُ بإزائها إلا تمثالاً آخرَ يريها مِنِّي صورةَ البراءة المتَّهَمَة ، وكنت أقول لها منذ هُنَيْهَة: إنَّ الحب هو الخوف ؛ فعلمت أن من الخوف أشياءَ – لا شيئاً واحداً – كلها من نَكَدِ الحب : الخوفُ نفسه ، ثم رجاء ذهابه ، ثم خَشْيَة قدومه ، ثم خوفٌ ليس فيك ولكنَّه في النَّفس التي تحبها ؛ والإنسان حين يرجو الأقدار يشعر بها بعيدة عنه ، ولكنه حين يخافها يراها قد خالَطَتْه ، وكأنما تَعْتَلِجُ [2] في جنبيه وتَعْرُكُهُ [3] بكل أثقالها . ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه في الحقيقة ، إنمَّا هو قوة خفية في الغيب تَعْتَري القلب فتتناول منفذ الحياة منه فترسل فيه ما ترسل من الآلام الحكيمة ، كما ترى اللافِظَة من أنثى الطير حين تَزُقُّ [4] فَرْخَها ، وعنقه المرِن الغضُّ ينتفض في مِنْقارها ؛ وهو يكاد يختنق من طريقة إطعامه الحياة ؛ وكذلك نتناول من السماء حِكْمة الألم .

* * *

ولما تصرَّمَتْ تلك الوهلة [5] التي اعترتها مَزَّقْتُ بشفتي ذلك الصَّمت الذي كان يغرز أنفاسي في قلبي ، كأن في كل نَفَس إبرةً نافذة ، وأردت الكلامَ فجعلتُ أُجَمْجِمُ في عذري [6] ، وأرسل ما يَحْضُرُني من نفس الشَّفَتَيْن المتَّهَمَتَيْن بالذَّنب ، وهي غافلة أو مُتَغافِلَة ، لا تأذن لكلامي أن يمر بها . ثم نظرت فإذا في أجفانها دمعة تترقرق ، و تهم أن تنحَدِرَ . وكأنما لم أكن عرفت ظرفَها ومزاحَها وميلَها إلى النَّادرة ، وأنه لا يُسَرِّي الهمَّ شيءً عندها كالكلمة الشَّاعرة ، وأن الجبل من جبال غيظها وغضبها تنسفه جملة مُفَرْقِعَة من الضحك ، وأسعدني طبعي الجريء الذي أنكرته من يومئذ ، فلمع لعينيَّ معنى جميل في دمعتها فأمسكتُ يدها وقلت :

« إنَّ عُذْري إليك في اضطراب الكرْسِيِّ بي ، وما تعمدتُ نِيَّة ، وهذه يدي لكِ بأن حُكْمَكِ فيَّ نافذ إذا لم تنشر الصُّحُفُ اليوم أو غداً :

« حدثت زَلْزَلَةٌ خفيفةٌ لم تُلْحِقْ ضرراً بأحد . »

فتدافَعَتْ تتبسَّم وغَمَرَ وَجْهَها معنًى رقيقٌ كالنّور الذي يسطع من خلال سَحابة كانت مُجْتَمِعَةً ثم تَسايَرَتْ تجُرُّ سوادها . و استبعتُ فقلت : « ذلك عهدي وأنا مُرْتَهَنٌ [7] بكلامي ، مأخوذ بأقوالي ، فهذا توقيعي عليها . »

وأسرعت فقبَّلْتُ يدها الجميلة ، وحَلَّتْ هذه الجُرْعَةُ عُقْدَة صمتها فقالت : « والعُذْر ذنب آخر . » قلت : « فإذا كان ذنباً فإنَّ منه عذراً ثانياً . » ولكنها

(١) ينبسط شُعاعها. (٢) تصطرع وتلتطم. (٣) تطحنه.

(٤) تطعمه بمنقارها . * (٥) انكشفت الحيرة .

(٦) أعتذر من غير تصريح . (٧) مقيَّد ، والمراد ملتزم . *

أسرعت فاختلجت [١] يدها وما تتماسكُ ضحكاً .

* * *

القُبْلَةُ الأولى هي تلك النَّظَرات الطَّويلة الحائرة في أعين المحبّين وقد ضاقت بالصَّمت والإبهام وكثرةِ ما تتردَّد بين معنًى يسأل ومعنى يجيب ؛ فانحدرت إلى الشِّفاه لتَخْلقَ حَرَكَةً وتتمثَّل صوتاً وتَسْتَعْلِنَ للحبِّ بكل معانيها . فالعواطف المشبوبة ، والنَّظرات المتكلِّمة ، والابتسامات المتَرْجِمَة تأخذ كلُّها في تأليف تاريخ الحب زمناً يَقْصُرُ أو يطول . ومتى بدأت في تدوين هذا التّاريخ كانت الكلمةُ الأولى هي القبلة الأولى .

واللُّغات تعجز أحياناً بما نُحَمِّلها فلا تُحْسِنُ التَّعبير إذا كانت العاطفة قَوِيَّة مُهْتاجَة وقد نشبت في عاطفة أخرى مثلها . فإذا ضاقت الرّوحُ بهذا العِيِّ [٢] عمدَتْ إلى لغتها الأولى فأرسلت العاطفة لوناً في الوجه إذا كانت حياءً أو خوفاً ؛ و رعدَةً في الجسم إذا كانت فزعاً أو مَحْقاً [٣] ؛ ودمعا في العين إن كانت حزناً أو قهراً ؛ وضحكاً وابتساماً إن كانت إعجاباً وطَرَباً . فإذا كانت العاطفة وَجْداً ولَوْعَةً وقد استفاضت بين روحين ؛ دَنَتْ إحداهُما من الاخرى فمَسَّتْها بشفتيها فيكون هذا اللَّمْسُ بأداة النُّطق هو أبلغُ النُّطق .

إنَّما تحِيَّة الفكر رَدُّ كلمة بكلمة ؛ وتحيَّة النَّفْس هَزُّ يد بيد ؛ وتحيَّة القلب لَمْسُ شَفَةٍ بشَفَة .

الرِّسالة الرّابِعَة عَشْرَة

كَمْ أسْألُ الدُّرَّ عَنْ مَعْناكِ باسِمَةً
وَالوَرْدَ عَنْ لَفظَةٍ قَدْ أطْبَقَتْ فاكِ
لا الدُّرُّ يَدْري وَلا في الوَرْدِ لي خَبَرٌ
أرْويهِ عَنْ شَفَتَيْكِ أوْ ثناياكِ [٤]

يا نَجْمَةً أنا في أفْلاكِها قَمَرٌ
مِنْ جَذْبِها ليَ قَدْ أضْلَلْتُ أفْلاكي
النّارُ بِالنّارِ لا تُطفا إذا اتَّصَلَتْ
فَكَيْفَ أصْنَعُ في قَلْبي لِيَنْساكِ ؟

آهِ أيُّها العزيز ! إنَّ صدري لَيَنْشَقُّ لهذه الأبيات ، وإنَّ لها لَغَمْزاً على فؤادي لا يَسْكُنُ ، وإني لأرْتَمِضُ [٥] بها كأن في كل بيت منها نوعاً من أنواع الحُمَّى . هي ألحاظها أوّل اللّقاء بيني وبينها ساعةَ كانت تنزع ألفاظها من قلبي فألتوي عليه لأنتزعه من ألفاظها ؛ وكنت ساهياً عن القَدَر ، وعينُ القدر ذاكية [٦] عليَّ في تلك السّاعة ولا أدري .

لقيتُها وما أريدُ الهوى ولا تَعَمَّدَهُ قلبي ، ولا أحسب أن فيها أموراً ستؤولُ مآلها [٧] ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعُهُ فلا تُفْضي [٨] إليه ، وما يمكن وقوعه فتُهْمِلُه فلا يُفْضي إليك . ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ، ومتى استَطْرَدَكَ [٩] القَدَرُ الذي لا مَفَرَّ منه أقبل بك على ما كنت منه تَفِرُّ .

إنَّ لهذا العقل جَمَحاتٍ تردُّه أحياناً إلى طبيعته الأولى من الطُّفولة التي غَشِيَتْها الأيّامُ واللّيالي والأفكارُ والحواسُّ فيرجع الرَّجلُ طفلاً صغيراً ، لا يدري كيف يُمَيِّز ؛ ولقد يكون وما يُشْبِهُ رأيَه رأيٌ ولا يَتَعَلَّق بصوابه صوابٌ ، وأنَّ عقله لكالنَّجم من أيِّ أقطاره اقْتَحَمَتْهُ عيناك رأيته ناراً وشعاعاً . غير أنه متى بلغ تلك السَّوْرَة فجمح عقلُه أسرعت منه الفَيْأةُ [١٠] إلى حالته الأولى فانتبهت الطُّفولة فيه فعاد كالطفل . فإذا فَجَأَهُ الحبُّ في عين امرأة رأيته لا يبالي إلا ما عرف في عهده الأول من تَحَنّي المرأة عليه وانعطافها له ؛ ورَجَعَ إلى « عصره النسائي » فترى الدُّنيا بما وَسِعَتْ لا تَعْدِلُ في عينه الصَّدر الجميل الذي يترامى عليه ، وتموت المطامعُ فيه وترجع كلُّها إلى محصول

(١) سحبت . * (٢) العجز والحَصَر . * (٣) الإبادة والهلاك . * (٤) الأسنان التي في مُقدّم الفم .

(٥) أحترق . * (٦) مركزة معنية ، وهو من : أذكى عليه العيون ، أي أرسل عليه الجواسيس . * (٧) أي تنتج نتائجها . (٨) تبلغ وتصل . * (٩) ساقك أمامه . (١٠) الفيأة : الرجوع .

واحد من ذلك الفم الذي يحبه ، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الأولى في إشارة أو كلمة أو ابتسامة أو قبلة.

إن الطُّفولة تَكبَّر فينا ولا ندري ؛ ودع النّاس يسمون حماقة الإنسان بما شاءوا فهي هي انتباه الطُّفولة فيه ومُحاجَزتها في ساعة من السّاعات التي يَجْمَحُ فيها العقلُ بين ذات نفسه وبين صِفات نفسه.

* * *

لا يريد الهمُّ منك أكثر من أن تريده فيأتي ؛ وحتى لو زَوَيْتَ جِلْدَةَ وجهك [1] حِكايةً وتمثيلاً لطلع مما بين عينيك فهو مقيم في أعصاب كل إنسان ؛ لا يبرح الإنسان يؤدّي إليه شيئًا ويحمل منه شيئًا يؤدّيه ، بل هو نصف مكروبات الدم الإنساني ؛ ولذلك قالوا: إن القلب المبتهج يقتل من المكروبات أكثر مما يقتل أقوى المطهِّرات . وهمُّ الحب هَمٌّ على حِدَة ؛ لأنه لا يكون فيك ، بل يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر . وما أحسب أن ألحاظَ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفتور وذلك التّكسُّر إلا بما تحمل من الأشعة المسمومة ؛ تلك الأشعة التي متى وقعت في الدَّم الذي يقبلها ويتأثر لها طبعت في كل ذرَّة منه صورة من صور تلك المرأة .

هذا هَمُّ الحب ، ولكن مجيئه همٌّ آخرُ ؛ لأنه يَتَهكَّمُ بالنّاس ، فلا يأتيهم بكُنْهِه وحقيقته إلا في أسلوب الحظِّ والسّعادة ، ثم لا يأتي إلا اتّفاقًا ومُصادفةً في ساعة ترتجف كأنها وقعتْ إلى هذا الزّمن خطأً ، أو كأنها تحِسُّ بما فيها من الجَوْر والقتل ، أو كأنها خُلقت مُرْتَجِفةً مُتزَلزِلةً لِيَتأتّى لها أن تزحزح الطّبيعةَ الإنسانية وتطيشَ بها ، حتى في جبابرة العقول الذين رسخت طباعهم بجبال من الأخلاق الرّاسية تمنعها أن تميدَ [2] أو تتزحزح . السُّرور والحبُّ كلاهما يأتي اتّفاقًا ؛ ولعلك لا تجد في كل ما عَرَّفوا به السّعادةَ أصَحَّ ولا أوفى من أن تقول : إن السّعادة هي نفس هذا الاتّفاق ، حين يتّفق السُّرور أو الحب .

(١) قبضتها كما يفعل العابس . (٢) تتحرك وتضطرب . *

والجناحُ الكبير إنّما خُلق كبيرًا ليأكل الأجنحة الصغيرة . ولمّا لَقِيتُها كانت ألحاظُها تقول لي بفصاحة أوضح من نور الصُّبح : أنت فَريستي ؛ وكانت ترفرف عليَّ فأتَنَسَّمُ منها هواءً يُذْهِلني كما تَذْهَل العصافيرُ الصَّغيرة للجارح المنقَضِّ عليها . وتحولتُ أسرعَ مِمّا أرادت بي ، وكنت ذا عزيمة قوية مضيئة كالنّهار الذي يتغذّى من دم الشّمس ، فما أسرعَ ما فتح هذا القمرُ بابَ سمائه وطلع عَلَيَّ من سحره بمثل ما يطلع قمرُ الأرض على الأرض فيُبْدِلُها من نهارها ذلك الصُّبح الرَّطْبَ المريض الذي تَتَخايلُ فيه الظِّلال والنَّسَمات حتى يأذَنَ الله فتُمْحَى آيةُ اللّيل الأسود وتُطْوى آيةُ القمر الأبيض .

كنتُ كذلك البطل الذي أكْدى مرةً في قتال خصمه ورجع كما يرجع الجبانُ فعيّروه فقال: « والله ما كنتُ جبانًا ولكني زاولتُ أمرًا مُؤجَّلاً [3] .» وتالله ما كنت ضعيفًا ولكني دافعتُ قدَرًا مُعَجَّلاً لا يُدْفَع.

* * *

وحاولتُ ، أيُّها العزيزُ ، أن أكتب إليك وأنا في هذا الموت فَصنَّفْتُ كلماتٍ ثم خشيت أن أرْتادَ [4] أحدًا لِسِرّي فحفظته فيها وتركتها بين أوراقي ، وكان قلبي يحدثني أنه يَسْتَرْوِحُ من هذه الصّحيفة رائحةَ صفحات كثيرة سأكتبها ، وقلتُ إنّه حُبٌّ أبيضُ لا ينبغي إلا أن يكون مَنْسِيا ، أو سِرًّا مُضْمَرًا ، أو على الأقل شيئًا غير ظاهر .

أمّا الآن فإني مُرْسِل إليك ما كتبت ، ولَتَجِدنَّ هذه الأسطرَ وما فيها إلا قلبَ يَتَمزَّق ونَفْسَ مُضَعْضَعَة [5] وكأنما هي من بكاء أعصابي المتألّمة. وإذا رأيتَ بلدًا سال بها السَّيْلُ أو مدينةً جاش بها البحر فاعلم أن لهما ثالثًا في معنى الخراب وهو العاشق الذي يغمرُهُ الدمع . وها هي الرّسالة :

« أكتبُ إليك وأنا في حال هي من شدّة الوضوح

(٣) أكدى ؛ أي أخفق ، ويريد البطلُ أنه لا حيلةَ له في أن يفرغ من عمر لم تفرغ مدّته. (٤) أطلب ، والمراد: أفضي بسري . *
(٥) كسيرة . *

قد صارت في شدّة الغموض وأيةُ حال تظنُّها ؟ سيذهب بك الظّنُّ إلى الموت فهو أخفى ما ظهر من أسرار الإنسانية ، ولكنَّ هناك موتاً لا ينقل من الدُّنيا إلى الآخرة بل من نصف الدُّنيا إلى نصفها الآخر ، وهو في أسرار الإنسانية عكس ذلك لأنه أظهر ما خَفِي ، وهو الحب .

« علامةُ هذا الموت الصَّغير أن يقع كلُّ شيء منك في غير مَوْقعه ، حتى لو جاءك اليقين لانقلب شكا ولو لمست الحقيقة لاستحالت شُبْهة ، ثم تجد في أسباب الحياة ما يجد المريضُ في أصناف الطَّعام ؛ لأن العِلّة المسْتَقِرَّة فيه تجعل في كل شيء له علة منها . وترى كل ما أنتَ ناظره يُوَسْوِسُ في نفسك بلُغَةٍ ما ولمعنًى ما حتى لا يترامى أمرك إلا إلى الوساوس والأباطيل ، كأن جماعة من الشَّياطين ارتَجَّتْ في صدرك فلا يهدأ أبداً . وتحسبُ الأرض قد نَبَتْ [1] بك وثَقُلْتَ عليها كأنها لا تستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد . وما اعتقادك هذا إلا أنك ترى النّاس جميعاً قد تغيّروا فلا تصيب بينهم موضعاً تكون نفسك فيه هي نفسك إلا ذلك الموضع الذي يضمُّ من تهواها ، أما سائر الأمكنة وأما سائر النّاس فأنت منهم في رأي نفسك كالمُصْحَف في بيت الزِّنْديق المُلحِد ، يُظْلَمُ في كل شيء : في الوضع وفي الاستعمال وفي الاعتقاد ، وحتى في النظر إليه . وتستحيل فيهم بشخصك الواحد إلى اثنين معهما خيالُ شخص ثالث ، فلا ترى إلا أنَّ نصفك يَتَحَزَّنُ [2] للنِّصف الآخر في كل ما تراه . وهذا النِّصف الآخر يكون في بَلائه كالطّائر الذي وقع من الجو بسهم فلما أَحَسَّ الأرض جعل يَهِمُّ ويُدارِكُ الضَّرْبَ بجناحيه ويَكِدُّ على نفسه ولكنه لا يطير ، وكلما أراد أن يَثِبَ إلى السَّماء وجد آلتها فيه مُخْتَلّة ترتجف وتضطرب ولكنها لا تعلو ، وقَصَّر جناحه فلَصِق بالأرض وجاءه الموتُ من كل مكان وما هو بميِّت .

« تُبغِضُ العيش وتبغض الحياة وتبغض الناس ، تبغض ثلاث مرات لأنك أحببتَ مرَّة واحدة ، وهذا كله إذا كانت من تحبها لا تدري بهواك ، أو كانت تدري ولكنها لا تستطيع أو كانت تستطيع ولكن ... آه ، يا عزيزي ، لا بد في لغة الحب من « لكن » ، إذا كانت المرأة تعرف لغة الحب .

« يا وَيلتا ! لقد انتبهتُ إلى أني أخاطبك كأنك أنتَ المبتلَى ؛ فلعلك عاذري ؛ فإن هذه طبيعة النَّفس الحزينة ، تريد أن تكون مصائبُها في سواها ولو على ورقة . لم يبق مني إلا جزءٌ قليل من شخصيتي القديمة ، أما أكثرها فضاع ضياعَه أو أصبحتُ لا أملكه . ولكن هذا الجزء الباقي يُفْسِحُ لي مذاهب النَّفس فأراني كأنما أستقبل السَّموات وأحْويها في صدري ، و أرى بعينيَّ مجموعي الإنسانيَّ كلّه واضحاً يتسامى ، وأشعر أني عقل من هذه العقول التي تُشْرِف على الدُّنيا وتعمل في نظامها .

« ولا أثْقَلَ على نفسي من النّاس ؛ فإن ظِلالهم تهبط على قلبي المتألم بأشباح ممسوخة ، وأراهم على وتيرة واحدة في ثِقَل الرّوح وسواد الظل ؛ ولا ذنبَ لهم غير أن وَليا من أصفياء الله خرج يَتَوَضَّأُ يَوْماً ، وقد أقبل النّاسُ على وضوئهم ، فكَشَفَ الله عنه حِجابَ الحيوانية ، فنظر فإذا لكل رَجل وَجْهٌ ، ولكل وجه سَحْنَةُ حيوان ، ولكل حيوان معنًى ، وإذا شهواتُ أنفسهم قد مسختهم مَسْخاً ، وفاءَتْ ظِلالُها على وجوههم بجلود الحَمير والبِغال والقِرَدَة والخنازير وما دَبَّ ودَرَجَ . فاللهُمَّ غَواثَكَ [3] لأهل النُّفوس .

« وهذا الحب حاسَّة في الرّوح ، فهو ولا ريبَ يستثقل كل ما يُنافِرُهُ من الطِّبائع ؛ طبائع هؤلاء الذين يَتَرَفَّقون للعيش [4] بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيُثيرون في كل سبيل غُبارَ الحيوانية على كل قلب روحاني فلا يكونون عليه إلا ألَماً ومَضَضاً وشِدَّةً من الشِّدَّة ؛ وكثيراً ما يُخَيَّل إليَّ فيمن حولي مِمّن أخالطهم اضطراراً أنهم ثعالب أطلّع عليهم برائحة الأسد الضّاري .

« إن عواطفي تغلي وتستفِزُّ فيَّ مثل المِرْجَل من إرادتي العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء ، ولست

(١) أي لا تجد فيها قراراً . * (٢) يحزن . *

(٣) أي أغث . (٤) يعملون للعيش والكسب .

أخشى في هذا الحب إلا انفجارَ هذه الإرادة التي هي وعاء النفس ، فإنها إن تنفجر ذهبتْ قِطَعاً مُبعثَرَةً على كَسْر منها كَسرٌ مني ؛ فهل تنفجر يوماً ؟

« ما أشدَّ هذه الأيامَ الحادَّة ! إنها كَسُلَّم نُصِبَتْ لي درجاتُها من سيوف مسنونة ؛ في كل يوم جُرْح ينفجر بالدَّم ، ولكل يوم عذاب وتقطيع في الجرح نفسه ؛ لا راحةَ في الصُّعود ، ولا في الوقوف ولا في النُّزول ، وكل يوم يقول لي حبها : تعَلَّقْ بيديك الممزَّعَتَيْن على حَدِّ هذا السَّيف ، وضع قدميك الممزَّقَتَيْن على حَدِّ ذاك السَّيف ؛ واصعد ! »

الرِّسالة الخامِسَةَ عَشْرَةَ

إنَّ كل ما سطَّرْتُ في هذه الرِّسالة قد انعقد هَمُّه وسَوادُه فكان عَجاجة [1] ثائرَة من حرب الهوى ؛ ليس تحتها في حَوْمَة القلب [2] إلا ألم كضَرْبَة سيف ، أو طَعْنَة رمح ، أو كَيَّةٍ برصاصة ملتهبة حمراء . احْتَلْتُ نفسي [3] عَمَّا كانت فيه من الغيظ والمَوْجِدَة ودافعتُها وغالبتها حتى وقفتُ بها على صِراط النِّسيان ، ولكني في ذلك إنمَّا كنتُ كناقشِ الشَّوكة بالشَّوكة [4] ، يعالج وَخْزَةً واحدة بوخزات كثيرة ، ويكشف عن حُمَة [5] العقرب النَّباتية بحُمَة مثلها ؛ وما زلتُ أنْكُتُ [6] بسِنِّ هذا القلم في صميم هذا القلب حتى فاض في صفحات هذا الكتاب .

قَبْضَةٌ من هذه الأوراق جعلت بيني وبين تلك الحبيبة ما تجعل قبضةٌ من التُّراب بين الحي والميت . إذ تنثُرُ يَدُ الموت من ذَرّاتها عوالمَ أبديَّة بينك وبين من تحبّ أو من كنت تحب .

حَسَوْتُ [7] كأسَ الحب فدارت في دمي ، وانحدرت إلى قلبي ، وصعدت إلى رأسي ، وهذه الرِّسائل هي الحقيقة التي كانت في خمرها قَطَرَتْ من القلم كلاماً ومعاني . ومنذ اليوم سأضع العقلَ بيني وبين تلك الكأس فلا أراها إلا جنوناً مُلَوَّناً ومرضاً مُزَخْرَفاً ، ثم لا أراها إلا حُلماً خمريًّا زاهياً ، إن حَسُنَ بالنَّائم أن يستغرقَ فيه لا يحسن بالمتَيَقِّظ أن يُلِمَّ به ؛ ثم لا أعرفها إلا شيئاً يجب اطِّراحُه ، إن لم تَدَعْهُ لأنه إثم فلتدَعْه لأنه ذَمٌّ .

اضطرمت النَّارُ فأكل بعضها بعضاً ، وهذه الرسائل هي صوتُ الماء الذي صُبَّ عليها ليطفئها فَزَفرتْ به الزَّفْرَةَ الأخيرة ؛ ومات الهوى لما أصيبت مقاتله .

* * *

تلك مسألة امتحنتني الحياة بها ، فما كان أجهلَني إذ ركبتُ فيها الشُّبهة أُصَرِّفُها بعنان الحَيْرَة فمضتْ تتخبط بي ! إن إعجابي المجنون أخرج لي من الحقيقة الصغيرة على الأرض خيالاً في قَدْر السَّماء ، يتلألأ في عين الشَّمس على أجنحة الملائكة. وكذلك الجهل في الإنسان يُخْرِجُ له من كل مسألة سهلةِ الحلِّ مسألةً لا تُحَلُّ أبداً فلا يبرحُ الفِكْرُ يضرب فيها مُقْبِلاً ومدبراً ، ولا ينفُذ إليها إلا من الجهات المستحيلة التي لا يخرج الصَّوابُ لا من واحدة منها ولا منها كلها .

والخطأ ههنا من لا شيء ، وليكن اسمُه بعد ذلك ما يُسَمَّى .. سَمِّه مسألةً فارغة ، أو مشكلةً دقيقة ، أو رذيلةً جميلة ، أو حبا ، أو امرأةً ، أو ما شئتَ ؛ هو على ذلك خطأ من لا شيء .

* * *

إنَّ مَسَّ استقلال دولة من الدُّول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهون من مَسِّ استقلال نفس من النُّفوس الكبيرة .

وفي الدَّم الكريم قانونٌ أزلي يَرِثه المرءُ من سِلْسِلَة طويلة من أجداد كِرام ؛ فإذا انتُهِك هذا القانونُ الإلهي ، وخاضت في ذلك الدَّم مهانَةٌ أو مَخْزاة ، انتفض أولئك الأمواتُ العظماء فيه واضطربوا كأمواج البحر في البحر ، وتحولت قطراتُ الدَّم

---

(١) غُباراً . * (٢) الحومة : أشد موضع في القتال ، فكأن القلب ساحة وغى . * (٣) أي حَوَّلتها . (٤) يقولها العامة : ناكش الشوكة . (٥) حُمَة العقرب : الإبرة التي تضرب بها. * (٦) أضرب. * (٧) تجرَّعت وشربت. *

العريق إلى لمح باصر [١] ، كأن كل قطرة منه تفور على حَدّ سيف مُجَرَّد من غِمده ؛ وامتلأت عروقُ الحي أصواتًا داويةً كصلصلة السِّلاح في المعركة ؛ وترى ذلك الدَّمَ الكريم يَتَرَقْرَقُ ثم يَتَعَقَّد ثم يلتفُّ على الجُرثومة التي دَنَّسَتْه فينفجر بها انفجارَة البركان ، لا يَدَعُ الصَّخر صخرًا ، ولا الحديد حديدًا، ولا التُّراب ترابًا بل يُذيبُها كلها في حميمٍ [٢] واحد يجمعُ صورها النَّافعة المختلفة في صورة بغيضة مُهْلِكة تدمِّر كل شيء .

كذلك حُكْمُ قانون الدم ؛ وكذلك حَكَم هذا القانونُ فقضى في دمي ودمها .

أيُّها الجميل الذي يحسب كلَّ شيء مَوْطِئَ قدميه ، إنْ ذَلَّ لك الحيُّ بدموعه لم يذلَّ لك الأمواتُ العظماء الذين استَوْدَعوا لآلئ كبريائهم الكريمة في الأصداف من عِظامه تحت الأمواج الجيّاشة من دمه الحرّ ، ومن لم تُعِزُّه نفسُه فلا يَصلُحُ إلا أن يكونَ رجلاً لا يصلُح .

والآن سأدع صمتي يتمِّم كلامي . وإنه لصَمْتٌ قاتمُ الأعماقِ أسودُ النَّواحي ، لأنه مملوءٌ بفكرة التَّوبيخ ؛ مُظْلمٌ شديد الحَلَك ؛ لأن شمس الحب لا تَسطعُ فيه ؛ مُبْهَمٌ مُسْتَغْلِقٌ ؛ لأنه صورة الظَّنِّ السَّيِّء؛ موحِش مُقْفِرٌ ؛ لأنه رَسْمُ قلبٍ حزين .

١٧ فبراير سنة ١٩٢٤ .

خاتِمَة الكِتابِ

اجتمعتْ في هذه الرسائل عواطفُ الحب تَتَساوَق [٣] معانيها دون حوادثها على نَسَقِ الشِّعر والفكرة لا على سرد التَّاريخ والرواية ؛ إذ لم يكن الغَرَضُ منها حكاية نفسين بل صفةَ نفس صريحة لنفس مُعَقَّدة . فلما ضممتُ أَلِفَتَها وهيأتها للطَّبع أدرتُ الرَّأي فيما أرضاه منها وما لا أرضاه ، وما زلتُ بها على ما يختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجتْ كما يخرج الماء الصّافي من الماء الكَدِر ، وجاءت كما ترى نَقِيَّةً بيضاء ليلها كنهارها .

* * *

إنَّ ساعةً من ساعات هذا الضَّعف الإنساني الذي نسميه (الحب) تُنْشِئ للقلب تاريخًا طويلاً من العذاب ، إن لم تكن آلامه هي لَذَّاتِه بعينها فهي أسبابٌ لذَّاته ؛ ومن ثَمَّ يشتبه الأمر على المحبين إذا استفزَّتْهم فَوْرَةُ الغضب ممن أَحَبّوا ، فلا تجد في البغضاء عندهم أبغضَ من طريقة إظهارها ، حتى إن نيران قلوبهم لَتَخْلُقُ منها الشَّياطين ؛ ولقد كان في هذه الرَّسائل كلام يَدْوِي كهزيز [٤] السَّحابة الحمراء تنطلق من الرَّصاص في معركة حامية لِتُمْطِر مطر الموت والألم والوجع ، فلم أثبتْ منه إلا كما ترى من ضَبَابة البُخار فوق المِرْجَل الذي يغلي ومن ألوان البرق تَلْمَحُ من صواعقها لَمْحًا .

ألا كم في هذا الحب من العجائب المتناقضة حتى إن فضيلة الصَّبر في العاشق هي نفسها رذيلةُ الغضب فيه ، كلما طال صبرُه طال غضبُه ، وتراهُ يُبْغِضُ بأقوى ما في نفسه ، فلا يكون ذلك إلا إخفاءً لأضعف ما في قلبه . وإذا ترامى في أطراف الأرض لينأى عن حبيبه رأيته من أيِّ عِطْفَيْهِ التفتَ ، [٥] لا يجد إلا خيال حبيبه ، ومهما تَطَرَّحَ قلبُه في مَطارح السُّلوان فلن يكون إلا كعقرب السَّاعة تعمل كل قواها في إبعاده عن « الثَّانية عشرة » ليرجع دائمًا بنفس هذه القوى إلى الثَّانية عشرةَ نفسها .

والعاشق هو وحده المخلوق الغريب الذي ترى الأحلام في عينيه وهو يقظان يَعْقِلُ ويعي . فليست الحبيبة في عينه امرأة كغيرها من النَّاس ، وإنما تُخرجها له جملةٌ من الصِّفات الغريبة التي فيها لتقابل جملة أخرى من الصِّفات الغريبة التي فيه ؛ ومتى كان الأمر غريبًا نادرًا من طَرَفيه في النَّظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يمكن الحكم عليه بأنه من الأشياء المألوفة التي جَرَتْ بها العادة . وتلك هي مُعْضِلة الحب التي جعلت من بعض النِّساء

(١) النَّظر بتحديق ، كما يفعل العدوُّ المبغِض .

(٢) أصله الماء الحار . (٣) تتتابع وتتوالى . *

(٤) الهزيز : صوت الرِّيح تصفر به. (٥) من أي جانبيه التفت.

الضَّعيفات هَزْلاً أروع من الجدِّ ، ومن بعض الرِّجال الأقوياء جِدًّا أسخف من الهزل ؛ معضلة لا تُحَلُّ أبداً ما دامت بين الحبيب ومحبه ؛ إذ لا تجيء ولا تكون ولا تستمرُّ إلا كما تجيء وتكون وتستمر ؛ وإنما مَثَلُها كذلك الانعكاس الذي لا يستوي له بحال من الأحوال أن يُظهر الكتابة على المرآة إلا مقلوبة أبداً .

* * *

كل معنى إنساني في الحبيب يكون دائماً وراءه معنى غيرُ إنساني في وهم المحب ؛ فالمعشوق مُجْتَمع من إنسانيتين مُتَبايِنَتَيْن ، وهذا هو كل السِّرّ في انفراده عند من يهواه ما دام يهواه .

وأظهرني صديقي على رسم صاحبته التي يصفها في هذه الرَّسائل أوصافاً كثغور الحِسان لا تَفْتَرُّ [١] إلا عن لؤلؤ ؛ فما رأيتها في الجمال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة ، إنْ هي إلا واحِدَةٌ من خمسين من كل مئة في النِّساء [٢] ، ولكني أشهدُ أن عينيها كأنهما غير إنسانيتين ، لو كانتا في أسدٍ ضارٍ لارتمى عليه العاشقُ من تلْقاء نفسه ليفترسه . فيهما بَيِّنَةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشَّاذَّةَ إنْ أحبَّت لم يعرف أحدٌ غيرها كيف تظهر حبها ؛ فربما آنسْتَ منها النَّفْرَةَ أو الإعراضَ أو البغضَ مَلالةً فما فوقَها ، ومع ذلك يكون هذا هو حبَّها الذي ابْتُلِيَتْ بكتمانه أكثر مما ابتليتْ به .

وإذا كانت القدرةُ الأزَلِيَّة تصطفي من نوابغ العقل والشُّعور مَنْ تكاشِفهم ببعض أسرار التَّعبير في مَلَكوت السَّموات والأرض ؛ جاعلةً وسيلتَها إلى ذلك مَلَكاً أو شيطاناً أو امرأةً كأحدهما ، .. فتلك التي رأيتها امرأة كأحدهما ولكن لا تَدَعُكَ أسرارُ عينيها تعرف أيّهما هي .

* * *

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الإنسانيةُ ينظر بعضها في بعض أحياناً على شعاع الرّوح ، كما يتراءى الوجهُ للوجه في سِراج العين ، ومن ثَمَّ يكون اختلافُ كل عاشق مع النّاس أجمعين في تقدير الجمال الذي يعشقهُ واعتباره ؛ إذ لا يُقَدِّرُ بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه .

ولقد حاورت الصِّديق يوماً في جمال صاحبته تلك فقال : « إني أرى ما لا ترى ؛ فإنَّ قلبي ينظر في قلبها كما تنظر أنت في وجهها . »

ومتى جادلتَ مُحِبا في هواه صارت الحبيبة في جدالكما كالفلسفة : تراها عند أهلها إيضاحاً لشيء معقَّد ، فإذا تناولها غيرُ أهلها انقلبت تعقيداً لشيء واضح . وإن المرأة الجميلة في رأيي هي تلك التي أرفعُ روحي إليها ؛ إذ لَسْتُ أفهمُ من معنى الحب إلا أن الرّوح اهتدت إلى شيء من سِرِّ الإنسانية في إنسان جميل ، قد استطاع بجماله أن يهديَها إلى هذا السِّرّ .

ولما يَئِسَ ما بينه وبينها ولَجَّ في غضبه منها سألته رأيه في « إيضاح المعقَّد ... » [٣] فقال : « أيها الرَّجل ! إذا مدحتَ امرأة جميلة فلا تقل : ما أجملها ، بل قل : ما أجمل الشّرّ ! »

* * *

آهِ مِنَ الدُّنْيا وَمِنْ   قَدَرٍ عَلى الدُّنْيا حَكَمْ
البُغْضُ شَيْءٌ مُؤْلِمٌ   وَالحُبُّ شَيْءٌ كَالألَمْ

* * *

تنبيه

هذا الذي أصدرناه من « رسائل الأحزان » إنما هو نصف كتاب الحب ، وبقي نصفه الآخر الذي يحتوي رسائله إليها ورسائلها إليه ، وسنخرجه إن شاء الله كتاباً على حِدَة إن أذنت هي في نشر رسائلها ؛ فإن لم تأذن طويناه وبقي النهارُ مشرقاً على نصف الأرض ، والليلُ مظلماً على نصفها الثاني .

(١) تبسم وتبدو أسنانها . *

(٢) الخمسون نصف المئة ... وأعتذر إلى صديقي .

(٣) أي حبيبته التي شبَّهها بالفلسفة .

السَّحَاب الأحمر

مُقدّمة الطّبعة الأولى
للمؤلّف

لَمّا كتبتُ « رسائل الأحزان » في فلسفة الجمال والحب كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يُؤرِّخ عَهْداً من شبابه بعد أن رَقّتْ سِنُّه [١] وذهب يقينُه من الدُّنيا ولم يبق إلا ظنُّه ، فهو يكتب والكلام يَحِنُّ لدَيْه ، والقلم يئنُّ في يديه ، وكل وصف جاء به من الشّباب قال : رحمة الله عليه ! وكنت أتعلق بأطراف اللُّغة التي فرّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورُها وظلامُها في أيامها ولياليها ، فكان قلمي هو الذي يكتبها ولكنّ قلبي هو الذي يُمْليها .

لغة الأحلام التي تُعبِّر عن الحقائق على نحو ما وقعتْ يوماً ، لا على نحو ما تقع كلَّ يوم ، فهي تترجِم للحياة في زمن من العمر تاريخَ هذه الحياة نفسها في زمن آخر ، وتُرْجع الإنسانَ كلّه لبقيّته الباقية ، وتأتي في الكلام لغير جِدال كما تأتي الأجْوِبَةُ القاطعة على أسئلتها .

وهي لغةُ الماضي التي تحملُ ما حَملْتَ عليها لأنها صافيةٌ كالحق ، مُنَزَّهة عن الرِّيب كالواقع ؛ فإذا وصفتَ بها الخير كانت كالمرآة المجلُوّة أشرق فيها وجهٌ جميل فملأ صفاءَها جمالاً وفتنة ؛ وإذا صوّرْتَ بها الشّرّ كانت كالمرآة و وجه الزّنْجيّ يملؤها سواداً ، ولكنه لا يَطْمِس على شعاعها ، وتضيف إلى سوادِه لَمَعانَ نورها ما دام فيها .

* * *

كتبته بلغة الأحلام ، والأحلامُ هذه إنّما هي بعضُ ما مات مِنّا أو ما مات لنا ؛ فإنِ استحال رجوعُنا في هذا العمر عَوْداً على الماضي فهي رجوع الماضي إلينا ؛ ومن ثَمّ كان في لغتها شيء ظاهرٌ من رَوْعة الخلق ، وكانت لها معانٍ كأنها راجعة من سَفَر بعيد إلى شوق طال به الصّبر .

كتبتُ كتابة قال الغافلون إني أتكَلّف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنّها كلامُ قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام إنه هو في كلامه .

ولقد كنتُ من نفسي يومئذ كمن لو ضَرَبه الحبُّ بقَشّة لجرحه جُرْحاً يَدْمَى [٢] ، وكنت أكتب عن ساحرة تَبْسِمُ حتى لَتَظُنُّ أنها لم تُؤتَ وجهاً تعبس به ، ثم تكون مع ذلك شرُّ ما هي كائنة من حيث لا تظنُّ أنت بها إلا الذي هو خيرٌ وأهْدَى .

وكنتُ في ذلك الكتاب شاعراً ، وحُبُّ الشّاعر لا يخلو من الوزن ، وكنتُ مُتَفَلْسِفاً ، وهيهاتَ إن أصبتَ الحبَّ أيّها الفيلسوفُ إلا في امرأة مُعَقّدة ، يؤلّفها الله تأليفاً من العُسْر بين فهمك ومعانيها ؛ فلا جَرَمَ كان الكِتابُ في نوع من الحب المتألّم ، لا يكون مثلُه إلا بين اثنين مَسَح الله يدَه على وجه أحدهما ، ثم مَسَح يده على قلب الآخر ، ثم تراءَيا بعدُ ، فما لَبِثَ أن أشرق الأثرُ الإلهيُّ

(١) شاخ وهرم ، ومتى بلغ الإنسانُ هذه السّنّ كانت لذّات الدُّنيا كلها ظنوناً في نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بُعده عن شبابه وقواه !

(٢) دَمِيَ الجرْحُ يَدْمى (كرَضِيَ يَرْضى) : إذا سال دمه .

على الأثر ، و وقع القضاءُ في الحب على القدَر .

ألا إن كل باب يُفتَح ويُغلق بمفتاح واحدٍ هو يُغلقه وهو يفتحه ، إلا بابَ القلب الإنسانيَّ ؛ فقد جعل الله له مِفْتاحين : أحدهما يُغلقه ثم لا يغلقه سواه ، وهو مفتاح اللّذّات ؛ والآخر يفتحه ثم لا يفتحه غيره ، وهو الألم .

* * *

كنت أستوحي « الرّسائل » من تلك النّفس التي طارت بي طَيْرَتها البَطيءَ وقوعُها ؛ فإني لأستَعِرُ بها فِكراً [١] وأشتَعِل منها خيالاً ، وكنت أرى الفصول تَخلّص في يدي حين أكتبها كما تخلص سبائكُ الذّهب بعناصرها لا بالصّناعة . وكان هذا القلم كالحديد إذا أُحْمِيَ عليه : ليست يدٌ لمستْه من أيدي المعاني إلا وضع فيها سِمَةَ النّار ، ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدّق أن الزّمن مرّ به ، وتمّ قبل أن يُتِمّ القمرُ دَوْرَةَ شهر واحد [٢] ، فنبّهَني ذلك إلى أن أستوفيَ الكلام في الحب استمداداً من أرواح أخرى ، فوضعت هذا « السّحاب الأحمر » . [٣]

وقد استَوْحَيْتُه من أرواح فيها الحبيبُ والبغيض والصّديق والمظلوم والظّالِمُ لنفسه ، ومَن عَقْلُه قلبُه ، ومَنْ حبّهُ منفعته ، وفيها أضعفُ ما عَرَفْتُ من العقول وأقواها ؛ فمن هذه السّماء تَوَكّفْت [٤] هذا السّحاب . وإني لأشهدُ أني في بعض فصوله كنتُ أحامي عن الحب أن يُنتَقَصَ [٥] ، فأدير الكلامَ على ذلك فيلتوي ، ثم أراه لا ينقاد ولا يُتابِعُ إلا على خِلاف ما أريد ؛ فإذا أخذت في المذهب الذي يَعِنُ [٦] لي اتّفاقاً وعَرَضاً ، تحدّرَ الكلام تحدُّرَ الدّمْعِ من حيث لا يملك أحَدٌ أن يُفيضَه أو يَكفَّه ؛ لأنه عند أسبابه الباطنة . وفي فصل « الشيخ علي » خاصّة كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب ، وكان مَرِيداً [٧] على طبعه وخلقه ، فما ملكتُ معه مُحاماةً ولا دَفْعاً . وفي فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كأني مُرْتَقٍ في صَعْدَاء [٨] مَطْلَبُها طويل بعيدٌ ، فلا أخطو خُطْوة إلا مُدافِعاً جاذبيةَ الأرض وشاعراً بأني أحمل نفسي حَمْلاً ؛ وكنت كالذي يطأ على أضراس الجبل الصّخريّ وأسنانِه ، مُتّئداً حَذِراً أن يَزِلّ فيسقط سقوط اللّقْمة المَمْضوغَة ، ولا ينفعه في الصّخر وشُموخه وتعاليه أنه كان في عريض السّهل عَدّاءً لا يُلْحَق .

* * *

من الحب رَحْمَةٌ مُهْداة ، فإذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صوَراً رُوحانية ؛ فأنت كالمَلك : هو في الأرض ما هو في السّماء . ومن الحب نِقْمَةٌ مُسَلّطَة ، فإذا كنت مع الشياطين كانت كلُّ أفكارك صوراً حيوانية ؛ فأنت كهذا المُتَجَهّم الطّيّاش [٩] ، الذي لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غيرَ وجه القِرْد ؛ لأنه القرد .

والنّاس في هذا الحب أصناف : فواحد يُجاهد زَلاتٍ قد وقعتْ ، وهو المحِبُّ الآثِم ؛ وآخر يجاهد

(١) يستعر : يلتهب ، كأنه كله شُعلة فكر . (٢) كُتبتْ « رسائل الأحزان » في نيف وعشرين يوماً ، وكُتِبَ « حديث القمر » في أربعين ، وكتب هذا السّحاب في شهرين ، وهي الكتب الثلاثة التي جعلناها للجمال والحب ، وكلها مُستَوْحاة .
(٣) تعرف سببَ هذه التّسمية في الفصل الأول . (٤) التوكف : الاستمطار . (٥) أي يُعاب ويُثْلب . (٦) عَنّ يَعِنُّ : إذا عرض . (٧) المريد : هو من عتا وطغى ، ولا يُقال إلا في الأخلاق والطّباع ، أمّا في غيرها فمارد . (٨) الصّعْداء : الطّريق العالية يُصْعَد فيها ، أو العالية البعيدة يُصَعّد إليها . (٩) القبيح الوجه الخفيف العقل .

شهواتٍ تَهُمُّ أنْ تقع ، وهو المحِبّ الممتَحَن ؛ وثالث أَمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خَطَراتِ الفكر ، وهو المحب لِيُحِبّ فقط ؛ ورابع كالقرابة والصَّديق : عجز النّاسُ أن يجدوا في لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها في المعنى ، وهو الحب . وعلى الثّالث وحده بَنَيْتُ « رسائل الأحزان » ، وعلى بعض الرأي في الباقيات كسَرْتُ هذا الكتاب .

* * *

مَنْ لِلْمُحِبِّ وَمَنْ يُعِينُهْ وَالحُبُّ أَهْنَأُهُ حَزِينُهْ !
أنا ما عَرَفْتُ سِوى قَسا وَتِهِ فقولوا كَيْفَ لِينُهْ ؟
إنْ يُقْضَ دَيْنُ ذَوِي الهَوَى فَأَنا الّذي بَقِيَتْ دُيونُهْ
قَلْبي هُوَ الذَّهَبُ الكَريـ ـمُ فَلا يُفارِقُهُ رَنِينُهْ
قَلْبي هُوَ الأَلْماسُ : يُعْـ ـرَفُ مِنْ أَشِعَّتِهِ ثَمِينُهْ
قَلْبي يُحِبُّ وَإِنَّما أَخْلاقُهُ فيهِ وَدِينُهْ

* * *

يا مَنْ يُحِبُّ حَبِيبَهُ وَيَظُنُّهُ أَمْسى يُهِينُهْ
وَتَعِـفُّ مِـنْهُ ظَـواهِرٌ لَكِنَّهُ نَجِسٌ يَقِينُهْ
كَالقَبْرِ غُطِّيَتْهُ الزُّهو رُ وَتَحْتَهُ عَفِنٌ دَفِينُهْ
ماذا يَكونُ هَواكَ لَوْ كُلُّ الّذي تَهْوَى يَكونُهْ ؟
دَعْ في ظُنونِكَ مَوْضِعاً إنَّ الحَبيبَ لَهُ ظُنونُهْ
وَخُذِ الجَميلَ لِكَيْ تَزيـ ـنَ الحُسْنَ فيهِ بِما يَزِينُهْ
إنْ تَنْقَلِبْ لِصَّ العَفا فِ لِمَنْ تُحِبُّ فَمَنْ أَمِينُهْ ؟
ما لَذَّةُ القَلْبِ المُدَلَّـ ـلِهِ لا يَطولُ بِهِ حَنِينُهْ ؟
ما لَذَّةُ العَقْلِ المُحِبْـ ـبِ وَلَمْ يُجَنِّنْهُ جُنونُهْ ؟
الحُبُّ سَجْدَةُ عابِدٍ ما أَرْضُهُ إلّا جَبِينُهْ
الحُبُّ أُفْقٌ طاهِرٌ ما إنْ يُدَنِّسُهُ خَئُونُهْ
أُفُــقُ المَلائِــكِ نَفْــسُهُ فـي البَـدْءِ كـانَ لَهُ لَعِينُهْ (١)

* * *

وَيْــلي عَــلى مُتَدَلِّــلٍ مــا تَنْقَضــي عَنّــي فُنــونُهْ
كَيْــفَ السُّلُــوُّ وَفــي فُــؤَا دي لا تُفــارِقُني عُيــونُهْ ؟

مصطفى صادق الرافعي

(١) هو إبليس لعين السّماء وطريد الملائكة .

كلمة

كانت دُرَّتان متجاورتين في حِلْية على صدر حسناء ؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها (١) ، تمُجُّ (٢) ذلك الشُّعاعَ النّادر الذي جاءه الحسنُ من كونه ضوءاً لم يُولَد من شمس ولا من قمر ، ولكن من ظُلمات البحر ؛ فتناجَتا يوماً . وكانت الجميلة قد استوفت كلَّ زينتها وحملت الدُّرَّتين على صدرها كأنهما عَيْنا قلبِها الثَّمين ؛ فقالت إحداهما للأخرى ، وهي تشير إلى هذه الفتّانة : « انظري . انظري . ما أحسَنَ لؤلؤتَنا ! »

صارت اللُّؤلؤة في هذا المنطق الشِّعريِّ هي امرأةَ الأعماق المظلمة ، وعادت المرأة الحسناء لؤلؤةَ الأعماق السّماوية المضيئة ؛ فلا شيءَ يريد أن يكون كما هو في نفسه ؛ إذ لا يزال موضعُ الفصلِ من حكمة الله خفيا ، لا يُرى بل يُتَوهَّم ، ولا يُستَيْقَن بل يُظَنّ . وكان خفاء هذه الحكمة في سماواتها إيجاداً للخيال في الإنسان حتى لا يظلَّ أبداً في حيوانيته ، ولكنَّ هذا الخيال نفسَه كثيراً ما أضاف إلى الإنسان حيوانيةً أخرى .

ولو كشف لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبَح ما في كل شيء أن لا يبرحَ أبداً محبوساً في حقيقة لا يُجاوزها ؛ ومن ثمَّ خفَّف الله عن الإنسان فأودع فيه قوة التَّخيُّل يستريح إليها من الحقائق . فإذا ضجر أهلُ الخيال من الخيال ، لم يُصلحْهم إلا الحبُّ ؛ فهو وحده ناموس التَّطوُّر للقوَّة المتخيِّلة ، ولن تجد في الأشياء العجيبة أعجبَ منه ، حتى كأنه أمٌّ تلِد ؛ فالمرأة هي تلد الإنسان ولكن حبها يلِد النّابغة .

* * *

وليس يقع التَّعَجُّب من الأمر لأنه عجيب في نفسه ، بل لأنه مُتَّصِل من الإنسان برُوعه (٣) أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه ؛ فإن دَهِشَ الرُّوع أو تحيَّر العقلُ أو اشتهى الهوى أو تمَكَّن المَطْمَع من النَّفس ، فهذه هي الألوان الأربعة التي تصوِّر منها الطَّبيعة الإنسانية كلَّ معاني التَّعَجُّب . والذي هو أعجب من جميعها أن الطَّبيعة لا تحتاج إلى جميعها في تصوير شيء إلا واحداً ، هو تصوير الحب الصحيح في قلب إنسان .

فهذا الحب ليس حقيقةً واحدة عجيبة ، بل هو أربع حقائق داخَل بعضُها بعضاً ، فلا يتميَّز لونٌ منها من لون منها . وما حقيقةُ الحُبِّ الصَّحيح إلا امتزاجُ نفسين بكل ما فيهما من الحقائق ، حتى قال بعضهم : لا يصلح الحبُّ بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا (٤) ؛ ومن هذه النّاحية كان البغضُ بين الحبيبين — حين يقع — أعنفَ ما في الخصومة ؛ إذ هو تقاتُلُ روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبرُ خَصيمَيْن في عالم النَّفس : مُتَحابّان تباغضا !

وللحُبِّ العجيب جِنسٌ من النِّساء عجيب ، خُلِقْنَ جواسيسَ على القلوب يدخلن فيها ويخرجْن منها ، وقلَّما تجسستِ الواحدة منهن إلا لتفضح للدُّنيا أسرارَ روحٍ عظيمة . وهذا الجنس تُهيِّئه الطَّبيعةُ تَهيِئَةَ المادَّةِ السِّحرية ، وتولد المرأة منه مرَّتين ؛ فإذا هي انحدرت إلى الدُّنيا طفلةً جعلتْ تأخذ في دمها الجذّاب من شعاع الشَّمس يتوهَّج (٥) ، ومن نور القمر يتندَّى (٦) ، وذهبت تنمو في ظاهرها نموًّا وفي باطنها نموًّا غيره ، حتى إذا بلغت مَبْلَغَها وانبعثت مِلْءَ شبابها ، آنَ لها أن تُولَدَ الثّانيةَ ، فوُلِدَت في قلب رجل !

والعجيب أنّها في الولادة الأولى يكون أولُ

(١) أي لا يشبهها في الدُّرّ إلا أختها . (٢) تلفظ وترمي . *

(٣) الرُّوع : الخاطر والقلب .
(٤) المقصود اتحادهما في الميل والهوى والحياة والخضوع . كأنهما تبادلا نفسيهما ، فنفس كل منهما انتقلت في الآخر .
(٥) يتَّقِد . * (٦) يترَطَّب .

وجودها هو أولَ وجودها ؛ أمّا في الثّانية فذلك أولُ فَنائها ؛ لأن المرأة متى حَلّتْ من قلب الرجل مَحَلًّا ، جعل يُفنيها معنى في معنى حتى تفرغَ ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمن مضى .

وكل امرأة من هذا الجنس هي مُعْجِزَةٌ عقلية ما دامت مخبوءَة في الشُعاع السَّماويّ من جمالها ، وما دام هذا الشُعاعُ يفعل فعله الذي عرفه النّاسُ أوضحَ ما عرفوه في أديانهم وعقائدهم ، وفيما أنزلوه منزلةَ الأديان والعقائد .

وآيةُ مِصداقِ (١) هذا الإعجاز في المرأة السّاحرة المحبوبة ذلك النوع من الحب ، أنه بَيْنا يكون مُحبُّها رَزِينَ الطّبع وازِنَ (٢) الرّأي كالجبل الرّاسخ الوَطْأة ، إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونَزَعاته كأنه جبلٌ يطير بألف جَناح ، وقد ملأ الخوافقَ بين السّماء والأرض أوهامًا سحرية .

وهنا مُعْضِلَةُ الحب التي لا حيلةَ في فهمها ولا في تقريبها إلى الفهم ، وهي تُثبت أن العاشق يُعْطَى في ناحية خياله قِبَلَ النّاس جميعًا ؛ ولكنه يُنْتَقَصُ من ناحية عقله مع حبيبته وحدها ؛ فهما سِحْرانِ تَظاهرا . (٣)

ولا يُشْبِه تلك المعجزة إلا أن ترى إنسانًا يقوم على ساحل البحر المِلْح فيلقي فيه رِطْلاً سُكَّرًا ، ثم يَتَذَوّق البحرَ فإذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سائغ (٤) ، كأنما ألقى الرّجل فيه وزن كرة الأرض من هذا الطّعم اللذيذ الحلو ، ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك !

* * *

(١) برهان . تقول : مصداق الأمر كذا ، وآية مصداقه كذا .
(٢) عاقل وقور ، راجح الفكر .
(٣) تعاونا .
(٤) هانئ حلو . *

الفصل الأول
القمر الطالع

في يدي الآن هذا القلمُ الذي أكتب به ، وهو سِنٌ قائمة في نِصابٍ (٥) من الزُّجاج أحمرَ صافٍ يَشِفُّ عن دَاخِله ؛ فإذا طاف به النُّورُ أشَعَّ (٦) فيه وانصبغ بلونه فرمى على إصْبَعي ظِلًّا مجروحًا (٧) يريك الجِلْدَ كأنما جُرْحُه من فوقه لا من تحته .

فإذا راوَحْتُه (٨) يدي وقلّبْتُه أناملي رأيت له بريقًا يستطير فيه كأنه شُعْلَةٌ من اللّهَب حَبَسَتْها مُعْجِزَةٌ في عُودٍ من الثّلج .

فإذا استَعْرَضْتُهُ بين العين وبين الضّوء السّاطع رأيت منه ياقوتةً حمراءَ ، قد افترّ فيها تَبْعٌ كالفمِ الحلو ، يتنفّس على قلبي الحزين بابتساماتٍ تأتي إليّ وفيها ألوانُ شفاهها الوردية .

فإني لَجالِسٌ ذاتَ مرة في جوف الليل أكتب على ضوء الكهرباء ، إذ طارت فيه نظرةٌ من نظراتي ، وكان بإزاء الشُّعيلَة (٩) فرأيتُ في خلاله من انعكاس الضّوء شُمَيْسَةً (١٠) صغيرة لم أرَ قطُّ أحسن منها حسنًا ، كأنها سَبيكةٌ تحترق وتتناثر ضبابًا من بخار الذّهب ؛ فمددتُ النّظر فإذا أنا بتلك الشُّمَيْسَةِ كأنها إحدى عَذارَى الجنّة ، انغمست في غدير صافٍ فحوّلها جمالُها ، فانقلب من معنى الماء إلى معاني الجمال المستحي ، فاحمرّ كأنه لونُ خدّ مُوَرّدٍ!

وراعني ما أبصرتُ ، فاستأنَيْتُ (١١) لحظةً ، ثم رفعت طَرْفيَ إلى مَدار هذا الكوكب ، فجعل يرمي بمثل شَقَائق البرق (١٢) تلمح واحدة لواحدة ثم انقلب

(٥) السّن : الرّيشة . والنّصاب : اليد التي تمسكها .
(٦) أظهر شعاعه فيه . (٧) استعير له الجرح لأنه أحمر يترقرق كالدّم . (٨) داورته وقلبته . (٩) هي فتيلة السّراج المشتعلة ، سُمّيَتْ بها خيوط النُّور المنبثقة في المصباح الكهربائي وما تجري فيه . (١٠) تصغير شمس . *
(١١) تمهّلت وانتظرت. * (١٢) قِطع البَرْق ، جمع شَقيقة.

يتضرَّم كالتَّنور (١) المستَعِر ، ثم عاد لُجَّة (٢) من « السَّحاب الأحمر » يموج بعضُها في بعض كالحب المتوهِّج يملأ فراغَ قلب كبير . فاختلَجَ الذي هو في صدري ؛ وحَضَرتْني (٣) حاضرةٌ من الذِّكرى ، لم تكد تعرض للفِكر حتى انفلق السَّحابُ عن وجهٍ فاتن كالقمر الطالع ، وكان متمثِّلاً في نفسي مُذْ أبصرتُ تلك الشُّمَيْسة ، فكأنما رأى من السَّحاب مرآة فانطبع فيها ؛ وما تلبَّثَ إلا يسيراً ثم اختفى .

وغُصْتُ في هذه النَّفس أفكِّر فيما رأيت وأنا أُمْسِكُ على قلبي أن يطيرَ ، فإذا « السَّحاب الأحمر » يُمْطِر عليَّ مطرة من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طَرْفٌ بعدَ طرف ، وتُقبل طائفة وراء طائفة ؛ كأنَّ متكلِّماً يتحدَّث بها في نفسي ، أو كأنه وحيٌ يُوحَى من مَلَكِ الجمال ؛ فأسرعت أدوِّنها وأحصيها تحت عينَي تلك الصُّورة الجميلة المُشْرِقة عليَّ ، حتى امتلأ البياضُ سواداً ، واستفاضت روحُ الحِبر الأسود بالهمِّ ، على صُدوع القلب وعلى شِعابه . (٤)

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السَّحاب يَعرض لي صُوَراً أعرفها ، فإذا مَثَّلها فاستوحيتُها الفكرةَ سَحَّ عليَّ الخواطرَ من روحها ، فأقبلت كالمطر يُفَرِّغُ إفراغاً ، دَفعة من غير تلَبُّث . (٥)

* * *

رأيت وجه فتاة عرفتها قديماً في رَبْوَة من لُبنان ينتهي الوصفُ إلى جمالها ثم يقف (٦) ؛ كنت أرى الشَّمس كأنما تجري في شَعرها ذهباً ، وتتوقد في خدِّها ياقوتاً ، وتسطعُ في ثغرها لؤلؤة ، وكنت أرى الوردَ الذي يزرعه النَّاسُ في رياضهم ، فإذا تأمَّلت شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنَّته ؛ وكانت لها حيناً خفَّةُ العُصفور ، وحيناً كبرياءُ الطَّاووس ، ودائماً وداعةُ الحمامة المستأنسة ؛ وكانت روحُها عَطِرة تَنْفَحُ نَفْحَ المسك إذا تَشامَّت الأرواحُ الغَزِلةُ بالحاسَّة الشِّعرية التي فيها .

وكنت إذا رأيتها بِجُمْلة النَّظر من بعيد صوَّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْتةً ثم يحيا ، فإذا جالستُها وأثبتُّ النَّظرَ فيها ؛ رأيتُها في التَّفصيل شيئاً بعد شيء بعد شيء ، كما أنظر نجماً بعد نجم بعد نجم : كلها شعاع وكلها نور وكلها حُسن .

وما نظرتُ مرَّة إلى النِّساء حولها إلا وجدتُ من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف من جهتها عالياً عالياً ويتضاعف منهن نازلاً نازلاً ؛ كأنه ليس في الأمر إلا أنها أُخِذَتْ من السَّماء و وُضعت بينهن .

هي كالفتنة المحتومة تنبعث إلى آخرها ، فليس منها شيءٌ إلا هو يُحَسِّن شيئاً ويُشوِّق إلى شيء ، وبعضُها يُزيِّن بعضها .

* * *

لقد تَراخى الزَّمنُ بي وبها ، فلو عددت لأحصيتُ مائة وخمسين قمراً (٧) منذ فارقتُها ، وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أقيانوس عظيم من الزَّمن تملؤه الأيام والليالي ، فلا يُخاضُ ولا يُعبَّر ، ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلَ ساحلٍ غيره .

وعلى أن هذا الزَّمنَ قد محا في قلبي مِن بَعدها وأثبتَ ، فلا تزال تنشقُّ لها زَفْرَةٌ من صدري كلما عَرَضَت ذِكراها ، كأن القلب يسألني بِلُغته : أين هي ؟ والقلبُ الكريم لا ينسى شيئاً أحبَّه ولا شيئاً أَلِفَه ؛ إذ الحياة فيه إنَّما هي الشُّعور ، والشُّعور يتَّصل بالمعدوم اتِّصالَهُ بالموجود على قياس واحد ، فكأن القلبَ يحمل فيما يحمل من المعجزات بعضَ السِّرِّ الأزليِّ الذي يحيط بالأبعاد كلِّها إحاطةً واحدة ؛ لأنها كلها كائنة فيه : فليس بينك وبين أبعد ما مرَّ من حياتك إلا خطوة من الفكر ، هي للماضي أقصرُ من التفاتةِ العين للحاضر .

* * *

ليس بجمال إلا ذلك الرَّوحُ الذي يرفع النَّفسَ

(١) الفرن المشتعل . (٢) يريد سحاباً كثيفاً . (٣) خطَرت ببالي ، والذي هو في الصَّدر : القلب . (٤) طُرُق القلب وشُقوقه . (٥) المطر متى سَحَّ تتابع ، حتى تنقشع السَّحابة أو تتساير . (٦) وصفها الرافعي في كتابه « حديث القمر » . *

(٧) كناية عن الشهر .

إلى أفق الحقيقة الجميلة ، ثم ينفخ فيها ، مثل القوّة التي يطير بها الطير ويدعها بعد ذلك تترامى بين أفق إلى أفق ؛ فإمّا انتهى المحِبُّ إلى حيث يصير هو في نفسه حقيقةً من الحقائق ، وإمّا انكفأ من أعاليه وبه ما بالطّيّارة الهاوية : رفعت راكبَها إلى حيث ترمي به ميتًا أو كالمغْشيِّ عليه من مَسِّ الموت .

والذين يُنكِرون أن الجمالَ يقتل أحيانًا أو يجعل الحياة كالقتل ، ثم يدّعون مع ذلك هوًى وحُبًّا ، إنما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التي يحبون بها الذّهب والفِضّة و ورق البنك .

وليس بحبٍّ إلا ما عرفتَه ارتقاءً نفسيا تعلو فيه الرّوحُ بين سماوَين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين : يكون واحدًا وترى منه العينُ ثلاثة مصابيح ؛ فكأن الحبَّ هو تعدُّد الرّوح في نفسها وفي محبوبها.

* * *

ولا سُمُوَّ للنّفس إلا بنوع من الحب مما يشتعل إلى ما يتنسم [١] من حبِّ نفسك في حبيب تهواه ، إلى حب دمك في قريب تُعِزُّه ، إلى حب الإنسانية في صديق تَبَرُّه ، إلى حبِّ الفضيلة في إنسان رأيته إنسانًا فأجللته وأكبرته .

فإذا أنت أصبت في الخَليقَة مَن أغفل الله قلبَه [٢] عن تلك الأربعة ؛ فلا حبٌّ ولا صِلَة ؛ ولا يألَفُ ولا يُؤْلَف ، فذلك هو الذي لا نَفْس له من نفوس الناس ، كأنه سَبُعٌ من السِّباع الضّارية ؛ أو هو الذي كله نفس ، كأنه نبيٌّ من الأنبياء . تجِد الأوّلَ فيمن اعتزله العالَمُ من شِرار المجرمين وأخلاطِ الشياطين الإنسيّة الذين لا يَسَعهم النّاسُ بعد أن انفصلوا من إنسانيتهم وانحطّوا انحطاطًا في أشدِّ العنف ؛ وتجِد الثّاني فيمن اعتزل هو العالَمَ من خِيار الأوّابين [٣] والشُّهداء الذين لا يَسَعُون النّاسَ بعد أن اتّصلوا بإنسانيتهم الكاملة ؛ فارتفعوا عن الخَلْق ارتفاعًا في أرقِّ الرَّحمة .

(١) هنا بمعنى يتجسّد . *
(٢) أهمل قلبه وتركه لا يثبت فيه شيء منها .
(٣) التّائبين . *

الحبُّ بعض الإيمان . وكما أنَّ الطَّريق إلى الجنّة من الإيمان بكل قُوى النّفس ؛ فإن الطَّريق إلى الحبِّ من قوّة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلاً . والخُطوة التي تَقطع مسافةً قصيرة إلى القلب ، تقطع مسافة طويلة إلى السّماء .

وكما ينشأ الكفرُ أحيانًا من عمل العقل الإنسانيِّ إذا هو تحكّم في الدّين ، يأتي البغضُ من هذا العقل بعينه إذا هو تحكّم في الحبِّ .

وتُرى ما هذا الشّبه بين المرأة وبين السماء ؟ أ كانت المرأة في أصل الخِلْقَة مادّة سماءٍ بدأتْ تتخلّق في الغيب فحبسها الله في ضلع الرّجل عقابًا لها ، ثم عاقبها الثّانيةَ فأخرجها للرّجل تنظر إليه كما ينظر السّجينُ إلى سجنه . ويكون اللّهُ سبحانَه قد عاقبها مرّتين ؛ لتتعلّم هي بطبعها كيف تتجنّى على الرّجل وتعاقبه مِرارًا لا تُعَدُّ ؟

أ يمكن أن يكون هذا الجمال الفتّان في المرأة الجميلة خُلاصةَ سماءٍ من السماوات خُلِقت عينين وخدّين وشَفتين ، تضحك أحيانًا بالنّور ، وتَلْتَهِبُ أحيانًا بالبرق ، وتنفجر أحيانا بالرّعد ؟

لقد عرَفنا أن في السّماء جَنّةً ونارًا . وأقسِمُ لو صُغِّرَت الجنّةُ وجُعِلَتْ أرْضيّةً تُلائم حياةَ رجل من النّاس ، ثم عُجِّلَتْ له في هذه الحياة الدُّنيا ، لما كانت بمتاعها ولذّاتها وفنون الجمال فيها إلا المرأة التي يحبّها ! أمّا الجحيمُ فلا أراني في حاجة إلى بُرْهان على أنّها صُغِّرَتْ وتجزّأت واندفقت على الأرض شُعَلاً في أسماء من أسماء النّساء !

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة ، بل لا أدري كيف أفهمها ؛ فمن حيثما نظرتُ إليها لا أراها تبتدئ إلا من فوق العقل ، فأنظر إليها ساكتًا على أنّها هي لا تنظر فيَّ إلا مُتَكَلِّمَة .

* * *

يا مُلَوِّن السّماء والوجوه الجميلة ؛ يا مُصَوِّر الرَّوْعة والحب ؛ يا مُبدعَ هذه المعاني الظّاهرة إبداعًا جعلها لدقّتها كأنها لم تظهر ؛ يا موجِدَ القلب كما هو لتملأه السّماءُ إيمانًا ، والجمالُ حُبًّا ، والمعاني

فكراً منهما معاً ؛ ويا خالقَ الإنسانية العالية في الإنسان الكامل من إيمانه وحبه وفكره : نعرف هذه السَّماءَ بما وسِعَت للإيمان ، وهذه الطَّبيعة بما رَحُبَتْ للفكر ؛ فهل المرأة وحدَها هي التي للحب ؟

تبارَكْتَ إذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر مهما سَما ، وجعلتَ الطَّبيعة حَوْل الفكر مهما اتَّسع ، وأنزلت المرأةَ بين المنزلتين مهما كانت !

إن من النِّساء ما يُفْهَم ثم يعلو في معانيه إلى أن يمتنع ، ومن النِّساء ما يُفْهَم ثم يَسْفُل في معانيه الخَسيسة إلى أن يُبتذل .

إن من المرأة ما يُحَبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكْرَه إلى أن يلتحق بالكفر .

من المرأة حُلْوٌ لذيذ يُؤكل منه بلا شِبَع ، ومن المرأة مُرٌّ كَرِيهٌ يُشْبِعُ منه بلا أكل .

الفَصْلُ الثّاني
النَّجْمَةُ الهاوِيَة

طائِفَة مِنَ الخَواطِرِ في طائِفَةٍ مِنَ النِّساءِ

وترَقْرَقَ السَّحابُ فإذا هو كنَضْح الدَّم (١) ، وإذا هو يَفور فوْرَهُ (٢) ؛ فبانَ كأنَّما يتدفَّق من طَعْنَةٍ أرى دمَها ولا أرى موضعَها ؛ لأن هذا الشَّلالَ الأحمر يتفجَّر منها .

ورأيتها هي طالعةً كالشَّمس حين تغرب مُحْمَرَّة يَتَغالَبُ طرَفا اللَّيلِ والنَّهار عليها ؛ ففيها أواخرُ النّور وأوائل الظُّلْمَة ، وسوادُها يمشي في بياضها .

قلتُ يوماً في صفة إحدى القصائد البديعة : إنها فَنٌّ من الشِّعر ؛ وفي إحدى الصُّور المحْكَمَة : إنَّها فنٌّ من التَّصوير ؛ وفي تلك الجميلة : إنَّها فنٌّ من المرأة ! أمّا الآن فقد عرفنا أنَّ اصفرارَ الشَّمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها .

ويقول العربُ : امرأةٌ مَجْلُوَّة ؛ ويفسرون ذلك بأنَّك إذا رامَقْتَ فيها الطَّرْفَ (٣) جالَ ؛ يَعْنُون أنَّها من جمالها ذاتُ شُعاع ، فيجول الطَّرْفُ فيها لأجْل شعاعها وبَريقها . أ فلا يجوز لنا أن نزيد في هذه اللغة ؟ وامرأةٌ صَدِئة ، ونفسرها بأنَّها هي التي إذا اتَّصَلْتَ بها تركت مادة الصَّدأ على روحك اللامع ؛ لأنها كهذا الصَّدأ طينَت على طِينتها ؟ (٤)

* * *

لستُ أريد أن أصنع في هذا الفصل كتابةً حتى لا أدير الكلام على شيء ، فقد مُسِخَتْ تلك النَّفْسُ في نفسي فخلصَتْ لي منها هذه الكلمةُ الجميلة : « تتمُّ آمالنا حين لا نؤمِّل » ولكني مُرْسِلٌ مطرةَ سَحابي تَهطِلُ ما هطَلَتْ ؛ فالمرأة الأولى أضاعت على الرَّجلِ جَنَّتَه ، ومِن نَسْلها نساءٌ يُضَيِّعن على الرَّجل الجنَّةَ وخيالها . ولو استطاعت الأرضُ أن تفرَّ من تحت قدمَيْ مخلوقٍ براءةً منه ، لكان أوَّلَ من تَنْخَزِل (٥) تحت رجليه واحدةٌ من هذا النَّوع .

مِلْحُ الله لا يحلو أبداً ؛ فماذا تصنعُ في نفس لو سالت لكانت بُحَيْرَة ؟

* * *

سرورُك من الصَّديق الطَّيِّب لا يُكلِّفك إلا أن تستمتع به ، وأنت لا تخسر فيه إذا زال إلا أنه زال ؛ فإذا لم يكن الطَّيِّب في نفسه طيِّباً كذلك في أثره فهو الخبيث .

* * *

بعضُ النِّساء تنْقُصُ بها الحُزْنَ ، وبعضهن تُغَيِّر بها الحزنَ ، وبعضهن تُتِمُّ بها حُزْنَك .

* * *

لا يتَّقِدُ الشَّجَرُ الأخضر إلا من أشدِّ النّار سَعيراً ، وتتَّقِد المرأة الجميلة حتى من أشعَّة وهمِها .

* * *

(١) خروج الدَّمِ وسَيلانه . (٢) غَضَبه .

(٣) أرسَلْتَ فيها النَّظر . (٤) أي جُبِلَتْ على جبلتها وطبعها ، والصَّدأ أشبه بالطِّينة في مَعْدِنه .
(٥) أي تنْقَطع وتَتَخَسَّف .

في قلب الرّجل ألفُ باب ، يدخل منها كلّ يوم ألفُ شيء ؛ ولكن حين تدخل المرأةُ من أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلّها .

* * *

النّساء مَنْجَمُ السّعادة ؛ فرجلٌ واحد لا يكاد يمدُّ يده حتى يضَعَها على الجوهرة المُشْرِقَة ؛ ومائة رجل يُغَرْبِلون حصى المرأةِ وترابَها ليجدوا فيها شَذْرَة [1] تلمع .

قال لي زوجٌ عن امرأته : أنا وهي ينتج منهما أنا بِلا أنا !

* * *

لم يخلق اللّه أحداً مكروهاً قطُّ ، وإنما نبغض من النّاس الصُّوَرَ المكروهة التي يُحْدِثونها ؛ فعملك شخصُك الحقيقي .

* * *

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السّماء ، ثم تثور يوماً فلا تدل ثورتُها على شيء إلا كما يدلُّ المُسْتَنْقَعُ على أن الوَحْلَ في قاعه ؛ فأغْضِبِ المرأةَ تعرفْها .

* * *

الحبيبُ من تلْتَهِمه بكل حواسّك ، فإذا رأيته فقد رأيته وسمعته وذُقته ولمستَه وشممته ؛ والبغيض من تَقِيئُه من كل حواسك .

* * *

في المرأة حقيقةٌ ، ولكنّها لن تعرفها إلا بفِكْرِ رجل ، فالكاملة من لا تسيء أحداً وإلا أساءت إلى حقيقتها .

* * *

كل ما يَخْطِرُ ببالك فقدِّرْ معه ضِدَّه إذا كنت تفكّر في الحبّ والبُغْض .

* * *

(١) قطعة صغيرة من الذّهب أو اللؤلؤ .

يجب على المدارس حين تُعَلِّم الفتاة كيف تتكلّم أن تعلّمَها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها .

* * *

الخبيثاتُ للخَبيثين . قيل لأرضٍ حَطِيبَة [2] : « مَنْ تشتهين أن يكون زوجَك لو كنتِ امرأة ؟ قالت : الفأس ! »

* * *

تجاورت شجرةٌ من الحَسَك [3] وشجرةٌ من الورد ، فَزَهَتِ الوردةُ زَهْواً عاطراً بطبيعة العِطْر الذي في مادتها ، فقالت لها الحَسَكَةُ : « ويحك ! ما هذا الزَّهْوُ الذي أفسَدْتِ به مَحَلَّكِ من نفسي ؟ » قالت الوردة في كلامٍ هو عِطْرٌ آخر : « لا تُتعبي نفسَكِ في تحقيري ؛ فلست أفهم لُغَةَ الشّوك إلا إذا كان يُنْبِتُ الورد ! »

* * *

قد يَتَغَيَّرُ الرَّجلُ في نظر امرأته حتى تقول له : « يا أنتَ الأوّل ، يا أنت الثّاني . » [4]

ولكني عرفتُ رجلاً قال لامرأته : « يا أنتِ الخامسةَ والخمسين ! »

* * *

قيل لحيَّة سامَّة : « أ كان يَسُرُّكِ لو خُلِقْتِ امرأة ؟ قالت : « فأنا امرأة غير أن سَمِّي [5] في النّاب وسَمَّها في لسانها . »

* * *

ما ألأمَ الشّجرةَ التي لو نطقت لشتَمَتْ من يسقيها !

* * *

لا يُفكِّرُ الرَّجُلُ فيما لم يَحْدُثْ على اعتبار أنه حادث ، إلا في شيئين : المصيبة التي يكرهها ، والمرأة

(٢) كثيرة الحَطَب لخُبْث تربتها. (٣) الحَسَك: هو الشّوك ، وسُمِّيت به شجرتُه مجازاً . (٤) يريد تَغَيُّر الطِّباع وفتور النَّفْس وما أشبهَ ذلك . (٥) السَّمّ بفتح السين وضمها وكسرها . *

التي يحبها .

* * *

قال رجل حكيم : « إذا بلغك عن أخيك ما تكره فاطلب له من عذرٍ واحد إلى سبعين عذراً ، فإن لم تجد فقل : « ولعل له عذراً لا أعرفه . » » وقالت امرأة حكيمة : « إذا بلغكِ عن رجل ما تكرهين فاطلبي له من ذنب واحد إلى سبعين ذنباً ، ثم قولي : « ولعل له ذنوباً لا أعرفها . » » زوّجوا الحِكْمَتَيْن أيّها الناس !

* * *

يُخَيَّلُ إليَّ أن عقل بعض النّساء مثلُ وجوههن المزوَّرَة : تحته ما تحته ، وليس عليه إلا « غُبارٌ » من العقل .

* * *

من المستحيل أن تُسكِرَ النّارُ وإن كان شررُها ينطفئ كحَبَب [1] الكأس ، ومن المستحيل أن تَلْذَعَ الخمرُ وإن كان حَبَبُها يَموجُ مَوْجَ الشّرَر . ولكن من الممكن أن تجد في امرأة واحدة لَذْعَ النّار وإسكار الخمر معاً ، وهي شيطانة النّساء ، يجتمع ممكنُها من مُستحيلَيْن .

شرُّ النّساء عندك وعندي هي التي تجعلك تتنبّه إلى ما في النّساء من الشّرّ .

* * *

قال بعضُهم لزاهدٍ عظيم : « إنّي رأيتك اللّيْلَةَ تمشي في الجنّة .» فقال له الزّاهد : « وَيْحَكَ ! أ ما وجد الشّيطانُ أحداً يَسْخَرُ منه غيري وغيرك ؟ » وقال رجلٌ لامرأة : « إنّي رأيتُكِ اللّيلةَ في الجنّة. » فقالت له : « وَيْحَكَ ! تقولها من غير أن تشكر فضلي عليك ، مع أني أدخلتك الجنّة .»

* * *

أشأمُ النّساء على نفسها من لا تُحَبُّ ولا تُبْغَضُ ، وأشأمهن على النّاس من إذا عَدّتْ مُبْغِضيها لا تَعُدُّ

إلا الذين أحبُّوها !

* * *

يا هذه ، لا أدري ما تقولين ، ولكنَّ الحقيقة التي أعرفها أنَّ نَفْسَ المرأة إذا اتّسَخَتْ كان كلامُها في حاجة إلى أن يُغْسَلَ بالماء والصّابون ، وهَيْهاتَ !

* * *

يا مَنْ عَلى الحُبِّ يَنْسانا وَنَذْكُرُه
لَسَوْفَ تَذْكُرُنا يَوْماً وَنَنْساكا
إنَّ الظَّلامَ الّذي يَجْلوكَ يا قَمَرٌ
لَهُ صَباحٌ مَتى تُدْرِكْهُ أخْفاكا

الفَصْلُ الثّالِثُ
السّجين

وتَغَيَّم سَحابي هذه المرّةَ وأطبَقَت في حواشيه سوداءُ على سوداء [2] ، كأنه يجمع هَمَّ قلب بات الألمُ من عناصر حياته .

رأيتُ في سَوائِهِ [3] رجلاً أُلبِسَ الذِّلَّةَ وَ سيمَ الخَسفَ [4] ، قد انتصب كالجِذعِ المشتَعل وله فروع من الدُّخان ، وهو هذا السّجين الذي أقصُّ خبره .

ألا إنّما الإنسان من الأقدار كالنّبات بين الفأس التي تَحرُث له والمِنْجَل الذي يحصد فيه ؛ وما هذه الدُّنيا إلا هذانِ ؛ فلا يحسبنَّ العودُ الطّالع أنه شيءٌ غيرُ العود المقطوع .

كنتُ يوماً في مَحكَمَة كذا ، فجاءَ الجندُ بسجين قَرَويٍّ كالمارد ، يزعمون أنه سَبُعٌ من سِباع القُرى وشيطان من شياطين الليل [5] ، وقد غَلُّوا يديه بسلسلة من الحديد ؛ لعل فَقار ظهره

---

(١) الفقاقيع التي تعلو الماء أو الخمر .

(٢) أي غَيْمَة سوداء على غيمة أخرى .

(٣) أي في وسطه . (٤) سامه الخَسفَ وأسامه : أولاه الهوان والذُّلّ . (٥) أي لِصٌّ فاتِك ، وهي كناية .

أصلبَ [١] منها .

خُلق في هيئة مُستَصْعَبَة شديدة المِراس كالجمرة المتَّقِدة ، ولكن الحياة ما زالت به من نكدٍ إلى أنكدَ منهُ حتى طَمَرَتْهُ [٢] في رَمادها ؛ لأن له عثرةً هو عاثِرُها يوماً . وخُلق في مِزاجه وعصبه من المادة المشتعِلَةِ ، حتى إذا التهب رأت منه الحياةُ شكلَها القويَّ الجميل في الرَّجل المشبوب ، يُرْسل فروعَهُ النَّاريَّةَ على ما حوله ؛ فإذا خمد رأى منهُ الموتُ شكلَهُ العنيفَ الجميل في الجمرة العليلة الذَّابلة حين تمر أنفاسُ الهواء عليها .

رجلٌ طُوالٌ ؛ إذا انتصب والنَّاسُ وقوف حوله رأيتهم معه أشبه بهم قعوداً ، مما يَفْرَعُهم [٣] من طوله وامتداد قامته ، مجدولُ الذِّراعين مَشْبوحُ العظام [٤] ، قد تباعَدَ مَنْكِباهُ وترامى بينهما صدرٌ مُصَفَّح ، كلُّ ثَدْيٍ من ثدييهِ يجمع قوَّةَ أسد .

وهو في توثيق جسمهِ وتفرُّع بعضه من بعض كأنه شجرة رجال : كلُّ فَرْعٍ منها بَطَلٌ مُنكَر ، وهو في إحْكامِ تركيبه واندماجِ بعضِه في بعض كأنه تمثال أُفْرِغَ من حديد فتوزَّعَتْ فيه الكُتَلُ هنا وهنا ، وكل ما فيه من الإجمال والتَّفصيل أنه جسمٌ آدمي يمثِّل للأعين ناموسَ « بقاء الأنسب » .

وجاءوا به والنَّاسُ مُتَقَصِّفُون [٥] عليه ، من ازدحامهم ، ينثني بعضهم على بعض لينظروا إلى الرَّجل الكامل ، بل الذي نَقَص حين كمُل ، وهو مُطِلٌّ عليهم كأنه عبارة مُبْهمة في صحيفة ، وكأنَّهم من حوله شروح وتفاسيرُ رُقِمَتْ على حاشيتها بخط دقيق . وقف كالشَّيء الغامض يروعهم بغموضه أضعافَ ما يعجبهم بروعته وكانوا كالشُّعاع : خيطاً يظهر من خيط ؛ وكان كالظُّلمة : نسيجاً من قطعة واحدة . وأحسبه لو صاح بهم صيحةَ البأس لسقطت قلوبُهم من علائِقِها سقوطَ أوراق الشَّجر في قاصِفٍ من الرِّيح . وكأن ما بينهم وبينه في الرَّوْعة والقوَّة كالذي تقيسه بين ألف متر انخسفت تحت الأرض وألف متر انبثقتْ فوقها ؛ فالبعد بين طرفيهما مُضاعَفُ كلٍّ منهما ؛ وما زالت سُنَّةُ الله أن تتضاعف الفروق دائماً بين الأشياء التي لا يمكن أن تتَّفِق ؛ حتى لا يمكن أبداً أن تتَّفق .

أمَّا أنا فما يعجبني شيءٌ ما تعجبني القوَّة السَّليمة في رجل شجاع ، والضَّعف السَّليم في امرأة جميلة. وكما أنظر أكثرَ الوقت بالنَّظر السَّاكن المفكِّر ، أحبُّ أن أنظر أحياناً بمثل البرق المتطاير من عيني أسد مُفْتَرِس ، أو الازورار [٦] الزَّائغ في عينيْ جَواد جَمُوح . وخيرُ النَّاس في رأيي من غَسَله تاريخُ أهله بضوء السَّماء وضوء السُّيوف معاً . [٧]

* * *

وكان الرَّجل يظهر كأنما هو لا يُمسكه الحديدُ الذي يَعَضُّ على يديه ، بل ذَنْبُهُ الذي يَعَضُّ على قلبه . ولعله قتل ضعيفاً مظلوماً فتحوَّل ضعفُ القتيلِ وذِلَّته ومَسْكَنَته إلى أرواحٍ مُنْتَقِمَة من كبريائه ، تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض إليه ، وتربط الرُّوحَ الميتة إلى روحِه ؛ فلا يَنْزِع ظلمتَها عن قلبه كلُّ ما في النَّهار من الضَّوء ؛ ولا يجد النُّورَ إلا في الإقرار والنَّدم فيسكنَ إليهما .

وتبيَّنته فرأيته ساكناً سكونَ الاستهزاء ، كأنه على ثقة ممَّا خفي عنه تُشبه ثقته بما وَضَح له ؛ أو هو لتَعاسته أخْفَقَ أكثرَ مِمَّا فاز . والإنسان متى كثر إخفاقُه صارت الخيبةُ في الأعمال هي الخُطَّة التي يبني عليها . أو لا هذه و لا تلك ، ولكنها الشَّجاعةُ تجعل المطْمَئنَّ إلى غاية الحياة لا يُبالي بكل وسائل هذه الغاية المحتومة .

وقيل إنه بَعْدَ أن غمس يدَه في الدَّم طار على وجهه تَلْفِظُه الأرض من جهة إلى جهة ، حتى أسلمته يد النِّقْمَة إلى يد العدل .

* * *

(١) هكذا في الأصل بنصب خبر لعل ، ولعل له مندوحة في أن بعض العرب قديماً كانوا ينصبون معمولي إنَّ وأخواتها . *

(٢) طوته ودفنته . * (٣) يفوقهم . * (٤) الشَّبح : عرْض العِظام ، وهو من علامة القوَّة والصَّلابة . (٥) متجمِّعون . *

(٦) الازورار : الميل والانحراف . * (٧) يريد بهذا أن يكون من أجداده الأبطالُ والحكماءُ وأهلُ العلم .

ترى لو سألنا الوحشَ حين يفترس إنساناً : ماذا وقع في نفسك منه حتى ثُرْتَ به وعَدَوْتَ عليه ؟ أ كان يقول – لو أنطقه الله – إلا أنه أبصر في هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً ، إن يكن في دِقَّة ناب الثُّعبان فهو في خطَر سُمِّه ؛ وإنه لو رأى عليه سَمْتَ [1] إنسان ، وأبصر له نظرة إنسان ، وأحسَّ منه قلبَ إنسان للجأ من وحشيَّته إلى الإنسانيَّة التي فيه ؛ إذ الإنسانية هي حَرَمُ الأمن الإلهي الذي توضَع عنده كل الأسلحة ، حتى أسلحة الوحوش ؛ وإذ الإنسان هو محرابُها الذي تصرع عنده كلُّ القوى ، حتى قوى الطَّبيعة ؟

كأنما كَبُرَت الإنسانية حتى عن أن تكون شيئاً إنسانيًّا ؛ فما هي فيمن ترى ممن حَشْوُ جلودهم ناسٌ وحشو نفوسِهم بهائم ؟ إنَّما الإنسانية هناك ، بعد أن تخرجَ بنفسك من حدود الشَّهوات الأرضيَّة وترفَعها فوق هذه الطَّبيعة ؛ وبعد أن تُعانيَ في شَقِّ طبقات النَّفس الحريصةِ طبَقاً عن طبَق ، مثلَ الذي يعانيه من يَحْفِر في أصلب أحجار الأرض إلى غَوْرٍ بعيد .

فهناك لا تجد الأشياء بل معانيَها وأسرارَها ، ولا الحوادثَ بل أسبابَها وأقدارَها ، ولا نيرانَ النَّفس بل أضواءَها وأنوارَها ؛ فترجع من ثَمَّ وفيك النَّاموس الذي يُنبِتُ الخُضرةَ من العود المُغْبَرّ [2] ، ويُخرِج النَّارَ من الشَّجر المخْضَرّ ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكانٌ من البَرّ .

* * *

كان السَّجينُ في بَهْو المحكمة ، فصعد به الجندُ إلى غرفة « قاضي الإحالة » [3] ، و وقفوه ساعةً على مَطَلٍّ [4] بين يديه فِناءٌ واسع أسفلَ منه . فتحوَّل النَّاسُ إلى هذا الفناء وتحوَّلتُ معهم ، وكان البطلُ يلوح كطرف المِئْذنة ؛ فما هو إلا أن أدار عينيه في النَّاس حتى استقرَّ بهما على ناحيةٍ ، فنظرتُ حيث نظر فإذا داءُ قلبِه وقلبِ كل من رأى : ست نساء وفتًى وطفلان ورضيع . فأمَّا واحدةٌ فأمُّه ، وأما الثَّانية فزوجُه ، والباقيات أخَواته ، والفتى فَرْع أبيه [5] ، ثم الطِّفلان والرَّضيع أولاده ، وقد جاءوا يودِّعونه ويستودعونه ؛ وحسبوا أن ليس بين رَجُلهم وبين الموت إلا هذا القاضي الذي مَثَلَ ببابِه ، فطرح الموتُ ظلَّ فكره على وجوههم ، وأخذ الرُّعب مأخذه فيهم ؛ فما كانوا إلا كما يجتمع أهلُ الميت حول الميت .

رأيت أمَّه المفجوعة جالسة لا تحملها رجلاها ، وعلى صدرها ذلك الرَّضيع تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه ، وتشدُّ عليه بيديها شَدَّة الجزَع والحنان ، كما لو كانت تحسبه صِلَةً بينها وبين ابنها ، تنقل هذه الشَّدَّة بعينها إليه كما تنقل الكهرباءَ حركةَ المتحرِّك ، وقد انطلقت دموعها ، وفي كل نظرة إلى نكبة وحيدها مادَّةٌ جديدة للبكاء.

وهي تنحني على قلبها حتى يدانيَ وجهُها الأرضَ ، كأنَّها شعرت به ينكسر فمالت ليلتئم صَدْعٌ منه على صَدْع ، ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشقُّ قلبها فتضغطه بانحناءةٍ أخرى ، وهي في كل ذلك مُرْسِلةٌ عينيها تُمْطِرُ مطراً ، وكانت حين تَتَكَّفُ [6] دمعَها وتُنحِّيهِ عن خدَّيها ، يتساقط من فروج أصابعها كأنه عددُ أيام شقائها .

وحَسِب الرَّضيع أن هذه الحرَكة هَدْهَدَة [7] من أمِّه لينام ، فنام هنيئاً على صدرها ، وأدفأه غليانُ هذا الصَّدر فضاعف لذَّة أحلامه . وإنما هو طِفلٌ سماويّ لا يزال مَسُّ يد الله على جلده الرَّطب ، فلو زَفَرَتْ حولهُ جَهَنَّمُ فأحرقتْه لكفَّنَتْه نسمة من نسمات الجنة ؛ ويا سعادةَ من يستطيع بطبيعته أن ينقطع من وسائل نفسه إلى وسائل الله ! [8]

وأمَّا زوجةُ الرجل – وهي شابَّةٌ جَزْلَة الخلق ناضرة الصِّبا ، تركها الحزنُ كالمرأة المهْمَلَة : تدلُّ أنوارُ بريقها على مواضع الصَّدإ منها – فكانت واقفةً

(١) هيئة . * (٢) الجاف من الشِّتاء . (٣) هو القاضي الذي ينظر القضية ، فإن رأى البراءةَ حكم بها وإلا أحال المجرمَ إلى محكمة الجنايات لتقضي في أمره. (٤) مكان يُطلّ منه. *

(٥) أخوه ، وهي كناية . (٦) التَّكَف : أخذ الدَّمع عن الخدِّ بالأصابع . (٧) هدهدت الأم ابنها : حركته لينام .
(٨) والعجيب أنه لا يستطيع ذلك إلا أصغر مَنْ في الإنسانية من أطفالها ، وأعظم من فيها من أنبيائها !

تحمل على رأسها بُرْمَةً (١) أعدّت فيها ما تعرف أن سيِّدَها يشتهيه من طعامه ، كأنها تريد أن تجعل من هذا الطَّعام الذي يحبه رسالةً من الحبِّ بين نفسها ونفسِهِ ترسلها إليه في سجنه .

ولما استقرّت عينهُ عليها أرسلت كلَّ عواطفها في مجاري دمعها ، وقد أيقنت أنه قُطعَ (٢) بها دون عِمادِها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذَّهبي الذي لا تملك غيره ؛ فكانت تبكي لكل معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه ، وتبكي على قدر وفائها الذي لا حدَّ له ؛ وحبِّها الذي لا صبرَ معه ، ومصيبتها التي لا سبب فيها من أسباب العَزاء ، وكل نظراتها كانت تقول لزوجها : لك ما أبكي . (٣)

وأحاط بها أخواته الأربع صُفْرَ الوجوه ، ساهماتِ الخدود ، ذابلاتِ الأعين ، كأنّما تَدلَّين إلى الأرض من مِشنقة . والبنت قطعة من أمها ، ولكنها في الحزن على أبيها أو أخيها بعدَّة أمهات ؛ فهل تُراها لا تستوفي في بطن أمها إلا نصف حياتها كهيئتها في الدُّنيا ، ويبقى النصف الآخر في أخيها ، فإن مرض خامَرَها (٤) نصفُ الدَّاء ، وإن مات وقع عليها نصفُ الموت ، ولا يكون حزنُها عليه إلا هدَّةً في حياتها لا يمكن أن تُبنى ؟

أمّا أخو السَّجين فوقف ناحيةً عن النِّساء وجعل يبكي ويَعْصِر عينيه ، ولا أدري إن كانت الفِطرةُ هي التي أبعدته عنهنَّ ؛ حتى لا يُشْبِهَهُنَّ بوجه من الشَّبه ولو كان دقيقاً كهذه الخيوط من الدَّمع ؛ أم هو انتحى جانباً كيلا تتصل به عَدوى الضعف ؛ وليستطيعَ أن يبكي على أعين الرِّجال بكاءَ رجل في دَمْعِهِ شيء من القوَّة ؛ أم هو انتَبَذ (٥) مكانَه ليتكلَّم مع آلامه ؛ فإن الآلام تتكلَّم ولكن بإحساسنا ؛ وكان لهُ مع أوجاع قلبه حديث طويل .

وأما الولدان فَرَبَضَ أحدُهما في الأرض و وقف الآخرُ لأنه أكبر منه قليلاً ، وكلاهما ضامرُ الوجه مُتَقبِّضٌ مُنْكَسِرٌ من هَوْل ما يرى ، وكانت عيونهما الحائرةُ تدلُّ على أنهما بإزاء حالة غير مفهومة ؛ فأبوهما حيٌّ لم يمت وعيونُهما مُكْتَحِلَة بعينيه ، وليس بينهما وبينه إلا ارتفاعُ شجرة ؛ فلِمَ لا يصلان إليه أو يصل إليهما ؟ وعلامَ هذه المناحة ولا ميت ؟ وفيمَ هذا الجمع ولا معركة ؟

أخذا يدرسان الدُّنيا كلها في مُعْضِلَتِهما الأولى من حيث لا يفهمان شيئاً ، وبدأ العدلُ الإنسانيُّ الرَّحيمُ يُخَشِّنُ صدرهما ؛ ليعلما ذات يوم معنى الظُّلم الذي يكون مرَّة باعثاً على العدل ويكون مرة هو إياه .

أ لا وَيْحَكِ أيَّتها الإنسانيَّةُ ظالمةً أو مظلومةً ! إن أمامك من هذين الطفلين الموتورين (٦) آلتَيْ تصوير قد نقلتا هذه الصّورة وستحفظانها إلى يوم ما .

صورة بشعة على تلوينها ؛ إذ لا سوادَ فيها إلا من الخطوط ؛ ولا بياضَ إلا من الدُّموع ؛ ولا صُفْرَةَ إلا من الوجوه ؛ ولا حُمْرَةَ إلا من لهب القلب ، وسيمضي كل شيء لسبيله فيُنْسى ولا تُنسى ؛ لأنها مادة علمية مصوَّرة ، كرَسْم تعليميٍّ في جغرافيا الجريمة .

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ ، وغداً صورة شاب فهي للعلم ، وبعد غد صورة رجل فهي للعمل .

* * *

كان السَّجينُ كالميت : تراه تحت أعين أهله وهو في عالم آخر ، وبين أيديهم وكأنه حسرةٌ بعد أمل ضاع ، وكان كلامهم سَمْعَ أذنيه (٧) ولكنه من معنى ما يحب على بعدٍ ما بينه وبين المستحيل ؛ ابتلاه الله بالجريمة ، ثم ابتلاه بالقِصاص ، ثم تمَّم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معاً ، وهي رؤيةُ أهله جميعاً في حالة لا يملك فيها قدرةً ولا صبراً .

---

(١) قِدْراً ، وهي مؤنثة . * (٢) المعنى حُرِمَت منه ، فصارت مقطوعة . * (٣) أي أبكي لك وحدك لا لخاصة نفسي . (٤) أصابها. * (٥) اختاره بمعزل ليكون بعيداً عن الناس. *

(٦) الموتور لغة : من قتل له قتيل فلم يُدرك بدمه ؛ كأنه اعتبر الإنسانية الظالمة هي التي وترتهما بحرمانهما من أبيهما بدون ذنب اقترفاه . * (٧) أي يصل إلى سمعه فيعيه .

إنما يُمْسِكُ الإنسانَ قُوَّتان : قدرةٌ يمضي بها فيدرك فيطمئن ، أو صبرٌ يَقْعُدُ به فيعجز فيطمئن ؛ ولكنه متى امتُحِنَ بشيء لا يَقْدِرُ عليه وهو مع ذلك لا يصبر عنه ، فقد وضعه الله من ثَمَّتَ في حالة لا إنسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقَهما ؛ إذ يُسَلَّط عليه كلُّ القوَى التي في داخله تدفعه بأشدِّ العنف إلى القوى المحيطة بهِ ، ويُغْرِي المحيطةَ به ترميه إلى التي في داخله ؛ فما إن يزالُ مُرْتَطِماً بين هذه وتلك ، وكأنه لِشِدَّة وَقْعِهما يُحَطَّم تحطيماً بين مِطْرقتين .

وهذه البَلِيَّة من العذاب لا تَّتفق إلا في أشدِّ ما يكره الإنسان حين لا يجد منه مفرًّا ولا يُطيق عليه مَقَرًّا[١] ، وفي أشد ما يحبُّ حين لا يقدر إلى حدِّ اليأس ولا يصبر إلى حدِّ الجنون . وأحسب ما في الأرض مُنْتَحِرٌ قَطُّ أزهق روحَه – إن لم يكن مجنوناً – إلا وهو في إحدى هاتين الحالتين ؛ فإن وجدتَ من يثبِّتُهُ الله على حالة منهما وجدته كالبقيَّة من الحريق: إن لم تكن احترقت وذهبت فقد احترقت وبقيت .

* * *

أجرم السَّجينُ فأُخِذَ بذنبه ، فما ذنوب هؤلاء جميعاً ؟ أ هي إحدى الحقائق العُليا الغامضة التي من أجل غموضها واستبهام حكمتها يقول الحائرون : « كلُّ شيء هو كل شيء » ، ويقول المنكرون : « لا شيءَ في كل شيء » ، ويقول المؤمنون : « كل شيء فيه شيء » ؟

أم هي الحقيقة السَّهلة الواضحة من كل جهاتها ، وإن أصبح الناسُ لا يفهمونها ؛ إذ لا تحتاج إلى فهم وإنما هم مُوَكَّلون بما خفي ودَقَّ ؟ كدَأْبِ هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمرَ في دقيق المباحثِ وعويص التَّراكيب ، ثم لا ينتهون من نتائجها إلا إلى النَّواميس المكشوفة انكشافَ النور لكل ذي عين تبصر .

أ هي الحقيقة السَّهلة التي تجزَّأت من أجلها آيةُ الله ، فيقول المنكرون : « لا عِلْمَ » ويقول الحائرون « لا عِلْمَ لنا » ويقول المؤمنون : « لا علمَ لنا إلا ما علَّمْتنا[٢] » ؟

أ لا أيُّها القلبُ الإنسانيُّ المعجِز ؛ إن أيَّامَك كلَّها مُضِيٌّ في سبيل الموت الأوَّل كما هي مُضِيٌّ في سبيل الحياة الأخرى ؛ فأنت تسير في طريقين معاً ، وهذه هي معجزتك التي لا تُفْهَم .[٣]

ونحن من ظلام الدُّنيا ومن بحثنا عن الحكمة الإلهيَّة الصَّريحة بوسائلنا الإنسانية العاجزة ، كالذي يبغي أن تَطْلُعَ عليه الشَّمْسُ في ليلهِ ويبقى له مع ذلك ظلام اللَّيل . يريد مستحيلين لا مستحيلاً واحداً ، وهذا هو عقلنا الذي لا يُعْقَل .

لو أراد اللهُ بك خيراً أيُّها القلبُ المسكين لما جعل شقاءَك يُرَبِّي فيك تربيةً كما تُرَبِّي أنت في الإنسان وكما يُرَبِّي الإنسانُ في الحياة ؛ فالحبُّ والرَّحمة والشَّفقة والصَّداقة ، وكل المعاني التي هي روابط الإنسانية في اشتباكها ؛ هذه كلها هي وسائل مَسَرَّتك في حالة ، وهي بأعيانها أسبابُ عذابك في حالة أخرى .

جُذورٌ استَسَرَّ بها الغيبُ[٤] وفي أيدينا فروعُها وأوراقها وثمراتها : تلك هي شجرة الحياة ، فلنا حُلْوُها ومُرُّها وما يَفيءُ من ظلها وما يَنْحَسِرُ ، ونُشَذِّب[٥] منها فتنمو وتزيد ، ونُغَيِّرُ من أشكالها ونلوي أو نُكَسِّر من فروعها ما شئنا ، ونترك من ثمرها ما يَنْضَج إلى أن يَنْضَج أو نتناوله فِجًّا[٦] لا يُساغُ ولا يُطعم . أما أن نجعل مُرَّها حلواً ، ونُرسلَ المادة الحلوة بأيدينا في جذور الفروع المرَّة التي لا تُؤْتي ثمرها إلا عِلَلاً ومصائبَ ونكبات وموتاً – فهذا ما لا سبيل إليه ولا يُغْني فيه غَناءٌ ولا تبلغ منه حيلة ، إلا إذا استطعنا أن نُطْفِئ الفَرْع الأحمر من النار فيتحولَ في أيدينا

---

(١) المقر مثل المستَقَرّ ، يريد : لا يطيق ثباتاً عليه . *

(٢) في القرآن الكريم على لسان الملائكة يخاطبون الله عز وجل : « قالوا لا علمَ لنا إلا ما علَّمتنا » وهو قول الملائكة ، فكيف بالنَّاس ؟ (٣) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها ، ولهذه الحياة الدُّنيا واجباتها وأعمالها ، وقلَّما أشبهت واحدةٌ واحدة ؛ والإنسان يعمل لهما معاً ويريدهما معاً . (٤) خفيت فيه .

(٥) تشذيب الشَّجر : تقطيع فروعه لينمو .

(٦) نيئاً لم ينضج . *

إلى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفحم .

تأتي النِّعْمَةُ فتُدني الأقدارُ مَنْ يدكَ فرعَ الثَّمر الحلو وأنت لا ترى جِذْرَه ولا تملِكه ، ثم تتحوَّل فإذا يَدُك على فرع الثَّمر المُرِّ وأنت كذلك لا ترى ولا تملك . ألا فاعلم أنَّ الإيمان هو الثِّقَةُ بأنَّ الفرْعين كليهما يَصِلانِك بالله ، فالحُلو فَرْعُ عبادته بالحمد والشُّكر ، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحِسِّ ؛ والمُرُّ عبادته بالصَّبر والرِّضا ، وهو الأحلى حين تذوقه بالرُّوح .

القلبُ الإنسانيُّ مَيْدانٌ تَقْتَتِلُ فيه القوى الأرضية والسَّماوية ، فلا بُدَّ في النَّصر والخُذْلان جميعاً من الدَّم يذهب كلُّهُ أو بعضه ؛ والجراح تَبْرَأ أو لا تبرأ ، والآلام تُنْسى أو لا تُنْسى .

لا بُدَّ ؛ لا بُدَّ ؛ لا بُدَّ !

* * *

وجاءت حافِلَةُ السِّجن فركبها السَّجينُ ومضت تجرُّها البِغالُ طائعةً مُنْقادةً كما تنقاد إذا هي جرَّت مَرْكَبَةَ مِلِك ، وذهبت وما تحفِل بشيء من الدُّنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ما تحفل بهذا السَّوط الدَّقيق المسلَّط على ظهورها . أما أهلُ الرَّجل فتهالكوا وراء العربة ؛ فالشّاب يَخْطِفُ (١) في عَدْوِه خطفاً مُنكَراً ؛ كأن قُرْبَه منها يُوَصِّل بعضَ أنفاس الحُرِّيَّة إلى أخيه ؛ والنِّسوة يَهْتَلِكنَ (٢) في جَرْيِهنَّ ، وكلما أبعدت الحافلةُ علا صُراخُهُنَّ ليبلغ السَّجينَ منهن شيءٌ ما . أما الطِّفلان وجَدَّتهما فوقفوا من الضَّعْف كأنَّما وقفت قلوبُهم ، ولكنَّ نظراتِ الجَدَّة ارتمت إلى العربة ، فلما غابت عنها ارتمت إلى السَّماء .

وأمَّا الرَّضيعُ ؛ هذا اليتيمُ في حياة أبيه ؛ هذا المسكينُ الذي ابتدأ تاريخَه بجريمة لا يدَ له فيها ؛ هذا الضَّعيفُ الذي لا يزال جِلدُه أرقَّ ديباجة (٣) من ورق الزَّهْر ، ومع ذلك تدقُّ فيه منذ الآن مساميرُ الفقر واليُتْم والضَّياع – أما الرَّضيعُ اليتيمُ المِسْكينُ الضَّعيفُ فكان وحدَه بين هذه المصائب الماحِقَة دليلاً على الأمل الإنساني في رحمة الله ؛ إذ فتح عينيه للنّور وابتسم .

* * *

نَزَتْ (٤) كبِدي لما رأيتُ الحبَّ الهالك يَسْتَنْفِضُ امرأةَ السَّجين ويسوقها جامِحَةً في عِنان الغيظ تَتَرامى على وجهها .

كانت المرأةُ غريقة في يأسها ، وكان شاطئُ الأمل يَفِرُّ أمامَ عينيها فراراً ؛ لأن بينها وبينه موجةَ دمعها . وقد صدَّع الحبُّ في قلبها صَدْعاً لِيَغْرِزَ فيه الشَّوْكَةَ المُسْتَحِدَّة (٥) من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشَّوكة التي ما نفذتْ قلباً فاستقرَّت فيه إلا جعلت الحياة كلها معانيَ شائكة حتى تُحطَّمَ أو تُنْتَزَع .

امرأة والِهَة ، فيها نفسُها المعذَّبة ، وفي نفسها رجُلُها المعذَّب ، وبين هذين طفلُها اليتيم الذي يقتضيها أن تظلَّ حانيةً عليه حُنُوَّ أبوين ؛ فهي تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب ، وتتألم بنفسها الواحدة ألمَ الرِّثاء لزوجها الذي نَزَلَتْ به العقوبةُ في جسمه وروحه ؛ وألمَ الإشفاق على مجدها الذي نُصِبَ على أعين الشّامتين في موضع الذِّلَّة ؛ وألمَ الرَّحمة لطفلها الذي بلغ سِنَّ الهَمِّ وهو لا يزال في الثَّدي (٦) ؛ وألمَ اللَّوْعَة لحياتها التي لم تعد الأيام تناجيها بغير لغة الدَّمع ؛ وألمَ الأسى على شبابها الذي تساقطت آماله كما تَحُطُّ الشَّجرةُ الخضراءُ أوراقَها لتَجِفَّ .

ألا يا ماءَ البحر ، ما أنت على أرض من المِلْح ؛ فبماذا أصبحتَ زُعاقاً (٧) لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشْرَب ؟ إنَّك لستَ على أرض من المِلْح ، ولكنَّك يا ماءَ البحر ذابت فيك الحكمةُ المِلْحَةُ .

* * *

---

(١) يسرع فيه ويستلبه . *   (٢) يجدون فيه . *

(٣) الدِّيباجة بمعنى الوجه ، يريد هنا : أرق ملمساً . *

(٤) اضطربت في مكانها من الإشفاق ونحوه .

(٥) الحادَّة . *   (٦) أي الرِّضاع ، وتقول : مات في الثَّدي ، إذ مات رضيعاً .   (٧) الزُّعاق : الماء المرّ لا يطاق شربُه ، وتأتيه المرارةُ من شِدَّة الملوحة .

ما الفراقُ إلا أن تَشْعُرَ الأرواحُ المفارِقةُ أحِبّتَها بمسِّ الفَناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمَسُّ وجودُنا ليتحطّمَ ، وفي الفراق يُمَسُّ ليَلْتويَ ؛ وكأن الذي يقبض الرّوحَ في كفِّه حين موتها هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه .

وإنّما الحبيبُ وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ، فعند الفراق تُنْتَزَعُ قطعةٌ من وجودنا فنرجع باكين ونجلس في كل مكان محزونين ، كأنَّ في القلوب معنًى من المناحة على معنى من الموت .

وكل ما فيه الحبُّ فهو وحده الحياة ، ولو كان صغيراً لا خَطَرَ له ، ولو كان خسيساً لا قيمةَ له ، كأن الحبيب يتّخذ في وجودنا صورةً معنويّةً من القلب ، والقلب على صِغَره يخرج منه كلُّ الدّم ويعود إليه كلُّ الدّم .

في الحب يتعلّم القلبُ كيف يتألّم بالمعاني التي يُجَرِّدها من أشخاصها المحبوبة وكانت كامِنَةً فيهم، و بالفراق يتعلّم القلبُ كيف يتوجّع بالمعاني التي يُجَرِّدها هو من نفسه وكانت كامنة فيه ؛ فترى العمرَ يتسلّل يوماً فيوماً و لا نَشْعُرُ به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نَبَّه القلبُ فينا بَغْتَةً معنى الزّمن الرّاحل ؛ فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتَطاير عدّة سنينَ من الحياة . وترى العمرَ يمتلىء شيئاً فشيئاً ولا نُحسُّ الزّيادةَ كيف تزيد . فإذا فارقْنا من نحبهم نبَّه القلبُ فينا معنى الفراغ ؛ فكان من الفراق على أكبادنا ظمأٌ كظمإ السِّقاءِ (١) الذي فرغ ماؤه فجفَّ وكان الفراق جَفاءاً .

أ لا يا طائرَ الحبِّ ، إن لك إذا طِرْتَ جَناحين ؛ فما أقرب من هو على جَناح الفراق مِمّن هو على جَناح الهَجْر !

* * *

(١) وعاء من جِلد للماء واللبن ونحوهما . *

الفَصْلُ الرّابع
الرّبيطة (٢)

واطّلع في سَحابي هذا الشّيطانُ الذي تتلألأ على وجهه مَسْحَةُ مَلَك (٣) ، فهو أخبث الشّياطين لأنه يسوق إلى الهلاكِ في نُزْهَةٍ على شاطىء نهر الحياة .

هي فلانة ؛ كانت امرأة فرنسية ربيطةً لرجل عرفتُه قديماً (٤) لأعرفها منه ؛ فأكتب عنها رأيَ العين وأكونَ أفهَمَ بها وأدنى إلى حقيقتها ؛ كما يريدُ عالِمُ الطّبيعة أن يكتب عن بركان يتأجّج ؛ فهو يَدْلِف إليه (٥) يطأ على أرض كأن ترابها حَريق يتنفَّس آخر أنفاسه .

ما ساح رجلٌ في العُمران ، ولا ضرَبَ في مَجْهَلٍ من الأرض ، ولا ضَلَّ في تيهٍ منها ، ولا كشفَ للنّاس غَمْضاً (٦) من غُموضها ، ولا تَطَوَّح في بحر من أبحارها ، إلا وأنت واجِدٌ من مثل ذلك معانيَ في نفوس النّساء ، كأن هذه المرأة تمثال مصغَّر خُلق بمعانيه في مقابَلَة الأرض بمعانيها ؛ فهي في روح الرجل إمّا الخِصْبُ أو الجَدْب ، وهي له في الحياة إمّا المِلْحُ أو العَذْب ، وهي منه العامِرُ والخرابُ ولكن في القلب .

* * *

كان صاحبُنا فتى تَلْمَعُ عليه غُرّةُ الشباب ، وقد رقَّ حتى كاد يخالط حدَّ الأنوثة ، ولان حتى قارَبَ

(٢) هي المرأة البَغِيّ تربط بأجر أو بعقد مدني في بيت رجل ، فتنزل منزلة الزّوجة على أنها مُدَبِّرة بيته ، وتكون ساقطة المعنى شريفة الاسم maitresse ، وهذا الجنس من النّساء طاعون الزّواج في هذا العصر . (٣) كناية عن روعة الجمال . (٤) يذكر الأستاذ محمد سعيد العريان في حواشي إحدى طبعات « السحاب الأحمر » أنه الدكتور حسين الهراوي ، وكان في صدر شبابه كأكثر واردات أوربا – زيفاً في الدين وزيفاً في الخلق وزيفاً في الرجولة ؛ على أنه أصبح من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ، وله مقالات في الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين . (٥) يمشي في بطء ، وهو مشي فوق الدّبيب. * (٦) الغَمْض: المكان المجهول من الأرض.

أن يفوت معنى الرُّجولة ، وظَرُفَ حتى أوشك أن يكون إنساناً تتفتّح في روحه معاني الزّهر ؛ ولكنك إذا كنت رجلاً صحيحاً أمْرَرْتَهُ على عينيك كما تُمِرُّ كتاباً لا تريد أن تقرأه .

فقد تمدّن في أوروبا ولبث [١] عن قومه ما شاء الله ثم رجع إليهم كأن أمه لم تلدْه وكأن أباه جدُّه الأعلى ، فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد ؛ منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو الهر . وأصبح يُحسُّ أن كل شيء في هذا الاجتماع الشّرقي مُسَلّط على نفسه الرّقيقة النّحيلة بالغِلْظَة والجفاء والعنَت والأذى ، كأنه – رحمه الله – ابن الضّبّاب ، فلما برز [٢] إلى هذه الشّمس وضَحا في أشعّتها الحامية جعل يذوب ويتبخّر .

وكان من هؤلاء الفتيان الذين إذا تعلّموا في أوروبا نَفَوْا جهلَهم بالعلم ، ثم نفوا علمهم بجهل آخر ، ثم جاءونا كحرفي النّفي : ما ، ولا . فليس منهم إلا التّكذيب والإنكار والشّك . وتراهم أظرفَ وأجمل وأزهى من فراشة الرّبيع ، لا يريدون الحياةَ إلا أزهاراً ؛ ولا يطيقونها إلا ربيعاً ؛ وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم إلا نقطٌ من الألوان ، وأصواتٌ من الطّين ، وأجسامٌ ليس فيها رجالها .

* * *

سألت هذا الفتى مرّة : « أنت مصري ؟ »

قال : « و وطنيٌّ صميم . »

قلت : « أ فترى أنك تصلح في علمك وتهذيبك أن تكون مثالاً يتأسّى [٣] بك نَشْءُ بلادك ؟ »

قال : « إني لأرجو ذلك . »

قلت : « وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشّرقية ومُساواتها بالرّجل في الحُرّيّة المطْلقة وبَعْثِها من هذه القبور التي تسمى المنازل ؟ »

قال : « ذلك مذهبي . »

قلت : « فكيف ترى إذا اقتدى بك المصريّون فأصْهروا إلى الأوروبيين وخلطوا الشّمل بالشّمل ؟ »

قال : « لعلَّ ذلك خير الطّبِّ لبلادنا ، فلا مَعْدِل عنه في رأيي ؛ إذ يأتيها بالدم الجديد ، ويُدْمِج في طباعها النّظامَ والدّقّةَ ، ويبني البيوت من داخلها . »

قلت : « أحسنتَ ، بارك الله عليك ؛ فكيف ترى إذا سألناك التّسوية ، وقلنا لك دع أختك تَصبُّ إلى رجل أوروبيٍّ وتتزوجْ منه إجارَة ، وتأت به إلى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك ، ثم لتفعلْ كلُّ امرأة مصرية فعلها ، فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون ؟ »

قال : « أعوذ بالله ! »

قلت : « فعل الله بك وفعل ! أ فيبلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنةَ الله إلا إذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حقَّ وطنك فيك إلا حين تراه غريباً مُنْقَطِعاً لا حقَّ له في واحد من أهله ، ولا تدرك واجب التّضحية بلذّاتك وشهوات نفسك إلا بعد أن ترى الوطن ، من اضطراب الموت ، في مثل حال الذّبيحة ، تَدْحَصُ [٤] برجلها تحت سِكّين الذّابح ؟ »

قال : « فما أنا وأمثالي إلا شذوذٌ من القاعدة التي يجب أن تبقى أبداً قاعدة . »

قلتُ : « فعليكم غضبُ القاعدة ومَقْتُها وسَخْطَتُها . واللهِ لأن تُفجَعَ البلادُ فيكم جميعاً وتستركم بالقبور رِمّةً بعد رِمّة خيرٌ من أن تتقلّد منكم بليّة الحياة في اختلاط الأنساب ، وارتداد الأسماء العربية عن دينها [٥] ، وكسادِ النّساء الشّرقيّات ، وتخنُّث الرّجال الشّرقيين ، وتدسُّس هذه العُروق الفاحشة اللّئيمة في ذُرّيّة الوطن . »

قال : « فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها ؟ »

قلت : « وكم من امرأة إفرنجية هي كَيّة [٦] على قفا صاحبها ؟ »

قال : « فماذا نصنع ونساؤنا جاهلات لا صبرَ عليهن ؟ »

---

(١) أي غاب عنهم ، تقول : لَبِثَ عن أهله كذا ثم أتاهم .

(٢) انكشف . * (٣) يتخذه أسوة . *

(٤) دَحَصَ الأرض برجله ، فحص وبحث وحرك التراب . *

(٥) يُسَمّون أولادهم أسماء يُنْكرها الدّينُ والوطن معاً .

(٦) هذه كِناية عن المرأة يسكت النّاس عنها أمام زوجها ، فإذا ولّى عنهم قالوا في ظهره ما قالوا ، و ... وكووا قفاه !

قلت : « أ فتزْهِق روحَك إذا مرضت أم تَطِبُّ [١] لمرضك في أناة وصبر ؟ وهل تفرُّ من وطنك إذا ابتلاك بتضحية أم تَثْبت وتتجلّد ؟ ثم ماذا أفدْنا من علومكم إذا لم يحمل كلُّ عالم منكم جاهلة منهن فيعلمها ويُثقِّفها ويُخْلِصُها [٢] إخلاصَ الذّهب الصّافي ويربح ثواب الوطن فيها ؟ وإذا كنتم تُهملون نساء بلادكم لأنهنّ جاهلات فحَدِّثني : أ فلا يزيدهن ذلك جهلاً وضياعاً ، ويضاعف مصيبةَ البلاد فيهن وفيكم ، ويكون تركهن الذي قد يُستَصْلَح سبباً لما وراءه من الفساد الذي لا صلاح له ؟

« وهل ترون المرأة الوطنيّة منكم إلا كالزهرة : نضرتُها في غصونها وأوراقها ، فإذا طَرَحْتَها غصونُها عملَ مَنْبَتُها الاجتماعي فيها – وهو التُّراب – حين تتّصل به عكسَ ما كان يعمل حين لم يكن يصل إليها إلا من فروعها وأوراقها غذاءً يحمل روحَ الماء وروح الشّمس ؟

« أما والله إنّكم فئة لا تُعَدُّ إلا في مصائب وطنها، وإنكم لكالأجنبي ، ما دام أحدُكم لا يَصِلُ أمومةَ أولادِه بتاريخ أمه ؛ وإنكم لكالغاضب ، ما دمتم تغصبون حتى نساء الوطن في رجال الوطن ؛ وإنكم لكالعَدُوّ ، ما دام كلُّ واحد منكم حرباً على بيت . ألا فدعونا من الجاهلين ؛ فقد يكون من بعض عذرهم الجهل ؛ ومن المتلصّصين ، فمن عذرهم الحاجة ؛ ومن المفسدين ، فمن عذرهم سوءُ التّربية ، ومن السّاقطين ، فعذرهم ضعفُ النّفْس ؛ ومن الخاملين ، فعذرهم التّرك والإهمال ؛ ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى ، فكلها مُسَوِّغَة أعذارَها المحمولة على مَحاملها ، وكلها أقرب إلى الدّهْماءِ [٣] منها إلى المتعلّمين ، وإلى أخلاط النّاس منها إلى الخاصّة ، وإلى السّفْلَة منها إلى العِلْية . ولكن ما عذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشّهوات واستهتاركم في هذه الأثَرَة ؛ يعجز أحدكم أن يَكْسر جِماحَ نفسه فيجني على نَفْسٍ من

نساء وطنه ، هي التي زهد فيها واستبدل منها ، وعلى نفوس من أبناء وطنه ، هم الذين سيُعْقِبُهم [٤] من ذرّيّته ويأتي بهم للبلاد أجساماً غابت قلوبُها ، ونفوساً بردت دماؤها ؛ ينزِعُهم العِرْق الأجنبي من أمّهاتهم اللائي ولدْنَهم إذا حَمِيَ دمُ البلاد لبعض أغراضها ، ويكونون في أمراضها من أسباب موتها ، وفي صحّتها من أسباب أمراضها .

« ما لكم تُنزلون أنفسكم مَنْزِلَةَ الطِّفل البِكر من أهله : ليس له إلا حظُوظه وشهواته ؛ مُسَوِّغاً كل ما يقترحه عليهم ؛ لأنه هو كان اقتراحَهم على الله ؛ محمولاً على قلوبهم ؛ لأنه بعض قلوبهم ؛ يُفسد المتاع ، ويَحْطِمُ الآنية ، وتنزو [٥] به النّعْمَةُ نَزْوتها فتجعل نصف عقله جنوناً ، ونصفَ أدبه حمقاً ، ونصف المنفعة به ضرراً ، ونصف ظَرْفِه عَنَتاً ، ونصف لينه مشَقّة ؛ ويكون خيرُه نصفَ الخير ، أما شرُّه فشرُّ اثنين ؛ فهلا كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده : يرى حقَّ ضَعفِهم أكبرَ من الحق الذي لِقُوّته ، و واجبَ مرضهم فوق الواجب لصحّته ؟ فهو يبذل سَعَةَ نفسه في ضيق أنفسهم ، ويحملهم صغاراً ليجعلهم كباراً ، ويصبر عليهم حَمْقَى ليجعلهم عُقَلاءَ ، ويرى عُمْرَه كأنه من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئاً ، وحواسَّه كأنها من بعض خَدَمِهم وما له غيرُ حواسِّه ، ويراهم كأنما جاءوا إليه من السّماء بعد أن اشترَوه من الله ، وباعه الله منهم بتلك النُّقطة الشّابكة فيهم من دمه .

« ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث بدلاً من هذه المواريث ؛ وجئتم بالسّماد بدلاً من هذا الوساد [٦] ؛ وبالبهائم للسّواني لا بالحَلائل [٧] والغواني ؛ وببضائع الحوانيت لا ببضائع أنطوانيت . وليتكم إذ كنتم رجالنا لم تَغْلِبْكم نساؤهم ، وإذ كنتم سيوفنا لم تأسِرْكم دماؤهم ؛ و يا ليتكم لم تَتَنَعّموا وتَتأنّثوا ، فكانت البلادُ تجد منكم أهلَ البأس؛

(١) تتداوى . * (٢) أخْلَصَ الشيء : أصفاه ونقاه من شَوْبِهِ . * (٣) عامة الناس .

(٤) سيخلفهم . * (٥) تطمح به . * (٦) الوساد : كناية عن الزّوجة نفسها ، والمواريث : كناية عنهن أيضاً .
(٧) الحَلائل : الزوجات ، والسّواني : جمع سانِيَة ، وهي السّواقي تدور فيها البهائم .

ولم تتعلّموا وتتخنّثوا ، فكانت الأرضُ على الأقل تعرف منكم أهلَ الفأس . »

* * *

ذلك هو الرّجل . أما صاحبته فامرأةٌ فرنسية ، جميلةُ الوجه في طَلْعَة الصُّبح ، شابّةُ الجسم شبابَ الضُحى ، مُتلَهّبةُ الأنوثة كشُعاع الظّهيرة ، رقيقة الطّبع رقّة الأصيل (١) ، زاهيةُ المنظر في مثل شَفَق (٢) المغرب من تألّقها ، ثم هي تنتهي من كل ذلك إلى مَخْبر أشدّ ظُلْمَةً من سواد اللّيل . ومن أين اعتبَرْتَها أَلفيْتَها رَذيلةً مُهَذَّبَة ، يترقرق فيها ماءُ العِلْم ، ويَجول في حُسْنِها شعاعُ الفلسفة ، كأنّها عينٌ فاتنة تدور فيها دَمْعَةُ دَلال .

ولم أكد أراها حتى أخذني جمالُها ؛ فإن لها عينين رُكّبَتا تركيباً يَجُرُّ المصائبَ على القلب ، تلقيان أشعّةً ضاحكةً أو عابسةً يُخْلَقُ منها للقلوب حوادثُ وتواريخُ ، وتَرْمي بنظرات تُبْرِيُ الصُّدورَ أو تُمرِضُها ؛ وتَبْسِمُ بوجهها كلّه نوعاً من الابتسام يكاد يسيلُ من كلّ ناحية في وجهها قُبُلات ؛ أما افترارُ شفتيها فهو جَمالٌ على حِدَة ، يُشبه نقلَ معاني الخمر من فمٍ إلى فم .

امرأةٌ ساحرة ، لا أدري إن كانت بُنِيتْ على السّحر أو على الحُبّ ، ولا إن كان هذا الحبُّ قد خُلِقَ لعنةً عليها أم هي خلقت لعنة عليه ؛ والحبُّ دائماً بَرَكَةُ امرأةٍ ولَعْنَةُ امرأة ! والتي تزرعه في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئاً ؛ فإن نالها شيء منه كان تعباً عليها رَوْحاً لسواها .

وأشدُّ ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة اجتماعُ شهواتها في صوتها النّدِيّ المستطرِبِ المتحزّن (٣) ، الذي لا يخلو أبداً من حرفٍ تسمع فيه هَمْسَ قُبْلَةٍ من قبلاتها .

بَيْدَ أني مع كل ذلك استَعْصَمْتُ بفلسفتي وحكمتي ؛ فلم أرها إلا في مثل حريرة التُّفّاحة إذا أفرطَ عليها النُّضْجُ فابيَضّتْ واحمرّت وفاحَتْ ولمعت، وإنّ العَفَنَ لَبادٍ من تحتها يُحَذّر منها ويُنْذِر ؛ وفي مثل فَرْوَة الدُّبّ : استرسلت و لانت في نعومتها ، ولكن لا منفعةَ منها إلا بقتلِ لابسها وإزهاق الحيوان كُلّه في سبيل الجمال الظاهر من جِلْدِه .

ونظرتُ إليها نظرة تخطّتْ بها الشّبابَ وأيّامَه فإذا هي بائسة أَمْلَقَ الدّهْرُ حُسْنَها (٤) وكان ذهباً على جسمها وفِضّة ، وإذا هي عجوزٌ هالِكَة قد انحنت تحت لَعَنات ماضيها ، وتركتها دنياها كالسِّجْن المتَهَدّم : لا يُذَكّر مع انتقاضه إلا بلُصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم ، وتَشْقَى بمعانيه بعد الخراب حتّى حجارتُه وحتى ترابه .

وأبصرتُ في هذه الحَسْناء اللّعوب التي تَسْتَوْقِدُها الضّحكةُ بعد الضّحكة — تلك الهامِدَةَ المريضة التي تُطْفِئُها الحَسْرَةُ بَعْدَ الحَسْرَة ؛ وسقطت الشّجَرَةُ الخضراءُ النّاميةُ فإذا في مكانها جِذْعٌ خَشَبِيّ مُلْقًى زَهِدَ فيه نورُ السّماء وطينُ الأرض معاً .

وتمثّلتْ لي هذه المتّكِئةُ على طِرازها وأرائكها تَتَبَرّجُ في سُنْدُسِها وحريرها ، فرأيتُها ممدودةً في حُفْرَتها مُسَجّاةً بأكفانها ، قد هِيلَ عليها ترابُها ، ولم يرحَمْها راحِمٌ ولا النّسيانُ يسترُ رذائلَها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عُشّاقِها مِن دود النّاس عُشّاقٌ آخرون من دود الأرض ؛ ويَفْنَى جسمُها حين يفنى ويبقى ضميرُها الرّوحيُّ إلى الأبد ضميرَ مومس .

فلمّا وضعتُ أمرَها على ما خُيّلَ إليّ مِن عاقِبَتِها ، إذا هي تفور كما يفور النّبْعُ القَذِرُ بالحَمْأة (٥) التي فيه ، وإذا هي كالخشبة المتّقِدَة في حريقها : من فوقها ظُلَلٌ من النّار ومن تحتها ظُلَلٌ (٦) ، وإذا جمالها قد استحال في عينيّ وانفصل منها فأظهرها وظهر معها في بريق الزُّجاجة من الخمر بجانب

(١) الوقت بين العصر والمغرب . *

(٢) بقيّة ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل . *

(٣) فيه نبرات الطّرب ونبرات الحزن .

(٤) أملق الدّهر حُسْنَها: أفناه وأفقرها منه ، كالإملاق من المال .

(٥) الحَمْأة : طين أسود مُنْتِن ، والأخلاق السّافلة هي حمأة الطّينة الإنسانية .

(٦) قِطَعٌ كقِطَع السّحاب .

السِّكّير المتحطّم ، تتساقط نفسُهُ مرضاً وسُكْراً ، فكل ما كان فيها [١] جمالاً فهو فيه أقبح القبح .

ورثَيْت لها أشدَّ رثاءٍ وأبلغه في الرّحمة والرِّقّة ، حتى عادت نظراتُها تقطر على نفسي دموعاً سَخينَة [٢] كدموع الذلّ ، و يا حَرّةَ [٣] قلبي من الإشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جَمْرَتها سوادَ فحمها ، وفي أسباب سرورها أسبابَ هَمِّها ! و يا لَهْفي عليها إذ أرى هذه الجميلة ، التي لم تنظر أكثر ما نظرت إلا إلى خطيئة ، ترفع نظرها أحياناً إلى السّماء بقوّة في داخلها ، كأنها تقول لمن يفهم عنها : إنّ هنا القَدر وهناك المقَدّر ! و يا بؤسها حين لم تَعُد تظهر في روحي إلا كما يَتَخايَلُ ظِلُّ القمر في الماء ؛ أنظر فيه الصّورةَ من غير معنى ، والضّوءَ من غير قَبَس ، وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر !

* * *

وألـمّتْ بما في نفسي ، وكانت تقرأ في وجهي قراءةً ؛ فإنه ليس ذو عينين ينكشف لعينيه سِرُّ العاطفة الذي يَترقرق في الدّم إلا مَن خالطَ القلوبَ وغلب عليها بخير ما في الخير أو شَرّ ما في الشّرّ ، فهو يَتَدَسَّسُ إليها مع ملائكتها أو مع شياطينها . وإنّما خُلِقَتْ هذه المرأة وأمثالُها في هذا الجمال وهذا الظّرْف وهذا الفساد لتستطيعَ أن تمزج الشّيطان بقلب من تَغْتَرُّهُ [٤] مَزْجَ المادّة بواسطةٍ بينهما من قوّةٍ ثالثة مُتَهَيِّئَةٍ لهما معاً ؛ فهي بجوهرها مُسَلَّطَةٌ على القلب غالِبَةٌ على أمْره ، كتسلُّط السّرور والكآبة وغلبتهما طَبْعاً بما فُطِرَ الإنسانُ عليه .

وقلّما لَصِقَ الشّيطانُ بقلبٍ ، ما لم تكن في هذا القلب مادّةٌ من اللّذّة أو الكآبة ؛ فكلتاهما كيمياءُ الخطيئة والمعصية والشّك . ولَرُبَّ عابدٍ زاهدٍ طاحت به كآبتُه فقذفته إلى النّار كما تقذف بالفاجر لذّاته ، فيلتقيان منها في غَمْرَة [٥] واحدة ، وإن كانا في العمل على طريقين مُتَدابِرَيْن . [٦] وما أشبه إسرافَ اللّذّةِ أن يكون الرّجاءَ اليائس ؛ فالمُستَهْتَرُ بهذه اللّذّة يَغلو في استمتاعه غُلُوّ من ظلم نفسه لا يتحرّج ولا يتورّع . [٧] وما أشبه إعْناتَ [٨] الكآبة أن يكون اليأس الرّاجي ؛ فالمبْتَلى بالكآبة يَجْفو عمّا عداها جَفاءَ من ظلم نَفْسَهُ لا يَتَسَمَّحُ ولا يَتَرَخَّص . [٩] و النَّفْسُ الغالية التي جاوزت قَدْرَها كالنّفس الجافية التي انحطّت عن قدرها : كلتاهما على طَرَفٍ يمين الشّرّ وشمالِه .

* * *

ونظرت إليّ تلك المرأةَ نَظْرَةً حَزّت في قلبي ؛ لأنها لا تسألني المدحَ وكذلك لا تريد مني الذّمّ . وبعد أن رضيت أن تسمع لي كأنها تقرأ كلامي في كتاب . و واثقتني على أن تعتبرني مُخاطِباً فِكْرَها دون شخصِها ، ومُحاوراً فلسفتَها دون تاريخها .

قالت : « أحسبك لست كغيرك من النّاس . »

قلت : « ولا أنا كالملائكة . »

قالت : « فتعرف الخطيئة الإنسانية وتقدِّرها قَدْرَها ؟ »

قلت : « وأعوذ بالله منها وأتحاماها . » [١٠]

قالت : « وتعرف ضعفَ الطّبيعة ؟ »

قلت : « ومعاندتَها وصلابتها أيضاً . »

قالت : « فكيف تراني ؟ أ لستُ نصف المسألة السّماوية على الأرض ؟ وهل أنا إلا معنًى مُتَجَسِّم من معاني القدَر ؟ وهل خرجتُ من سُلالتي إلا كما خرجت الخمرةُ من عناقيدها ؟ وهل خُلِقْتُ جميلةً غالية كالدّينار إلا لتُشتَرى بي بعض أوقات السّعادة ؟ »

---

(١) أي الزُّجاجة . (٢) حارّة . * (٣) العذاب الموجع . * (٤) تطلب غِرّته وغَفْلَته لتغلبه على فضيلته وعِفّته. (٥) الغَمْرَة : موضع أكثر النّار .

(٦) أي مُخْتَلِفين مُتَناقِضَيْن . (٧) لا يمتنع من حَرَج أو وَرَع ، ولا يَرْعى قانوناً ولا ديناً . (٨) إرهاقها وشدّتها على النَّفْس . (٩) لا يتساهل فيما لا بُدَّ منه لنفسه ، وفي الحديث الشريف : « إن الله يُحِبُّ أن تؤتى رُخَصَهُ كما تؤتى عزائِمُهُ » أي المباح والمفروض معاً .
(١٠) أتجنّبها وأتوقّاها . *

قلت : « أمّا المسألةُ السّماوية فإن كنتِ نصفَها فقد كان الشّيطانُ نصفَها كذلك ، وأمّا القَدَرُ المتجَسّمُ فلعلَّ الحريقَ في بيت مَن نُكِبَ به أجملُ وأخفُّ احتمالاً ، وهو مع ألوانه الفَنّيّة حريق ، ولا يُسَمّى أبداً إلا حريقاً ؛ وأمّا الخمر فهل هي إلا عُفونَةٌ أسكَرَتْ لأنها عفونة ؛ وأمّا الدّينارُ الذي تُشتَرى به أوقاتُ السّعادة فهو نفسه الذي يُغري اللصوص ويُوجِدهم . وإذا كانت هذه السّعادة – كما تصفينها – في نشوة الخمر ، فهل تُشتَرى الخمرُ إلا وفيها سُكْرُها ومَرَضُها وجُنونُها ؟ »

قالت : « فحدثني لِمَ كان الحبُّ إذن ؟ وهل خُلِقَ إلا للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق ؟ »

فقلت : « إنما خُلِقَ الحبُّ قوّةً ليُقَيِّد بقيوده كسائر القوى الطّبيعيّة . فأنتِ تَصْدَعينَ[1] عنه كلَّ قيوده وتتّخذينه تجارةً في النّفوس ، فلا تَرُدّينَ يَدَ لامِس ، ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها ، وبذلك تجرين مجرى القُوّة المدَمِّرة ؛ ومن هنا كان لك في الاجتماع الإنسانيّ شأنٌ ليس كشأن المرأة ، بل كشأن المادّة . وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منكِ منزلة المطافئ المعَدّة للحرائق ، وبعضها بمنزلة السّجون المرْصَدَة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيّأ للتّاريخ السّيئ . وما ظلمك الاجتماعُ في شيء لأنك أنت في نفسك ظُلْمٌ له ، وإنّ الدّواء الذي يُبْرِئ من المرض لا يُعَدُّ مَرَضاً للمرض . وأهْونُ بذلك إذا عُدَّ ما دام يُبْرِئ من العِلّة ؛ فإنّ دَرْءَ المفاسد قبل جَلْب المنافع ، ودرء المفْسَدَة هو في نفسه منفعة . »

قالت : « فكأنّك تذهَبُ إلى القول بأنّ مَثَلي مَثَلُ العقرب والحيّة وغيرهما مما لَدَغَ أو نَهَشَ أو سَمَّ ، وأنّ دَأبي في الاجتماع كدأبها ، فليس لها إلا القتلُ حيث وُجِدت ؛ ومَثَلُ الأوبئة والحميات وما قتل وما أعدى ، فليس إلا مُدافَعَتُها أو الفِرارُ منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها ؛ وكأني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة ، بل كحيوان للأذى والمَقْت والخوف ؟ »

قلت : « بل مخلوقة مثل كلّ امرأة كانت وكلّ امرأة تكون أو هي كائنة ، ولكن فيكِ من الزّيادة عليها زيادة ماء السَّيْل على ماء النّهر ، وزيادة الحِدّة على الطَّبْع الرّزين ، وزيادة الطَّيْش على العقل . أ فإذا طغى النّهْرُ فأفْسَدَ وخَرّبَ ، وفارَت النّفْسُ فحمُقَت واعتدت ، وطاش العقلُ فزلّ وأخطأ – نهض ذلك عندكِ عذراً في وجوب التّخريب والاعتداء والخطإ وتسويغها ، و وجب من ثَمّ أن تعتدل هذه الصّفاتُ الجائرة على قلوب النّاس ، وأن يطمئنّوا إليها ويرضوها مُذْعِنين ؛ فلا يقيموا على النّهر العاتي جبالاً من السُّدود ، ولا يجعلوا للنّفس الطائشة سجناً من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم : إن كان عندك الفرارُ فعندنا القيود ؟ »

قالت : « كلا ، ما تَبْلُغُ بي الغَفْلَةُ هذا المبْلَغَ ، ولقد درست وبحثت ، وفي هذا الرّأس ما في رأس رجل عالم فلا تظنّ غيره ؛ ولكني إنْ أجْن لا أجْنِ إلا على نفسي ، وهي لي وحدي وأنا حُرّة كيف أتولاها . أ فأنت رادّي إلى العبوديّة ؟ »

قلت : « أنت حُرّة ما شئتِ وما وَسِعَتْكِ الأرضُ إذا كنتِ لنفسك ، وإذا كنت لا تتّصلين بأحد من النّاس اتّصالَ العِلّة المهْلِكَة أو المعجِزة أو المذْهِلَة ، أو اتّصال الرّذيلة السّامّة بالدّم النّقيّ . »

قالت : « فإني لا أتّصل بأحد ، ولكنّهم يُغْرَمون بي ويتنافسون عليّ ؛ فأجد في تنافسهم لذّة من أمتع لذّاتي . »

قلت : « وكذلك تَرْدِمُ الحفرةَ إذا اعترضت طريقَ السّابلة وقايةً لمن عساه يَغْفُل فيعثُر بها ، فإن بلغتِ أن تكون هاويةً طبيعية لا حيلة فيها ومَرَدَتْ[2] بها طبيعتُها المنْخَسِفَة ، ميّزناها بالعلامات ، وضبطناها بالحدود ، وسمّيْناها بالأسماء ، وجعلناها آيةَ التّحذير من الهلاك حتى لا يَزِلّ أحدٌ فيتردّى فيها . وإذا كان من لذّتكِ أن تشهدي اقتتالهم عليك ، فهذا حسبكِ في أن تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنتِ ولا جَرَمَ في لغة

(١) تكسرين وتحطمين . *

(٢) عتت وعصت . *

الاجتماع من بعض معاني الشّقاء والتّعاسة .

« ثم إن في تلك اللّذّة منك دليلاً حيوانياً على أن في طَبْعكِ من إناث البهائم الشّاردة التي تقف لِيَتناحَرَ عليها ذكورُها وقوفَ المَمْلَكَة المباحة تنتظر المنتصِر ؛ فتقتل بإباحتها كلَّ النفوس التي زَهَقَتْ حولها ، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن شيء من ذلك ؛ فكنتِ ولا جَرَمَ في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمة . »

« ثم إنَّ هذا وذلك فيك نذيرٌ بانقلاب الإنسانية ونزولها دون حَدِّها ، وتراجُعها في سبيل الجاهلية الأولى ، واتّصالها من كل ذلك بوحشيّتها الغابرة كأنْ لم يكن عِلْم ولا دينٌ ولا تهذيب ؛ فكنتِ ولا جَرَمَ في لغة الاجتماع من بعض معاني الرّذيلة والسّقوط . »

قالت : « هم لا يَتناحرون عليَّ بأنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونهم ، وإنما يفعلون ذلك بأموالهم . »

قلت : « فلا جَرَمَ كنتِ بهذا في لغة الاجتماع معنًى من معاني السّفَه والفقر والخراب . »

قالت : « ولكن كم من رجل أحبّني فرأى فيَّ آيةَ الإبداع الإلهي ، فكان لا ينالني إلا كما ينال المؤمنُ لَذّةَ قلبه . »

قلت : « فمنذا أبدع الأصنام وسلّطها على الهوى ثم سلّطها بالهوى على كهنتها وعابِدِيها ، فما يرون الحجرَ المعبود حجراً إلا لأن عليه بناء مَلَكوت السّماوات ، ولا البقرةَ المؤلّهة بقرةً إلا لأنها تجرُّ مِحْراث الوجود ، ولا الحشرةَ المقدّسة حشرةً تدبُّ دبيبَها البطيء إلا لأنها تحمل الخليقة . لا جَرَمَ كنتِ بذلك في لغة الاجتماع معنًى من معاني الضّلالة . »

قالت : « أ تحسب أنك أعييتَني في مأخذ الحُجَج واستنباط البراهين ؟ »

قلت : « فماذا ؟ »

قالت : « إني أعُدُّ الزّواج أسراً واستعباداً ، وقد بلغت من العلم مبلغاً لا أرى فيه أن تكون حرّيتي محدودةً بسلطة رجل بين كلمتي : لا ، ونعم ، فآثرْتُ أن أتخلّص من الحبِّ بالوقوع فيه لأعرفه ، وعرفته لأتّقيَه على نفسي ، وأتّقيه لأبتليَ به ولأصَرِّفه في منافعي ؛ فليس لي في الاجتماع زوج ولكن ليَ الحبّ ، وليس لي فيه أهل ولكن ليَ الجمال . »

قلت : « أ فلا يتسلّط على حُرّيّتِك الدّينار والدّرهم؟ وإذا أنت بقيتِ للجمال فهل الجمال سيبقى لك ؟ وإذا كانت لك مُدّةٌ في الحبِّ فهل هو خالد عليك؟ أ لا ترين أنك تزرعين في أيّام الحبِّ بذورَ أيام الحسرة ؟ وأنك متى كبرت عن سِنِّ المرآة [1] فستنتهين لا مَحالَةَ إلى أمَدٍ من العمر يُخيِّم عليك في مُظْلِمةٍ كالقبر لا نهار فيه ولا ليل ؟ وهل أنت من المجتمع الإنسانيّ إلا مَقامَ الصّبيِّ من أهله ؛ إذ لا مذهبَ لك من دونه ولا غَناءَ في نفسك إلا به ؟ أ فترين للصّبيِّ أن يَتفَلّتَ من نظام أهله ويتحلّل من آدابهم ثم لا تكون وسيلتُه إلى ذلك إلا أن ينقلب لصا ، بيتُهُ بيوتُ النّاس جميعاً ، فليس له في الاجتماع مال ولكن له السّرِقة ، وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة ؟ بذلك ولا جَرَمَ كنتِ في لغة هذا الاجتماع معنًى من معاني السُّخرية والمَقْت . »

قالت : « فأنا في الاجتماع تعاسة ، وبَهيمةٌ ، ورذيلة ، وفقر ، وضلالة ، وسخرية . ولكن ، أ لستَ ترى هذه الصّفات بعينها في كل النّاس ، على بعض التّفاوت في مقاديرها ، والتّنوُّع في أشكالها ، والاختلاف في أسبابها ؟ وهل الرَّجُل الفاجر إلا كالمرأة الفاجرة ؟ »

قلت : « لقد فَجَرَ من الرِّجال من لا تحصيهم الملايين ، فهل علمت أن فاجراً منهم حَمَل تسعة أشهر و وضع ؟ أ لا ترينَ أن الطّبيعة جعلت لكلٍّ حُكْماً وهيأت لكلٍّ موضعاً ؟ وهل سواء في طبيعة الألم وخطره وعاقبته على الحياة أن يكون الدُّمَّل على ظاهر الجلد ، حيث يتلذّع على نفسه ويُرى ويُحَدُّ ، وأن يكون في باطن الجوف حيث يُخْشى منه

(١) سِن المرآة : كناية عن زمن الجمال ؛ إذ هو العَهْد الذي تتّخذ له المرآة حتى لا غنى لجميلة عنها .

على غيره أكثر مما يُخاف على موضعه ؟ »

قالت : فكأن الرّجل عندك أطهر فجوراً من المرأة ؟ »

قلت : « بل هو هي في اللّعنة والسُّقوط ، والنّعْلُ أخت النّعْل ، والتناهما على طِراقٍ واحد [١]، ولكنه إن لم يكن أعقلَ من المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها ؛ وإن يكن أقدرَ في قوّته فهي أقدر في عواطفها ؛ وإن يكن في البَلِيّة عودَ الثّقاب [٢] فهي بعدُ الحريق كله ؛ ولذا كان من الطّبيعي أن تُحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية الكبرى ؛ إذ كانت هي الغرضَ الذي تمثّله القِسِيُّ الرّامية [٣] ؛ فهي في معنى الكمال الأصل لأنها الأمومة ؛ وهي في العِفّة الأصل لأنها الزّوجية ؛ وهي في الحياء الأصل لأنها العِرْضُ ؛ وكذلك هي الأصل في المعركة الجِنْسيّة لأنها المقاومة والمدافعةُ للرّجل ؛ والأصل في الفضيلة الإنسانية لأنها المَنْشأ والمَرْبَى للطفل ؛ والأصل في الشّرف الاجتماعي لأنها المثال الأدبي للجميع ؛ ومن ثمّ كان سقوطُها سقوطاً لهذه المعاني كلّها ، فهو تَهَدُّمُ الأساس لا الحائط ، وفساد الجِذْع لا الفَرْع ، وعِلّة نَفْس الاجتماع لا علة جسمه .

« هيهاتَ هيهاتَ ، فلن تشعر المرأةُ السّاقطة إلا شعورَ مَن فقدت نفسَها التي كانت نفسَها وبُدِّلَت أخرى لا تلائمها ؛ فهى أبداً هائمة وراء نفسها الأولى ، تبحث عنها ولا تنساها ؛ لأن ذلك الأصل الطّبيعي لا يزال يُناجيها في قلبها بلغة الأمومة والزّوْجيّة والحياء والفضيلة . وما نفسُها الشّريفة إلا جوابُ هذه اللّغة وهي ليست فيها ، فكأنّها تحمل على حياتها أربعَ جرائمَ في جريمة ؛ هي أشقى النّساء ، ترى في ذات عقلها البرهان العقلي على أنها امرأة ساقطة . »

* * *

فتغرغرت عيناها بندًى رقيق من الدّمع وقالت : « لمّا كنتُ فتاة ... »

فقطعت عليها الكلام وقلت : « في تلك الفتاة كلُّ البراهين فسَلِيها ؛ إنها هي نفسك الهاربة منك . »

فوَجمت هُنَيْهَةً لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهمالاً ، وجاءها الدّمعُ الطّاهر يجري من أقصى الطُّفولة ؛ فخالطني بَثُّها [٤] وحُزْنُها كأن دموعَها تسقط على مواقعَ من نفسي ، فقلت : « أ تأذنين في كلمة ؟ »

قالت : « بل أسألك أن تتكلّم ؛ فإن مدامعي هذه عرضت لي كالمطرة السّانحة في حَميم القَيْظ من صميم الصّيف على أرض مُغْبَرّة مُقْشَعِرّة تثور سُخطاً على كل قدم تَطؤها ؛ وإن فكري ليُكَلّمني السّاعةَ بلسانك كما يَدوي النّاقوسُ بصوته العالي الرّنّان ، بعد أن كان هذا النّاقوس مُخْتَنِقاً فيّ بما يُطيف به من الضّغط ؛ فكان لا يدقُّ إلا دقاتٍ مُصْمَتَةً لا رنين فيها كأنّه ناقوس من الخشب .

« آه ! لقد كنتُ كالغدير الصّافي : لا يَعرف ماؤه إلا وَجْهَ السّماء وضوءَ القمَرَيْن [٥] وأخْيِلة النُّجوم وظلالَ الشّجر والنّبات ، فأصبحت كالماء الذي كثرت وارِدَتُهُ من البهائم ، فهي تَخْتَبِطُهُ [٦] بأرجلها وتُضيف إلى وحوله وُحولَها ، ولا تَستَعْذِبُهُ إلا أن تُغَشّيَ أعلاه بطبقة من أسفله [٧] ، وكلما تراءت صورها في كُدورَة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية ، ولا تعلم أنه يَلْعَنُها بإظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تَعي .

« أ يحسبون أن قلبَ المرأة حين يُشترى بالمال يكون أطهرَ من خِرْقَة قَذِرَة تتناولها يدٌ أقذر منها ، أو أثمن من فُتاتِ مائدة يُتْرَك لحيوان أعجم ؟ أ لا إنّ قلب المرأة لا يُباع أبداً ، وإنّما هي حين تبيعهم :

(١) أي قطع واحد ، يُقْطَعُ جِلْد إحداهما على قدر الأخرى .

(٢) عود الكِبْريت ، وهو قِدْحَة من الحرِيق .

(٣) أي ترميه وتَستهدفه وتُسَدّد إليه .

(٤) البث : الحال ، وكذلك : أشدّ الحزن . *

(٥) الشمس والقمر . *

(٦) تضربه ضرباً شديداً . *

(٧) كذلك تفعل البهائمُ في الماء الصّافي إذا وَرَدَتْهُ ، فتخبطه بأرجلها .

تبيعهم مَعِدَتَها باسم القلب . إنك إن لم تأخذ القلب هِبَةً ممن تحبّ فما أنت من حبها في (خُذ) ولكن في (هات) وأخواتها .

« يحسب النّاسُ أنه لا تُفرِّط امرأةٌ في الحبِّ ما تفرِّط المرأةُ السّاقطة ، وما علموا أنّها لا تجد الرَّجلَ فتجدَ الحبَّ . إنّما الرِّجال في عين هذه المرأة رجالٌ مصنّوعون ، فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كلُّ رجل إغضابَها ؛ لأن صناعتها إرضاءُ كلِّ رجل . ولعلَّ هذا من رحمة الله بها ؛ فإن أكبر شقائها أن تَجْمَعَ الأقدارُ بينها وبين رجل تحبه وتَسْتَهيم به ؛ إذ تألم لذلك ألمًا خاصا فيه تَهَكُّم الرَّذيلة والفضيلة معًا. إنّ هذا الرَّجل هو البطل الفَذُّ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذي اطَّرَحَها ونبذها ، فهو عندها يَغْمُرُ [(١)] النّاسَ أجمعين ، ولكنّها قلّما وجدته إلا لتعرف به حقيقة عارها . وإذا قدِّر للأعمى أن يُبْصِرَ ساعةً واحدة ثم يرتدَّ إلى ظلامه ، فما أبْصَر ولكن تَضاعف له العمى !

« المرأة السّاقطة يائِسَةٌ من البُعُولة ، [(٢)] وذلك عقاب حياتها ، ثم هي لا تندفع إلا في الطَّريق التي تَكرهها ، وذلك عقاب نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيدها بلاءَ الحب الذي هو عِقابُ شرفها وفضيلتها ؛ فإن ابتُلِيَتْ به فقليلاً ما يتّفق ذلك ، حتى إنّ السّاقطة العاشقة عِشقًا صحيحًا وتبقى ساقطة أنْدَرُ وجودًا من البَغِيِّ التّائبة توبةً صحيحة وتبقى بَغِيًّا . »

* * *

يا عجبًا لضمير المرأة يضلُّ في ليل دامِس من ذُنوبها ثم تلمع له دَمْعَةٌ طاهرة في عينيها فتكون كنَجْمَة القطب ؛ يعرف بها كيف يتّجه وكيف يهتدي وكيف كان ضلاله . وكأن الله ما سلّط الدُّموعَ على النِّساء وجعلها طبيعيّة فيهن إلا لتكون هذه الدُّموع ذريعة من ذرائع الإنسانيّة تحفظ الرِّقَّة في مثال الرِّقَّة ، كما جعل البحارَ في الأرض وسيلةً من وسائل الحياة عليها [(٣)] تحفظ الرّوح والنّشاط لها.

(١) يكون فوقهم ويُغطّيهم في نظرها واعتبارها. (٢) الزّواج.
(٣) لولا الماء المِلح في هذه البحار على الأرض لتَعفّن جَوُّها .

ثم قلت : « كانت المرأةُ نصفَ الإنسانية فصارت ربعها . »

قالت : « وكيف ؟ »

قلت : « أ لا تَرَينها انقسمت في هذه المدنيّة إلى قسمين متناقضين : الزَّوْجَةُ والـ ... »

قالت : « حَسْبُكَ ، خُذْ في غير هذا ، فقد أبْثَثْتُكَ ذاتَ نفسي ، وما ينفعك ولا ينفعني أن تَنْقض السُّور الذي أقَمْتُهُ حولَ حقيقتي ؛ فإنّ كل قُوى الكون عاجزة عن إرجاع ورقةٍ واحدة انتثرت من زهرتها . »

ثم وَثَبَتْ إلى البِيانة [(٤)] فصَدَحَتْ عليها بلحن من ألحانها ، كان صرخة من ضميرها صاعدة إلى عرش الله في صوت الإنسانية الباكي ، ثم ابتسمتْ وسلّمَتْ ، فانصرفتُ وكأني ما تكلّمْتُ ولا تكلّمَتْ ، وبقيتِ الأقدارُ مكانَها فما تأخّرَتْ ولا تقدّمتْ .

* * *

ليس على الهاوية أرض تغطّيها ؛ فهل تغطّيها الفلسفة ؟

وقد خسَف [(٥)] بها قلبُها في الأرض ، فهل تُسَوّيها الحُجَجُ والمعاذير ؟

ولو كانت الحَصْباءُ فيها بين لؤلؤة وزمُرُّدة وياقوتة ، فهل من يدقُّ عنقَه في الهاوية ليموت على أرض من الجَوْهر ؟

الهاوية في الطبيعة ، والسّاقطة في الإنسانية : كلتاهما أرض كالمرأة وامرأةٌ كالأرض .

وكذلك يُخْلَق الطَّيِّبُ والخبيث : « لِيَميزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ . »

(٤) هي (البيانو) وقد استعمل بعضُهم في ترجمة هذه الكلمة : المِزْهر (بكسر الميم) وإنّما هو العود ، واستعمل بعضهم (المِضْراب)، وإنّما هو ما يُضرَب به ، كمِضْراب العود . وجعلها بعضُهم البِيان (بكسر الباء) ، وليس فيها تماسك ، والبِيانة في رأينا أخفُّها وأصحُّها وأفصحها .

(٥) خسف المكان : أي ذهب في الأرض .

الفَصْلُ الخامِسُ
المنافِق

وهذا فلانٌ المنافق ، لا يرى في الحبّ أكبر من باء تتنافق للحاء ، فهي تنزل عن تقديمها وتتأخّر للمتأخّر [١] ، كما يَنْحَطُّ الرَّجلُ العاشق عن رتبته ويُقَدِّم على نفسه المرأة ، وعنده أن هذا برهان طبيعي على أن الحبّ من غير نفاق هو حبٌّ من غير حبٍّ ؛ فالنّفاق هو الأصل وحَسْبُك به .

أعرف هذا الرّجل كالحائط المبهَم [٢] : من أين جئتَه استغْلَقَ عليك ورأيته رَدْماً [٣] واحداً ، فلا مَنْفَذَ لك فيه إلا أن تكون قنبلة آدمية في القوّة والشرّ ؛ لأنه رجل المادّة لا غيرها ، وهو كالمرأة الغادِرَة : حبُّها الرجلَ كلمةٌ على طرف لسانها ، ولسانها عملٌ في طريق مَنْفَعَتِها ، وهو كاللّصّ : حبُّه المالَ حاسّةٌ في يده ، ويدُه على ما يملك النّاس .

لونُه في الحوادث ألوان ، ودِينُه في المنافع أديان ، ونفسه من النّاس حَشَرَةٌ في إنسان ؛ وإذا عَرَفْتَهُ نظرتَ إليه كما ينظر المهمومُ لما جرَّ عليه الهمّ ، وإذا جهلتَه كان كالدّواء المغشوش ذهب منه صوابُ العلاج و وقع فيه خطأ السُّمّ .

والمنافق هو سياسيُّ الحُبِّ والصّداقة : يضع المنفعة بين عينيه ثم تتوزّع على جوارحه كلُّ أساليب الكلام والحركة والعاطفة ، فلا مَخْرَجَ لك من عُقْدته إلا أن يَعْقِدَ هو بأسلوب وتحلّ أنت بأسلوب آخر ؛ وترى صداقته تنتهي أكثر ما تنتهي إلى مثل المقاطَعَة الحربيّة بين فراعنةِ السياسة وشياطينها : يرمي الدّاهيةُ منهم داهيةً آخر « بإنذار نهائي » حاسمٍ يحمل الزّلازل في كلماته ، وينصب للحساب ميزانَ الهوان والهلاك ، ثم يقول له في آخره : « وإني أغتنم هذه الفرصةَ لأؤكّد لكم احترامي الفائق » !

ولن تجد شرًّا من هذا الأسلوب يَنْتَحِلُه رجل ، إلا الأسلوبَ عينَه تنتحله امرأة .

* * *

واللهِ الذي لا إله إلا هو ، ما رأيت كالمنافق رجلاً ، إلا ذلك الواقفَ يُدير وجهه بين مَرائيَ عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجهٌ ، ويتعدّد الرّجلُ وهو شيء واحد .

يخلق اللّه كلَّ شيء ليكون شيئاً على الأصل البيِّن الذي خلق عليه ، وللأمر الميَسَّر الذي خُلِق له ، وهو صريح واضح من جهتيه ؛ فالأشياء في الطّبيعة هي ما ظهرت به مشيئة الله ، تضرُّ لأنها ضارّة ، وتنفع لأنها نافعة . ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئةُ الله فيه ؛ فهو من ناحية الإنسانية مخلوق للنَّفْع فضرّ ، ومن جهة الحيوانية خُلق للضُّرّ فنفع ، وفي الرّذيلة خُلق تلويناً للرّذيلة ، وعند نفسه خُلق لأنه خُلق ! فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين ؛ فهو دائماً في نفاقه مُخْتَلِف على السّرّ والعلانية ، وعلى المذهب والغاية ، وعلى المدخل والمخرج ، وعلى القول والعمل ؛ ومختلفٌ حتى في كونه مختلفاً أو مستقيماً .

ولو مدَدْتَ عينيك في عينيه لرأيته يتخاوَص [٤] لك بإحداهما ، كأنك أبيض من شعاع الشّمس وإن كنتَ قد خرجت من مصنع التّجليد الإلهي في جِلْد أسود ؛ إذ تأبى إحدى عينيه على كل حالة إلا أن تُنافق ليظهر النِّفاق عليها . وهو من الذين يَمكرون السيئات [٥] لينتهوا منها إلى حسناتهم ، ويُقاربون الذّمّ ليخلصوا منه إلى الحمد ، ويَسْفُلون ليرتفعوا ، كما يتدئ المِقْلاعُ [٦] دوْرتَه من الأسفل ليرميَ بحجره رميةً عالية . ومهما انتحلوا من العِلل واختلقوا

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء .

(٢) الذي ليس فيه باب ولا نافذة .

(٣) ما يسقط من الحائط المتهدّم ، والمراد كومة واحدة . *

(٤) يقال : هو يُخاوص ، ويَتَخاوصُ : إذا غَضَّ من بصره شيئاً وهو مع ذلك يحدق النَّظر ، أو إذا نظر كما ينظر في عين الشّمس .

(٥) يتحرّون الأفعال السيئة ويقصدونها .

(٦) آلة تُرْمَى بها الحجارة . *

من المعاذير ، وقولهم إن ذلك سياسة ومُخالَقة [١] ، وظرف وأدب من الذّوق ؛ فهم لا يأتون كل ذلك إلا لأن كلّ ذلك - عَلِمَ الله - هو النِّفاق .

ويا ليت علمَ الأخلاق كعلم الجغرافيا ؛ إذن لكان له من وجوه المنافقين مُصَوَّراتٌ ملوّنة ، ولاضطرّ العلماءُ أن يجمعوا من بعض السّادة الكُبَراء مجاميعَ ويقيموا لهم مَعارض . وتلك حقيقة لم يفطن لها عَلّامة القرود الفيلسوف (داروِن) ، ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعةٍ أقبحُ ما فيها وجوهُ عُظماء النّاس ؟

* * *

إنّ المنافقين من العامّة وأشباه العامّة ، بجانب المنافقين من الخاصّة وأشباه الخاصّة ، لكالشّرر يتطاير عن الجمر : إنْ هو لذَع لم يُحْرِق ، وإن لم يلذع انطفأ ؛ فإن خبثت منه شرارة جهنمية وتلذّعَتْ و وقعت فيما تستوقده وردّته حريقاً ، فما يجيء ذلك من كونها شرارة كبيرة ، بل من كونها جمرةً صغيرة ؛ فالشّأن إذن في هذا الجمر الذي يَتَلظّى بمادته ؛ لأن له مادّةً استفادها من عناصر الأرض واجتمع منها غذاءُ النّار فيه ، كما يفيد أولئك من المال والجاه والعلم والأدب وما إليها ؛ وإنّ شرّ النِّفاق ما داخَلَتْهُ أسبابُ الفضيلة ، وشرّ المنافقين قومٌ لم يستطيعوا أن يكونوا فُضَلاءَ بالحق فصاروا فضلاءَ بشيء جعلوه يُشْبِهُ الحَقّ .

ولعلّ هذا النِّفاق هو أصغرُ رذائل الصِّغار وأكبر رذائل الكبار ؛ لأن للحاجة في أولئك شِرْعَةً ومِنْهاجاً ، وللضّرورة أحكاماً وقانوناً . فالعاميّ حين يُنافق لِكبير مِن العظماء ويتخضع له إنّما يُوازِن بين ما يعرفه في ذات نفسه من الصِّغار والضِّعة ، وبين ما يتوهّم في صاحبه من الغَلَبَة والقَهْر ؛ فهو يترقّى إليه ليدنوَ منه ، أو يترقّى إلى خديعته [٢] لينالَه ، أو يترقّى إلى كبريائه ليأمنه ؛ ثم هو في كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضّرورة ، ولو اعتبرتَ الرّجلين على الحقيقة و وزنتهما في ميزان الأسباب ، لرأيتَ المنافقَ منهما مَن لم ينافق ؛ لأن ما لا يُخاض إليه إلا في الوحل لا سبيل إليه إلا من الوحل ، وذلك العظيم رجلٌ بناه النِّفاقُ فجعل بابَ نفسه عند قدميه ، فإذا أردت مِفْتاحَ هذا الباب فاخْفِض رأسَك ، ما من ذلك بُدٌّ .

غير أن نِفاق الكِبار للكبار شيء أكبر من النِّفاق في نفسه ، وإنما سُمِّيَ به تسامُحاً وتجوُّزاً ؛ أو لأن اللغة تُنافِق هي أيضاً ؛ وإلا فنِفاقهم إن كان صدقاً فأكبرُ فضيلته الكذب ، وإن كان حقيقة فأعظمُ أدلّتِها الوهم ، وإن كان علماً فأكبرُ شرفِه الجهل ، وهو التّخَشّع ينقلب ضرباً من العبادة ، وهو الوصف المزوَّر يرجع نوعاً من الخَلْق الذي لم يخلقْه الله . ثم هم طبقات ، ولكلٍّ نفاقها ، ولا تدري أعلاها أسفلُها أم أسفلها الأعلى ، ولكن الشرّ دائماً بالجُمْلَة ، وهم في الجملة يَتَخَلّقون ويتصنّعون بما نعرف وما لا نعرف. والكبراءُ هم موضع الفَصْل والوَصْل في بلاغة الاجتماع ، وكل رأس منهم فهو كرأس الشّارع : لا بد لك أن تلتوي أو تنحرف إذا أنت بَلَغْتَهُ ، فإمّا أرسلك في طريق خير أو شرّ . وإذا كان هذا فإنّ كل واحد من كبار المنافقين ومنافقي الكبار هو على التّحقيق نقطةُ انقلاب في أخلاق مَن حوله من النّاس.

* * *

إنّ مادّةَ حوادث التاريخ هم أولئك العظماء ؛ فإنّك لَتَجِدُ الرَّجل العظيم - في أخلاقه العالية وسجاياه الكريمة ، وفي تأثير هذه الأخلاق والسّجايا على الناس - أشبهَ بالفَتْح التّاريخيّ المبين ، وبالنّصر القويّ العزيز ، ويكون الرّجل إنساناً ولكنّه تاريخ ، وتجد إلى جانبه المنافق العظيم - في أخلاقه السّيّئة وطباعه اللئيمة ؛ وفي تأثير هذه الأخلاق والطّباع على الناس - أشبه بتاريخ ضَرْبةٍ من ضربات الله [٣] ، أو مَجْزرة من مجازر الحروب ، ويكون إنساناً ولكنّه على ذلك تاريخ .

(١) مجاراة كل إنسان على أخلاقه .

(٢) يتسبّب لما يخدعه ، من شيء إلى شيء .

(٣) ضربات الله : الأحداث الكبرى في الناس كالطوفان والأوبئة وغيرهما .

ولا أعلم في هذه الدُّنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر ؛ إذ الموجودات كلّها مَبْنِيَّة على التحليل والتَّركيب ؛ وهذا النّفاق في أصله مَبْنِيٌّ على الكذب السّافل ، فإذا خرج منه شيءٌ خرج منه الكذب العالي . فترى السِّياسيَّ يُبالغ في النِّفاق ويزعم أنه يتكلّم بلسان المستقبل ؛ وينافق الأديبُ فيقال زُخْرُفٌ من القول ومبالَغة في البلاغة ؛ ونفاق ذي السُّلطة تَواضُعٌ ؛ والنِّفاق من العالِم مَسْلَك من دقائق علم النَّفْس ؛ ومن الغَنِيِّ مالٌ يجذب مالاً ؛ ومن السَّفيه اللَّئيم شرٌّ يطلب خيراً ؛ فإن هو كان من امرأة قيل حبٌّ ، أو من طفل قيل تحبُّب .

وكما تُرَدُّ المُرَكَّباتُ كلُّها إلى أجزائها المفرَدَة ، فإنَّ نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطِّفل الصَّغير ، كما يَنْبَثِق النَّهرُ العظيمُ على مدِّ مجراه من المنبع ، وينتهي إلى مَصَبِّه وقد جمع من أقذار طريقه على طول ما يمتد . فنفاق الطِّفل يكون في أصله مكافأةً عن محبَّة أهله وذويه ، ثم يكبر فيصبح تَوَدُّداً إليهم ، ثم يعظم فينقلب حيلةً يحتالها العقلُ الصغير ليُخْضِعَ بها العقلَ الكبير لِهَناتِه وهَنَاتِه ؛ ثم لا تزال تُداخله بعد ذلك الأهواءُ والشّهوات حتى يَنْعصِرَ نفاقاً فإذا هو ما هو .

بَيْدَ أنَّ ما يكون من نفس الطِّفل يكون مَعْفُوّاً عنه في الأغلب ، كأنه ليس من نفس ، أو كأنَّ هؤلاء الأطفال حين يَتواثَبون ويقفزون في اللّعب واللّهو يقفزون كذلك من حدود الشَّرائع . فللرَّجل من كل قاعدة حدٌّ محدود ، ليس وراءه إذا هو تخطّاه وتعمَّد مجاوزته إلا حائطٌ من السِّجن ، أو حائطٌ من اللّعنة ، أو حائطٌ من جَهَنَّمَ . ولكن الطِّفل يتخطّى ذلك الحدَّ وَثْباً ، ويكون قد وثب على السِّجن وجهنَّمَ بطبقاتها السَّبع ولا يقع في واحدة منها ؛ فمهما نافق الصَّغير فهو ذكيٌّ خبيث ، ولكن نفاقه ينتهي بقبلة على خدَّيه أو لطمة .

لا الصِّغارُ في منازل العمر من الأطفال ، ولا الصِّغار في مراتب العُمران من العامَّة ، يصلحون أن يقوم بهم النِّفاق ؛ لأنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحد في الطَّبيعة ، وهو صِغَرُ النَّفس وانصرافُها إلى معاني الجسم دون معاني العقل . فلو أنَّك رأيت طفلاً ينافق لطفل مثله ، أو شهدتَ عامّياً من النّاس يُصانع رجلاً من قياسه المنطقي ، لرأيت في ذَيْنك نوعاً من الضَّحك السّاكت ، وفي هذين ضرباً من الوَقار الذي يُضْحَك منه . إنَّ عظمة النِّفاق هي نفسها في عظمة أهلِه الكُبَراء ، وكل شيء قد يصلح موضعاً للبحث والنَّظر والجِدال ، إلا ما يعتقد الرَّجلُ العظيم أنَّه عظيمٌ به ، وهنا موضعُ التّألُّه الذي شُرِع من أجله سجودُ النِّفاق وركوعُه وتهليله وتسبيحُه ، فصِغار العظماء كأنهم في حاجة إلى النِّفاق ؛ لأن فيهم شيئاً عالياً لا يظهر حَدُّ عُلُوِّه إلا إذا قيس من نقطة سافلة .

فإذا أنت عرضتَ لهم على شرطهم فنافقت واستَخْذَيْت ونزلت عن كرامتك ، رأوكَ مع ذلك منافقاً عند نفسك فقط ، واحتجبت بعد كل هذا إلى ضُروب أخرى من العَنَت الشّاقِّ على النَّفس ؛ حتى يعرفوا بعد أن يجهدك النِّفاقُ أنك منافق ، فلا تَبلغ إليهم رَذيلتُك إلا وقد صِرْتَ في جُمْلَتِكَ مجموعةً من الرَّذائل .

* * *

وإني لأحسب أن النِّفاق هو بقيّة ما وَقَرَ في النُّفوسِ الجاهلة من عهدها الأول ؛ عهد التَّعَبُّدِ لكلِّ ما يضرُّ أو يُتَوَهَّم فيه الضَّرر ، والتَّقديس لكل ما ينفع أو يُظَنُّ فيه النَّفع ، وتكون أرواح الأصنام والأوثان والعُجول والبقر والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها مما كان يُخَصُّ بالعبادة قديماً – هي بأعيانها ما تتمثَّل فيه أرواحُ أولئك السّادة الكبراء الذين يثقل ظلهم على الرّوح ثقلَ الضَّباب ، ويتراكم على القلب تراكمَ السَّحاب ، ولا يرضون باباً من النِّفاق إلا أن يُفْضيَ إلى باب . ثم تكون أفعالُ المنافقين في دِهانِهم [(١)] ومُصانَعَتِهم وما تتروَّح به أرواحهم هي في ذاتها بقايا تلك الرِّعْدة والفزع والضَّراعة وتمريغ الوجوه والتَّمَسُّحِ ، وما إليها مما صَغُرتْ به أحلامٌ لتكبر أوهام ، وكان عبادةَ أجسامٍ لأرواحٍ فصار عبادةَ أرواحٍ لأجسام .

---

(١) نفاقهم . *

والعظيم الذي تُنافق له ولا يُنكِر عليك ولا يَرُدُّك، ثم لا يرضاك ولا تُرضيه إلا على هذا النّحو، هو في رأيي رجلٌ خُرافي من المعبودات الأولى يحتاج إلى نبيٍّ يمحوه، فإن لم يكن نبيٌّ فرجلٌ حكيم يكشف للنّاس عن وجه الخرافة فيه، فإن لم يكن فذو عزيمة يصول به أو يستطيل عليه، فإن لم يكن فذو دين وتقوى يريه وجهَ السّماء من دينه و زُهده، فإن لم يكن فذو عِلم يقنعه أنه كان ترابًا وسيكون عظامًا ورُفاتًا .⁽¹⁾ فإن خلا قومُه من كل أولئك فقد (زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ) وقد رفع الله عنهم يده فلا يُبالي في أيِّ وجه هلكوا .

* * *

أمّا إنه لا ينافق إلا الخبيثُ الذي يحاول أن يقتحم النُّفوسَ وهي غافلةٌ عن أبوابها ومنافذها، فنفاقه من التّلصُّص؛ وإلا الضّعيف الذي يُريد أن يقوى بضعفه فهو يَحْتال على أن يأخذ القويَّ من أضعف مكان فيه، ونفاقه من المكر والخداع؛ وإلا الغاصِبُ الذي يطمع أن يكون الشّيءُ له وليس له، ونفاقه من الظّلم؛ وإلا القويُّ متى أراد أن يسوق بقوّته مَساقَ الضّعف لينال بها من غير أن يؤذي، فنفاقه من الكبرياء؛ والخامسةُ أنَّ روعةَ الحبِّ في عاشق تنافق لروعة الحسن في معشوق .

وكذلك لا يرضى عن النِّفاق ولا يُقرُّه إلا جاهلٌ اكتفى من العلم قبل أن يعلم ما هو العلم، أو مُسْتَكْبِرٌ عَمِيَتْ نفسه عمّا حولها وعما فوقها، أو غبيٌّ يعرف عقله في وهمه و وهمه في عقله، ولا يعرف عقول الناس، أو ذو سلطان دَنَتْ مِحْنته وأظلت مُلْكه النِّقْمَة فهي تسلك إليه سُبُلاً مختلِفة، منها فسادُ النّاس، ومنها النِّفاق؛ والخامسة أن يمتلئ نظرُ الجميلة رضاً وسحراً حين يمتلئُ فمُ المحِبِّ نفاقًا في هواها .

وأنت فكيف اعتبرت النّفاق رأيته كذبًا وخداعًا، ثم مكرًا ومُصانَعَةً في الحقِّ؛ فإن هو فَشا في طائفة من النّاس ألفيتهم في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على ألا يصدقوا ولا يَنْصحوا ولا يأنفوا ولا يُقاربوا الحَقَّ . فإذا كثر هذا السَّوادُ ⁽²⁾ في شعب رأيته لا يُحْسِنُ من الحياة إلا الأسبابَ الذي يقتل بها نفسه إن كان قويًّا، ولا يهتدي لغير طُرُق الفقر إن كان غنيا، ولا ينفع إلا أعداءه إن كان شعبًا ذكيًّا، ولا يعمل إلا على السُّخْرَة لغيره إن كان عاملاً فَتِيًّا .

* * *

وكل مُنافِق وصاحبه الذي يُنافق له رجلان لا يفهم أحدُهما الآخر، أو تكون بلادةُ الحِسِّ قد بلغتْ من أحدهما أن يتظاهر بأنّه لا يفهم، وبلغت الغِلْظَةُ من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم؛ وكلاهما غِطاءٌ مُكْثَفاً على حقيقته، ولكن الحقائق المغَطّاة بأغطية الكذب موضوعةٌ أبدًا على نار تَتّقِدُ من عزائم المصْلِحين ونفوس الحُكماء وقلوبِ الأحرار، فلا تزال تغلي كلّما طال بها العهدُ حتى تنفجر من أغطيتها، فإذا الزّور قد طاح به ما انكفأ عليه . وكان ذلك من سُنّة الله في إصلاح النّاس؛ وكان من سنّة الله كذلك أن تجد النّاس ينافقون جميعًا، إلا مُصْلِحًا أو حكيمًا أو رجلاً حُرَّ النَّفْس .

الفَصْلُ السّادِسُ
الصّغيران

والآن أرى السَّحابَ رقيقًا مُهَلْهَلاً كأنه في سَرَقَةٍ ⁽³⁾ من حرير أحمر، يشرق إشراقَ الرّوح في الطّفل الصّغير الذي كَفَلَتْهُ رحمةُ الله فتركته إذا ضحك استوضَحَتْ له من الضّحك معانٍ لا نهاية لها ولا يعرفها الناس، فما ينفكُّ من شيء يضحكه أو يسره، وإذا بكى لم يجد للبكاء إلا معنًى واحدًا من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها النّاس؛ فهم لا يَنْفَكّون من البكاء أو معانيه في هموم الحياة .

تقوم الطُّفولة في روحها وعهدها وحوادثها على

⁽¹⁾ حطامًا وفُتاتًا . *

⁽²⁾ العدد . * ⁽³⁾ سَرَقَة الحرير : هي القطعة من النّوع الجيِّد منه فتكون رقيقة مُشْرِقة .

عقيدة واحدة ، هي أنّ كلّ ما كان فسيكون غيره ؛ وهي تعرف ذلك يقيناً جَزْماً [١] لا شكّ فيه ، وحكماً فصلاً لا مَعْدِل عنه ؛ فالصّغار على أيّ أحوالهم هم كبار النّاس في هذا المعنى .

إنّك لتَعْرِفُ الرّجلَ لا بأس بعقله ، ثم تراه فيما ينزل به من الحوادث فإذا هو من النَّفْرَة [٢] والهمّ والقلق صورةٌ كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتُلي به ؛ فإذا نظرت إلى الطّفل في مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس حزينة راضية مُسْتَسْلِمَة ، قد أقرّت فيها رحمةُ الله بحكمة الله ؛ فالحزنُ فيها سببُ الهَمّ ، ولكنه كذلك سببُ الأمل .

* * *

جلست ليلة مع صُحبةٍ من الأدباء في نَدِيٍّ [٣] على عُنُق شارع كذا بالقاهرة ، وكنّا في الوقت الذي يُقبل فيه اللّيْلُ على أعماقه قبل أن يَنْتَصِفَ بمنزلة واحدة [٤] ، تلك السّاعة التي هي أول عهد اللّيْل بالتّنفّس تحت الأجنحة السّماوية [٥] ، تنزل لتَخْتِمَ على أعمال الأرض في يومها الغابِر ، ثم تأخذ في تهيئة الجمال السّماوي البديع الذي سيُخْلَق منه الفجر .

وكان إلى جانبي أديبٌ سِكّير ، نسميه « دِمْياط الحانة » ؛ لأنّ فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه ، كما ينصبُّ فرعُ النّيل عند (دمياط) . وقد عوّدَتْه الكأسُ أن يتّخذَ اللّيْلَ نهاراً والنّهار ليلاً ، فما ينصرفُ إلى بيته إلا في فروع الصُّبْح [٦] ، ولا ينام إلا والعالم كله مُتيَقِّظ ؛ ويزعم أنه لا يهتدي إلى عقله إلا إذا أضاعه ساعة أو ساعتين [٧] ، ولا يُحْسِنُ تصفيةَ الكلام وترقيقَ المعاني إلا إذا نضح جوفَه بماء الشّعْر [٨] .

وكان في تلك السّاعة قد حطّ عليه السّاقي حتى انتهى في سماواته الوهمية إلى الأفق الزّجاجي، فعاد كلامُه رنيناً وطَنْطَنَة لا يفهمه إلا صاحبُ الحانة وحده . فلما دَهَتْهُ الدّاهية من كرب الخمر تخطى حدّ إنسانيّته إلى البهيميّة السّائمة [٩] ، وما كاد يرتفع السّتارُ الإنساني عن مسرح أخلاقه حتّى رأيتني في رواية عجيبة يُمَثّلها أربعة اجتمعت أرواحُها في شخص واحد : سفيهٌ ، ومعتوهٌ ، وأحمقُ ، وأديب .

وجعلتُ أتأمّل على يقين الخبرة ، وأشهد على حَقّ النّظر ، عجيبةَ هذا العقل الإنساني الذي يسبح في الأفلاك ، ويَتَطَوّح من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم بوثبةٍ أسرع من ضربة الجناح ، ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمر ؛ وصِرْت أرى كيف يتحوّل النُّبوغُ العقلي في بعض ساعاته إلى صناعة خَسيسة ، هي صناعةُ الأديب نفسَه الشّريفة بهيمةً من البهائم ، وعلمت عِلْمَ هؤلاء الأدباء الذين يحسبون الخمر توحي إليهم ، وما في مِلْءِ الدّنّ منها ما يَعْدِلُ فائدةَ نقطة واحدة من قوّة الإرادة .

لقد رأيتُ وعلمتُ وشهدت بعينَي رأسي كيف يَبوءُ [١٠] هؤلاء بالمآثم والمَغْرَم جميعاً [١١] ؛ وتاللهِ إنه لأَيْسَرُ على الباحث أن يجدَ السرابَ الذي يغترفُ منه الظّمآن بكَفّيْه ماءً زُلالاً من أن يعثر على الكأس التي يقتبس منها السّكّير فضيلة أو فائدة .

ولو رجع الأمرُ إليّ لما جعلتُ عقوبةَ الخمر إلا تحطيم الزّجاجات على رءوس شاربيها . و هَبْ أن رأس الأديب السّكّير هو رأس أرِسْطو علماً وذكاءً فذلك أدعى لتحطيمه ؛ لأنه لن يكون في عَرْبَدَتِهِ وسُكْره وانحطاطه وسقوط هِمّته إلا رذيلةً يُدافع العِلْمُ والذّكاءُ عن وجودها ، فينصبها الشّيطانُ مثلاً للتّقليد، ويتّخذها الأغرارُ والضُّعفاء قاعدة للباطل المتّبَع ، يَعْمَلون على احتذائها ، ويتحوّلون عن فضيلتهم بحُجّتها ؛ فيصبح هذا الرّأس الواحد كالمطبعة : متى حبّرها الطّابع نقلت ما فيها « بحروفه » إلى كل الصُّحف البيضاء التي تُلامسها .

(١) ثابتاً . * (٢) الجَزَع ، والنّفْرة المرّة من نَفَر . *
(٣) قهوة . (٤) أي ساعة . (٥) كناية عن الملائكة .
(٦) أوائله وأعاليه . (٧) كناية عن السُّكْر .
(٨) كناية عن الخمر .

(٩) الذّاهبة على وجهها حيث تشاء . * (١٠) يحتمل ويعترف . * (١١) المأثم : الإثم والذّنب ، والمغرم : ما يغرم عليه من المال ، قاتلهم الله ، يشترون بأموالهم « تذاكر الدخول إلى جهنم » .

وفي تلك السّاعة كانت الأرض قد عَرِيَتْ إلا من أواخر النّاس وطوارق اللّيل وبقيّة من يقظة النّهار تحبو في الطرق ذاهبة إلى مضاجعها : فبينا أمدُّ عينيَّ وأديرهما في مُفْتَتَح الطريق ومُنْقَطَعه إذ انتفضْت انتفاضةَ الذُّعر ، و وثبتْ رَجّةُ القلب بجسمي كلّه ، كما تثب اللّسْعَة بملسوعها ؛ ذلك حين أبصرت الطّفلين .

صغيران ضلا من أهلهما في هذا اللّيل ، يمشيان على حَيْدِ الطّريق [1] في ذِلّة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتّخاذل لا تمشي بل تتزحزح قليلاً قليلاً فكأنهما واقفان . أكبرهما طفلة تَعدُّ عمرها على خمس أصابعها ، والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات ؛ ينحدران في أمواج الليل وقد نزل بهما من الهمّ في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تُطوِّح به الأقدار ، إذا ركب البَحْرَ المظْلِم ليكشف عن أرض جديدة .

تَتَبيّن الخوفَ في عيونهما الصّغيرة ، وتراه يفيض منهما على ما حولهما ، حتى ليحسب كلاهما أنّ المنازل عن يمينه وشماله أطفال مذعورة . ويَتَلفّتان كما تَتَلَفّت الشّاةُ الضّالّة من قطيعها : لا يتحرّك في دمها بالغريزة إلا خوفُ الذّئب . ويتسَحّبان معاً وراء الأشعة المنبثّة في الطّرق ، كأنّ أضواء المصابيح هي طريق قلبيهما الصّغيرين .

مُنْقَطِعان في ظلام اللّيل ، وليس على الأرض أهنأ من ليل الطّفل النائم ، فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟ نامت أحلامُهما واستيقظت أعينُهما للحقائق المظْلِمَة الفظيعة ، وضاعا من البيت

(١) هو التّلتوار : أي جانب الطّريق . عن ابن سيده : « حَيْد الجبل شاخص يخرج منه ، وجبل ذو حيود وأحياد ، إذا كانت له حروف ناتئة في أعراضه » . قلنا : وهذه صِفة التّلتوار إلا أنه غِلَظ في جانب الطّريق لا في جانب الجبل . وبعضهم يترجم التّلتوار بالإفريز ، وهي كلمة مُشْتَرَكة ، أكثر ما تُستَعْمَل في النّقوش البارزة ، وبعضهم يستعمل الطّوار (بفتح الطاء) ، ولكنّه للدّار ما يمتد معها من فنائها ، وبعضهم يستعمل البرزوق وهي ثقيلة نافرة ، ولا أفصحَ وأخفَّ من الحَيْد ، تقول : حيد الطريق ، وللشّارع حَيْدان ، وحيود الطريق وأحيادها ، وهَلُمّ جرّا .

ويحسبان أن البيت هو الضّائع منهما . طفلان في وزن مِثْقالَيْن من الإنسانية ، ولكنّهما يحملان وزنَ قناطيرَ من الرُّعب .

يا مَن لا إله إلا هو ، مَنْ سِواك لهاتين النَّمْلَتَيْن في جُنْح [2] هذا اللّيل الذي يشبه نقطة من غضبك ؟ لقد أخرجتَهما في هذا الضّياع مَخْرَجَ أصغرِ موعظة للعين تُنَبِّه أكبر حقيقة في القلب ، وعرضت منهما للإنسانيّة صورة لو وُفّقَ مخلوق عبقريٌّ فرسمها لجذَب إليها كلَّ أحزان النّفس .

صورةُ الحُبِّ يمشي مُتَسانِداً إلى صدر الرّحمة في طريق المصادَفَة المجهولة من أوله إلى آخره ، وعليهما ذلُّ اليُتْم من الأهل ، ومَسْكَنَةُ الضّياع بين النّاس ، وظلام الطبيعة وكآبتها .

رأيت الطّفلة وقد تنبّهت فيها لأخيها الصّغير غريزةُ أمٍّ كاملة ، فهي تشدُّ على يده بيديها معاً ، كأنها مُذْ علمت أنّها ضائعة تحاول أن يطمئن أخوها إلى أنه معها ، ولن يضيع وإنّه معها [3] ! فيا لَرَحْمَة الله !

وقد أسندت مَنْكِبَه إلى صدرها وهي تمشي ، فلا أدري إن كان ذلك لتحملَ عنه بعض تعبه فلا يتساقط ؛ أو ليكون بها أكبر من جسمه الضّئيل فلا يخاف ، أو لأنّها حين لم تستطع أن تُفْهِمَه ما في قلبها بلغة اللّسان أفاضته على جسمه بلغة اللّمْس ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنما هي تستمدُّ من رجولته الصّغيرة حمايةً لأنوثتها بوحي الطّبيعة التي رسخت فيها .

أما الطّفل فمُسْتَذِلٌ خاشع ، لو تُرْجِمَت نظراته لكانت هذه عِبارتها : اللّهُمّ إن هذا العمر يومٌ بعد يوم ، فأنقذنا من بلاء يومنا . »

ولمّا وقفا بإزائنا كان هذا الصّغير يُقَلّب في وجوه النّاس نظراتٍ يتيمة ترتدُّ على قلبه آلاماً لا رحمةَ فيها؛ إذ يشهد وجوهاً كثيرة ليس لها ذلك الشّكل الإنسانيّ المحبوب الذي لا يعرفه الطّفلُ من كل

(٢) الجُنْح : الطائفة من الليل ، والمراد هنا : الظلام . *

(٣) حالة أنه معها ، وهو تركيب من أبدع الكلام .

خلق الله إلا في اثنين : أمّه وأبيه .

وما أسرع ما تَناهَضَ النّاسُ وأطافوا بهما ، وما أسْرَعَ ما لاذ المسكينُ بأخته واستمسك بها ، كأن وسائل الرّحمة تخيف كما تخيف أسلحة « الجرّاح » [1] ، أو كأن الأصل في هذا الإنسان هو العُدْوان على أخيه وظُلْمُه واجتياحُه ، فكل حركة إنسانيّة مشكوك فيها حتى يقع أثرها ؛ لأن الإنسان نَفْسَهُ سِتارٌ مُنْسَدل على نِيّتِهِ ، وهذه النيّة آلة للأطماع ، فلا تزال في يد الكذب دائماً لا يدعها للصِّدق إلا فيما لا ينفع .

وكان الطِّفلُ المسكينُ ، في جُمْلة النظر إليه ، خلقاً من الحب المؤلم الذي يلهِبُ الدَّم ، يرسل من عينيه الدَّعْجاوَيْن [2] سِحْرَ المذَلّةِ الفاتنة ، تلك المذلّةِ التي أعرفها أقوى ما في الحب إذا تذلّلت الحبيبةُ في نظرة ضارعة ترسلها لِمُحِبِّها المفتون ، فلا تُبْقي في رأسه رأياً ولا في قلبه نِيّة وتدلُّ له لِيَذِلَّ هو لا غير ، كأنّ أحبَّ العِزِّ في أحبِّ الذُّلِّ .

ونظر إليّ أنا أوّلَ رَمْقَة [3] ، فذكرتُ أطفالي فتزلزلَ قلبي ، وأحسَسْتُ أنّ دمي استحال إلى بارود وقع فيه الشّرر .

وهؤلاء الأطفال الصِّغار هم إنسانية على حِدَة ، فكل أب هو أبو هذه الإنسانيّة كلّها ، ولن يُطيق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطّريق يستهدي النّاسَ إلى أهله ويبكي عليهم ؛ أو طفلاً جائعاً يعرض على النّاس وَجْهَهُ المنكَسِرَ ويستعطفهم بصوته المريض أن يُطعموه ؛ أو طفلاً يتيماً قد ثَكِلَ أهلَه وضاق بقسوة أوليائه فانطرح في ناحية يبكي ويتفجّع ويسأل من يعرفون الموت : أين أبي ؟ أين أمّي ؟

هؤلاءِ جميعاً ليس بينهم وبين قلوبِ الآباء والأمّهات حجاب ؛ إذ ليس فيهم من النّاس إلا اضطرارُهم إلى النّاس ؛ فهم الإنسانية الرّضيعةُ التي خُلِق من أجلها القلبُ الإنسانيّ في شكل ثَدْي .

* * *

و اطمأنَّ ذلك الطِّفل إلى صدر أخته ومال برأسِهِ عليها ، ثم أطلق عينيه فينا جميعاً ، فما حسبتُه أراد إلا أن يَخْبأ في قلبها أفكارَه الصّغيرة ، ثم ينظر إلى هؤلاء النّاس نظرات مجرَّدَةً بلهاءَ كما ينظرون هم إليه ؛ إذ لم يرَ فيهم من فَتَحَ له ذراعيه ، ولا من حمله ، ولا من تَحَنّى [4] عليه ، ولا من ضحك له ، ولا من أعطاه شيئاً يأكله .

أ لا إنّما النّاسُ صُوَرُ الفكر وصور القلب ، فمن لم نرَ فيه صورةً من أفكارنا التي نلتمسُها أو من أهوائنا التي نحبها ، فذلك ليس مِنّا ولسنا منه ، وإن سُمِّيَ أخاً في لغة النِّفاق ، وإن دُعِيَ حبيباً في لغة المجامَلَة ، بل هو مخلوق ليكون النّموذج الذي نتعلّم عليه البغض إن كان مُتّصِلاً بنا ، أو التّسامُحَ إن كان بعيداً عنّا ولم تتصل بنا ولا أخبارُه .

وكم بين النّاس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النّور الأحمر الذي يضعونه في الطُّرق فيضيئونه من اللّيل فوق الحُفر ؛ ليُنذِر النّاسَ ما وراءَه ويقول لهم بصوت النّور : هَهنا ما ينبغي أن تحذروه ، ههنا حفرة .

إنّما النّاسُ صورُ الفكر أو صورُ القلب ، فهم منقسمون حين يولَدون أسباطاً أسباطاً [5] باختلاف الدّم في كل أسرة ، وهم مُتفرِّقون حين ينشئون أفواجاً أفواجاً باختلاف الصُّحْبة في كل فئة ، وهم مُتَباينون حين يَتَدفّعون أحزاباً أحزاباً باختلاف الهوى في كل طائفة ، وهم مُتَناكرون حين يتنازعون أمماً أمماً باختلاف المنفعة في كلّ أمّة ، فتلك أربعةُ وجوه تلبسها الإنسانية فيهم ، ومن ثَمَّ قُضي على هذه الإنسانية المسكينة في الأرض أن تكون ثلاثة أرباعها عداوة ، كالأرض نفسها : ثلاثة أرباعها ماءَ مِلْح لا يُساغُ ولا يُشْرب ، وإنّما مَنْفَعَتُهُ للكون كلّه في

---

(١) الجرّاح : كلمة مُحْدَثَة ، وصوابها الجراحيّ في اللّغة القديمة ، ولكن الأولى أفصح ولا بأس بها لغة . (٢) الدعجاء مؤنث الأدعج ، وهو الشديد السواد . * (٣) نَظْرَة . *

(٤) حنّ وعطف عليه . * (٥) أمماً وجماعات . *

الجملة . ولعلَّ شيخًا من الشُّيوخ لو تدبَّر حياته ، وأحصى أقدارَها ، وميَّز أنواع حوادثها ، وما أتى عليه فيها من أولها إلى آخرها ؛ لرأى ثلاثة أرباعها مِلْحًا أيضًا .

إنَّما النّاس صورُ الفكر أو صورُ القلب ، فليس يأتي للوالدين أن يربّوا من أولادهم ناسًا ، بل أهواء ومطامع يُناقض بعضُها بعضًا : مطامع تتبع أسبابها ، وأهواءً ترجع إلى غرائزها ؛ فلو أنَّ أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهرَ دنياهم حتى يكون سواءً لا يخالف شيء منه على شيء ؛ لَبقي الانتقاضُ والاختلالُ في باطن الإنسانِ حتى لكأنَّ بعض الدَّم يخلق غالبًا على بعض الدم . وإنَّه لا شيءَ في هذه الحياة إلا وقد خُلِقَ معه ضِدُّه ، فإذا استقامت الأمورُ فلِمن تكون الأضداد لعَمْري ؟

إنَّما النّاس صور الفكر أو صور القلب ، فدُنيا كل إنسان في شيئين : ما يَنزع إليه بفكره ، وما يميل إليه بقلبه ؛ والإنسان من كل إنسان أحدُ اثنين: من تُرْتَجَى به المنفعة ، ومن تكون فيه المحبَّة ؛ والإنسانيَّة من كل إنسان في منزلتين : أدنى الحب ، وتلك منزلة الصَّداقة ؛ وأعلى الصَّداقة ، وهي منزلة الحب . فأما ما وراء ذلك فصحراء الإنسانيَّة الكبرى المقْفِرَة من قلب الشَّخص وفكره . ولولا الأديانُ لخربت الدُّنيا ؛ فإنَّ هذه الأديان قد عَمَرَتْ هذه الصَّحراءَ بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلب والفكر ، وهما : خوفُ الله في خَلْقِهِ ، ومَحَبَّة الله فيهم ؛ فحيث وُجِدَ هذا الخوفُ وهذه المحبَّة وُجدت الإنسانيَّة ، وعلى ذلك فالإنسانيَّة العامَّة الحقيقيَّة هي الإيمان ، والإنسان العامُّ الصَّحيح هو المؤمن ، والسَّلام العامُّ الكامل هو الله جلَّ جلاله .

ولكن يا لَشقاءِ الإنسان التَّعِس ! إنَّ أعجب ما في الشَّرِّ أن اختلاف الناس في فهم هذه الثَّلاثة هو أصل الشَّرِّ .

* * *

وسألوا الطِّفلين أسئلة سياسية : ما وطنُهما ؟ وما جِنسُهما ؟ أيْ مِن أيِّ شارع ومن أيِّ والد .

أ لا ضَلَّ ضلالُكم أيُّها النّاس ! فلو أنَّهما يعرفان من أيِّ شارع ومن أي والد لَما كان منهما ما تَرون ، على أن الطِّفلة لجلْجت في بعض كلمات تشبه اضطراب قلبها ، وكان الصواب كلُّه ماثلاً لعينيها مُجْتَمِعًا في ذهنها ، فالبيت والشّارع والأب والأم كل ذلك واضحٌ في خيالها ، ولكن الذي استبهم عليها هو تَحديدُ نسبته إلى هذا الوجود الذي تراه كله بيوتًا وشوارع ورجالاً ونساء . وإنَّما تحديد الشَّيء هو تعبير الطَّبيعة عنه ، وإنَّما تعيين نِسْبَته من غيره هو تعبير الشَّيء نفسه عن خصائصه ؛ فإذا أنت عرفت نسبَتك مِن سواك ، وحَصَرت هذه النِّسبة في حدودها وأسوارها ، فقد أمنت الخطأ في سعادة نفسك ، وأصبحت بتلك المعرفة أسعدَ إنسان .

ولكن مَنْ لك بهذه المعرفة وبهذا التَّحديد ، وقلوبُ النّاس كافَّةً كأمواج البحر في البحر : تظهر كلُّ واحدة قائمة بنفسها في رأي العين وهي راجعة في جميعها إلى أصل واحد ، هو هذا السَّيّال المتَحَرِّك الذي يتضرب بعضُه في بعض ليوجِد الأمواج ويفنيّها ؟

ما أراني أعرف بعد طول الفكر سببًا للشَّقاء الإنساني يجمع كل ضروبه إلا سببًا واحدًا ، هو أنّنا مُعَدّون لكلِّ الحالات المختلِفة التي تطرأ على الحياة بقلب من نوع واحد ، فإذا استطعنا أن نجعل ظواهرَنا موضعَ التَّرتيب ، فإنَّ بواطننا أبدًا موضع الاختلاط والألم والنَّكد .

* * *

ولمّا رأيتُ حَيْرَةَ الطِّفلين ضَمَمْتُهما إليَّ وألهيتهما عن كآبة القلب بسرور البطن ، فدفنت كلَّ آلامهما في بعض قطع من الحلواء ؛ فطعِما واستضحكا وتَطَعَّما الحياة جديدة آمنة .

والطِّفل لا يعرف مُستَقْبَلاً ولا ماضيًا ، وما هو إلا حاضرُه ؛ فإن عييتَ بأمره فأوْجِدْه ما يلهو به ، فهذه هي سعادة الطُّفولة . ولقد سرَّهما من الأديب السِّكِّير الذي كان إلى جانبي أضعافُ ما سرَّهما من الحلواء ، بل كان زيادةً في حلاوتها ؛ فحَسِباه يتحمَّد

بَسْطَهما [١] و إيناسهما بحركاته وبكلامه الذي يَطِنُّ في السَّماوات الزُّجاجية ؛ فكانا يضحكان منه ، وكلّما تكلم أو أشار أو تحرّك أو أنكر عليهما ، استخرج بذلك منهما مثل تغريد العصافير ، فكانت كلُّ الفائدة من سقوطه وضياع عقله أن أضحك طفلين .

وقدّرت في نفسي أنّهما من هذا الشّارع الذي نحن فيه ، أو من فصيلته في الطُّرق التي تُخالطه أو تقاربه ، وقلت إن أهلهما على أثرهما ؛ فجعلت أستأني وأنتظر . وبينما نحن على ذلك ، إذ ارتفع سوادٌ مُقْبِل كأنه روحُ ليلةٍ مظلمة تغشى الطّريق ، فتبيّنت ، فإذا امرأة تهفو كذات الجناحين ، وكأنها تَنْساق بقوّة تحترق في داخلها ، ثم أخذتْنا عيناها فإذا هي أمُّ الطفلين ، تبدو من لهفتها واستطارتها [٢] لولديها كأنما تحاول أن تخطفهما من بعيد بقوّة قلبها . وما عرفتُ أنّها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها ملموسة في نظراتها إلى الصّغيرين ، لها هيئةٌ هيئةُ أمٍّ [٣] وُضعت الجنّةُ تحت قدميها ، فترى في وجهها معانيَ ليست من هذا العالم ، وليست من الجنّة نفسها ؛ إذ تزيد على كل مَسَرّات الدُّنيا هَناءة الاطمئنان السّعيد المفاجئ ، الذي لا يكون في الحياة إلا هُنَيهة ثم ينقطع ، وتزيد على ما هناك هذه اللّهفة اللّذيذة التي لا توجَد إلا هنا على أرض حينما تَفْجأ السّعادةُ بعد شقاء لا يُحتمل .

إنَّ من لم يرَ أمًّا أشفى [٤] طفلَها على الموت في حادثة أخذته بَغْتَةً ثم نهض سليماً مُعافى ؛ أو ضَلّ عنها مدّة حتى يئِسَتْ منه ثُمّ اهتدت إليه – لا يكون قد رأى شيئاً من سَعادة الإنسانيّة العالية النّادرة التي لا تكون إلا في الأمّهات خاصّة ، ولا يشهدها النّاس إلا في ساعةٍ حَرِجَةٍ تلمس فيها يدُ الله قلب الأم .

* * *

وهَلَّ [٥] الطّفلان لَمّا أبصرا أمّهما ، ونفضا أيديَهما نَفْضَ الأجنحة ، ثم أكبّت هي عليهما بجسمها ومدامعها وقبلاتها ، والتَحَما بها التحامَ الجزء بكلّه ، واشتبكت الأذرعُ في الأذرع حتّى لا تُفَرِّق بين ثلاثتهم في معاني الحبِّ إلا بالكِبَرِ والصِّغَر ، ورجعت معهما طفلةً ، كأن تاريخها ابتدأ جديداً في ساعة من السّاعات الفاصلة التي يتحوّل عندها التّاريخ .

وإذا كانت القلوب بين إصْبَعَين من أصابع الرّحمن يُقَلِّبها ، فلقد كانت هذه القلوبُ الثّلاثة في تلك اللّحظة تنطق وجوهُها بأنّها في يد الله يهزُّها هزًّا . ولكم ودِدْتُ لو أستطيع أن أخلطَ بها قلبي المسكينَ في لَمْسَةٍ واحدة لِيَشْعُرَ ، ولو لحظة في هذه الحياة ، أنه سما بروحه فوق العالم كلّه .

لو أصابك الهمُّ لحبيبك إذ تراه مهموماً مُتألّماً لذُقْتَ أحلى أنواع الآلام السّعيدة ؛ فكيف بك لو تَبَدّل همُّه بَغْتَةً فأقبلت عليك قبلاتُه وضحِكاتُه تُزحزح عن قلبك ناموسَ الكآبة ؟

الحبُّ ! ما الحبُّ إلا لُهفةٌ تهدر هديرَها في الدّم ؛ وما خُلِقت لهفةُ الحبِّ أوّلَ ما خُلِقَتْ إلا في قلب الأم على طفلها تَرْأَمُهُ [٦] وتحنو عليه ، ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلبُ نفسه . ولقد يكون عمرُ الطّفل يومين ، ولكنّ لهفةَ أمّه عليه وحفظها إيّاه حفْظَ عينيها ، تجعل له من الحب عمراً مُتطاولاً يُقاومُ به الأقدارَ العاديَةَ عليه في مسارحها . ولولا ذلك لحَطّمَتْهُ هذه الأقدارُ كما تحْطِمُ كلَّ طفل أهمله ذوو عِنايته [٧] ؛ فلهفة الأمِّ على طفلها كأنها قُوّة سِنينَ عدداً في جسم هذا الطّفل ؛ ومن ثمّ لم

(١) إدخال السُّرور عليهما . * (٢) إسراعها . *
(٣) هذا من تراكيبهم البليغة ، وهو تكرار يستعمل في إثارة النفس وتنبيهها فيقع منها أي موقع ! والكلمة الثانية تنصب إذا أريد بها الحدوث . (٤) قارَبَ . *

(٥) صاحا صيحة الفرح . (٦) تعطف عليه . *
(٧) أهله والقائمون بأمره .

يكن الحبُّ الصّحيحُ في أسمى مظاهره إلا حُبَّ المرأة لبني بطنها [1] ، وإنّما يُسَمّى غرامُ العاشقين حُبًّا لأن في العاشق دائماً مع حبيبته أكبرَ معاني الطفولة ، وفي العاشقة دائماً مع حبيبها أصغر معاني الأمومة .

وما كان هذا الغرامُ لِيُسَمّى حبًّا لولا ذلك ، ولولا أن في اللغات لُصوصاً من الألفاظ تسرق معاني غيرها .

حبُّ الأم في التّسميَة كالشجرة : تُغْرَس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصولُ وآثارها ، ولا تزال تتمكّن بجذورها وتمتدُّ بفروعها حتى تكتملَ شجرةً بعد أن تُفْنِيَ عِدادَ أوراقها لياليَ وأياماً .

وحبُّ العاشقين كالثّمرة : ما أسرعَ ما تنبت ، وما أسرع ما تَنْضَج ، وما أسرع ما تُقْطَف ، ولكنها تُنسي الشّفاهَ التي تذوقها ذلك التّاريخ الطّويلَ من عملِ الأرض والشّمس والماء في الشّجرة القائمة .

لا لذّةَ في الشّجرة ، ولكنها مع ذلك هي الباقية ، وهي المُنْتِجَة ؛ ولا بقاء للثّمرة ، ولكنها على ذلك هي الحلوةُ ، وهي اللّذيذة ، وهي المنفَرِدَة باسمها .

وهكذا الرّجل : أغواه الشّيطان في السّماء بثمرةٍ فنسى الله حيناً ، ويُغويه الحبُّ في الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً .

* * *

وذهبت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدتُ منها ومنهما مواقعَ رحمة الله في القوى المسكينة ، التي لم تجئها المسْكَنةُ إلا من كونها أطهرَ القوى وألطفها ، وانفجر قلبي آلاماً وسروراً ورحمةً في ساعة واحدة ، ثم كاد ينفجر آخرَ الأمر من الضّحك ، حين أراد الطّفلان أخْذَ الأديب السّكّير معهما لأنه مُضْحِك !

* * *

---

(١) أولادها .

الفَصْلُ السّابِعُ
الشَّيْخُ عَلِيّ

وكأنما أنظر الآن في قلب رجل لا في وجهه ؛ إذ تهلّل على السَّحابِ وجهُ « الشّيخ علي » شيخ المساكين . [2]

أراه كما كنتُ أعرفه ضاحكاً غير الضّحك الذي يلبس وجوه النّاس ، فلا يضحك لشيء إنسانيّ، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلّل فرفع وجهه إلى السّماء وأرسل من فمه مثلَ نور التّسبيح في إشراق جميل ، حتى لقد كان يُخَيَّلُ إليّ حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ، ولكن قلبه يرتعش بعضَلات وجهه .

لو أراد الله بالنّاس خيراً لوضع في أبصارهم أشعة تَنْبَثُّ في أطواء القلوب فتعرف ألوانَ العواطف وتُمَيِّزها لوناً من لون ، ولكنه جعل الوجهَ غِطاءً على معاني القلب ، ثم سلّط الفِكْرَ على معاني الوجه ومعارِفه يُصَوِّر فيها ما شاء مِمّا له أصلٌ في الحسّ وما لا أصلَ له حتى لَيَخْتبِئ الإنسانُ عن الإنسان وهو مكشوف لعينيه . وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخَيْرَ والشّرَّ صريحين ، فقد أوجد الإنسانَ ثالثاً لهما، وهو تَلْبيسُ أحدهما بالآخر ، وأراد الخالقُ ذلك ويَسَّرَه للإنسان ، فجعل فيه آلةً واحدة للصِّدق ، وهي القلب ، وآلتين للكذب : وجهَه ولسانه .

* * *

---

(٢) وضعنا كتاب « المساكين » على لسان هذا الرّجل ليتعزّى به أهلُ البؤس وأحلافُ الهموم ، وقد أفردنا لوصفه باباً في ذلك الكتاب ، وحسبه أكثر القراء رجلاً مُخْتَرَعاً كرجال الرّوايات ، ولكنه كان رجلاً أشبه في حياته برواية ، وقد تُوُفّي في سنة ١٩١٩، وظهرت بموته كرامات عجيبة شهدها النّاس بأعينهم ، ولم يَنْعه أحدٌ ولا كان أحدٌ يَحْفل به ، ومع ذلك كانت له جِنازة لم يُعْرَفْ مِثْلُها في بلدته وأحوازها ، كأنما خرجت الحياةُ نفسُها تُشَيِّع أصغر حيٍّ لتجعله أكبر ميت .

كان « الشّيخ علي » يُشْبِهُ إنسانية قائمة بغير إنسانها ، على حين ترى أكثر النّاس كأنّه إنسان قائم بغير إنسانيته [١] ، وكانت الدُّنيا كأنّما نَسيت أنّه فيها ، فتركت له روحَه صافية مُنْطَلِقَةً تتطعَّم الحياة غير مُسْتَقِرَّة في شيء ، كما يَتَطَعَّمُ النّسيم رائحته من ورق الزّهر ، فهو يَتَسَحَّبُ عليه ولا يستقرّ فيه ، ولو أنه ورق الزّهر .

وما زالت روحُ هذا الرّجل مِنّي منذ عرفتُه كأنها نَضّاحَةُ عِطر [٢] تَمُجُّ رَشاشَها على حياتي رَوْحاً وعبيراً وندًى ، وكأن الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولة ورقَّةً ، ولو أن أحداً خُلِقَ من عيني الطّفل الضّاحكتين لكان هو « الشيخ علي » رحمه الله . على أنه كان رجلاً من سُوسِه القوّة ، معصوباً مُتَكَدِّساً [٣] ، يملأ جِلْدَه جِذْلٌ من أجذال الشّجر . [٤]

* * *

وانقبضت نفسي انقباضةً شديدة ؛ إذ تغيّر الرّجلُ في خَيالي فنظر إليّ نظرة يَنْقَدِحُ منها شَرَرُ الغيظ ، فلو أبصرتْ عيناك طائراً ضعيفاً أراغه [٥] نَسرٌ فاستطرده في نواحي الجوّ هكذا وهكذا [٦] ، ثم أهوى له بمخالبه ، ثم سَدَّد إليه نظرةً غرَزَتْ هذه المخالبَ وانفجرت بآلام لحمه ودمه ، فاعلم أن تلك هي كنظرة الشّيخ إليّ ، ولقد تبَعْثَرَتْ لها شياطينُ نفسي فانطلقتْ يحاول كلُّ شيطان منها مَهْرَباً ، وكانت تُوَسْوِسُ في صدري أن أستَمِدّ من روح الشّيخ قولةً في الحبّ ، هذا الحب الذي مهما اعتبرتَه لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها.

ثم ما لبث أن استضحك وأطلق لي نفسي ، وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة ، فقلت : وَيْحَكِ يا نَفْسُ ! إنّ عين الشّيخ ترى من الجمال غير ما نرى، ثم تعلم عِلْمَها مِمّا نظرتْ فيه ، ثم تُقَدِّره على حساب ما تعلم منه ؛ فما يُدريكِ لعلّ هذا الرّجلَ الرّوحانيّ لا يرى إلا ما وراء تلك البشرة الجميلة التي تكسو وجوهَ النّساء الجميلات ، كما نُبْصِرُ نحن من وجوه الموتى ، وقد تأكّلَ جلدُها وتناثر لحمُها وبرزت عَظْماً كسائر العظم من كل حيوان ؛ فلا موضعُ قُبلة ، ولا سِحْرُ نظرة ، ولا إشراقُ بَسْمة ، وما هو إلا تركيب من العظم صُنِعَ هذه الصّنعة تيسيراً لما خُلق له ! ولعلّه يا نفسُ لو حَشَرَ الله لِعينيك أجملَ الجميلات في صَعيدٍ واحدٍ وحشر معهنّ إناثَ البهائم صِنْفاً صِنْفاً ، ثم نزع عن تلك الوجوه كلّها ذلك الطِّرازَ من الجلد وما وراءه من اللّحم مُزْعة بعد مُزْعَة [٧] – حتى لا يبقى إلا الوضع في بناء العظام وهندستها – فما يدريكِ لعلّ أجملَ الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذ إلا أقبح القبح هناك .

أ فمن جِلدَة على وجه امرأة يجيء الشّعر والجنون معاً ، و يجتمعان في هذا الخيال الذي يُسَمّى الحبّ ، ويستنزلان معانيَ التّقديس من أعلى السّماوات إلى عين تلحظ لحظةً وشفةٍ تبسم بَسْمة ؟

إنه القَلَمُ الإلهيُّ المبدِع الحكيم ، هو الذي صَوَّر ولوَّن وافتنَّ ما شاء . فإن رُزِقَت امرأة جِلْدَةً جميلة مُشْرِقة كأنما تجري فيها الشّمس ، وأُلبست أخرى جِلْدَةً قبيحة سَفْعاء [٨] تجول فيها رهبة الظُّلْمَة ، فكلتاهما صورةٌ من صنع الله ، وكلتاهما تُظهر لوناً من ألوان الحكمة . وكلتاهما جاءت لمعنًى ، وكلتاهما – بَعْدُ – غِشاءٌ زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه ولا في تلك : وضعِ الحقيقةِ الجسيمة التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة ، والحياة لا تعرف البشرة إلا غطاءً على ما وراءها : اسْوَدّ أو ابْيَضّ ، وكان من لون المرمر أو من هيئة الطّين .

ولو أن كلَّ وجه في نساء الدُّنيا خُلِقَ دميماً نافراً،

---

(١) أكثر من ترى ؛ الناس لهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيهما والشيخ علي لم يكن له من حظ الإنسان إلا الجرعة واللقمة وغمضة العين . (٢) رَشّاشة العطر ، وهي ترجمة لكلمة vaporisateur ويسميّها العامّة « بخيخة العطر » .

(٣) المتكدس : الممتلئ عَضَلاً ، والمعصوب : الشّديد طيّ الجسم بعضه على بعض ، ومن سوسه : أي من أصله وطبيعته ، أو كما يقول العامّة : (من عوده) . (٤) ما عظم من أصولها .

(٥) أراده وطلبه . * (٦) أي هنا وهناك .

(٧) هي القِطعة من اللّحم . (٨) السُّفع : سواد مُشرب بحمرة ، والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته .

على أبشع ما نتصوَّرُه من القبح ، لكان كلُّ نساء الدنيا جميلاتٍ ؛ إذ يألف الطَّبْع الإنسانيُّ تلك الصُّورةَ الواحدةَ ، ويتقرَّر بها الذَّوقُ في الجمال ، وتستمرُّ بها العادة ، فلا يستبين وجهٌ من وجه آخر في صفة ، ولا يخالف مذهبٌ مذهباً في حالة .

ولكنَّ هذا الإنسانَ كُتب عليه الشَّقاء ، فخُلِقَ وخُلِقَ معه ما يُطْغيه وما يَسْتَفِزُّه وما يُخْرِجُه عن طَوْقه ، كما خُلِق له ما يُزَهِّدُه وما يطمئنُّ به وما يحصره في إنسانيته . فالجميلات والقبيحات كلهنَّ سواءٌ في أنهن نساءُ هذه الإنسانية ، لا تُقصِّرُ في ذلك واحدة عن واحدة ، وإنما يَتَفاوَتْنَ في أسباب الشَّقاءِ الإنساني الذي يَبْتلي الرَّجلَ بالمرأة ، ويمتحن المرأة بالرجل .

ولو سَما عقلُ الرَّجل إلى الغاية العُليا من كماله لرأى المرأةَ الجميلةَ الفاتنةَ في نصف جمال المرأة القبيحة ، ولبانت الواحدةُ عنده من الأخرى بأن الدَّميمة مُهَيَّأةٌ في نفسها لمعالي الأخلاق والجميلة مُهَيَّأةٌ لِسِفْسافِها [١] ، ولرأى مع هذه بعض طباعها ونَزَغاتها شرًّا مما تقدّم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قصَّرَ بها من حسن صورتها .

بَيْدَ أنَّ من شِقْوَة الطَّبع الإنساني أنه سَخَطَ القبحَ فأحاله فساداً ، وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر ؛ إذ كان في نَفْرَته وحبه لا يعتبر المنافعَ والحقائقَ ، ولكن الأهواءَ والشَّهوات . والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها ، أمّا الأهواء والشَّهوات فهي دائماً لا تقع إلا مُتَخَطِّيَةً حدودَ العقل ، إمّا إلى النَّقص وإمّا إلى الزِّيادة ، ولا تُغري بشيء إلا أوقعت به السّوءَ ؛ إذ لا يستوي في القَصْدِ ما خرجَ عن الحقيقة وما هو مُقَيَّدٌ بالحقيقة .

* * *

كان هذا وَحْيَ « الشَّيخ علي » في نفسي ، غير أنّي رددته عليه وأزلّني [٢] شيطانُ الحبِّ مرة أخرى ،

فقلت : « أ فترى الشَّوهاءَ على ما بها مما رَكَع للدَّهر وسجد [٣] ، ثم تلك المرأةَ التي سَمُجَ تركيبُها فتحامَتْها العيونُ ، ثم الأخرى التي قَمِعَت [٤] في بيتها تختبئ فيه من القبح فصارت سرًّا في صَدْر الحيطان ، ثم تلك التي تَلوحُ في النِّساء كالسَّطر المضْرب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التي أدبر جسمُها [٥] وتقبَّضت أعضاؤها وأصبحت جِلْدة تمشي وتتكلّم ؟ أ فترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتَشَكِّلة في ألوان الثِّياب كأنما تُلْبِس بدنها الجميلَ بدناً معنويا يدلُّ على معانيه ، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتّان عاطِلَةً من كل حِلْيَة ومع ذلك تَرِفُّ على حسنها روحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ ممّا عليها من البريق والشُّعاع ، أو المطْويَّة الممْشوقة المسْتَرْسِلَة ، كأنّها في قوامها و وجهها غُصْنُ الجمال وزَهْرَتُهُ ، أو الحسناء اللّعوب المزّاحة كأنما اجتمعت طباعُها من نور القمر أطلَّ في ليلة من ليالي الربيع يُداعب أوراقَ الورد النّائمة ، أو ... أو تلك يا شيخ علي ؟ »

قال الشَّيخ علي : « فيا ويلك ! إني والله بك مِنْ رجل لَخبيرٌ [٦] ، أ فمن أجل واحدة ؟ أ ما إنه لعلَّ الذي جعلها حقًّا عندك هو الذي يجعلها باطلاً عند سواك ، ولعله ما حَسَّنها في عينك إلا أنَّ طَبْعاً من الجِدِّ فيك استَمْلَحَ طَبْعاً من الهزْل فيها ، كما ترى مَعْنًى مكدوداً في إنسان يَسْتَرْوِحُ [٧] إلى نقيضه في إنسان آخر ؟ ولعلَّ من أمتع اللّذّات وأبهجها لقلب المهموم أن يَتَصَوَّر في همِّه من يعرفه طَروباً فرحاً ، وإنْ كان كلا الرَّجلين لا يَسْكُنُ لعِشْرَة الآخر لو تعاشرا واختلطا . وهذه القلوب لا تُؤْتَى من مَأْتى هو أدقُّ وأخفى من تَوَهُّم ما فيه اللّذّة ؛ فإن النَّفس ترجع عند ذلك بكُل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم ،

(١) السِّفْساف : الدَّنيء ، وأصله ما يَتَطاير من الغُبار إذا أُثير ، ومن الدَّقيق إذا نُخِلَ ؛ لأنه أهونهما ولا فائدة منه .
(٢) أزله : جعله ينزلق . *

(٣) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ، ويقال: رَكع للدَّهْر وسَجَدَ ، إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء ما به من الذُّلّ . (٤) هي القَمِعَة (بوزن مَلِكَة) ؛ وجمعها قَمِعات (كملكات) ؛ من تَسْتَتر لما ابْتُلِيَتْ به من قبح الصّورة . (٥) كاد يفنيها الهزال ، وتُسَمّى المَمْصوصَة . (٦) أي خبير بك وبما تُبْطِنُ وتُخْفي . (٧) استروح : استراح . *

ينصرف بها إلى تمثّل هذه اللّذّة التي استشرفتْ لها وطمعت فيها ، فإذا طَعْمُها في الدّم يهيج له سُعارٌ [١] الجوع العَصَبيّ . وما هي السَّرِقَةُ مثلاً إلا أن يضعَ اللّصُّ عينه على المال أو المتاع ، ويتذوّقَ طعمَ اليُسْر والفائدة ، فتجنّ أعصابه جنونَ الحاجة ، فلا يَرْعَوِي [٢] إلى شيء من الرأي يَزْجرُه أو يمنعه أو يكفُّه ، ويكون في الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق ، وكذلك يكون الفاسقُ متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونبّه معانيها في نفسه ، وقُلْ مثل هذا في كلٍّ من طار قلبه وطار صوابه .

« ألهُ عن وهمك يا بُنيّ ، وضَع الأمرَ على قاعدته ، وسدِّد نَظَرَكَ إلى حقيقته ، ودعني من حَبْل الباطل الذي تَجُرُّ فيه شيطان هواك أو يَجُرُّك هو فيه . وما تتكلّم عن اثنين من الخَليقة : أنت وهي ، ولو أنّ الأمر قد انحصر فيكما وفنيتَ بالحبِّ فيها لكانت هي الكونَ كلّه ، ولو فنيت هي فيك لكنت أنت ذلك الكون . وهذا – حرسك الله – موضعُ النّقص في النُّفوس العاشقة ، إذ تنقطع إحدى نَفْسَيْن من العالم إلى نفسها الأخرى ، وهو نقص أشبه بجنون المجانين ، بل هو مُتَمِّمٌ له ؛ فإنما ذَهابُ العقل في المجنون المخْتَبَل [٣] هو نصف الجنون الإنساني ، أما النّصفُ الآخر فهو تجرُّد العقل في العاشق المتَدَلّه . [٤]

نِصف الجنون في العاشق الذي يتجرّد من النّاس إلا مَنْ أحب ، ونصفه في المعتوه الذي يتجرّد من الزّمن إلا الحاضر .

إنه ليس للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل ؛ إذ لا يأمل هذا ولا يذكر ذاك ، وكلُّ سَعادة نفسِه في هذا النّسيان الذي طَمَسَ عليها وتركها كأنّما تعيش في غير عمرها ، بل في كل أعمار الإنسانية ، بل بغير عُمْر . وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخرُ مِمّن مضى ومِمّن يأتي ، ما دام الحبُّ قائماً ؛ فالحبيب هو الحبيب ، وكل النّاس بعده أدوات وشخص واحد هو الألِف واللام والحاء والباء ، والنّاس جميعاً نقطة صغيرة مُلْقاة تحت الباء فقط .

(قال الشيخ علي) : « ثم يَبْرَأ المجنونُ ويثوب إليه عقلُه فيعرف أنه كان مجنوناً ، ويُبْغِضُ المحِبُّ أو يَسْلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً ؛ أ فلا يكفي هذا – ويحك – في الدّلالة على أن الحبّ والجنون من أمٍّ واحدة وإن اختلف أبواهما ؟ وأنّ رأيَ العاشق في كل النّساء كرأي المجنون في كل النّاس : لا يجوزُ أن نأخذ بواحد منهما إلا إذا أخذنا بالآخر وأقرَنّاه في باب الصّواب والعقل ؛ إذ كلاهما حاصِل من حالة متى تَغَيّرَتْ فانقلبت اعترف صاحبُها عليها بالجنون ، وإن كانت إحدى الحالتين في طبيعتها و وصفها غير الأخرى ؟ وَيْلُمِّهِ [٥] وَصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه رأي ، و ويلمّه رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل !

* * *

(قال الشّيخ علي) : « سُئِلَ الحَلّاج [٦] وهو

---

(١) ما يأخذ من الجوع الشّديد شبه الجنون ، وحالة الأعصاب متى اهتاجت لأمر ؛ لا تكون إلا هكذا ، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحبّ . (٢) ارعوى : كفّ وارتدع . *

(٣) ذاهب العقل. * (٤) الذّاهب العقل ، السّاهي القلب. *

(٥) كلمة تُقال لتفخيم شأن الأمر ، تشعر الذّم ولا يريدونه ، وأصلها : ويل أمّه ، ولكنهم يُسْقطون الهمزة ، ومن أجل ذلك رُسِمَتْ كلمة واحدة ، وترسم كلمتين إذا أُمِنَ الخطأ فيها .

(٦) هو الحسين بن منصور الحَلّاج الصّوفي الشّهير ، اختلف العلماءُ فيه اختلافاً كبيراً ، و رُمي بالكفر ، وقُتِلَ سنة ٣٠٩ للهجرة ، وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة ، وما زال هذا التّصَوّف كالحقيقة نفسها : هي موضع المعرفة وموضع الجهل معا . ومن أبدع ما قرأناه في ذلك أن أصحاب الشّيخ عثمان القُرَشِيّ ، من أكبر علماء مصر في علوم الحقيقة والشّريعة ، قالوا له يوماً : « ما لك لا تُحَدِّثنا بشيء من الحقائق ؟ » فسألهم : « كم أصحابي اليوم ؟ » قالوا : « ستمائة . » فقال : « انتخبوا منهم مائة . » فانتخبوهم ، فقال : « اختاروا من هؤلاء عشرين . » فاختاروهم ، فقال : « استخلصوا من العشرين أربعة . » فكان الأربعة أئمة الجماعة : ابن القسْطَلاني ، وأبا الطّاهر ، وابن الصّابوني ، وأبا عبد الله القُرْطُبِيّ . قالوا : فلما انتهى الأمرُ على ذلك ، قال الشّيخ رحمه الله : « لو تكلّمت بكلمة من الحقائق على رءوس الأشهاد لكان أوّل من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة ! » فتأمّل غَوْرَ هذا البحر ، فما أبعده غوراً . وتوفي القرشي سنة ٥٦٤ هـ .

مَصْلوب يعاني غُصَّةَ الموت : « ما التَّصَوُّف ؟ » فقال لسائله : « أهْوَنُهُ ما ترى . » فهذا رجل يموت في سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوي العجيب . وعلى أنها قد دقَّت المساميرَ في أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلها ، وأنبتت في كبده من وَخَزات الجوع شجرةً من الشَّوك ، وأطلقت في عروقه من لذَعات العَطَش لهيباً من النّار ، وتركته على صليبه ممدوداً تتساقط نفسه – كما يُنشرُ الثَّوب الذي بلي وانسحق فهو يتمزَّق من كلِّ نواحيه – على هذا البلاء كلِّه ، لم تتغيَّر الحقيقة في رأي الرَّجل ، ولا فسد موضعُها في نفسه ، ولا رأى ما يكرهه النَّاسُ من الألم مكروهاً في ذاته فيميل عنه ، ولا ما يُحبّونه من اللّذَّة محبوباً فيميل إليه ، ولا تَسحَّب قلبه حركةً واحدة في السُّخط على الحكمة الإلهية فانتقصَها برأي أو اغتَمَزَ [1] فيها بكلمة ، بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحدِّ الإنساني المنتهي فيه إلى ما يبدأ عنده الحدُّ الإلهي الذي لا ينتهي ، ورجع آخرَه إلى أوَّله ، فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزّل به : اللّهُمَّ إنك بدأتني طفلاً غِرًّا ، جعله فِقدانُ العقل لا يملِك مع أحد إلا صياحه ، فخذني إليك طفلاً عاقلاً ، جعله العقلُ لا يملك مع أحد ولا صياحَه .

« و اذكر الطِّفل يا بنيَّ ، فرُبَّ مُعْضِلَةٍ من أمور هذه الدُّنيا يَحارُ النَّاسُ في آخرها وهي محلولة من أوَّلها . وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يُعَلِّموننا وهم يتعلَّمون منا ، غير أنَّنا لا نأخذ عنهم فلا نصلُح ، ويأخذون عنا فيَفسُدون . أ فرأيت ولدَ الشَّوهاءِ تعرف عيناه في كل ما طلعت عليه الشَّمس أجملَ من وجه أمه ، أو يرى طائلاً في وجه سواها ، أو يحنُّ إلى غير طلْعَتها ، أو يسكن إلى صدر غير صدرها ، حتى كأنَّ الله لم يخلق وجهَ حبيب لقُبلات مُحِبِّه إلا وجهها هي لقبلاته ؟

« إنّه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحية صفاته هو ؛ فإن القلب إذا لم يكن بهيميا مُنْعَكِساً أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيراً . ولبِست المرئيُّ صفةُ الرّائي فلا ينظر إلا جمالاً ، و اتَّصل الشُّعور الطَّيِّبُ الرَّقيقُ الجميل بين نظر النَّفس وبين ذاتِ النَّفس ، كما يصل الشُّعاع الذي يُلقى على حائط من المصباح بين هذا الحائط وبين المصباح ، فَيُغَشِّيه النّورَ وإن كان الحائط نفسُه من الطّين . فإذا كان القلب بهيميًّا زائغًا عن الإنسانية إلى حيوانيته ، استفاضت ظُلْمَتُهُ وشَهواتُه على ما حوله ، فلن يشهد من صفات الجمال شيئًا ، بل يرى في كل شيء من صفات نفسه هو ، حتى ليكون الوجودُ كلُّه في عين بعض النّاس كما يكون الطعّام كلُّه في فم المريض . ومثلُ هذا يعشق أجملَ النِّساء فلا يرى فيها جمالاً ألبَتَّةَ ، وإن هو خدع نفسَه في ذلك واختدع النّاسَ ، وإنَّما يرى شهوات ، شهوات جميلة ليس غير .

« أمّا القلبُ البَهيميُّ غيرُ المنْعَكِس – وهو ذاك الذي تحمله البهائم – فلا يحتمل فيه عقلٌ ولا يَحْتشد فيه خيال ، وما هو إلا أن يَنْصَبَّ الحيوانُ به على مَحْضِ المنفعة ؛ لأنّه عاملٌ في الطَّبيعة ، يُعدُّ من عُمّالها لا من شعرائها ، فليس عنده جمال يقع في ظاهر الرّوح ، وآخرُ يقع في باطنها ، وثالثٌ مُتَوَهَّم لا يقع ولا يمتنع أن يقع [2] ، وليس يعرف من معنى القبح إلا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرض فما تستقل إعياءً وضعفاً . وبذلك سلِمَتْ إناثُ البهائم من شرٍّ كثير يملأُ لغةَ الحياة النِّسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان : الجمال والقبح .

« والنّاحيةُ الأخرى التي ينظر منها الطِّفلُ لأمِّه الدَّميمة الشَّوهاء : ناحيةُ الصِّفات الإلهية ؛ فإن الحبَّ الصَّحيح الذي يمكن أن يُسَمّى حبًّا ، لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرها مما يُظْهِر البشريَّة على أتمِّها وأحسنها في الشَّخص المحبوب كما يظن النّاس خطأً ، بل هو في عكس ذلك ، أي فيما يخفي البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعاً ، ويُظهر في أمكنتها خصائصَ الرّوح المحبوبة وحدَها ؛ فمن ثمَّ يبدو لك شَخْصُ المحبوب على أيِّ

---

(١) طعن فيها . *

(٢) رأينا هذه الكلمة مَرْوِيَّة للمأمون ، وهي : إن الجمال إذا وقع في ظاهر الرّوح كان صَباحَة ، وإذا وقع في باطنها كان فصاحة . فزدنا عليها ما هو فوقهما ممّا لا يُعْرَف إلا بالتَّخَيُّل ولا حقيقةَ له في الواقع . (والصَّباحة : الجمال *)

أشكاله وهيآته كأنه تمثالٌ سماوي وُضِعَ لروحك خاصَّة ، فهو مَجْبولٌ من مادَّة واحدة ، هي مادةُ الفتنة ، ولو كان في أعين النّاس كافَّةً تمثالَ الأرض السُّفليّ يُصوِّر كل ما تشتَّت فيها من القبح .

« فإذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلَّ شيء فيها ذا معنى منه ، وكلّ معنًى منه ذا معنى فيك ، فما أنت من حبِّها في شيء ، ولو ذهبتْ من جمالها بعقول النّاس ، ولا هي عندك من الجمال في شيء ، ولو كانت في النِّساء كلَيْلَةِ البدر في الليالي ؛ ومن أجل ذلك لا يخلو الحبُّ من بعض معاني الوحي ، ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية (١) في النَّفس التي تعشقها ، وهل مَلَكُ الوحي إلا قوَّة المَزج السَّماويِّ في نفوس الأنبياء ، وهل روح الحبيبة إلا على قدْر من مثل هذه القوَّة في نفس محبِّها ؟ ولعل هذا يفسِّر لك سرًّا من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيَّمها الحب ؛ فإن تلك القوَّة المَزْجيَّة متى أفرطت على نفسٍ رقيقة حسَّاسة أذابتها واشتعلت فيها ، فأكلتها أكْلَ النّار للهشيم ، وتركتها تحترق أسرعَ ما تحترق لتنطفئ أسرع ما تنطفئ .

* * *

(قال الشّيخ علي) : « تلك هي الحقيقة يا بُنيّ ؛ فلن يأتي لكائن من كان أن يُقسِّمَ النِّساء إلى جميلات وقبيحات ، إلا إذا طوى في ذلك معنى القِسْمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ؛ ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطَبة بلغة لا هي من لغة البهائم ولا هي من لُغة الإنسانيَّة .

« أ فرأيت قطُّ ألفاظَ الجمال والقبح تشيع في أمّة من الأمم ، وتعلو بالأعين عن النِّساء وتنزل (٢) ، وتمتدّ بها وتنقبض ، إلا أن تكون أمّةً ضعيفة القوَّة قد اختلت أجسامُها ، أو ضعيفة الدِّين قد اختلت أرواحُها ؟

« انكشف القمرُ ذاتَ ليلة لرجل اسمه « من عباد اللّه المقرَّبين (٣) » فإذا البدرُ أسودُ كالحِبر ، وإذا مكتوبٌ في وسطه بالنّور : « أنا وحدي » ؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كلُّ ضياء الشّمس عليه أن يَسْوَدّ في عين الرَّجل الكامل الذي ينظر لروحه ، فما الذي يمنع مَن ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأةُ القبيحةُ في عينه كالقمر الأزْهَر ؟ (٤) »

* * *

في البدر ظهرت كلمةُ الألوهيَّة: « أنا وحدي » .

في وجه الحسناء تقرأ كلمةَ الألوهية : « أنا وحدي » فهل يمكن أن تقع الدَّميمةُ من الحسناء أقبحَ ما يقع ظلامُ القمر من نوره ، فلا تكون في وجهها هي أيضاً كلمة الألوهية : « أنا وحدي » ؟

* * *

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يُسَمَّى الجمال ، ولا المرأةُ الحسناءُ يكون فيها شيءٌ أجملُ من القمر ؛ فهي مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمهُ الجمال ، أ فيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيءٌ اسمه « القبح » ؟

* * *

القمرُ طالعٌ مُشرِقٌ كما كان ،
والجميلة الحسناءُ لا تزال فاتنة ،
والدَّميمة ظاهرة كما هي .
لم ينقص الكون من ثلاثتها شيء ،
ولكن أين أعينُ الرَّجل الكامل ؟

---

(١) نَسَبْنا إلى الجمع للخِفَّة ، وفرَّقنا بين هذه وبين النِّسبة إلى المَلِك (بكسر اللام) ، فإنها مَلَكيَّة (بفتح اللام) .

(٢) يقال : علتِ العينُ عن كذا : أي نَبَتْ عنه نفوراً فلم تلصق به ، فاستعملنا منها « نزلت » كما ترى .

(٣) هذا تَهَكُّم من الشّيخ علي ، يريد به طائفة فتياننا مِمّن يرون الدّين شيئاً قديماً في لغة قديمة ومذهب قديم : فليهنأهم البلاء الجديد الذي حلَّ من أنفسهم محلَّ الدِّين ، فجعل الرَّجل بلاء على المرأة إن تزوَّج بها أو أهملها ، والمرأة بلاء على الرَّجل إن كانت له أو لنفسها ، والوطن بينهما يقول ما تقول جهنَّمُ لأهلها : « لا تَدْعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » .

(٤) المشرق المضيء . *

الفَصْلُ الثّامِنُ

الشَّيْخُ أحمد (١)

و السّاعة أرى سَحابي أصفى ما تَمَثّل لي و أرَقّه ، كالسّماء في صَبيحةٍ سارية (٢) ، إذا غسلها اللّيلُ وأصبحت لابسة حريرَها من شَفَقِ الصُّبح الأحمر ، وأراني أنظر إليه وأهتِفُ له وأستَشْرِقُ في ضوئه ، كالطائر : لا يسعُه جِلْدُه مَرَحاً وتَقَلُّباً وحنيناً متى أصبح من اللّيلة المُمْطِرة إصباح الشّمس ، بعد أن أباتهُ بَيْتَةً كأنّها في عُشّ السّحاب .

وأشرق عليه صديقي هذا ؛ ولا و مُصَرِّف القلوب (٣) ، إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذني من الحنين إليه ما لا يكون مثلُه لصديق ميت ، بل لحبيب هاجر يشعِرك موتَ الأيام كيف يكون .

كانت صُحْبتُه إيّاي من أطراف الطُّفولة إلى آخر الشّباب إلى تُخوم الكهولة ، وهي أيّام شِبَعِ العمر ، لا يَطْعَم فيها من شيء إلا طَعِمَ من لذّة ، وما بعدها من تقاصُر الحياة واختلالِها إلا كأيام سوء الهضم .

إذا كان في امرئٍ من النّاس باق بعد شبابه ، فما أشبه هذا الباقي في جانب ما قبله بنَواةِ الثّمرة الحُلْوة من لُبابها : تنتهي فيما تأكل إلى النّواة ، ولكن بعد أن يكون أطيبُ ما في الثّمرة قد انتهى ، وتُفْضي بما يَنْعَصِرُ في الرّيق حلاوة ويسيل في الحَلْق لذّة إلى بقيّة من الخشب رَطْبِه أو يابِسِه ، فلو كانت النّواة من الذّهب ما رجعتْ لكَ من ثمرتها رَجْعَة . (٤)

يا أيامَ الشّباب ، أنتِ وحدكِ نورُ الحياة ؛ لأنك منذ الفجر ، وأنت وحدك نهارُ العمر ؛ لأنك إلى أن تَصْفَرَّ الشّمْسُ ، وليس وراءك إلا كآبةُ الليل تتقدّم ليلَها باسمةً في شفق المغرب .

يا أيّامَ الصِّبا ، أنت وحدك الحبّ ؛ لأن فيك ما في العيون الحبيبات ، أشخاصاً روحيّةً ظاهرةً بمعانيها الفتّانة ، فهي تلقي أشعةَ الجمال على كل ما تنظر إليه .

يا أيّامَ الرُّجولة الأولى ، إنّ في زمنك وحده تحُلُّ السّعادة في العقل ؛ إذ يكون العقلُ في عهدك ما يكون الطِّفل في عهده : لغته تجري من معاني الدُّموع والابتسام والضّحك ، ولا يستدير به إلا الأفواهُ الحبيبةُ التي تُقَبّله أكثرَ مما تَزْجره ، وحتى لو ضُرب لكان الضربُ سبباً من أسباب تقبيله فيما بعد.

يا أيّام الشّباب ، أنت وحدك العمر ، ومن بعدِ الشّباب كلُّ شيء يكون ، ففيه من الماضي فِعْلٌ مستتر تقديره : كان .

* * *

يرحمك الله يا صديقي الكريم ، تركتنا مُصْعِداً إلى الله في سُلّم كانت الأولى من دَرَجاتها عتبة هذا البيت في مصر ، وكانت الأخرى تلك العتبة الطّاهرة من بيت الله في مكة .

وذهبتَ عنّا وما علِمْنا أنك طائر يُغَطّي تحت رِيشه سرَّ الجاذبية العُلْيا .

واستودَعْتَنا الله واستودعناك فاشتبكتْ دموعٌ في دموع ، وما حسبنا أنّ أرواحنا تقيم من ذلك مَناحتَها قبل الفراق الأبديّ .

وخاطبناك عند البَيْن وخاطبتنا ، وما عَرَفْنا أن السّماء كانت وقتئذ تُكَلّم الأرض من شفتيك بألفاظ لها ما بعدها .

ونظرتَ إلينا طويلاً تلك النّظرة التي لا تكون إلا مِمّن يعرف حتى لا ينكِر شيئاً ، أو ممن يُنْكِر حتى لا يعرف شيئاً ، فإذا أنت تنكر من أعماق الأزل في تراب هذا العالم ونحن لا ندري .

وسألنا الله أن يَرُدّك علينا أيها العزيز ، فأثبتّ لنا أنّك من أعز ما في الحياة حتى سقط دونك الأمل

---

(١) هو الأستاذ المرحوم الشّيخ أحمد الرافعي ابن عم الكاتب ، وصديق نَشْأته ، ورفيق شبابه . والكاتب خال أولاده ، ذهب (رحمه الله) يقضي الحجّ فأفضى إلى ربّه من هناك ودُفِنَ بمكة.

(٢) صُبْح ليلة فيها مطر ، والسّارية : السّحابة تُمْطِرُ ليلاً .

(٣) هذا قسم ، وكان أكثر ما يقسم به النبي ﷺ .

(٤) الرَّجعة : ما تَستَرِدُّه مِمّا فات .

فلا يتمثَّلك إلا الفكرُ وحدَه .

* * *

وذهبتَ إلى بيت الله مُتَجَرِّدًا من الدُّنيا ، ليس لك منها إلا جسمك ؛ لِتَخِفَّ إلى محبَّته ورضاه ، فلمَّا شاهدت التَّجَلِّيَ الأعلى تجرَّدت من جسمك أيضًا واتَّصَلْتَ بنوره سبحانه وتعالى ، فلقد خلعت الدُّنيا مرتين ، ومات بعضك في مصر وباقيك في الحجاز ، وخلصت روحُك إلى ربها كما تخلص الجوهرةُ صافيةً مُتَلألئة بعد استخراجها من مَعْدِنها مَرَّةً وصَقْلِها للرَّونق مرَّةً أخرى .

وأبى الله لروحك الطَّيِّبة إلا أن تمرَّ في بيته قبل أن تمر إليه ، فتسبح في نور الملائكة ، وتَتَنَسَّم ناحية مهبها وهي تصعد أو تنزل بالرَّحمة على الحجيج [١] ، وتستضيء بتلك الشُّعلة القدسية التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله ﷺ ثم من سرائر أصحابه الطَّيِّبين ، ولا يزال ضَوؤها هناك كضوء الكوكب مُلتَمِعًا في سواد الحجر الأسود .

* * *

واختار الله لك بعد إذ انغمَسْتَ في نوره أن تصعد إليه فلا ترجع من ذلك النّور الأزليّ إلى ظلام الدُّنيا ، ولا تعود من النَّبع السَّماوي إلى حَمأة الأرض ، ولا تحلّ في بيت من بيوت الخلق بعد بيته هو عز وجل

واختار لك ما عنده على ما عندنا ؛ فما في أيّام هذه الحياة إلا غُبارٌ يثور على غُبار ، ولا في النَّاس إلا أحجارٌ تَتَحَطَّم على أحجار ، ولا في أخلاقهم إلا أقذارٌ تَنْصَبُّ على أقذار ، ولا بين الحوادث والنَّاس إلا كما بين الرِّياح والقِفار ، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تجمع الأصفارُ من الأصفار .

واختارك الله إذ اختار لك فما تركت (يرحمك الله) إلا علانيةً مشهودة ، وسَريرة مَحْمودة ، وآثارًا في الصَّالحات معدودة ، وأفراخًا في شجرة الحياة كصِغار الطَّير إذا رأت أباها فارقَ عُودَه .

يرحمك الله ، إن أول ما يشهد لك عند الله كعبته ؛ إذ كانت آخِرَ ما عرفتَ من الدُّنيا ؛ وإنَّ الذي يدخل السَّماءَ من باب الكعبة لَحَقيقٌ أن تضعَ له الملائكةُ أجنحتها : سلامًا وتحيَّة ؛ فهنيئًا لك إذ فتحت باب السَّماء بتلك القُبلة الزَّكِيَّة التي وضعتها على أستار الكعبة ؛ وهنيئًا لك إذ ذهبتَ لتقول : « لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيك » فانطلقت روحُك الطَّاهرة فيها ، وكانت أوّل كلماتك في السَّماء ؛ وهنيئًا لك ثم هنيئًا إذ قطعت البحرَ والبرَّ إلى خير بِقاع الدُّنيا لتقول لله من هناك : ها أنا يا إلهي .

* * *

إنَّ الحقيقة لا تَسأل كيف يحيا الحيّ ، ولكن كيف يموت ، ولا تَتعرَّف ما قُدْرَته على الإقامة ، ولكن ما قدرته على الرَّحيل ، ولا تبالي ما قوَّته على الرُّسوخ كالجبل ، ولكن ما قوته على الوثوب كالطَّائر . فهناك بين حدود الدُّنيا وحدود الآخرة موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه إلا ذو جناحين قد اشتدَّ كل منهما و وفى . [٢] وهناك مُنى انتهى الإنسانُ وجد عقلَه وضميره قد امتدَّا من جانبيه كالجناحين ، ورأى كل عمل من أعمالهما — في السَّيِّئة والحسنة — إمَّا ريشة قد نسَّلها من جَناحه ، وإما ريشة قد أنبتها فيه .

القدرةُ على جو السَّماء في جناح الطَّائر وفي ريش هذا الجناح وفي قوَّة هذا الرِّيش ، والقدرة على السَّماء نفسها في عمل الإنسان وقيمة هذا العمل وصحَّة هذه القيمة .

* * *

لسنا نبكي عليك أيُّها العزيز ، وإنما نبكي على أنفسنا ؛ فإن ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنيا غير الدُّنيا يُفْتَح لها تاريخ غير التَّاريخ ، والحقيقة التي ضمَّتها ملايين « المجلَّدات » المحفوظةِ في القبور [٣] هي هي بعينها لن تتغيَّر ولن تتبدَّل . فإذا بكينا الميت فما بكينا ذهابَه عنَّا ، ولكنا نبكي لبقائنا بدونه ، كما اجتمع نفرٌ من الغرباء في البلد النَّائي

(١) هم الحجاج .

(٢) طار ريشه . (٣) كناية عن النَّاس .

فيُخْتَرَمُ [١] أحدهم فما يرونه إلا معنى من أنسهم قد زال ، و رُكنًا من قوتهم قد مال ، وجانباً من نظامهم قد أفسده الاختلال . وما دام في الأرض باكٍ على ميت ؛ فالأرض دارُ الغربة لكلٍّ من عليها ، وهي لن تكون وَطَنًا لمن سيفارقها إلا إذا عُدَّ بَطْنُ الأم وطناً لابنها .

مِن وطن الأشهُر المعدودة ينحدر الإنسانُ إلى وطن السِّنين المعدودة ؛ أمّا الأزَلُ والخلود والوطن الإنساني الكبير فهناك هناك ، حيث لا تساوي كرةُ الأرض بما فيها أكثر مِمّا تساويه ذَرَّةٌ من التُّراب تَصْعَدُ أو تهبط .

وهذا الذي نكرهه عقلاً من أمر الدُّنيا هو الذي ترانا مُضْطَرِّين إلى أن نعقله كرْهاً شِئْنا أو أبَيْنا .

فابكي أيَّتها الأعينُ الإنسانية وتَهَيَّئي للبكاء ما دمت باقية ؛ إنَّ تيّار هذا البحر الذي تنصبُّ فيه الأحزان لا يغُبُّ [٢] من دموعنا التي نبكي بها لمكابدة الموت ، ولكن من دموعنا في مُنَازَعَة البقاء .

* * *

لهفي لِذكراهُ صديقاً كانت نفسه العالية كالنَّجمة وُهِبَت قوَّة النُّزول إلى الأرض ، وحبيباً لو انقسمت روحي في جسمين لكان جسمَها الثّاني .

كان دائماً كالذي يشعر أنه لا بدَّ ميتٌ وتاركٌ ميراثَ مودَّته ، فلا أعرف أنّي رأيتُ منه إلا أحسنَ ما فيه ، وكأنّما كان يُضاعف حياتي بحياته ويجعلني معه إنسانين .

وكان له دينٌ غَضٌّ كعهد الدّين بأيّام الوَحْي ، لا تزال تحتُّه رِقَّةُ قلب المؤمن وفوقه رِقَّة جَناح الملك يُخالط نورُه القلوب .

وكان حَيِيًّا صريحَ الحق ، ترى صدقَ نِيَّته في وجهه كما يريك الحقُّ صدقَ فكره في لسانه ، سامياً في مروءته ليس لها أرض تَسْفُلُ [٣] عندها وإنّما هي إلى وجه الله فلا تزال ترتفع ، ودوداً لا يعرف البغض ، مُحِبًّا لا يتَّسع للحقد ، ألوفًا لا يُسِرُّ المَوْجِدَة [٤] على أحد .

وكان رحيبَ الصَّدر ، كأن الله زاد فيه سَعَةَ الأعوام التي سينتقصها من حياته ، ففي قلبه قوَّةُ عُمْرَيْن ، وكان طيِّبَ النَّفْس ، فكأن الله لم يمدَّ في عمره طويلاً لأنه نفى منه الأيام الهالكة التي يكون فيها الإنسانُ معنًى من معاني الموت . [٥]

* * *

آهِ لو عرف الحقَّ أحدٌ لما عرف كيف ينطق بكلمة تسيء ؛ ولو عرف الحبَّ أحدٌ لما عرف كيف يسكت عن كلمة تسرّ ، ولن يكون الصَّديقُ صديقاً إلا إذا عرف لك الحقَّ وعرف لك الحبَّ .

لا أريد بالصَّديق ذلك القرينَ الذي يصحبك كما يصحبك الشَّيطان : لا خيرَ لك إلا في مُعاداته ومُخالفته ، ولا ذلك الرَّفيقَ الذي يتصنَّع لك و يُماسحك متى كان فيك طَعْمُ العسل ؛ لأن فيه روحَ ذبابة ، ولا ذلك الحبيبَ الذي يكون لك في همِّ الحب كأنه وطنٌ جديد وقد نُفيت إليه نفيَ المُبْعَدين ، ولا ذلك الصّاحبَ الذي يكون كجِلْدة الوجه : يحمرُّ ويصفرُّ لأن الصِّحَّةَ والمرضَ يتعاقبان عليها ؛ فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبداً إلا على أطراف مصائبك ، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئُ المصيبةُ لا من أين تبتدئ الصَّداقة . ولكن الصَّديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسُك لتتأمَّل فيها ، وإذا غاب أحسستَ أن جزءاً منك ليس فيك ، فسائرك يَحِنُّ إليه ، فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك ، وإذا تحوَّل عنك ليَصِلَك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ، وإذا مات ... يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت ، بل مات فيك ميتٌ ؛ ذلك هو الصَّديق .

وكُنّا ذات يوم على شاطئ النِّيل ، وبَزَغ الهلالُ كأنه إصبع ملَك من الملائكة خرقت ستارَ السَّماء لتحدث فيه ثَقْباً تنظر منه إلى نجمة ستهوي ؛ فقلت

(١) يهلك بجائحة من الجوائح . (٢) أي لا يتَدَفَّق .
(٣) كناية عن أنه لا ينحطّ فيها ولا ينزل سفلاً .

(٤) الغضب والحقد . * (٥) كأيام القطيعة والعداوة والكيد ونحوها مما يجعل أعمار النّاس أقصر مِمّا هي .

له :

« هذا الهلالُ ما انفكَّ يتلقّى نور الشّمس منذ خُلق وهو في نفسه مُظْلم أبداً ، ولكنّه من صُحْبته للنّيِّر قد أنار وصار مع الشّمس شمساً بيضاء ، فما أكرمَ الصّداقة من نعمة لو أصابها المرءُ على حَقِّها فيمن خُلق لها ! كان أهل الكيمياء القديمة يُسَمّونها : « علم زراعة الذّهب » وأنا أسَمّي كيمياء الشّمس في هذا القمر « زراعة الفِضّة » فماذا تُسَمّي أنت كيمياء الصّداقة في معادن القلوب ؟ »

قال : « أسمّيها : « زراعة الخير . » »

قلت : « فإن لم يُنْبت وأكله لؤمُ أرضه ؟ »

قال : « ذلك إلى الله لا إلينا ؛ فإن في هذا الوجود قانوناً دقيقاً للخيبة لا يتسامح في شيء ، وما يعرف منه النّاسُ إلا حُكمه حين يقضي فينفذ قضاؤه بدَرْك الشّقاء . ألا إنه ما من الخيبة في الحياة بُدّ ؛ فإنها رَدُّ الأقدار علينا حين تقول « لا » ؛ وهذه الخيبة هي العلم الذي موضوعه أن يعلمَ هذا الإنسانُ المغرور أنه شيء في الحياة ، لا كلُّ شيء فيها ، فإذا كذَبك صديقُك مِمّا قِبَله وغَمَّك بكثرة خطئه وزَلَلِه ؛ فلا تزرعه مَقْتاً وبغضاً بعد أن زَرَعْتَه خيراً وحُبا ، ولا تقطعْه ، بل انتظر فَيْأته [1] ؛ فإنَّ فِتْنة الصّدر غامضةٌ . ولقد يكون أشدُّ البغض من أشد الحبِّ ، وليس لنا مع سُفن القلوب إذا اختلفت رياحُها وهبّتْ عواصفها إلا أن نطوي الشّراع ولكن إلى وقت .

« فإذا جَهَدَك البلاءُ من صاحبك وبلغ منك اليأس ، فما يسوغُ لك أن تكون معه إلا كالذي حفر الحفرةَ ثم طمَّها [2] بترابها ألقى فيها ما كان فيها من قبل ومضى كأن لم يكشفها . »

قلت : « آه ! فإذا كانت الحفرةُ من شرِّها في عمق البئر ذاهبةً إلى الأغوار البعيدة ، أفأقضي شَطْرَ العمر أردم فيها بعد أن قضيتُ شَطْرَه أحْتَفِرُ منها ؟ »

(١) الفيأة : الرّجعة ، كما يدور الظّلُّ ثم يرجع إلى مكانه .

(٢) ردمها وغطاها .

قال : « فمن ذا جعلها بئراً سواك ؟ »

قلت : « ولِمَ لا أدعها بئراً خَسيفة [3] ، يلعنها عمقُها الغائرُ فيها بأنها فارغة مُظْلِمَة ، ويلعنها ترابُها القائم عليها بأنها متروكة مهمَلة ؟ »

قال : « سبيلُ الفَضيلة غيرُ هذا ؛ فكن مع النّاس في حال تُشْبه مَحَلَّ نفسك لا محلَّ أنفسهم ، وما أنكر أنَّ من النّاس من يوقعون في نفسك الظِّنّة [4] بكَيْتَ وكَيْتَ من سوء خُلُقهم ، وكذا وكذا من قبح أعمالهم ، حتى لتكونَ صداقةُ أحدهم كأنها نصف معركة حربية ، ولكنَّ الهزيمة عن صديقك وأنت صديق خيرٌ من النُّصْرَة عليه وأنت عدوّ ؛ فتَحَصَّنْ من كيد هؤلاء وأشباههم بالانهزام عنهم لا بمدافعتهم؛ فذلك إنْ لم يُقْعِدهم عنك لم يُلحِقْهم بك ، ثم إنْ رَدَّك إليهم رادٌ بعدُ كنت الأكرم .

« واعلم أن أرفعَ منازل الصّداقة منزلتان : الصّبْرُ على الصّديق حين يغلبه طبعه فيسيء إليك ، ثم صبرُك على هذا الصّبر حين تُغالب طبعَك لكيلا تسيءَ إليه .

« وأنت لا تُصادقُ من الملائكة ؛ فاعرف للطّبيعة الإنسانيّة مكانَها ؛ فإنّها مَبْنِيَّة على ما تكره ، كما هي مَبْنِيَّة على ما تُحِبّ ، فإن تجاوزْتَ لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفتْ لك ما ترضاه فَوَفَتْ زيادتُها بنقصها ، وسَلِمَ رأسُ مالك الذي تُعامل الصّديق عليه . »

* * *

قلت : « فإني لا أعني ذلك أضع « رأس » المال بيني وبينه ، ولكن شخصاً آخر وضعت «قلب» المال بيني وبينه . »

قال : « فههنا إذن ! ومن هنا صارت الحفرة بئراً. ولكن أفْتِني فإني لا أعرف هذا الذي تسميه الحب : فهل هو بين النّفْسَيْن شيء غير الصّداقة ؟ »

قلت : « هو هي إلا فَرْقاً واحداً . »

(٣) أي منخسفة عن الأرض . (٤) الظِّنّة : التُّهمة : تجد من أخلاقهم وأعمالهم ما تتّهم صداقتهم به .

قال : « إن كان واحداً فلقد هان ، فما هو ؟ »

قلت : « الفَرْقُ بينهما أنك ترضى أن يكون الصَّديقُ لنفسه أكثرَ مِمّا هو لك ، ولكنك لا ترضى إلا أن يكون الحبيبُ لكَ أكثر مِمّا هو لنفسه . »

قال : « فذاك رِقٌّ لا حُبٌّ . »

قلت : « وهذا هو الذي يجعل الحفرة بئراً ، فالصَّداقة في المودَّة تجذب الطَّبع ليتَّفقا ، ولكنَّها في الحبِّ تجذب الطَّبعين ليكونا دائماً عند النُّقطة التي يتناقضان منها . وأعظم ما يسوؤك من الصَّديق لا يزيد على أن يردَّك إلى نفسك وحَسْبُ ، ولكن أيسر ما يغضبك من الحبيب يُسَلِّط نفسك عليك بسوء التَّحكُّم والإعنات والآراء الفاسدة ، حتى يترك دمَك وكأنه تيّار من الغيظ ، فإذا حبيبُ نفسك أعدى أعدائها ، وإذا هو قد أصبح العدوَّ لأنه لا يزال الحبيب ! »

قال : « أَمَا إن هذا تعقيدٌ على النَّفس ، وهو العلَّة في أن المحِبَّ المَغيظ لا يسكن غيظُه ولا يهدأ فَوْرُه [١] ؛ لأنه يحلّ العُقْدة الواحدة بطريقة تجعلها عقدتين ، ولكن : أَوَ ليس خيراً لك إذا أنت دُفِعت إلى العدواة في الحبِّ أن تستشعرَ بكَرَم الملك الذي في نفسك لؤمَ الحيوان الذي في صاحبك ، فترجع بنفسك أنت إلى مَلَكيتها وتردّه هو إلى حيوانيته ؟

« أَمَا إني أعرف لأهل الحبِّ دواءً ما يمرضُ بعده رجلٌ من امرأة أساءت إليه : أيُّها العاشق ، أَمَا صدمَتْك بهيمةٌ من البهائم أو رَمَحَتْك [٢] أو جَمَحَتْ بك فأوجعتْك بلا غيظ ، وأساءت إليك بلا حِقْد ، وكَسَرَتْك بلا انتقام ، ولم يتعاظمك من أمرها شيء في الوهم ولا في الحقيقة ؟ أَلا وَيْحَك ، ألْبِسها جِلدَها وحوافرها [٣] ، ولا تتمثَّلها في مُخَيِّلَتِك إلا وجهاً جميلاً على جسم حيوان ؛ فإنك إن تفعل ذلك وتأخذ نفسك به ؛ تطمسْ عليها في مَحبَّتك طمساً ؛ ولا تجد لها في قلبك إلا النَّفْرَة والاشمئزاز ، وتُعجز فيها الشَّيطان ، لا يدري من أين يأتيك ولا كيف يَتَدَسَّسُ بها إلى دواهيك ، ما دام لها عندك الجِلْدُ والحافر .

« ولعل النَّاسَ لم يعتادوا فيما بينهم أن يتنابزوا ويَتَسابُّوا في عبارات السُّقوط والتَّحقير بأسماء من أسماء البهائم : كالكلب والخنزير والحمار ، إلا على هذا الأصل الذي بيَّنْتُهُ لك ، تُوحي به غريزةُ الكراهة والسُّقوط من حيث يدرون أو لا يدرون .

« الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصَّداقة وأسفلها ؛ أَلا ترى أنَّه ما دام الحبيبان على أسباب الرِّضا فكلاهما أو أحدهُما يتمثَّل الآخرَ كما يتمثَّل مَلَكاً من الملائكة ، بل ويسَمِّيه المَلَك الحارس ، أو الملك المُوحي ، أو الملك المقدَّس ، فإذا صار إلى الخلاف واستحكم بينهما ، لم يُغْنِ طلبُ المعاذير تتعزّى بها الصَّداقة ، ولا طلبُ العثرات تشتدُّ بها العداوة ؟ وليس للمغيظ منهما شيءٌ دون أن يعمد إلى تلك الصَّداقة فيجعل عاليها سافلها ؛ فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صوابُ الحبِّ في هذه الحالة قائماً على عكس الحالة الأولى ؛ فما كان في صورة مَلَكيَّة ليثبتَ عليه الحبُّ وجب أن ينقلب في صورة حيوانية ليزولَ عنه الحبُّ .

* * *

يا من أسكره الغرام ، إن عَرْبَدَ حبُّك فاحْطِمْ كأسه وأرِق خمرها ولا ترها إلا سما ؛ فإنَّ أكبرَ البلاء على السكِّير أن يُلْبِسَ الحقائقَ المهْلِكة أثوابَ زينتِها ، فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمر ولكنه يَنْقَعُ غُلَّةَ [٤] أحزانِه بكأس من ماء السُّرور ، ولا يتوحَّل في السُّكر ولكنه يَستَمْطِر على خموله سَحابةَ النَّشاط ، ولا يتجرَّعُ الجنونَ ولكنه يذيبُ همومَه في جَرْعَة من النِّسيان .

« أَلا ما أصدق الخمرَ في السكِّير وهي صامتة ، وأكذبَ السكِّيرَ على الخمر وهو يتكلَّم ! »

* * *

(١) غضبه . * (٢) رمحت الدَّابة : رَفَسَتْ .

(٣) نحسب هذه العبارة ستجري بين المحبِّين مجرى الأمثال ، فإذا شكا إليك مُحِبٌّ يريد السُّلُوّ ولا يطيقه ، فاختصر علمَ النَّفس كله في قولك : « ألبسها جِلْدَها وحوافرَها » .

(٤) الغُلَّة : العطش الشديد ، ويَنْقَع : يَروي . *

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الشَّيخ محمَّد عَبْده

وشَفَّ [١] سَحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له ، أذكرَني روعةَ السَّحابة التي كان يهبط فيها ملكُ الوحي ، ليست في نفسها آية ولكن الآية فيها.

وظهر لي وجهُ الشيخ ، وما أدراك مَن الشَّيخ ؟ ثم ما أدراك من هو ؟ [٢] رجل كان في تركيب العالم الإسلامي أشبهَ بالجبهة من جسم المؤمن : هي مَجْلَى [٣] نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعيُن ، ولكنها مع ذلك أوّل ما يسجدُ لله من هذا الجسم كله .

خُلِق فصيحًا مُبين اللَّهجة ؛ لأن لسانه أُعِدَّ لتفسير معجزة الدّنيا في هذه اللغة ، فكان لسانه — ولا غَرْوَ — معجزةً في الألسنة ، وكان له بيان يَنْبَثُّ [٤] من طبعه المصقول كالشُّعاع الذي تُوامِضُكَ به المرآة إذا انقدحت جمرة [٥] الفلك عليها .

وكان له عقل لو وُزن في رُجْحانه لعُدَّ بين العقول من موازين التّاريخ ، وقلبٌ إن يكن في جنبيه كالقلوب التي وضِعَت على مُنْحَدَر المعاني الأرضية فإنه كان دون القلوب على مَهْبِط السّماوات . [٦]

رجل لم يُخْلَق من قبل زمنه ؛ لأن الأقدار المصرِّفة ذَخَرَتْه [٧] للقرن الرّابع عشر ؛ تجعله و أصحابَه النَّهضةَ الثّالثة في الإسلام [٨] ، وكتبَتْ له أن يكون الكَنْزَ الثَّمين الذي يُفْجَأ العالمُ بانكشافه ؛ ليعود القديمُ المبْدَع الذي كاد يُنْسى فيتمكنَ في الأرض بأسلوب جديد . وما يدريك ، لعلَّ هذا الحكيم الفذّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التِّمثالَ العقليَّ المشرف على الأجيال ، يفصل في تاريخ الإسلام بين ثلاثة عشر قرنًا مضت وثلاثة عشر قرنًا تأتي .

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده ، على بُعد عصره من فجر الإسلام ؛ فكان يحمل في رأسه ذِهْنًا كآلة اللاسلكي ، تهبط عليه من أقاصي الدّهر شرارة النُّبوّة ، فإذا تكلّم في آية رأيتَ كأنما تتكلّم الآية نفسها على ملأ العقل بين مشارق الأرض ومغاربها .

ولست أدري على أيّ رُوح نَبَتَ هذا الرَّجلُ ؟ ولكن الذي أعرفه أنه حين أثمر فنضج فحَلا ، أذاق النّاسَ من ثمره طعمَ مُعْجِزة الفكر العربي .

* * *

نظرتُ إلى عينيه ذات مَرّة فخُيِّل إليّ أن فيهما رهبةَ الأسد حين يُجَلّي بنظرة كبريائه [٩] ليدلّ على أنه الأسدُ لا غيرُه ، فمددتُ النَّظر إليهما ؛ فإذا رَوْعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا ، وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشُّعاعَ الغريب الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصلَ بين السِّرّ الكامن في المعقول والسِّرّ الكامن في العقل ، وكأنه استشعر ذلك فتبسَّم ، فكان لنظرته جلالٌ سَماويّ رحيم ، أشرق على نفسي كما تُشرق على روح الطِّفل ابتسامةُ أصله الإنسانيّ . كان مُنْطَويًا على حقيقة روحانيَّة يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله ، فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالسٌ مع الرَّجل ولكن مع النَّفس العالية التي هي فيه . [١٠] وكان أعظمَ هَيْبَةً من الملوك ؛ لأن

(١) شف : لم يحجب ما وراءه . * (٢) قال الرّاغب : كل موضع ذكر في القرآن (وما أدراك) فقد عقب ببيانه ، نحو : (وما أدْراكَ ما هِيَه ، نارٌ حامِيَة) ؛ وكل موضع ذكر فيه (وما يدريك) لم يعقبه بذلك ، نحو : (وما يُدْرِيكَ لعَلَّ السّاعَةَ قَريبٌ) قُلنا : وهذا من أدقّ معاني الإعجاز ؛ فإن (أدراك) صيغة الماضي ، والماضي مكشوف معروف لأنه وَقَع ، ولكن (يدريك) صيغة المستقبل ، والمستقبل محجوب ؛ فتأمّل وكرِّر النّظر ؛ فإن المقام لا يّتسعُ هنا . (٣) المجْلى : مُقَدَّم الرّأس . * (٤) ينبَثُّ : يتفرق وينتشر . * (٥) كناية عن الشَّمس . وتُوامض : تَبْرق . (٦) ليس همّه إلا المعالي ومصالح الخلق . (٧) ادّخرته . *

(٨) نهضة الأخلاق زمن الصَّحابة والتّابعين ، ثم نهضة العلم من بعدهم ، ثم نهضة العقل الإسلامي التي كان يدعو إليها الشَّيخ رحمه الله . (٩) أي يرفع بصره وينظر نظرته الشَّديدة .

(١٠) قابلتُ الشَّيخ (رحمه الله) في الجامع الأزهر مرَّة من المرّات ، واستأذن عليه طالبٌ من نوابغ الطّلبة وأذكيائهم ، فلما =

هؤلاء يحيطون أنفسهم بالدِّيوان والمواكب والأسلحة وكثير من ضروب التّوقير والتّعظيم ، أمّا الشّيخ فكنتَ تراه حيث رأيته كالمِحْراب حيث يكون : لا يقف عنده إلا من وقف لِيَتَخَشّع ، وما ذكرتُه إلا ذكرتُ قولَ القائل : في هذه الصّورة الآدمية آدمُ والملائكة له ساجدون .

* * *

كان هذا الإمام الفذُّ في قوّة من ربّه كقُوّة الجبل ، يحمل ما يحمل ولا يتلوّى ، وفي سَعَة من طبعه كاستفاضة البحر : يغمر ما يغمر ولا يتغيّر ، وفي صراحة من نفسه كاستطارة النّهار [١] : يطلع كما يطلع ولا يخفى ؛ فهو رجل لكنّه فِكرٌ من أفكار السّماء ، وهو جسم لكنه عَضَلَة من عضلات الطّبيعة ، وهو إنسان لكنّه حقيقة من حقائق الكون .

يصفه النّاسُ بأنّه الرّجل الحكيم الذي أوتي سِرَّ الحكمة لينبُغَ به ، ويصفه التّاريخ بأنه الحياة المجدِّدة التي وُهبت سِرَّ العظمة لتعمل لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفَسِّر الذي اتّصل به طرفُ السّرّ الأعلى ليتكلّم عنه وليعمل له ولينبغ فيه .

إذا كان في بعض جوانح الأرض أمكنةٌ نادرة مقدّسة – هي قلب الدُّنيا الذي أودعه الله سِرَّ التّألّه – ففي بعض جوانح الناس قلوب نادرة هي كتلك الأمكنة ، ولقد كان العالمُ الإسلاميُّ كلُّه يتّصل من قلب الشّيخ العظيم بمَنْسك [٢] فيه معنًى كمعنى الكعبة إذ تُوَلّي شَطْرَها كلُّ وجوه المؤمنين .

* * *

وأما بعد : فكأنما أفرط عليَّ القلمُ فيما كتبت عن الحب ؛ فإنه يُخَيَّل إليَّ السّاعةَ أن روحَ شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا الكتابَ كله وتدعه ورَقًا أبيض [٣] ، ويخيل إليَّ كذلك أني كنت ماضياً فيما أكتبه كما تَتَعَكّسُ الأفعى [٤] في مشيتها ؛ إذ يندفع نصفُها ليجُرَّ النّصفَ الآخر ، فلا تدري إن كان آخرها معلّقًا بأوّلها أو الأول هو مُعَلّق بالآخر .

وكذلك كنتُ أكتب ، فمرّةً أجِد الفكر يجرّه القلبُ جَرًّا ، ومرّة أجد القلب ينسحب للفكر . وبين ظَهْرَيْ ذلك [٥] أراني ساعةً مُمْتَلَخ القلب ، وساعة مُدَلَّه العقل [٦] كأني لم أحب إلا لأتحوّل رجلاً شاذًّا تراه في الحب والبغض وفي الصواب والخطأ وفي الفكر والحِسّ ، على حدٍّ مِمّا يُعْرَفُ وحَدٍّ مما لا يُعرف ؛ فليس كله من هذا و لا كله من ذاك ، وهو مُحِبّ إلا أنه يُبغض ، ومبغض لكنه يحب .

إنّ زَفْرَةً من جهنّمَ ونَفْحَةً من الجنّة جاءتا إلى هذه الدُّنيا فرأتا من خُبْث الناس بِدْعًا مُبْدَعًا [٧] حتى لا يخلصون بأعمالهم إلى جنّة ولا نار ، فلا هم من أهل هذه وَحْدَها ولا أهل تلك على حِدَة ، فاختلط نَفَسُ الجنّة بزفير النّار وامتزجا حَرًّا يستوقد الضُّلوعَ ببردٍ تَثْلَجُ عليه الصُّدور ، واجتمعا نعيماً ببؤس ، وراحةً بتعب ، وسروراً بهمٍّ ، ثم وقعا في القلوب معًا فإذا هما الحبّ .

كذلك توحي إليَّ روحُ الشّيخ .

أنت يا هذا ، إن أحببتَ امرأة فهي كما تُثير كلَّ ما فيك من الكمال تُنَبّه كلَّ ما فيك من النّقص ، بَيْدَ أنها تجعل هذا النّقص عُلْويا وهو أفسدُ له ، كالزّوبعة إذ ترفع من الأرض خَلْقًا ماردًا من الغبار

= مَثَل بين يديه وقف كما يقف المصَلّي – واضعاً يديه أسفل صدره ، رامياً بطَرْفه إلى الأرض – وتكلّم كالمناجي المتضرّع حتى فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك ، ولما خرجت لحقتُ به وكلّمته فيه ، فقال : وأنا أنكرت من جلوسك إلى جانب الشّيخ تلك الجِلسَة ما أنكرتَ أنت من وقوفي على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحدَنا لا يقف أمام هذا الرّجل إلا كما يقف العالِمُ إزاء كتاب نادِر مضى يُفَتّشُ عنه عدّة سنين فلما رآه سجد لله شكراً ، وأنت تحسبه يسجد للكتاب

(١) انتشار ضوئه . *

(٢) مَناسك الحَجّ : عِباداته ، وكذلك مواضع العبادات .

(٣) لما انتهيت إلى هذا الموضع من الكِتابة ، وفرغت من صفة الشّيخ دهمتني فَجاّة من فجآت المرض أنستني بأيامها كلَّ ما كنت أريد أن أخطّه في هذا الفصل ، وكسرت حِدّة نفسي وهيّأتني تهيئةً جديدة لكلام جديد ، فكان هذا من أعجب ما اتّفق.

(٤) تَعَكُّسها : أن يتراجع بعضُها على بعض في انسحابها .

(٥) أثناء ذلك ، تقول : هو يتكلّم ويعمل كذا بين ظهري ذلك ، أي في أثناء الكلام .

(٦) أي ذاهبهما .

(٧) أمراً غريباً .

مُلْتَفًا بالنّور ذاهباً إلى السّماء ، فيكون ارتفاعُ الغبار شرًا طائرًا لم يكن في الغبار السّاكن . أ فتحسَبُ أن حبَّك إياها هو الحب ؟ كلا بل هو بادئُ الأمر حبُّك أن تُعْجَب بك ، ثم يزيد فإذا هو الحبُّ أن تميل إليك ، ثم يبلغ فإذا هو حبُّك أن تخضع لك ؛ هذه ثلاثٌ كلُّهن مَفسدة ، فإن هي أدّت في رجل واحد من الإنسان إلى فضيلة واحدة أدّت إلى ألف رذيلة في ألف رجل من هذا الحيوان . (١)

كلُّ شيء يمكنك أن تضعَ ضميرَك في أوّله فتمضيَ فيه على بصيرة إلا هذا الحب ؛ فإن ضميرك لا يأتي موضعَه فيه إلا آخرًا ، فإذا أنت أردت أن يحكم قلبُك على من تحبُّها ، وأن تأخذ عليها حكمَ قلبها (٢) ، فإنما تريد بنفسك الألم لا الحب ، تريد أن تَستَوْحِيَ الدُّموعَ وتخرج منها كلامًا يبكي ، تريد أن تزْدَرِع (٣) شجرة الجنون التي ينبت فيها زهرُ الشّعر. وهذا لا يُسَمّى حبا لحبيبة ، ولا يؤمَن إلا على كبار الحكماء ، كما لا يؤمن فحصُ الآلة المُهْلِكة إلا على كبار العلماء والمخترعين .

أنت يا هذا إن أحببت خاضعٌ لقلبك ، ولكنك أنت وقلبُك سائران في طريق قلبها . يقول كلُّ مُحِبٍّ في حبيبته : لا هي إلا هي . أ فلا يدلُّ ذلك على ضلال الحب وإفساده مَلَكَةَ التّمييز ، وأنّه شيءٌ من الخَبَل يَعْتري فكرةً بعينها في العقل ويُخرجها إلى الهَوَج والبَلَه ؟ وإذا ساغ لكلِّ مُحِبٍّ أن يقول في صاحبته : لا هي إلا هي ؛ فمعنى ذلك أن (الهِيّات) كلُّهنّ عَبَث وباطل ، وتكون الحقيقةُ الطّبيعية التي يُصرِّح عنها هذا القِياسُ أن كلَّ (هِيَ) مثلُ كلِّ (هِيَ) في الواقع ، ولا انفرادَ لها إلا في عقل مجنون لا مِساكَ له من المنطق ولا عِبْرَةَ به في القياس .

من أعجب الأمور أنّ الصّفات التي يُعَدُّ بها الإنسانُ إنسانًا تخضع كلها أحيانًا لصفة واحدة من تلك الصّفات التي يُعَدُّ بها الإنسان حيوانًا . فإن خدعك بائعٌ مثلاً في دراهمَ معدودات لا تُمْضِ الأمرَ على أنه خدعك ، بل تعرف أنه غشَّك ، ثم لا ترى أنه غشك ، بل ازْدَراك ، ثم لا تقول إنه ازدراك ، بل تَهَزَّأ بك ؛ وهذه حركة للنّفس في اندفاعها إذا تُرِكَتْ تندفع وتُركت المعاني الغَضَبِيّة تخوض في دمها .

ومن ثمَّ فلا يكون البائعُ في رأي نفسك قد سَلَبَكَ بعضَ الدّراهم ، بل شيئًا من القوّة التي بها حَوْلُكَ وحيلَتُكَ ، ومن الذّكاء الذي تُعامل النّاس عليه ، وسلبك بعضَ الشّأن الذي يجعلك رجلاً ذا بَصَر ومَعْرِفَة . وعلى قَدْرِ ما يتحرّك من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحِقد إن كنت رجلاً داهيةً ذكيًا ، وبخاصّة إذا رأيت البائعَ لا يُبالي أن تعرف أنه تَغَفَّلَكَ ، بل يجعل من هَمِّه أن تعرف ذلك ؛ فلا تعود الدّراهمُ أشياءَ كما هي في نفسها من ضعف الخطر والقيمة ، بل كما هي في نفسك مما وُضِع أمرها عليه ؛ فلا تنحَطُّ قيمتها إلا بانحطاط قيمة النّفس ، وتلتحق بمعاني القهر والغَلَبَة وما كانت إلا من بعض معاني الرِّبح والخَسارة .

وعلى هذا المثل يقاس أمْرُ الحُبِّ ونكَده وجنونه ؛ فما هو على قدر المرأة ، ولا بمقدارٍ مما تعطيه ، وإنما هو استِخْذاء المعاني الإنسانية وخضوعها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كلُّ ما في هذا الإنسان إليها ، والأمر بعدُ كما قال أحدُ الأطباء في تعليل الجوعِ إذ قال : إنَّ المعِدَةَ متى خَوَتْ (٥) وفرغت من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابُها الباطنة برسائلها العصبية إلى ساقَةِ المخ (٦) ، وإلى مركز الأعصاب في العمود الفِقْرِيّ ؛ تؤذن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر . قال : فتترجم مراكزُ الأعصاب السُّفلى هذه الرّسائل إلى جوع .

وقل أنت مثلَ ذلك في القلب ؛ فإنّه متى وقعت امرأة من حاجته موقعًا ، طَمِعَ إليها فأرسل رسائله

(١) كان أكثر زجر الشّيخ لأحد أن يقول : « يا حيوان ! » فيُوَبِّخ ولا يقول إلا حقا .
(٢) أي لا يحكم قلبُها عليها إلا بما أردت أنت .
(٣) تزرع . *
(٤) مُمْسِك . *

(٥) أي خَلَت ، والخَواء (ويقصر) : خُلُوّ الجوف من الطّعام .
(٦) الجزء الخَلفي منه .

العصبية إلى المخِّ بأنّه من الواجب إطفاءُ هذا الغليل المحرِّق ، فتترجم مراكزُ الأعصاب هذه الرَّسائلَ إلى حُبٍّ .

وأنت أعلى عيناً [١] بأنَّ هذا كلّه نقلٌ للمعاني الحيوانية إلى اللُّغة التي تُحَرِّك النَّفْس ، فتُلْجِئها إلى تسخير قُواها في دفع الألم ، إن كان حقيقة أو خيالاً. فإذا أضلعَك أمرُ الحب وضقت به وعجزت أن تصرف القلبَ عن رسائله ، فاشغل العقلَ عن ترجمتها ، وأحْكِم مَعاقِدَ هذه الخيالات وَمقاصِدَها ، وازدَرِ تلك الحيوانية ، وأبقِ الدِّرهمَ على قيمته ، ولا تحسبنَّ المرأة معطيةً أكثر مما فيها ، ولا تتوهمنَّ أحسنَ ما يبدو لك منها – إذا سَحَرَتْ به على عينك – إلا صورة مسحورة من أقبح ما فيك أنت . فإن قرَّرْت في نفسك هذه القواعد ، وأجريت عليها ما يترجم لك العقلُ من رسائل القلب ، جاءك من هذه الرَّسائل الحكمة والفلسفة والكبرياء والأَنَفَة ، أو الصَّبر والأناة، وخُضْتَ الغَمْرَة [٢] بذراعين فيهما السِّباحةُ والنَّجاةُ لا الاختباطُ والغرق .

كذلك أوحت إليَّ روح الشيخ .

* * *

في منطق الحِسِّ : متى وُجدت الأسبابُ جاءت النَّتيجةُ من تلقاء نفسها ؛ لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدَماً ، فاحذف الأسباب تسقط النَّتيجة . ولكن الأمر عكس ذلك في منطق الحب : إحذف النَّتيجة تسقط الأسباب كلها ؛ فإنك إن لا تفكر في لذَّة ترجوها أو تحرص عليها نسيك الحبُّ قبل أن تنساه ، وهل علمت قطُّ عجوزاً تُعْشَق لأنها عجوز ليس فيها إلا حُطامُ العمر ، أو عَرَفْتَ إنساناً يَحْدُسُ [٣] عليها ظنا من ظنون الحب أو يصل بها سبباً من أسباب المَطْمَعَة ؟ أ ما إن هذه الفانية منطقٌ سقطت نتيجتُه فلا يمكن في الطبع أن تقوم أسبابها ، فإذا أنت مَحَقْتَ [٤] النَّتيجة وخيالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسَّة [٥] منك أو منها ، واستحالت إلى منظر من مناظر الجمال يفهمك أو يُلهمك أو يفسِّر لك ، فلا تنزل منها منزلة الرَّجل ، بل منزلة الفكر ، ولا تكون هي منك بمقام المرأة ، بل بمنزلة المعنى .

المصائب والنِّساء من شقاء الشَّقيِّ أن يبالغ فيهن؛ فإن ما ينالك من خوف المصيبة ليس منها ، ولكنه منك ، وما يَذْهَلُك من حبِّ المرأة ليس فيها ، ولكنه فيك ؛ فأنت من ذلك كالذي ينحت صنماً من الحجر ثم يصله بمكان الرَّغبة والرَّهبة من نفسه ، فإذا القدرة كلها قد استفاضت عليه ، وإذا الحجرُ الذي لا يملك ولا حَشْرَةً من حشرات الأرض قد تملَّك رجلاً بعقله وقلبه وحواسه وحيِّزه من الدُّنيا ؛ وإذا هذا الرَّجلُ يَتَعَبَّدُ بحقيقته لخياله ، وبعقله لوهمه ، وبعلمه لجهله ، وبما يصدق فيه لما يكذب عليه ؛ ويبقى الحجرُ حجراً ولا يبقى الرَّجلُ رجلاً . وكذلك يصنع عاشقُ المرأة بالمرأة ، وهي عند نفسه كأنَّما نبت جسمُها على روح صنم معبود ؛ يحسب فيها السَّماءَ والجنَّة ، وما فيها أكثر من امرأة ، ويكون منها في الحبِّ والرِّضا كحجر الألماس : يلقي عليه الضَّوءُ لوناً واحداً فيخرجه من قلبه ألواناً ذواتِ عدد في بَريق وبصيص ، وفي البغض والنُّفْرة كالجسم المحتَرِق : تحوَّل كلُّه ناراً من شَرارة أو جَمْرة أو شُعْلَة ، وهو في كلتا الحالتين يُسَرُّ ويألم بمادته كلِّها لقليل طرأ عليه من مادتها هي ، فهي شيء واحد ولكنها بمادته تنقلب جمالاً ملءَ عينه ، وفتنة ملءَ صدره ، وفكراً ملءَ عقله ، وكذا وكذا مع هِنٍ وهِنٍ وهِنات . [٦]

إنَّما هذه سبيل اللَّذات في الأنفس المريضة التي تَزْدَلِفُ [٧] بما فيه لَذَّتها إلى ما فيه هُلْكُها ، ولا تُكْسِبها اللَّذَّةُ شعوراً إلا لتسلبها شعوراً غيره ، ولا تَهيجُ فيها خيالاً إلا لتطمسَ به على حقيقة ، ولا تَبْتَعث حرصاً إلا لتغلب به على قَصْد ؛ فالخمر فيمن

(١) أي أبْصَر بذلك وأخْبَر . (٢) اللُّجَّة ومكان التَّيار .
(٣) يَظن ويتوهَّم . * (٤) مَحَقَ : أبطل ومحا . *
(٥) أي صلة وشابكة . (٦) أي مع كذا وكذا وأمور أخرى مِمَّا يمكن أن يكون . (٧) تتقدَّم وتتقرَّب . *

يُبتلى بها تسلب الشُّعور بفضيلة العقل ، لتُنشئ اللّذاتِ الخيالية التي هي من بواعث الجنون . والمال فيمن يحرص عليه يَسْتَلِبُ الشُّعور بفضيلة الخُلق ليُحْدِث له اللّذّات الوهمية التي هي من بواعث السُّقوط ، والمرأة فيمن يُمْتَحَنُ بها تنتزع الشُّعور بفضيلة التَّمييز ، لتُؤْتِيَه اللّذّاتِ الغريبة التي يكون منها الجنون والسُّقوط ، ضَرْبٌ من هذا وضربٌ من ذاك .

ولن تجد كلَّ جرائر الحب إلا مُتَفَرِّعَةً من هذين الأصلين ، فهي بجملتها داخلة في باب سلب العقل بعضِه أو أكثره ، وفي باب سلب الخلق بعضِه أو كله .

وفي النَّفس الإنسانية لا تمرض الحقيقة إلا من سوء التَّخيل فيها ، كأن نعمة الخيال إنّما وُهبت للإنسان لتخرجه من حدود الحقائق فيُفسدها ويفسد آثارَها فيه ، فتنقلب من مادة شقائه وهي مادَّة سعادته. فالخيال هو القوة التي يثب بها الإنسان إلى المجهول ، وهو نفسُه القوَّة التي يسقط بها إذا تقاصَرَت الوَثْبَةُ أو طاشَت ، وقلّما جاءت إلا من هاتين . والخيالُ هو العنصر الذي تمزجه بالحقائق لِيُحْدِث فيها التَّنويع فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين ، وهو نفسه العنصر الذي يستخرج الضَّرَرَ الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها ، فيُخرج من المنفعة الواحدة مَضَرَّتين : للحقيقة وللإنسان معاً .

فالمَنْهومُ (١) ، الذي ينتهي بطنُه ولا تنتهي نفسُه (٢) ؛ والحريص ، الذي يَفْرَغُ عمرُه ولا يفرغ أملُه ؛ والفاجر ، الذي تذهب مُروءته ولا تذهب لذّته ؛ والمُدْمِن ، الذي يسقط عقلُه وخيالُه لا يزال يعلو ؛ والمقامر ، الذي لا يَنْفَكُّ يطمع في الغنى وهو فقير حتى من الفقر (٣) — كل واحد من هؤلاء مريض بمرض خياليّ واحد . أمّا الذي هو مريض بشيء من كل شيء ، فهو العاشق المريض بامرأة يهواها .

(١) المنهوم : الشديد الرغبة في الشيء لا يشبع منه . *

(٢) بمتلئ بطنُه ولا يزال يشتهي . (٣) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها شيئاً يسمى يسراً .

وهل في شِقْوة الخيال وشِدَّة غُلَوائه (٤) أعجبُ من خيال هذا العاشق ؛ إذ يرى الجمالَ المخلوق كلّه لا يبلغ مبلغَ القبلة الأولى التي لا تزال في شفتي حبيبته لم تخلق بعدُ ؟

المرأة في النِّساء امرأة ، كالواحِد في العدد واحد ، بَيْدَ أن خيالَ العاشق يَرْقُمُ إلى هذا الرَّقْم الفرد صفًّا طويلاً لا يراه أحدٌ غيره ، فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة . وبهذا يصبح العاشقُ مع المرأة الخيالية كالنّسر حُطِمَتْ مَخالِبُه وصدِعَ مِنْقارُه ونُسِلَ جَناحاه ، فاسمه نَسْرٌ ومعناه دجاجة !

أفٍّ للشِّعر ! يعلو بالأشياء كلِّها عُلُوّ الأسرار الإلهية التي فيها ، ويعلو بالشّاعر على كل النّاس ؛ إذ كان فيه روح الله أكثر مِمّا فيهم ، ثم لا يكون عقابُه على هذا التّألُّه إلا أن يرمي بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة ، إن كان في الشّاعر روح رجل تامٌ ، أو بين سَفِلَة الخَلْق وسَفاسِف الأشياء ، إن كان الشّاعرُ مؤنَّثَ النفس أو ساقِطَها .

آه ... آه ! إنَّ الله لا يُنَعِّم قَلْبًا في الدُّنيا على أسلوب النَّعيم في الآخرة ، ولكنه ترك للنّاس أن يُعَذِّبوا أنفسَهم هنا على نحوٍ مما هنالك ، فكلّما طَفِقَتْ لهم نارٌ ، أوقدوا غيرَها يحترقون فيها ؛ ليذوقوا العذاب لا ليموتوا .

إن لنار الآخرة سَبْعَةَ أبواب ، وكأن كلَّ باب منها أُلقي جَمْرَةً على الأرض ، فبابٌ أَلقى الوَهْمَ ، وآخرُ قذف الخوفَ ، وثالثٌ رَمَى بالطَّمَع ، والرّابعُ بالحِرْص ، والخامسُ بالألم ، والسّادسُ بالبُغْض ، أمّا السّابع فرمى بالشَّرّ الذي يجمع هذه السِّتَّةَ كلَّها ، وهو الحبّ !

النّار في الآخرة ، ولكنَّ أرواحَها في النّاس لتَسوقَ أرواحَ النّاس إليها .

* * *

(٤) غُلَوّه . *

أوَرَاق الـوَرْد

رسـائلها ورسـائلـه

فاتِحَة

« إنه ليس معي إلا ظِلالها . ولكنّها ظلالٌ حيّة تروح وتجيء في ذاكرتي ، وكلُّ ما كان ومضى هو في هذه الظّلال الحيّة كائن لا يفنى . وكما يرى الشّاعر المُلْهَم كلامَ الطّبيعة بأسره مُتَرْجَماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حُسْنٍ فاتنٍ مترجمةً بجُمْلتها إلى لغة فكري .

« كان لها في نفسي مظهر الجمال ، ومعه حماقة الرّجاء وجنونُه ، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ، فبدّلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقارُ اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرُّها .

« وما أريد من الحبِّ إلا الفنّ ، فإنْ جاء من الهجر فنٌ فهو الحبُّ .

« كُلّما ابتعدت في صدّها خطوتين ، رجع إليّ صوابي خطوةً .

« لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرِّضا ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ، ولن أطلب الحبَّ إلا في عصيان الحب . أريدها غَضْبَى ، فهذا جمالٌ يلائم طبيعتي الشّديدَة ، وحبٌّ يناسب كبريائي . ودَعْ جُرحي يَتَرَشّشُ دماً ، فهذه – لعمري – قوّة الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك المخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تَقْوَ أوّلَ شيء على الألم .

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنّها تعرفني وأعرفها . تتكلّمُ ساكتة وأردُّ عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث ، ولكنْ له في القلبين عملُ كلامٍ طويلٍ . »

مصطفى صادق الرّافعيّ

صدر من التّاريخ

هذا الدّيوان من الرّسائل تكملة على كتابين خرجا من قبل ، وهما : « رسائل الأحزان » و « السّحاب الأحمر » ؛ فجملة آرائنا في فلسفة الجمال والحبّ هي في هذه الكتب الثّلاثة .

ورسائل « أوراق الورد » هذه تَطارحَها [1] شاعر فيلسوف روحانيٌ وشاعرة فيلسوفة روحانيّةٌ ، كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا « باعتبار عقلي » [2] ، وسيرى القارئ فلسفة حُبّهما في بعض ما يأتي ، كما رأى من ذلك في الكتابين الآخرين . وقد جرت الرّسائل بينهما على أغراضها في أحوال مختلفة يكتب إليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه ، وما يكون من الوجود المحصور بينهما في حدود الحبّ . وكأنَّ تلك الكتب الثّلاثة هي ما استوجبته الحياةُ من عَمَل قَلْبِ ذلك الشّاعر في تدوين حادثة واحدة من حوادثه ، فلو أنَّ بياناً أكثر من أن يكون بياناً لما علمته إلا هذا الأثر من خالصة السّريرة في ذلك الشّاعِرِ الخالص للحبّ ، الموقوف الضّلوع على الهوى .

* * *

وأمّا بعد فإنّنا لا نعرف في تاريخ الأدب العربيّ كلّه رسالة كُتِبَتْ من هذا الطّراز ، على كثرة كتّاب العربية وكُتُبها ، وعلى ما أبدعوا في فنون التّرسّل ، وعلى أنَّ هذه العربية من أوسع لغات الدُّنيا فيما خصّت به المرأة ، وما أوقعته على صفاتها ، وما أقامته على العاطفة إليها ، وما حَفُلَتْ به من ألفاظ معانيها . حتى لو أمكنَ أن تُرْسِلَ لغاتُ الأمم ألفاظَها تستبق في المعاني النّسائية ، لما كان السّبق إلا للألفاظ العربيّة ، ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربيُّ وحده .

وفي تاريخ أدبنا ممّن اشتهروا بالعشق مَنْ نُكاثِرُ بهم في هذا الباب ومِنْ أشهرهم مجنون بني عامر [3] وصاحبته ليلى ، وقيس بن ذَريح ولبنى ، وتوبة وليلى الأخيليّة ، وكُثَيِّر وعزّة ، وجَميل وبُثَيْنة ، والمؤمّل والذّلفاء ، ومرقّش وأسماء ، وعروة وعفراء ، وعمرو بن عجلان وهند ، والمهذّب ولذّة ، وذو الرُّمّة ومية ، وقابوس ومنية ، والمخبل السّعدي والميلاء ، ووضاح اليمن وأُمّ البنين ، وبشر وهند ، وابن أبي رَبيعَة والثّريّا (وثريات كثيرة ...) والأحْوَص وسلامة ، ونُصَيْب وزينب ، وأبو العتاهية وعتبة ، وابن الأحنف وفوز ، وأبو الشّيص وأمامة ، وابن زيدون وولادة ، وكثيرون وكثيرات ...

اشتهر من شعراء الغزل خاصّة منهم ابن أدينة ، وابن الدُّمَينة ، وابن الطَّثريّة ، وابن ميّادة ، وابن مطير ، وابن أبي ربيعة وابن ذَريح والعَرْجيُّ ، والمجنون ، وقيس بن الخَطيم وسويد بن أبي كاهل ،

(١) ناظرها وجاوبها . *

(٢) لابن سينا رسالة في العشق على طريقته الفلسفيّة التّعليميّة ، أوردها بهاء الدين العاملي في كتابه « الكشكول » ، وفيها معان حسنة ، ولكنّها لا تعدُّ من الأدب ، وهو يرى أن حبّ الصّورة المليحة باعتبار عقليّ هو الوسيلة إلى الرفعة والزيادة في الخيريّة . قال: ولذلك لا يكاد أحد من أهل الفطنة والحكماء يوجد خالياً عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانيّة .

قلنا : وهذه فلسفة ، ولكن تنقصها الفلسفة .

(٣) يظنّه بعضهم شخصاً خرافيا ، ولسنا من هذا الرّأي ، وإنّما حملوا عليه في الرّواية .

وكثير الذي قالوا فيه: لو رُقِيَ المجنون بشعره لأفاق ؛ وجميل ، ونصيب ، ووضاح وعبّاس بن الأحنف والخليع ، والوأواء ، وابن الخيّاط ، وابن زيدون ، ومن لا يحصى في المشرق والمغرب والأندلس . (١)

واشتهر من الشّاعرات المتظرّفات الجميلات الموقوفات على الحبّ : الذّلفاء ، وعنان جارية النّاطفيّ ، ويقولون إنّها أشعر النّاس ؛ وجنان صاحبة أبي نواس ، وفضل الشّاعرة جارية الخليفة المتوكل . وكانت أفصح أهل زمانها وكانت تُهاجي خنساءَ الشّاعرةَ جارية هشام المكفوف ، وعشقت الكاتب البليغ سعيد ابن حُمَيْد . وللمتوكّل بنان ومحبوبة أيضاً ، وهما شاعرتان ، وفي الأندلس نزهون الغرناطية ، وولادة ، وحمدة الملقّبة بخنساء المغرب ، وكثيرات غيرهنّ استوفينا أسماءهنّ في « تاريخ آداب العرب » .

وحفل تاريخ العرب بالقيان الظّريفات الغَزِلات ، ولا تكاد أسماؤهنّ تحصى ، وهُنّ سرُّ الغزل الحيّ البديع الّذي انفردت به تلك العصور ولم يظفر الأدب العربيُّ بمثله من بعدها إلى اليوم . (٢)

وجاء في آدابنا العربيّة من المؤلّفات المُعْجِبةِ الّتي أفردت للحبّ ومعانيه وأهله وأخبارهم ونوادرهم وأشعارهم كتبٌ مجوّدة : منها كتاب « الزّهَرَة » الّذي ألّفه الإمام محمّد بن داود الظّاهريُّ فقيه أهل العراق . (٣) وقد جعل كتابه في مئة باب ، وهو القائل : « ما انفككت من هوًى منذ دخلت الكُتّاب . » ثمّ « الظّرف والظّرفاء » ، وكتبُ مؤلفِهِ الكثيرة في هذه المعاني (٤) ، ثمّ « مصارع العُشّاق » الذي وضعه أبو بكر البغداديُّ السّرّاج المتوفّى سنة ٥٠٩ هـ وجعله اثنين وعشرين جزءاً ، وهو أصل لكلّ ما وُضِعَ بعده من الكتب : كأسواق العشاق ، وديوان الصّبابة وتزيين الأسواق ، ومنازل الأحباب ، وغيرها .. ومع كلّ ما رأيت فقد انفرد الشّعر وحده بالنّسيب والغزل وأوصاف الجمال ، وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحبّ ولا نعرف أحداً من البلغاء كتب فيها . ولعلّ هذا راجع إلى أنّ تلك الطّريقة استقلّ بها الشّعر في الصّدر الأول ، فقلّد الباقون وأخذوا في مَدْرَجَتِهم من بعد .

وكأنّ هذا الباب عندهم مما يرون للشّعر به اختصاصاً ، فهو سبيله دون الكتابة والخطابة ، لمكان الوزن في الشّعر ، فتجيء الرّسالة الغزليّة لحناً غنائيًا من طبيعتها ، ثمّ لأنّه قد تقرّرَ عندهم أنّه يحسن في الشّعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطّرد (٥) في النّثر ، حتى إنّ أكثر الرّذائل – كالهجاء و وصف الخمر والمجون – كان ظَرْفُها الشّعر . وهي فيه سائغة وفي غيره منكرة ، ولا يأتي منها في المنثور إلا قليل .

---

(١) استوفينا هذا الباب في الجزء الثّالث من كتابنا « تاريخ آداب العرب » وإنّما نلمّ هنا ببعض الأسماء إرسالاً على طريق ما نحن فيه ، لا على طريق التأريخ .

(٢) وأسماؤهنّ وحدها غزل ، ومن هذه الأسماء : حكم الهوى ، وقلوب ، وصدق ، ومهج ، وخشف ، وبدعة ، ومشتهى ، وكنوز ، ونشوان ، وترشف ، وملاعب ... إلخ . وكان فيهنّ أديبات محسنات ، ولهنّ بلاغة هي صورة أخرى من جمالهن كفرحة جارية ابن الجهم الشّاعر المشهور ، سألها ذات ليلة : « كم بيننا وبين الصُّبح ؟ » فقالت : « عناق مشتاق . » وقال لها مرة : « نجعل مجلسنا اللّيلة في القمر ؟ » فقالت : « ما أولعك بالجمع بين الضّرائر ! »

(٣) توفيّ سنة ٢٩٥ ، ومن كتابه جزء في دار الكتب المصريّة ، وكان يعشق على الطّريقة الّتي أشار إليها ابن سينا ، والّتي هي حقيقة الحبّ ، ولا تنس أنّه كان فقيه أهل العراق ! (٤) هو أبو الطّيّب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء ، من أدباء القرن الثّالث ، وستأتي الإشارة إليه بعد ، وكتبه في هذه المعاني مسمّاة في « الظرف والظرفاء » . (٥) يتتابع ، يتسلسل . *

وقد نصّوا على أنّ للشّعر مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرّسائل ، بل هو يفضلهما .

قال أبو هلال العسكريٌّ في كتاب « الصّناعتين » وهو يعدُّ هذه المواضع : « ومن ذلك أنّ صاحب الرِّياسة والأبّهة لو خطَبَ بذكر عشيق له و وَصَفَ وَجْدَه به وحنينه إليه وشهرتَه في حُبِّه وبكاه من أجله لاستُهجن [1] منه ذلك وتُنُقِّصَ [2] به فيه . ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً .»

وقد تُوفِّيَ العسكريُّ سنة ٣٩٥ للهجرة . وعلى كثرة ما حَشَدَ في كتابه من فنون النّثر وطرائفه لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين ، إلا ما أورده في باب (ما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله) ، قال: « وينبغي أن يكون الدّعاء على حسب ما توجبه الحال بينك وبين من تكتب إليه ... وقد كتب بعضهم إلى حُبَّة [3] له : عصمنا الله وإيّاك مما يكره . قال : فكتبت إليه : يا غليظ الطّبع ! لو استُجيبت لك دعوتك لم نلتق أبداً ... ! »

ولا ريب عندنا أنّ هذه الكتابة مصنوعة للتّمثيل بها في هذا الموضع ، كالّذي كانوا يصنعونه من الشّعر إذا احتاجوا إلى الشّاهد والمثل ، على ما بيّنّاه في باب الرّواية من « تاريخ آداب العرب » .

ثمّ هم يَخُصّون الشّعر بالغزل والتّشبيب والنّسيب ؛ لأنّ الشّعر أيسر عملاً وأخفُّ مؤنة في هذا الباب ، إذ يُعين بقوافيه على الإبداع في المعاني ؛ فإنّ القافية كثيراً ما تخترع المعنى وتُلهمه الشّاعرَ، ثُمّ الشّعر يصحبه الوزن واللّحن فيعين بنسقه أيضاً كما يعين بقوافيه ، ثم تجيء ألفاظه مقدودة مفصّلة فتكون حليةً ثالثة ، ثم هو يُكتَفى منه بالبيتين والأبيات اليسيرة فيجيء في كلّ ذلك على أتمّه وأحسنه ويقوم به ، بخلاف الكتابة : فلا يُجدي فيها السّطران والأسطر القليلة في رسالة تصف الحبّ ، وما سَتَرَ هناك يفضح هنا ، وما أعان في الشعر يخذلُ في النّثر ، والشّعر إجمال والكتابة تفصيل .

وأنت فاعمد إلى بيتين من رائع الغزل كقول ابن الطّثريّة :

بِنَفْسي مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنانِهِ   عَلى كَبِدي ، كانَتْ شِفاءً أنامِلُهْ
وَمَنْ هابَني في كُلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ   فَلا هُوَ يُعطيني وَلا أنا سائِلُهْ

فاجعل هذين البيتين رسالة إلى حبيبة ، فإنّهما يجزئان ويؤدّيان الرّسالة ، وينقلان إليها عن نفسك معانيَ الاحتراق والعشق والصّبابة ، ويتكلّمان عندها كثيراً ويعلّقان بذهنها ويدوران في قلبها دورة الدّم . ثمّ اعمد إليهما فاجعل المعنى المنظوم في سطرين ، وحاوِلْ منهما رسالةً كتلك ، فإنّ السّطرين لا يتزحزحان ولا يمشيان إلا كما يتوكّأ الأعرج على أعرج مثله .

وهذا إلى أنّ الكتابة في معاني الحبّ لا تحتمل الصّدورَ والفصول وصناعة الألفاظ والتّرادفَ بالكثير منها على القليل من المعاني ، ويَسْمُجُ [4] فيها خاصّةً ما نراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة: كالتّوسّع بالنّقل والرّواية ، وتشقيق الكلام بما يلابس كلّ معنًى ، والطّغيان في العبارة بذلك وما إليه. وكلّ شيء فهو يصلح مادّةً للكتابة إلا في هذا الفنّ من رسائل الحبّ ؛ فإنّ مادته القلب والرّوح وفلسفة العاطفة وترادُف وحي الجمال بالمعاني الكثيرة على الشّعور الواحد ، لا وحي

(١) إستَهْجَنَهُ : إستَقْبَحَهُ . * (٢) تَنَقَّصَهُ : عابَهُ . * (٣) الحُبَّة : المحبوب . * (٤) يقبُحُ . *

اللُّغة بالألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد ، ولا يُتَخَلَّصُ إلى فنونه ومعانيه إلا من ثَمَّةَ . فكأنَّ هذا الباب هو من ناحية ليس في طبيعة كتابة المُتقدِّمين ومن النّاحية ليس في طبيعة الاجتماع يومئذ ؛ لأسباب لا محلَّ لبسطها في هذا الإيجاز .

ولقد كتب شيخنا وأديبنا الكبير « الجاحظ » رسالةً في العشق والنساء ، وهي مجموعة رسائله ، فكان والله كالذي يُلبس ملكة الجمال في هذا العصر مَرْقَعةً قذرة . واجتلب من هنا وهناك لمعانيه ، وشَقَّ لها المداخل والمخارج على طريقته ، واتَّسعَ بذلك في العبارة ، فجاءت أبردَ رسائله وأسقطَها ، وكان هذا الإمام فيها كالذي يتحسَّسُ بيده مُجلَّداً ضخماً من الكتب ، ثم يذهب يستوحي من جلدته أوصاف ملمس جسم الحبيبة .. التي « كأنَّها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة » .

وساق ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » رسالة من منية إلى صاحبها قابوس — وهما من أعلام العشق والأدب — ثم جوابَ قابوس عليها ، ثم رسالةً أخرى منه [1] فكتبت منية إلى حبيبها :

« مَنْ سَنَّ سُنَّة فليرضَ بأن يُحكم عليه بها . ومن سأل مسألة فليرضَ من العطيَّة بقدر بذله . لكلِّ عمل ثواب ، ولكلِّ فعل جزاء ، ومن بدأ بالظُّلم كان أظلَم ، ومن انتصر فقد أنصفَ . والعفو أقرب إلى العقل ، وغير مسيء مَنْ أعتب . مع المَخْض تبدو الزُّبدة . عند تناهي البلاء يكون الفرج ، كل ذي قَرح يشتهي دواء قرحه . كلُّ مطمع مُنتظر ، كلُّ آتٍ قريب . الموت أروحُ من الهوى . اليأس أوّل سبب الرّاحة . السِّحر [2] أنفذ من الشعر . دواء كلِّ محبٍّ حبيبه . مع اليوم غد . كما تدين تُدان . استشفِ الله لما بك ، واسأله المدافعة عنك .»

وأجابها قابوس :

« مِن الكرام تكون الرحمة ، ومن اللئام تكون القسوة . من كَرُم أصلُه لان قلبه ورَقَّ وجْهُه ، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل ، ومن ترك الفضل أخطأ الحظَّ . ومن لم يَغْفِرْ لم يُغْفَرْ له . أولى النّاس بالرَّحمة من احتاج إليها فحرمها . لكلِّ كرب فرج ، ولكلِّ عمل ثواب ملكْتِ فأسجحي [3] ، قدرت فاعفي . ويل للشجيِّ من الخليِّ ... إلخ إلخ . »

فانظر ويحَك ما هذا الكلام المتقطِّع المُبتَذَل المطروق المنتزَع كلّه من الأمثال والحكم ، وكأنَّ العشق في الحافظة .. ولم يورِدْه ابن قتيبة إلا في باب النِّساء والعشق .. ثُمَّ ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أنَّ منية هذه قامت على منبر مسجد الكوفة .. وصعد قابوس المنبر في مسجد البصرة ، وأرادا أن يخطبا الناس لإقامة صلاة الجمعة ؟

* * *

على أنَّ بلغاء الكُتّاب في كلِّ عصر تناولوا في ترسُّلهم فنَّ (الإخوانيات) وأجرَوا فيه رسائل المودَّة والشّوق والصداقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس اللذات والأنس ، وهذه كلُّها من أمَسِّ المعاني بالحبِّ وأقربها شبهاً به . وقد أجادَ بَعْضُهم في ذلك إجادة بالغة ، وأنت تجد

(١) الجزء الرابع من « عيون الأخبار » ، صفحة ١٣٦ ، طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) الصواب : الشعر أنفذ من السحر ، كما هو ظاهر . (٣) أحسني العفو . *

رسائلهم منثورة في كتب الأدب [١] ومن أبدعها قول سعيد بن حُميد ، حبيب فضل الشاعرة : « إنّي صادقت منك جَوْهَرَ نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد لكِ بغير زمام لأنَّ النَّفس يقود بعضها بعضاً .» [٢]

غير أنهم يشترطون في هذا الفن من الرسائل الإيجاز والاختصار ، وألا يتجاوزوا به نكتة المعنى ، ليجيء قصداً قريباً . ولعلَّ ذلك للعلّة التي أومأنا إليها من قبل ، إذا كان هذا على حدود الحبِّ ، فإذا تبسّطَ فهو الحبُّ بعينه . والكثير في الحب لا يكثر ولا يملُّ ، أما في الصَّداقة فإلى حَدٍّ وحسب.

وانظر ما كتب بعضهم في قطيعة صديق ، إذ كتب إليه :

« لم يدع انقباضك عن الوفاء وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر والاستمرار على الغدر محرِّكاً من القلب عليك ولا خاطراً يُومي [٣] إلى حسن الظَّنِّ بك ، هيهات ! انقضت مدة الانخداع لك ، حين أخلفْتَ عِدَةَ الأماني فيك . وما وجدنا سائراً من تأنيب النُّصحاء في الميل إليك، والتوفُّر عليك ، إلا الإقرار بطاعة الهوى والاعتراف بسوء الاختيار .»

فهذه الرسالة لو أنّها صرفت إلى حبيبة ، وامتدَّ بها النَّفَس على هذا الأسلوب ، وبمثل هذا التصرف لِتكونَ صفحتين أو تبلغ صفحات ، لرَجَفَتْ أركانُها الوثيقة ، وخرجت إلى الاستكراه والتكلف ، وجاءت عيوبها من محاسنها ، وهلك من طولها أوّلها إلى آخرها .

ولذلك نحوْنا في « أوراق الورد » أسلوباً خاصًّا ، تدور به المعاني الحية في ألفاظها بألين ِ مَسٍّ وألطفه على وضع مُستَحكِمٍ كما يمس الدم الحيُّ عروقَه التي يدور فيها .

* * *

ولم نقف على اسم كتاب أفرِدَ لرسائل الحب ، ولو أنهم كتبوا فيها لجُمعت كفيرها وأفردت بالتدوين . بيدَ أنَّ للقيان الأديبات المتظرفات ضرباً من رسائل الحب يكتبْنها بالذهب والمسك والزعفران في بديع الحرير الصيني وضروب الديباج ، ويجعلن ظروفها طرائف المناديل ؛ ويتخذن لها الزنابير الحريرية تربطها ، ويُطيِّبْنها بالمسك والذرائر [٤] ولا يكتبن فيها إلا « نُتَفَ الألفاظ المهلكة ... ومُلَحَ المكاتبة ، وطرائفَ المعاتَبة ، وجميل المطالبة ، وشكيل المداعبة . وقد جمع أبو الطيب الوشّاء –

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ، والظرف والظرفاء للوشاء ، والصناعتين لأبي هلال ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، ويتيمة الدهر للثعالبي ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، وغيرها . وقد يكتب في بعض هذه المعاني بعض القيان كالرقعة التي أملتها جميلة المغنية في استزارة عبد الله بن جعفر ونقلها صاحب الأغاني في ترجمتها في الجزء السابع . وجميلة من أبلغ النساء وأظرفهن ، وكانت سيدة أهل زمنها في الغناء وكانت تتواضع للأحوص وتعجب به وتغني بشعره .

(٢) روى صاحب الأغاني عن ابن أبي المدور ، قال : كنت عند سعيد بن حميد وكان قد ابتدأ ما بينه وبين فضل الشاعرة يتشعب، وقد بلغه ميلها إلى بنان وهو بين المصدق والمكذب بذلك ، فأقبل على صديق لي فقال : أصبحت والله من أمر فضل في غرور ، أخادع نفسي بتكذيب العيان ، وأمنيها ما قد حيل دونه ، والله إن إرسالي إليها بعد ما قد لاح من تغيرها لذُل ، وإن عدولي عنها وفي أمرها شبهة لعجز ، وإن تصبُّري عنها لمن دواعي التلف ، ثم أنشد أبياتاً من الشعر .

فهذه كانت طريقتهم في الحب ، يتحدثون به ولا يكتبون فيه ، ويتراسلون به ، إما في الألسنة وإما في رقاع تقوم مقامها في التحدث والتأدِيَة والإبلاغ . وفي كتب الأدب أشياء من هذه وتلك . ولقد كانت كلمات سعيد في تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة في صاحبته الشاعرة الجميلة ، لولا ما بيّناه . وكانت رسائل فضل شعراً تنظمه ، وفي رأينا أنه لو كان ابتدأ فن الرسائل الغرامية كاتبٌ لابتدأه سعيد هذا.

(٣) أي يومئ ، بمعنى: يشير. *

(٤) جمع ذريرة: ضرب من الطِّيب مما كانوا يصنعونه.

من أدباء القرن الثالث – كتاباً من هذه الرسائل سَمّاه « فرح المهج » والذي يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب في ذلك هو الشعر والمثل وأبيات العتاب والسلام ونحوها ، مما هو محفوظ مأثور ، فليست هذه من رسائل الحب وإنما هي من وسائله .

وأبعدُ في الاستحالة من كلّ ما مَرّ أن يكون في الأدب العربي ديوانٌ من الرسائل الغرامية لكاتب واحد ، فلقد كان مثل ذلك الشعر كالنّدرة والفَلْتة ، حتى قال الجاحظ : « لولا أن العباس بن الأحنف أحذقُ الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدر أن يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ؛ لأنه يهجو ولا يمدح ولا يتكسب [١] ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً لزم فنا واحداً لزومَه فأحسنَ وأكثرَ .

ولأدبيات الجواري رقاع في مكاتبة عُشّاقهن ، بيد أنها لا تذهب إلا مذهباً واحداً في الكلام ، فهي في القلم كما هي في اللسان ، وليس الكتاب إلا رسولاً لا رسالة . وقد نقل صاحب الأغاني في ترجمة « عَريب » الحسناء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشّقة التي تكاد تشبه الأديبة الفرنسية الشهيرة المتسمية (جورج ساند) في عشقها واستكلابها [٢] ... نقل أنها عشقت صديقاً لمولاها يقال له حاتم بن عديّ ، قال : فمدَّ عينه إليها « فكاتبها فأجابته » وقال أيضاً : إنها لما صارت في دار المأمون، احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد عشقته « وكاتبته » . ونقل عن بعضهم قال: وسمعت مَنْ يحكي أنَّ بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض الكُتّاب ، قال : فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيى ؟ [٣] ثم روى صاحب الأغاني من مجونها وإفحاشها ، فلو أن لها رسائل حب لاسْتَطْرَفَ منها هو أو غيره ، ولكنها كما قدمنا ، رقاعٌ في مثل الكلام الذي يتراجعه كل صاحبين إذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا . وليست من الرسائل المصنوعة المجوّدة القائمة في فنّها على شاعريّة الجمال وتَفَلْسُفِ الحبّ وغزل الروح وخصائص المعاني .

وتبذّلَ بعضُ أدباء المتأخّرين ، فكتبوا في الرسائل الغراميّة يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة . كقول الأديب الشهير ابن سناء الملك من رسالة : « وأنا والله في أمركَ مغلوب ، والسّبب أنّي أنا المحبُّ وأنت المحبوب ، ولا أتجلّد عليك فأغرّكَ وأخونَ حُبّك ، ولا أتصنّعُ عليك فأغشكَ وأغمّ قلبك ... اعملْ ما شئت فأنا الصّابر ، وافعلْ كيف شئت فأنا الشّاكر ، وقل فلي سمع يعشق قولك ، والتفتْ تَرَ آمالي ترفرفُ حولك ، وافعل فأنت المعذور ، واستطل فما أنا المضرور بل المسرور ، وارجع إلى الوُدّ الذي بيننا فكلُّ ذنب لك مغفور .»

---

(١) لا يحتال . * (٢) انسياقها المسعور وراء غريزتها . * (٣) لا ريب عندنا أن هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من أغراضهم في الرواية . ولذلك قال في سندها : وسمعت ممن يحكي ... ويروون أن عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة ، فجعل يعاتبها ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا . فقالت : يا عاجز ! خذ فيما نحن فيه ... فإذا كان غداً اكتب إليّ بعتابك في طومار (فرخ ورق) حتى أكتب إليك في ثلاثة ، ودع الفضول ، فقد قال الشاعر:

... دعي الذّنوب إذا التقينا تعالي لا أعدُّ ولا تعدّي

وهذا إن لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الأخبار على طريقتهم في سوق الحكاية وتنزيل معانيها وتدبير نَسقها ، وإن كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط ، وكانت طويلة اللسان مهذارة كأنها تقول لصاحبها : إن كان قدر لسانك طوماراً فلساني ثلاثة .

وهذا كما ترى ، كلام غثٌّ سمج [1] ، وحبٌّ قد يكنسه في الطريق الكنّاسون .

ولبديع الزّمان رسالة مشهورة ، إلى بعض من عُزِلَ عن ولاية حسنة ، أثبتها في ديوان رسائله . ولابن الأثير في كتابه « المثل السائر » رقعة قال إنها من عاشق لمعشوق ، وعدّها فيما عدّ من معانيه المبتدعة ، وكلُّ ذلك عندنا لا قيمة له .

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربي سماها النّيرين . قال : وهي من المحب الكئيب إلى حبيب الحبيب [2] ... وقد أوردها ابن أبي حجلة من أدباء القرن الثامن في كتابه الذي سمّاه « حاطب ليل » .

* * *

فأنت ترى أن الأديب العربي قد انطوى على محجوبة من هذا الفنّ بقيت في الغيب إلى عهدنا هذا . ونرجو من فضل الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها ، وأن تقول العربية إذا تواصفوا كتب هذا الباب في بيان اللغات الأخرى : « هَاؤمُ اقرءوا كتابِيَه » .

والحمد لله بما يبْلغ رضاه .

مصطفى صادق الرافعي

---

(١) قبيح . *

(٢) عشق هو حبيبًا ، وعشق الحبيب حبيبًا في مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير ، فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين .

المقدمة

هذا كتاب « أوراق الورد » ، فحدّثني مَنْ حدث (١) في سبب هذه التّسمية قال : « كانت معها ذات يوم وردةٌ لا أدري أيّتهما تَستَنْشي (٢) الأخرى ، فجعلت لها ساعة من حفاوتها تُلْمِسها مرة صَدْرَها ومرّةً شفتيها . والوردة بين ذلك كأنّما تنمو في شعاع وندى ؛ إذ رأيتُها وقد تفتّحت وتهدّلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاهاً ظمأى . »

« ثم تأمّلتها شيئاً ، ثم نَحَتْ إليّ بصرَها (٣) وقالت : « ما أرى هذا الحبَّ إلا كورق الوردة في حياته ورقّتِه وعطرِه وجماله ، ولا أوراق الوردة إلا مثله في انتثارها على أصابع مَنْ يَمَسُّها ، إذا جاوز في مَسِّها حدّاً بعينه من الرفق ، ثم في تفتّرها (٤) على إلحاح مَنْ يتناولها إذا تابع إلحاحَه عليها ولو بالتّنهُّدِ ، ثمّ في بناء عقدِها على أن تتحلّلَ أو تذويَ ، إنْ لم يمسكها مع بنائها الرفيق حَذَر من أن تكون في يده ؛ لأنّها على يده (٥) فنٌّ لا وردة . »

« ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطَتْ (٦) وردتها إلى عُروة صاحبها ، فقال لها : « وضعْتِها رقيقة في صدري ، ولكنْ على معانٍ في القلب كأشواكها . »

« فاستضحكت وقالت : « فإذا كتبتَ يوماً معاني الأشواك فَسَمِّها (أوراق الورد) . » وكذلك سَمّاها !

* * *

عُمر الورد فصل من السّنة ، أما الشوك فعمره ما بقيت الشّجرة وما بَقِيَ حَطَبُها . ولذلك يُنْسى الحبيبُ ويَذهب الحبُّ ويبقى من بعدهما القلبُ العاشق ، وليس بينه وبين آلامه إلا كما ذَرَّ الضياء بين أول الفجر وآخرة الليل في مرأى من النور والظلمة يُخيِّل إليك من غَبَشِه (٧) أن الليل ظلام مكفوف وراء حائط من البَلّور : فالآلام دائماً بمنزلةٍ من القلب المحب والأشواق منه أبداً على أسباب . ومَن أَحَبَّ مَرّة فما اهتدى إلى حبيب ينتهي منه إذا سلاه ، وإنما ابتدأ في جمال هذا الحبيب أشواقَ الحياة التي لا تنتهي ، وعرف من الحبِّ طريقاً بين الحسِّ والغيبِ آخرُه دائماً أول غيره كطريق السّماء لعينك ، كلُّ مسافة أنت مُقدِّرها فيه تراها قد نيطت بمسافة أخرى (٨) إلى ما لا ينتهي ولا ينقطع ؛ إذ ليس ذلك اتّصالاً بين المسافات المكونة للأبعاد أكثر مما هو اتصال بين النواميس المكوِّنة للأبدية .

وإلقاء الحبِّ الصحيح في قلب من خامره الهوى ، مَعْناه إيحاءُ الفنِّ إلى صاحب ذلك القلب يفهم به الصورةَ الشّعريّة الجميلة التي يلبس منها الحبيب جمالَه ، فيرى كيف يجيء كلُّ شيء من حبيبه كأنّه في وزن من الأوزان ، حتى لكأنَّ هذا الشكل المحبوب إنْ هو إلا لحنٌ موسيقيٌ خُلِقَ

---

(١) نسبت « رسائل الأحزان » إلى صديق على طريقة الرواية ، فظنها البعض حقيقة لذلك الصديق ، وما هي له .

(٢) تستنشق رائحتها وطيبها . (٣) أي صرفت إليه بصرها . (٤) سكونها بعد حدّة . *

(٥) يعلم القارئ من « رسائل الأحزان » أنّ الحبيبة شاعرة روحانية تسمو هي وصاحبها بالحبِّ فوق المادة ، ولا يريدان إلا وحي النفس الجميلة للنفس الجميلة . (٦) علّقت . * (٧) الغبش : آخر ظلمة الليل ، فيكون بياض الفجر على حدها .

(٨) أي اتصلت بمسافة ؛ إذ هو فضاء ممتد لا تقيم فيه الحدود .

إنساناً يجاوب بعضُه بعضَه ... وبذلك يخرج من فهم جمال الحبيب إلى فهم جمال الطّبيعة ، ويدرك بروحه ما حول كلّ شيء من الجوّ الخياليّ البديع المُحيط به إحاطة الوزن الشعري بالكلمة والنغمة الموسيقية بالصّوت . ومن ذلك ينبثق في نفسه نور إلهيّ خالق يُفيض على كل جمال في الأرض والسماء ما يجعل هذا الجمالَ من إدراكه أو حسّه بسببٍ قريب ، فتشتمل نفسه العاشقة على آفاقٍ واسعة من جمال الخليقة ما دام في نفسه الحب ، كما تحيط العين بالأفق فتحويّه ما دام في العين البصر .

* * *

وتاريخ الحبّ عند صاحب هذه الرّسائل كان كلّه نظرةً أخذت تنمو وبقيت تنمو . وهو حب قد كان من نَمائه وجماله وطُهْره كأنما أزهرت به روضة من الرّياض لا امرأةٌ من النّساء ، وكان من مَساغه وحلاوته ولذّاته البريئة كأنما أثمرت به شجرةٌ خضراء ، تعتصر الحلاوةَ في أثمارها أصابعُ النّور. فأنت لا تجد في هذه الرسائل معانِيَ النّساء متمثّلةً في امرأة تتصبّى رجلاً ، ولكن معاني الحب والجمال متألّهة في إنسانية تُستوحى من إنسانية أو توحي لها .

وبين الدّهْر والدّهر تُخرج الأقدارُ على طوفان الشّهوات الذي يغرق الإنسانية عاشقاً روحانيًا في طباعِه مثل شموخ الجبل العالي وقوّته وتماسكه ، تأوي إليه صفات الحبّ السّامية يعصمها ويبقيها على نَدْوِها [1] ولو في إنسان واحد كما هي على أصيلها في جمال الكون . وهذا الإنسان لا يُعطي الدنيا إلا من سبيل حرمانه هو ، وكأنّما يحترق قلبه ليسطعَ بالنّور والدّفء على القلوب المُظلمة الباردة التي لا يكون الحبُّ فيها إلا خديعةً مُسوّلة عن الطّبيعة بين الجنسين حين تعمد إلى حسابها العجيب في جعل الاثنين ثلاثة . [2]

وكلُّ الصّفات السّامية متى نزلت إلى الدّهماء [3] والأوشاب [4] ، وهذا الهمج الهامج في إنسانية الحياة ، نَحَلُوها [5] أسماء من طباعهم لا من طباعها ؛ فاسم الفضيلة عندهم غفلة ، والسُّمُوّ كبرياء ، والصّبر بلادة ، والأنفة حماقة ، والروحانية ضعف ، والعفّة خيبة والحبُّ اسمه الفسق .

* * *

وصاحب هذه الرّسائل يرى نفسه في الحبّ كأنما وضع على هامش النّاس ، مُنطلقاً غيْرَ مُقيّدٍ ، عزيزاً غير ذليل ، فهو كالسطر الذي يُكتب على هامش الصفحة ، يستعرض ما ملأها بين أعلاها وأسفلها ، وله الشرح والتعليق وما في معناهما ، إلى التّهكّم والضّحك والسُّخرية . ومن ثم فرسائله كذلك على هامش كُلّ رسائل الحبّ : يتجافى بها عن ألفاظ الشّهوات ومعانيها مما يتعمّده بعضُ فحول الكُتّاب في أوربا ولا طَلاوةَ لرسائلهم وقصصهم بغيره ، إذ هو يُشْبِه أن يكون روح اللحم والدّم في اللغة . ويتوخّون التّأثير من أقرب الطُّرق إليه ، فيمسّون شهوات القُرّاء بالحادثة والوصف والعبارة ، كما يدرُّ لعاب الجائع على ألفاظ الطّعام وأوصافه وروائحه ... وإنّما نحن نرى أن لحياة الحبّ —

---

(١) أي نداوتها ونضرتها .

(٢) كناية عن النسل واستيلاد الاثنين ثالثاً . ومذهب أن الحب خداع من الطبيعة وتسويل بين الذكر والأنثى لإيجاد النسل مذهب صحيح ؛ ولكن في الطبيعة من يسمو عليها ويقهرها ، فلمثل هذا حب آخر ومذهب غير ذاك .

(٣) الدهماء : عامة الناس . *

(٤) الأوشاب : الأوباش والأخلاط من الناس ، والمفرد وِشْب . *

(٥) أعطوها . *

حتى يكون حبًّا صحيحًا – واقعًا غير الواقع في هذه الحياة ، وأوهامًا غير أوهامها ، وحقائق غير حقائقها . فلا بدَّ لها من كلام يُلائمها في هذا المعنى الطَّائف بين القلب والرّوح يكون أشبهَ بكلام النِّيَّة الصَّادقة لو نطقت في لسان ، وبكتابة الضّمير المخلص لو كَتَبَ في قلم .

والحبُّ الصَّحيح إذا سَلِمَتْ فيه دواعي الصَّدر [1] واعتدلت به نوازي الكبد [2] وتوثَّقَ فيه عقد النية [3] ، واستوى غَيْبُهُ ومَشْهَده [4] كان أشبهَ بقوة سماويَّةٍ تعمل عملَها لتبدع من الإنسانية شعرًا أسمى من حقائقها ، كما كانت الإنسانية نفسها قُوَّةً عملت أعمالها لتبدعَ من حقائق الطَّبيعة أخيلةً أجمل من مادَّتها . فشعرُ العقل تخلقه الإنسانية من الطَّبيعة بالعلم ، وشعرُ القلب يخلقه الحبُّ من الإنسانية بالجمال ؛ ومن ثم فالحبُّ كالطَّبقة بين الإنسانية والإلهية ، أَ فلا تراه يأبى حين يكونُ إلا أن يكون وحده هو الحقُّ الذي ليس له في البشرية فَوْقٌ فليس في البشرية ما يوضع فوقه ، حتى كلُّ ما عداه من الحقوق والواجبات فهو من بعده في الموضع والمنزلة ؟

الحبُّ الصحيح ليس له فَوْقٌ ، ولا يُشْبِه من هذه النَّاحية إلا الإرادة الصَّحيحة ، فليس لها وراءٌ ولا يمينٌ ولا شمال ، وما هي إلا أن تَمْضِيَ أمامَ أمامَ .

* * *

إنَّك لا ترى في هذه الرَّسائل ما ينزعُ به الكلامُ ذلك المنزَعَ الذي أشرنا إليه آنفًا ، ولا ما يتوسَّع به كُتَّاب أوربا من الحشو الذي يوجَّه على علل مختلفة بين التَّاريخ والاجتماع وما إليهما ، ولا ما يُقْحِمونه في رسائلهم من كلامٍ نازلٍ كالكلام الذي يتراجعه العامَّةُ [5] ، فإنَّ كتابنا خالِصٌ للجمال بذاته ، واقع من الحب في خاصِّ مَعانيه ، ولقد كانت حوادث صاحبنا في حُبِّه كالسُّحُبِ الرقيقة في سماواتها ، عُمْرٌ ساعة من الشَّفقِ ، وتأتي وعليها ألوانها الإلهية أصباغًا واقعة كما تَتَّفق ، ثم لا يكون الجمال والتَّناسب مع ذلك إلا كما تتَّفق ، فكذلك نشأت رسائله من وحيِ القلب وروحانيَّته ، تموج بمعانيها وتتبرَّج في معارضها . ولعمري لَمَن كتب في الحب والجمال بقلم لقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلب ؛ ولو تحيا الابتسامة والدمعة لكانتا سرورَ ذلك الحبِّ وحزنه كما وقعا في حياة الكاتب وأيامه من صاحبته ، فهما لا يتجاوزان البثَّ والتَّشاجيَ ، وتباريح الصَّبابة وتسليم الابتسامة على الابتسامة ، ومغاضبة الدَّمعة للدَّمعة ، ولكليهما من روح صاحبه داعٍ ومُجيبٌ . وعلى ما طال بينهما من زمن الحب فهي كأنَّها لم تزد له على أن سَنَحت مَسح الغزال ووَلَّتْ .

* * *

وكان القدر يُنقّي حوادث هذا الغرام كما تُنَقّى المَدَرَةُ [6] من الحَبِّ بأصابع دقيقة تحت عينين مُبصرتين ؛ فكانت النفس فيه مع جَمَحاتِها كالفرس تترامى في عنانها مُخلى لها الطريق ، ولكنَّ أمرَ

---

(١) كناية عن أسباب المودة وأغراضها . (٢) كناية عن مواد الشهوات فلا تطير فيه حماقاتها . (٣) كناية عما تربط عليه القلب ، فتحْتَ كلِّ حب نيَّةٌ آثمة أو بريئة . (٤) كناية عن الحب للحب لا لغاية أخرى ، فهو في غياب الحبيب مثله في حضوره . (٥) يكثر الأوروبيون في رسائلهم الغرامية من سوقيات مبتذلة ، كأن الحب حادثة يومية يراد تعيينها بمكانها ووقتها واسم شارعها . (٦) المدرة : الطين اليابس يكون في حب القمح ونحوه .

الطّريق لها ونَهْيَةٌ في العنان الذي يُلجمها وظلمات الحب في بعض النفوس المختارة كظلمات الليل في بعض الليالي : هذه لها القمر وتلك لها الفضيلة .

وما أحسبُ هذا الشّاعر وتلك الشّاعرة قد كان في كلّ حوادثه إلا تأليفًا من الأقدار لهذه الرسائل بمعانيها ، حتى إذا كُسِيَت المعاني ألفاظَها ، انبثقت كالنّور وصدحت كالنّغم وجاءت كإشراق الضّحى ؛ لتُناسِمَ [1] الأرواح بعبارات صافِيَة من روح قوية فُرِضَ عليها أن تحبّ ، فلما أَحَبّتْ فرض عليها أن تتألّمَ ، فلمّا تألمت فرض عليها أن تُعَبِّرَ ؛ فلمّا عبّرت فرض عليها أن تَسْلُوَ .

مصطفى صادق الرافعي

(١) المناسمة : كناية عن قرب المتكلمين أحدهما من الآخر ورقّة كلامهما ، كأنّ أنفاس كليهما نسيم يتّصل بعضه ببعضه ، ولذا تقال في حديث الصاحب للصاحب .

وزدتِ أنكِ أنتِ

تاللهِ لَوْ جَدَّدوا لِلْبدْرِ تَسْمِيَةً
لأعْطِيَ اسْمَكِ يا مَنْ تَعْشَقُ المُقَلُ (١)
كِلا كُما الحُسْنُ فَتّانًا بِصورتِهِ
وَزِدْتِ أنَّكِ أنْتِ الحُبُّ والغَزَلُ
وَزِدْتِ يا حَبيبَتي أنَّكِ أنْتِ ...

إنَّ حقيقة الجمال الذي يغمرُ العالم أراها كأنَّها بجملتها مُستقِرَّةٌ في الموضع الضيِّق الذي بيني وبينك وبين قلبي ، تملأ مع هذا الكون عالمًا آخر من شعوري بك .

وفي نظرات عينيك السّاحرتين أرى لمحاتٍ مُنبِئةً من الإرادة المُسيطرة وراء الأشياء ، تفعل مثل فعلها الجبّار وراء عواطفي .

واليقين الذي دليلُه الإيمانُ والتسليم ، أحسُّه إحساسًا في نظري إليك وفي نظرك إليَّ ، كأنّي أتحوّل معك إلى قرار .

والمعنى العجيب الذي يفتن فِتْنَةَ دُرِّيَّةِ اللؤلؤةِ الثّمينةِ ، ويسحر سحرًا نورانيًا في الماسة الكريمة النّادرة ، هو بفتنته وسحره فيْ نِسْوِيَّتِكِ الجذّابة ، غيرَ أنَّهُ اتَّخذَ من أشياء الطّبيعة أبدعَ ما يُنْظَر فيه ، واتخذ منكِ أنت أجمل ما يُعْقَل فيه .

وما رأيتكِ مَرَّةً إلا خَيَّلْتِ لي أنَّ بعض النّواميس الماديّة القاهرة في هذا الوجود قد تحوّلتْ إنسانية فيك ، وكأنَّ القُوى مُبَعْثَرةٌ هناك ومُنَظَّمةٌ هنا ، وكأنّك منها تقييد منطلق ، واجتماع متفرق ، وكأن ما حدّ له رآكِ له حدًّا فوقف وظهر .

ولو وُلِدَ النّور لكان وجهَك الجميلَ المشرقَ ، ولو ولدت الكهرباء التي هي سر النّور لكانت أسرارَ عينيك ، ولو تولّدت القُوّة التي هي سِرُّ الكهرباء لكانت فتنةَ حُبِّك ، وكلُّ المعاني التي في نفسي لا تتّخذ صُوَرَها إلا منك لأنّك بجملتك تمثال خيالك الشّعري .

وفيكِ المعاني الّتي تقول : « أين كلماتي ؟ »
وفيَّ أنا الكلماتُ الّتي تقول : « أنت معانِيَّ ! »

* * *

في نفسي عالم أحلام من خلق عينيكِ الذّابلتين.
وفي نفسِكِ عالم أسرار من خلق أفكاري المعذبة.
خرَجْنا كلانا بالحبِّ والجمال من حَدِّ الإنسان إلى حَدِّ العالم .
وتحوّلْنا كلانا بالهوى من حالةِ شَخْصٍ إلى حالةِ عَقْلٍ .
كيف تَجِدين ما فيَّ ، وإنَّكِ لتعلمين أنَّكِ فِيَّ ؟
أمّا أنا فأجِدُ كلَّ ما فيكِ حلوًا حلوًا لأنَّ طعمه حُلْوٌ في قلبي .

* * *

وعندما أنظرُ إلى ازدهاء (٢) الشّفق (٣) بألوانه وأصباغه ، كأنّه صورة جديدة في الخلق عُرِضَتْ ليراها أهلُ الأرض ، أحسبني على مرمى السهم من جنة في السماء فتحت أبوابها ولاحت أطراف أشجارها .

وعندما أتأمل انبثاقَ الفجر ، يخيَّل إليَّ من جماله وروعته أن الوجود في سكونه وخشوعه نفسٌ كبرى ، تستمع مُصغيةً إلى كلمة من كلمات الله لم تجئ في صوت ، ولكنْ في نور .

وعندما أبصرك أنت ، أوقِنُ أنَّ الحسن المعشوق ما هو إلا خيال الجَنّة الأخرَوية يناله من الدّنيا إنسان في إنسان .

أنت وحدك أذقتني نشوة الظّمأ إلى الأسرار القلبيّة ، بما ذقته من لذة ظمئي إليك ولهفته . وأرَيْتني جمال الشّعر في خيالاتي العطشى الحائمة أبدًا على نهر النّور من جسمك ، وعلى ذلك النّبع

---

(١) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها ، أي لكاتبها لا لغيره .

(٢) تفاخر وزهو . *

(٣) الشّفق : حمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس . *

الأحمر الصَّغير ، نبع الياقوت المتفجّر دائماً بابتسام شفتيك ، وجعلتني من وحي جمالك المتنزّل على قلبي أشعر أنّ هذا الجمال السّماويّ أنشأ فيّ صفة ملائكيّة ترفعني فوق إنسانيّتي .

بهذه الصِّفة أراك في بعض ساعات قلبي تَظهرين لي وكأنّ سرًّا من الكون يَتجلّى بك ويقول لي من عينيك : « المسْني وانظرني فيها . »

سرّ هادئ ناعم يتناثر في ألحاظك ألينَ من تنفُّس رشاش الأمواج المتطاير إلى بعيد : يكون كالهباء من البحر ، ومع ذلك فهو أثر قوّته وجبروته .

فيك يا حبيبتي من أبدع محاسن الكون ، وزدتِ أنك أنت الحب .

زجاجة العطر

« وأهدى إليها مرّةً زجاجةً من العطر الثّمين وكتب معها » :

يا زجاجة العطر ، اذهبي إليها ، وتعطّري بمسّ يديها ، وكوني رسالةَ قلبي لديها .

وها أنذا أنثر القُبلاتِ على جوانبك : فمتى لمستْكِ فضعي قبلتي على بَنانها ، وألقيها خَفيّةً ظاهرة في مثل حُنوّ نظرتها وحنانها ، وألمسيها من تلك القبلات معانيَ أفراحها في قلبي ومعانيَ أشجانها .

وها أنذا أصافِحُكِ ، فمتى أخذَتْكِ في يَدِها فكوني لمسةَ الأشواق . وها أنذا أضُمُّكِ إلى قلبي ، فمتى فتحتْكِ فانثري عليها في معاني العطر لمساتِ العناق .

* * *

إنّها الحبيبة ، يا زجاجةَ العطر ! وما أنت كَسِواكِ من كلّ زجاجة مُلِئت سائلاً ، ولا هي كسواها من كلّ امرأة ملئت حُسناً ؛ وكما افتنّتِ الصّناعة في إبداعك واستخراجك ، افتنّت الحياةُ في جمالها وفتنتها ، حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النّساء تعمل بطبيعة وقانون ، وفيها وحدها تعمل بفَنٍّ وظَرف .

وأنتِ سبيكة عطر ؛ كلُّ موضع منك يأرَجُ ويتوهَّج . وهي سبيكة جمال ؛ كلُّ موضع فيها يستبي ويتصبّى .

وما ظهرتْ معانيكِ إلا أفعمتِ الهواءَ من حولك بالشّذا ، ولا ظهرت معانيها إلا أفعَمَتِ القلوبَ من حولها بالحُبّ .

وكلتاكما لا يمسُّ أحدٌ منها إلا تَلبَّسَ بها فلا يستطيع أن يخلص منها ، ولا يستوي له أن يخلص منها .(١)

أنت عندي أجملُ أنثى في الطِّيب (٢) من بنات الزّهر ، وهي عندي أجمل أنثى في الحب من بنات آدم .

* * *

قولي لها ، يا زجاجةَ العطر ، إنك خرجت من أزهار كأنّها شُعلٌ نباتية ، وكانت في الرِّياض على فروعها كأنّما تَجَسّمت من أشِعّةِ الشّمس والقمر ؛ فلمّا ابتعتكِ وصِرْتِ في يدي ، خرجْتِ من شُعَلٍ غراميّة ، وأصبحت كأنّما تجسمت من أشواقي وتخيّلاتي ولمسات فكري ، ولذلك أهديتُك .

وقولي لها : إنّ شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائماً إلى تعبير جميل كجمالها ، بليغٍ كبلاغتها ، ينفذ إلى قلب الحبيب بقوة الحياة سواءً رضي أو لم يَرْضَ ، وهذا الشّوق النّافذ كان الأصل الذي من أجله خُلِقَ العِطرُ في الطّبيعة . فحينما تسكُبُ الجميلة قطرةً من الطّيب على جسمها تنسكبُ في هذا الجسمِ أشواقٌ وأشواقٌ من حيثُ تدري ولا تدري ، ولذلك بعثْتُك .

(١) من مس الطيب علق به ، شاء أم أبى ، وكذلك هي : كأن لجمالها عطراً !

(٢) من أعجب وأغرب ما في اللغة العربية ، أنهم يقولون (ذكور الطيب) لما يصلح للرجال دون النساء من أنواع الطيب : كالمسك والغالية ، فاستخرجنا نحن منها (إناث الطيب) لما يهدى إلى الحبيبة خاصة ، وذلك كله من دقة اللغة العربية حتى لا تجد لها نظيراً في لغة غيرها .

وقولي لها : إنَّكِ اتّساقٌ بين الجمال والحبِّ ، فحين تُهدَى زجاجة العطر من محبٍّ إلى حبيبته ، فإنّما هو يُهدي إليها الوسيلة التي تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جَوَّ قلبه العاشق المفتون . ولو تجسَّمَ هذا المعنى حينئذ فتمثَّلَ فنظره ناظِرٌ ، لرآها هي مُحاطَةً بشخصٍ أثيري ذائبٍ من الهوى واللَّوْعة يفور حولها في الجوّ ويسطع (١) ولذلكِ ، يا زجاجة العطر ، أرسلتُكِ .

أيُّها العطر ، كانت أزهارك فكرةً من فَنِّ الحسن توثّبَتْ وطافت زمنًا على مظاهر الكون الجميلة ؛ كي تعود آخراً فتكون من فَنِّ الحب . وفي ذلك مازجت الماءَ العذب ، ولامست أضواء القمر والنُّجوم ، وخالطت أشعَّة الشَّمْسِ ، واغتسلت بمئة فجر منذ غرسها إلى إزهارها ؛ لتصلح بعد ذلك أن يمسَّ عطرُها جسمَ الحبيبة ، ويكون رسالةَ حُبي إليها .

أيُّها العطر ! لقد خرجت من أزهار جميلة ، وستعلم حين تسكبك هي على جسمها الفاتن أنَّكَ رجعت إلى أجملَ من أزهارك ، وأنك كالمؤمنين تركوا الدُّنيا ولكنّهم نالوا الجنَّة ونعيمَها .

ما نفع رقة روحي ؟

يا مَنْ لِنِضْوٍ طَريحٍ مُجَمَّعٍ مِنْ حُطامِ (٢)
بَقِيَّةٌ مِنْ سُلُوٍّ عَلى بَقايا غَرامِ
وَقِطْعَةٌ مِنْ جَفاءٍ في قِطْعَةٍ مِنْ سَلامِ
أضيءُ كالنَّجْمِ لكنْ في وَحْدَةٍ وَظَلامِ
وَما أكابِدُهُ نارًا يَروهُ نوراً أمامي

* * *

ما نَفْعُ رِقَّةِ روحي تَنْدَى كَطَلِّ الغَمامِ
وَكلُّ ما هُوَ حَوْلي كَحَلْقِ عَطْشانَ ظامي ؟

* * *

يا واصِلاً بالمعاني وهاجِري في الكَلامِ
مخاصمي في نهاري مُصالحي في مَنامي
مِنَ العُبوسِ كلامٌ مَعْناه مَعْنى ابْتِسامِ
وَلَنْ يُغَيِّرَ جِسْمَ الوِدادِ ثَوْبُ الخِصامِ

* * *

ما نَفْعُ رِقَّةِ روحي تَنْدى كَطَلِّ الغَمامِ
وَكُلُّ ما هُوَ حَوْلي كَحَلْقِ عَطْشانَ ظامي ؟

* * *

رسم الحبيبة

« ولما أهدَتْ إليه رَسْمَها كتب إليها » :

كنتُ ساعةَ أجلسُ للكتابةِ إليكِ ، أراني كالمُصَوِّر ، غيرَ أنّي أنقل من عالم في داخلي ؛ أمّا الآن و رَسْمُكِ يملأ عيني ، فقد أضيفَ إلى عالمي المُضطربِ بأخيلته الكثيرة عالَمٌ من الجَمال الصّافي ، هو فوق ذلك كالسَّماء فوق الأرض : تحييها بالشَّمس والقمر ، وهو من وراء ذلك كالآخرة وراء الدنيا : تُطْمِعها بالجنة والخلد .

لكِذْتُ ، واللهِ يا حبيبتي ، أتخيَّلُ هذا الرق ، (٣) الموضوعَ أمامي يبرقُ بصورتكِ ويُشْرِق بوجهك ، نافذةً سحريَّةً فُتِحَتْ بيني وبين عالم الجمال الأزليِّ ؛ فأطلَّ فيها وجهُ حوراء من حُور الجنة ، ينظرُ إليَّ وأنظر إليه . يحمله جسمٌ خُلِقَ فتنةً للجنَّة ذاتها ، وكأنّه بجمالِهِ ومعانيه حقائقُ ذلك النَّعيمِ ، جاءت تترجم لذّة الخلودِ للنَّفس البشريَّة في بلاغة مُصوَّرَة ، اختاروا لها رسمكِ أنت .

وهل في الحُسْنِ أحسنُ من هذا الوجه الذي يرفُّ على القلب بأندائه (٤) ، ويتلألأ بنضرته ، حتّى لكأنّه خُلِقَ من نور الفجر ، وكأنَّ علامةَ الفجرِ فيه إنّما هي هذا الرَّوح الذي يُحيط القلبَ من وجهك

---

(١) فوران الطيب وسطوعه وتوهجه وتوقده : كل ذلك حدة رائحته وذكاؤها وقوتها مع فروق بينها دقيقة لمن يذوق البيان .

(٢) النضو : النحيل المهزول . والطريح : الذي أضجعه المرض . والحطام : ما تكسر أو تحطم .

(٣) الرق : كلمة استعملناها لهذا الورق المقوى الذي تكون عليه الصورة الفوتوغرافية .

(٤) جمع ندى ، وهو بخار الماء المتساقط من السماء ، استعمل للجود والسَّخاء . *

بمعانٍ كنسمات الصُّبْحِ ، عليلةٍ من شدَّةِ الرقة ، ذابلةٍ من فرطِ الجمال ، مملوءةٍ من روح النَّدى بما يجعلها حول النَّفس كأنَّها جوٌّ من شعورٍ حَيٍّ فَرِحٍ لا نسماتٌ في الجوّ .

وجهٌ منضَّر يُفزع لروعة حسنه مَنْ يراه ، كأنَّ شيئًا بِدْعًا لم يكن مُمْكنًا فأمكنَ . أو كأنَّ في حُمْرة خَدَّيْهِ وشفتيه خَمْرَ القلبِ ، رؤيتُها شُرْبُها ، وفيها السُّكْرُ بالجمالِ والنَّشوةُ بالهوى ، فما هو إلا أن ينظر وجهَكَ الناظر حتى يخالط قلبه .

وعلى ما رأيت هذا الوجه الفاتن ، فما رأيته من مَرَّة إلا حسبتها أوَّلَ مرة ، وكانت معه لنفسي جمحاتُها الأولى ، كأنَّ الحبَّ الَّذي بدأ في أوَّلِ نظراتي إليه يبدأ في كلِّ نظرةٍ إليه بدءًا جديدًا . وأرى أجملَ الوجوه يخاطب فيَّ حاسَّة الإعجابِ ، ولا يعدو هذه العاطفَةَ . وأرى وجهك أنت يبلغُ منّي القُصْوى ، ويأخذ بقلبي كُلّه ، ويستولي على جملةِ ما في إنسانيَّتي .

وإنّي لألمحُ فيه سرًّا عجيبًا ، يكون فقدان العبارة عنده هو أبلغَ العبارةِ في وصفه ؛ إذ لا تتكلَّمُ روعة الحسِّ بالجمال ، وهي تنزل في صور الألفاظ ، وإنَّما تغمز على القلب غمزةً خافتةً ، تُشعر الناظر أنَّ روح المنظرِ خامَرَتِ الرُّوح ، وأنَّ حياة الشَّكل انسكبت في الحياة ، وأنَّ المعنى الغامِضَ في الشَّرِّ اتَّصلَ بالمعنى الغامض في النَّفس .

وبمثل هذا السِّرِّ الذي يُطالعني من جمالِ وجهك أصبحَ الجمالُ على الحقيقةِ هو علمَ أفراحِ النَّفسِ وأحزانها ، وعادَ الشَّخص الجميل المعشوق وما هو بكلِّ معانيه إلا الفنُّ الفلسفيّ الكامل أُتيحَ لنفسٍ أخرى تُحاولُ بالحبِّ أن تكونَ كاملةً .

ومن هذا السِّرِّ يظلُّ وجهُ الحبيبِ جديدًا على كلِّ نظرة من مُحبِّهِ ، وإن طالَ تردادُ النَّظر وتَكرارهُ . كأنَّ الوقت لا يمضي معه كما يمضي مع الأشياء ، وكأنَّ الحبَّ أبديَّةٌ على قَدْر ما تحتملُ الدنيا . ولذا فهو يضغط على القلب لا بالسَّاعة ولا باليوم ، بل يجثم بقطعةٍ ضخمة من الزَّمَنِ ، كأنَّها عمرٌ كاملٌ فرحها شديدٌ شديد ، وحزنها شديد شديد .

سرٌّ عجيب فكَّرت طويلاً كيف أسَمِّيه فلم يَسْتَوِ لي ، وقدْ جلَّ أنْ يَقعَ معناه في كَلِمَةٍ ، ولكنّي أسَمِّيه المعنى المُتفَرِّقَ المُجْتَمعَ ؛ إذ هو بجملته ظاهرٌ في الوجْهِ كُلِّهِ ، وهو بجملته أيضًا ظاهرٌ على مِقْدارِ ذلك في كلِّ مَوْضعٍ من قَسَماتِ وجهك ومعارفِه ، كأنَّه لا أجزاءَ له ولا جملة ، كأنَّه شيءٌ أبَدِيٌّ ، كأنَّه في وجهك تألُّهُ الحبِّ .

* * *

ومن بعض هَذا السِّرِّ الابتسامةُ الواقعةُ على ثغرك ترقُّ فيها الرّوح مرة وتتكاثفُ مَرّة ، حتى كأنّها وهي في الرَّسم — لون روحيٌّ ظهر يتموَّجُ على شفتيك ، فما أقَلِّبُ فيه عيني إلا شعرتُ أنَّ روحي تذوبُ فيه كما يتمازَجُ لونان في السَّماء على الشَّفقِ الأحمر.

ومن بَعْضِهِ هَذه النَّظرةُ الحيَّةُ التي تَبْعَثُ في كلِّ معنًى من معانيك حياةً ، وتخلق منه لعيني فكرة أتلمَّحها فيه . حتى ليروعُني من أثرك عليَّ ، وأنا أنظر إلى رسمك ، أنّي أتخيَّلُ نفسي بجُمْلَتها أسئلةً وجسمَكِ هَذا بجملته أجوبتَها .

نظرةٌ ساحرةٌ تَجْعلني أرى كلَّ شيء في رسمك محدودًا . ومع ذلك أراكِ أنتِ غيرَ محدودة في شيء ؛ كأنَّ لك فَيْضًا من الجمالِ والسِّحْرِ يستغرقُ العالمَ ويغمرُ الكونَ ولا يكتفي بما ينتهي دون ما لا ينتهي ؛ أو كأنَّكِ أنْتِ مُجْتَلى هذا الفيض لعيني ؛ وكأنَّك وسيلة في اتِّصالِ روحي بروح الجمالِ الأزليِّ .

وماذا أقولُ في هذا الشَّكْلِ المُنْسَجِمِ المُتجاوبِ من كلِّ نواحيه ، إلا أنَّهُ القُوَّةُ الرَّهيبة ظاهرةً في مَلْمسِها النّاعم ، والضَّعفِ المؤنَّث الذّابل مُسَلَّحًا بأسلحة الشَّهواتِ والفتنة ، والسُّلطة القادرة ، اتَّخذت لها شكلَ الجمالِ فيك لتأمرَ وتنهى فينا .

إنّه لجمالٌ أكبرُ من الجمالِ ؛ إذ كانَتْ فيهِ القُوَّةُ والفتنةُ والحبُّ جميعًا . والجمالُ وَحْدَه مِنْ شأنِهِ أن يعجب ، ولكنَّهُ فيه يصبي ويُدَلِّهُ [٢] ، وبذلك يُعجب

(١) يحيِّر ويذهب بالفؤاد . *

ويفتن ، وبذلك يتسلّط مُسوِّغًا (١) الحقّ ، وبذلك لا تكون له إلا الطّاعة .

لا أرى غَيْرَ هذا الشّكلِ يأخذُ بقلبي ، ولكنْ أين أجدُ الكلامَ يستوعبُ كلَّ ما في قلبي ؛ لأعطِيَ كلَّ معانيك الصّوتَ واللّغة ؟

وكيف لي أن أزعمَ أنّي وصفْتُ الّتي تمتازُ على الشّمْسِ والقمر بأنّ فيهما النّور وحده ، وفي وجهها النّور الحيّ ؟

البلاغة تتنهّد

تقولين في رسالتك أيّتها العزيزة (٢) :

« لقد كنتُ أحْسَبُ فيما حَسِبْتُ بعد أن طَوّحتْ بنا النّوى (٣) ، وضربَ الدّهرُ هذه الضّربةَ بيننا – أنّ سعادة الفكر المتّصلِ بي منك والمتّصلِ بك منّي تُخفّفُ عنّي بَعْضَ ما أجدُ ، فتنقلُ خفقةَ قَلْبٍ إلى قلب ، وتُرسِلُ لمحةَ نفس إلى نفس ، وتُعطي العمر ولو عمر ساعةٍ من غير هذا الزّمن ، فأقطع إليك هذه المسافة المُتراخِيَةَ (٤) بقوة كقوة الأحلام : لا تَدَعُ في الكونِ أبعاداً ولا مسافات ، بَلْ تحويه كما تحوي المرآةُ الصّورةَ الّتي تُقابلها ، تَتراءى فإذا هي مرسومةٌ كما هي مَنْظورةٌ ، ولكنْ يا أسفاه ! لقد أرَتْني الحقيقةُ أنّ الحياةَ مادّةٌ ، وأنّ هذه المعاني المحبوبةَ الّتي نحفظُها مِمّنْ نُحِبُّهم لا تزالُ تُنازِعُ دائماً إلى أشخاصها المحْبوبينَ لِيُخَفِّفوا من لَوْعَتِها ، أوْ قُلْ لِيزيدوا في لَوْعَتِها – فإنّ الحُبَّ هو الطّرفُ الشّاذُّ الذي لم يُعْرَفْ له وَسَطٌ ، فإن لم يكن ذاهباً إلى الزّيادة مُطّرِداً بها ، كان غيرَ شكٍّ مُنْحَدِراً إلى النّقْصِ مُسْتَمِرّاً فيه .

« الحياةُ مادّةٌ ، يا صديقي ، فإذا أنا لم أقُلْ كَلمةً وأسمع ردَّها ، أو أخطّ سطراً وأقرأ مثله ، أو أرسل نظرة وأتلقى جوابها ؛ فإنّ الفكر الّذي يُسْعِدني في كلِّ شيءٍ هو نَفْسُه الّذي يُعَذّبني حينئذٍ بأحبِّ النّاس إليّ ، يُعذّبني بك حين لا أراك . »

أما واللهِ ، يا عزيزتي ، إنّ في دونِ هَذا لَبلاغةَ كُلِّ البلاغةِ ، فكلامُك بيانٌ كإشراق الضُّحى ، وهو مِثْلُك فَوْقَ وصفِ الواصفِ ، وإنّ فيك لمنبعَ سِحْرٍ كالنّهارِ الّذي ينبعُ من شمسه ، فلا تخطُّ أناملُكِ سطراً إلا تَضَوّأتْ (٥) فيه الحياةُ ، ولا أقرأُ لكِ لفظاً تكتبينه إلا بمعنًى منه ومعنًى منك .

بل لا أراكِ تجمعين ضميري وضميرَك معك في كلمة (٦) إلا أحسستُ أنّه لقاءٌ بيننا في لَفْظٍ .

وإنّ كتابَكِ ليأتيني وكأنّهُ صفحةُ مرآة مسحورةٍ بِسِرٍّ من أسرار الحياة : لا تلبث عيني أن تدورَ فيها دورةً ، فإذا أنْتِ ماثلةٌ ، وإذ أنا لا أقرأُ كلامَك ، بل أقرأُ وَجْهَكِ .

ولمّا طلعتِ لي في هَذا الكتابِ ، ألقيْتُ نفسي من شفتيّ على شفتَيْكِ وما أسْرَعَ ما نبّهني مَسُّ الصّحيفة ، فنظرْتُ فإذا أنا أقَبِّلُ كلمتكِ البديعةَ : إنّ الحياة مادّةٌ .

كنت أعرف أنّ اللغة موضوعةٌ لكلِّ أهلها ، شائعةٌ في ألسنتهم جميعاً ، وقد خُلِقَتْ من قبلِ أنْ يُخْلَقوا ، وتركها الأوّلُ للآخر . ولكنّ بلاغتك الّتي يتهلّلُ بعضُها تهلُّلَ جبينك ، ويستحي بعضُها استحياءَ خَدّيْكِ ويفترُّ بعضُها افترار شفتيك ، وتأتي مُفَتّنة ناعمةً كأنها جسمٌ بديع ناضجٌ للحُبِّ – قد جعلتْني أعرف أنّ الكلمة الّتي يلقيها حبيبٌ إلى مُحِبِّه تأتي وكأنّها لغةٌ مخلوقةٌ لِساعَتِها ؛ إذ ينتزع منها المحبُّ صُوَراً لا يَراها في مثلها من كلام النّاس ، ويُصيب لها في نفسه معانِيَ لا تكون لها في ذات نفسها ، ويراها مبتَدعةً له ابتداعاً غريباً على نسق حيّ ، فما ألقيْتُ كلمة بين حبيبين إلا جاءت

(١) مُبرِّراً ، مُبيحاً . * (٢) هذه كانت أول رسالة منها وهي في مكان بعيد ، حينما أحست أن صاحبها يريد كتابتها وفلسفتها ليضيع رسائله .

(٣) أي رمانا الفراق في ناحيتين . (٤) البعيدة الممتدة .

(٥) توهجت وأشعت واستنارت .

(٦) كقولها مثلاً : « يعذبني بك » فجمعت ضميرها – وهو الباء – بضميره – وهو الكاف ، ولا غرو أن يكون هذا في جنون الحب لقاء أو وصالاً . وهذا المعنى دقيق جدًّا كما ترى .

وهي تَتَنَهَّدُ أو تبكي أو تَضْحكُ أو تتوجَّعُ ، أو تنظر إلى معنًى من المعاني بينهما ، إذ لا بد أن تضرب على القلبين أحدهما أو كليهما .

إنَّ الكلامِ في نفسه وسيلةٌ من وسائل الفهم ؛ فهو لغة ، ولكنَّه في الحبِّ وسيلةُ الجذب ، فهو قوة ، واللُّغة من بعض أدوات الحياة . أما لغة الحب خاصَّةً فالحياةُ من بعض أدواتها .

لهذا ، يا عزيزتي ، لا تكون الحياة في الحُبِّ إلا مادَّةً . وإنَّ النَّفس قد تجوعُ وتأكلُ من جوعها ؛ إذ تخلق بإرادتها من الجوع أكلاً فتشبع شبعًا معنويا يُلائمها كما جاءَتْ ذلك الجوعَ الذي يُلائمها ، كنفس الَّذي قنع بالفقر وهو محتاجٌ إلى الغنى ، والَّذي صبر على المرض وهو فقير إلى العافية . ويَطَّرِدُ [١] هذا القياسُ في كلِّ أغراضِ الحياةِ إلا في الحبِّ ؛ فإن جوع النَّفْس العاشقة يَقتُلها قتلاً ؛ إذ لا غذاءَ لها من شيءٍ في الوجود كُلّه إلا مِمَّنْ تُحِبُّ .

ليس الحَيُّ مُنْقَطِعًا من الوجود ، بل هو منه لأنَّه فيه ، ويكاد كلُّ شيء يقول له : يا ابني ، أو يا أبي أو يا أخي ، أو نحوها . فهذه الوشيجة [٢] بين الحيِّ (والموجودات كلها) هي قرابةُ العقل المُسمَّاة بالمعرفة وصِلَتُه (بخصائص) الوجود في طائفةٍ من الأحْياءِ أو الموجودات هي قرابَةُ النَّفْس المُسمَّاة بالصَّداقة ، وشابكته (بأخص الخصائص) في حيٍّ واحدٍ يجمع كلَّ ذلك ويَزيد ولا يزال يزيد ، هي قرابةُ القلب المُسمَّاةُ بالحب .

نعم ، وإنَّ الحُبَّ ليَكادُ يكون معنًى كَبُرَ في السِّنِّ والقيمةِ والعقل من ذلك المعنى الطِّفليِّ الذي يندمج بالأمِّ والابن معًا في الوجود والعاطفة . فإذا كانت الأمومةُ هي الَّتي تَلِدُ حقيقةَ الحياة بمعانيها الواقعةِ ، فإنَّ الحب وَحْدَه هو الذي يلد الحياةَ بِشِعرها ومَجازها ومعانيها الخياليَّةِ الجميلة . ومن ثَم لم يكن الحبُّ رَحِمًا ، وهو أشدُّ منها صلةً وأوقعُ في القلب ، ولم يكن نَسَبًا ، وهو فوق النَّسب ، ولم يكن دمًا من دم ، وهو أشدُّ ما عُرِفَ من حنين الدَّم للدَّم .

ولقد يكون في الدُّنيا ما يُغني الواحدَ من النَّاس عن أهل الأرض كافَّةً ولكِنَّ الدُّنيا بما وَسِعَتْ لا يُمْكِنُ أبدًا أن تُغْنِيَ مُحِبًّا عن الواحد الَّذي يُحِبُّهُ .

هذا « الواحد » له « حساب » عجيبٌ غيرُ حسابِ العقل ، فإنَّ الواحد في الحساب العقليِّ أولُ العدد ، أمَّا في الحساب القلبيِّ فهو أول العدد وآخرُه ، ليس بعدَهُ آخرٌ ؛ إذ ليس معه آخر .

والحياةُ في كلِّ موضع ، يا حبيبتي ، هي هي كما تكونُ في كلِّ موضع وكأنَّها البحر ماؤه في أمريكا هو ماؤه في مصر — إلى حيث يكونُ الحبيب ، فهناك مع الحياة شيءٌ غَيَّرها ، هناك المادَّةُ الخَفِيَّة القادرة الَّتي تَنْساغ [٣] في هذه الحياة لِتُلَوِّنَها تلوينَ الزَّهرةِ منفردةً بالجمالِ والعطر من بين أوراق شجرتها، على حينِ كلُّ أوراقِ الشَّجرةِ مَسْحَةُ لَوْنٍ واحد .

(الحياة مادَّة) فأين أنت يا مادَّةَ الرّوح المُنسكِبَة في روحي ؟

أَضَعُ في آخرِ كلماتي سطرًا غير مكتوب — سطرًا فيه كثير من المعاني المُتكلِّمة من غير كلام !

رسالة للتمزيق [٤]

وَكَمْ حارَ عُشَّاقٌ وَلا مِثْلَ حيرَتي

إذا شِئْتُ يَوْمًا أَنْ أَسوءَ حَبيبي

وَهَلْ لِيَ قَلْبٌ غَيْرُ قَلْبي يَسوؤُهُ

وَيَأْخُذُ لي في الكِبْرياءِ نَصيبي ؟

ألا لَيْتَ لي قَلْبَيْنِ : قَلْبٌ بِحُبِّهِ

مَريضٌ ، وَقَلْبٌ بَعْدَ ذاكَ طَبيبي

---

(١) يتتابع . *

(٢) القرابة المشتبكة المتصلة . *

(٣) تطيب وتهنأ . *

(٤) بعد رسالته « البلاغة تتنهد » انقطعت عنه كتبها زمنًا بحكم الدلال أو كأنها تستغفر بالسكوت مما خطته ؛ فكتب هذه الرسالة .

وَيا لَيْتَ لي نَفْسَيْنِ : مِنْ رِئْمِ (١) رَوْضَةٍ
أَلوفٍ ، وَمِنْ ذي لِبْدَتَيْنِ (٢) غَضوبِ
وَكَيْفَ بِقَلْبٍ واحِدٍ أَحْمِلُ الهَوى
عَجيبًا عَلى طَبْعي وَغَيْرَ عَجيبِ ؟
فَو اللهِ إِنَّ الحُبَّ خَيْرُ مَحاسِني
وَ واللهِ إِنَّ الحُبَّ شَرُّ عُيوبي

* * *

هَذه رسالة لن أبعث بها إليها ، رسالة منّي أنا وإليَّ أنا ، أكتبها اليوم لأقرأها غداً ، فقد – والله – كادَ هذا الحبُّ يجعلُني على اختلافِ أيّامِهِ أشْخاصاً مختلفين مُتناكرينَ ، حتّى إنّهُ ليحتاجُ شخصُ الغَدِ أن يتعرَّفَ ماذا كان خَبَرُ شَخْصِ الأمسِ .

أكتبُها لنفسي ، ومتى تَنَفَّسَ غدُ هذا اليومِ النُّحاسيِّ (٣) من فجره الذهبي وأخذت تَنْسَلي (٤) همومُ يوم في يوم آخر ، وضربت موجةٌ من الزمن موجةً أخرى فهزمتها إلى السّاحل الذي تموتُ فيه الأمواج ، ساحِلِ النِّسيانِ المحيطِ ببحر الحوادث ؛ لِتَتَكَسَّرَ عليه أمواجُها العاتِيَةُ ضربةً ضربةً . ثم تَنْسَحِقُ وتَتَلاشى – فحينئذٍ أقرأ في رسالتي هذه تاريخَ الألَمِ الّذي بلغ مِنّي الغيظ ، ودكَّ أطواداً شامخة من الصَّبْرِ ، كنت ألوذُ بها في رمضاءِ (٥) الحُبِّ ، حتّى عادت ظَلاماً كظلال الحصى لا تفيء إليها النَّملة .

وأقرؤها ثم أُمَزِّقُها من سَطْرِها الأعلى إلى سطرِها الأسْفَلِ ثم أَنْحي (٦) عليها من كلِّ جِهَةٍ تَقْطيعاً ، حَتّى أدعها مِزَقاً بِعَدَدِ كلِماتِها ، ثُمَّ أبسط بها كفّي إلى الرِّيح ، وأقول لها : أيّتها الرِّيح الّتي لا يستطيعُ أن يَرُدَّ هبوبَها أحدٌ ، ولا أن يلويَها عن وَجْهِها ، إنَّ هَذا كُلَّهُ ريشُ طائرٍ من طيور الحب ، ذبحه الهَجْرُ فَخُذيه إلى حيثُ لا تَلْتَقي واحدة بواحدةٍ ، وانْثريه في أمْكِنَةٍ مَنْسِيَّةٍ ، فإنّكِ تُبعثرين به خفقاتِ هذا القلب الّذي يحاول أن ينسى .

* * *

واهاً لحوادثِ الحب ! كأنّما هي تَقَعُ لتُغَيِّرَ من الحياة في أيّامٍ قليلة ما يُغَيِّرُ العُمْرُ الممتدُّ في سنواتٍ مُتَطاولة . سَلِ الشَّيْخَ الفاني الّذي أوفى على المائة فأصبحَ عُمره في الإنسانيَّة صِفْرَيْنِ إلى عود . (٧) سَلْهُ : من أنت ؟ يَقُلْ لك : أنا الّذي كُنْتُ أنا من أربعين ؛ بل خمسين ، بل ستين سنة . وسَلِ المُحِبَّ الّذي أضناه الحب : من أنت ؟ يقل لك : أنا الّذي كان هو من شهر أو شهرين أو ثلاثة ! وسلني أنا في الهجر ، لا ، بل دعها هي تسألني .

ألا إنَّ شَرَّ الحوادث هي تلك الّتي تنزل بنا فلا نعرف منها إلا أنّنا كُنّا نعيش من قبلها ، وتَتَقَدَّمُ الحياة يوماً بعد يوم ، ولكنَّ الحَيَّ جامد في مكانه من الزّمن على ألمٍ يَتَوَجَّعُ له ما يبرح أو ذِكْرَى يحنُّ إليها ما يزال !

أنا منذ شهْرٍ أرقب منها كتاباً ولا يأتي كتابُها ، ففي كلِّ يوم غَضَبٌ على أثارةِ قبله . (٨) وكنت أرى أنَّ الحبَّ هو الطَّريقة الّتي يعثر بها الإنسانُ على روحه ، وهو مُغشى بِماديَّتِهِ ، فيكون كأنّه في الخُلْدِ وهو بَعْدُ في الدُّنيا وأكدارها ، فأصبحْتُ أرى الحُبَّ كأنّهُ طريقةٌ يَفْقِدُ بها الإنسان روحه قبل الموت ، فيعود كأنّه ضاربُ غمرةٍ (٩) من الحميم ، وهو قارٌّ في نسيم الدُّنيا !

ليس لي – والله – من شدّةِ حبي إيّاها إلا أنْ أبْغضَها وأتجهَّمَها (١٠) بالكلام النّافر الغليظ ، وأقول لها ، نعم أقول لها ، ثم أقول لها : قَبَّحَ اللهُ الحُبَّ ، إنْ كان مِثْلَ وجدي بِكِ : لا يؤتي الحياةَ جمالَها إلا بسلبها حريتَها واستقرارَها معاً . وأقولُ لها ، ثم أقول

(١) الرِّئْم : الظبي الخالص البياض . *
(٢) اللِّبدة : هو الشعر المتراكب بين كتفي الأسد . *
(٣) كأنه نُحاس لرخص حوادثه ؛ إذ كان يوم هجر ، ولا ذهب ولا فضة في أيام الحب ألا من الحبيب نفسه دون ما في الدنيا .
(٤) تنكشف . * (٥) شدة الحرّ . * (٦) أقبل . *

(٧) المائة هكذا (١٠٠) والشيخ الفاني كالعود من العظم .
(٨) أي على غضب كان قبله .
(٩) أي ملق بنفسه في مزدحم وشدة .
(١٠) أقابلها بوجه عَبوس . *

لها : لقد أوقعْتِني من حُبّك وهجرك بين الشرّ والذي هو شرٌ منه . وأقولُ لها أيضاً : لقد يكون ما نراه من حُبِّ المرأة الجميلة فنظنُّه أبدعَ ما تُحْسِنُه من الرِّقّةِ والظَّرْف ، هو أبدعُ ما تتقنه من صناعة الكذب بوجهها !

ولكنْ هل تُصَدِّقُ شيئاً من هذا ، وهي تعلم من فلسفتها ومن غرائزها أنَّ إرادة البغض إنّما هي أقوى دليل على وجود الحُبِّ ، وهي التي قالت لي ذات يوم : إنَّ ازدراء [1] رجل مُحِبٍّ لامرأة يُحِبُّها هو حب جديد ؟

يا ويحي ! ماذا أصنع ؟

إن سكتُّ علمتْ يقيناً علمَ السكوت ، وقالت : مُحِبٌ يأكلُ الغيظُ من قلبه . وإنْ غضبْتُ لم يَفُتْها معنى الغضب ، وقالت : مُحِبٌ يلتمس أسباب الرِّضا . وإنْ زعمتُ السَّلْوَةَ كان الزّعم من حُجَّتِها ، وقالت : محب يصوِّر قلبه غير تصويره .

يا ويحي ! كيف أصنع ؟

أ يُمكنني أن أنزِلَ هذه الصّورة الفاتنة من مكانها، وقد أرادت المقادير أن تُزَخْرِفَ بها غُرْفَة الأحلام في نفسي ، فجعلتُها في صدرها ؛ لأنّها من زينة الله التي أخرجَها لي ، ولم يجتمع ما أحبه من الجمال في امرأة إلا فيها ؟

وهل على الحب خِيار ؟ أمْ هو الجمالُ الأزليُّ يَسْتَعْلِنُ لكلِّ إنسان بالوسيلة الّتي تُوافق مزاجَه وتُلائم تركيبَ نفسه على قدر ما يُلائمه وعلى أحسنِ ما يُلائمه ، فأتى الحبُّ متَّخذاً من الشّكل المحبوب وسيلَتَهُ ، فلا يكون أكملَ ولا أجملَ عند كلِّ عاشقٍ من معشوقه ؛ إذ هو ليس إلا الصّورة الّتي تتراءى فيها خصائصُ الجمالِ العلويِّ للخصائص الّتي في روح العاشق وطباعه ، فَتَتَّصل بها من الجهة الّتي تنفذ منها إلى خالصة قلبه وداخلة روحه ؟ [2]

أنا لن أبْغِضَها إلا أن تُسيء إليّ أكبرَ من إساءةِ دَلالها ، بل إساءة تَضَعُها في دمي ، دمي الحُرِّ الجَيّاش المُتَحَدِّرِ إليَّ من أقصى تاريخ المكارم .

إني لمن أولئك الّذين يعرفون أنَّ لهم عروقاً سماويّةً في أرواحهم ، تتضرَّمُ بالشُّعاع القدسيِّ الّذي كان يوماً في بعض أجدادهم ؛ إمّا نبوةَ نَبِيٍّ ، وإمّا خلافةَ خليفة ، وإمّا ملكَ مَلِك .

وفي مذهبي أنّه إذا اجتمعَ الأذى والحبُّ في قلب ، وَجَبَ أن ينصرف الحبُّ مطروداً مدحوراً . وليس من ذلك بُدٌّ ، ولكنْ ، يا لله ! أين منهما الأذى المُمِضُّ المؤلم الّذي يطرد الحبَّ ويجعلني أبْغِضها بِدَمي كما أحْبَبْتُها بدمي ؟

إنْ هي إلا هذه الإساءة المبتسِمةُ ، إساءة الدّلال الّتي تُغْضِبُ لتجدِّد الرِّضا ؛ وتُبْعِد لتؤتي القربَ معنًى غير معناه القديمِ ، وتُؤلم لتُحْدِثَ اللّذة الحادّة الّتي يُمازِجُها الطّرب ، وتُرْسِلُ الوحشة إلى القلب ، كأنها سفيرٌ سياسيٌّ يمضي بأسلوب الحرب ليرجع بأسلوب السِّلم ، وتأتي مِنْ كلِّ ذلك ما هي آتيةٌ لتجمعَ عليك من سحرِ الحب سحرَ الزّمان الّذي يُهدِّد الحُبَّ ، ومع قُوّة الحسن قوة الرَّغبة في لذّة الحسن ، ومع ثورة القلب عليها ثورة الفكر على القلب وعليها !

ليت شعري أ تقوم العاصفةُ الهوجاء من خطرات مِروحة الحبيبة ؟ ويقع الزّلزال المدمِّر من رجرجة منديلها في يدها ؟ لا أدري ولكنْ ربما ! ربما !

إنَّ لكل حبيبة خيالاً ساحراً ، كأنّه خارج من قوى الكون كلّه لا من قواها الضعيفة ، فما تلمس

---

[1] احتقار . *

[2] كأن في كل إنسان جهة خاصة لا يمكن أن يشعر بجمال العالم إلا منها ، فيختار الجمال الشّكل الذي تلائم خصائصه هذه الجهة . وقد يكون الشّكل سخيفاً أو قبيحاً عند النّاس ، ولكنّه طلعة الشّمس والقمر عند محبّه ، إذ هو في الحقيقة ذلك الجمال نفسه الذي يتجلى في أجمل مخلوق ، ولكن بالتركيب الذي يلائم نفس إنسان بعينه ، كأن الجمال عنصرٌ من الدّواء في يد طبيب حكيم يصفه بمقادير مختلفة في أشكال مختلفة ، ولكن أثره لا يختلف . ومن هنا لا بد أن يحبَّ كل إنسان ، ولا بد أن تختلف الأذواق والأسباب في الحب باختلاف الجهات النفسية في الخلق . ولكن الشّعور واحدٌ ، والمعنى واحد ، والجمال نفسه واحد ، والطبيعة واحدة . وبهذا الذي بيّناه تُحل مشكلة اختلاف الأذواق في إدراك الجمال .

من شيء إلا سحر به على عين مُحِبِّها فحوَّله فيما شاء الهوى من صُوَر الخيال المعقولة والمستبعدة ، والممكنة والمستحيلة !

وكلُّ حبيبةٍ وصاحبها كالوثن وعابده : في أحدهما الحقائق كلُّها ما دام في الآخر الوهمُ كُلُّه.

إنَّ المرأة لتكونُ امرأةً وحَسْبُ ، إلى أن تجد عاشقَها ، فإذا هي وافَقَتْ منه الحبَّ فقد تألّهت في قلب إنسان ، وصارَ لها جَنَّتها ونارُها ، ومضى منها الأمر وكأنّها عند مُحِبِّها تأسرُ بقوّةٍ قادرة على أن تُحييَ ، وتنهى بقُوّة قادرة على أن تُميتَ . وليس ما يصفها به العاشقُ – من فنون الجمال الخياليِّ ، وما يفيض عليها من ألوان التعبير المصبوغ – إلا ما تتوهّمه العينُ البشريّة من جَلالٍ فوق الحسِّ ، ويريد الحسُّ أن يصل إليه كأنَّ هناك في العقائد الإنسانيّة معضلتين : ما وراء الطّبيعة ، وما وراء الحبيبة .

كلَّ يوم أقول في هذه الجميلة التي أبغضها ، أعني أحِبُّها ، أعني أبغضها ، إنّها لظريفة إلا حين يجب أن تكون ظريفة . وإنَّ كُلَّ محاسِنِها لا تَعِنُّ إلا في مساوٍ بقدرها .[1]

ترى ماذا حَبَسَ كتبَها عَنّي ؟ أ تُكلّمني بهذا السُّكوت ؟ إنَّ السُّكوت لَلُغَةٌ أحيانًا ! أم هي تدعني أبحث عن كلمتها في خواطري وأفكاري لأسَرَّ بقدرِ ما أجد ، وأتألَّمَ بقدر ما أستطيع ؟ أم المحبّةُ قد أخذت تطير إلى النّسيان بأجنحةِ الأيام التي تحمل كلَّ شيء ولا ترجع به ؟

إنَّ السُّكوت من أكبر فضائل المرأة ، وقليلاً ما وفِّقَتْ إليه ؛ ولعله أشقُّ عليها من كتمان سِرِّها . ولكنَّ سكوت الحبيبة عن كلمات الحبِّ هو الرَّذيلة ، الرَّذيلة التي لا يَعْدِلُها في الغيظ عند مُحِبِّها إلا أن تنطق بهذه الكلمات – كلمات الحبِّ – لرجل غيره .

اتّفقت لي بالأمس حادثة أوحت إليَّ بهذه الحكمة : قد يكون أدقُّ خيطٍ من خيوط آمالنا ، هو أغلظَ حبلٍ من حبال أوهامنا !

آه آه ! ما أراني عند هذه الكلمة إلا قد انتهيْتُ إلى الموضع الّذي يحسنُ عنده تمزيقُ رسالتي ، لأقول للرّيح : خذي ريش طائر الحبِّ المذبوح .

القمر[2]

وكانت تأنَسُ بضوء القمر ، ويُعْجِبُها نورُه على الحديقة خاصّةً ، فسألَتْه أن يُناجِيَ هذا « الجميل » في رسالة ، فقال : حُبا وكرامةً « للقمر » ، وكتب :

إنّي لأراكَ أيُّها القمر منذ عَلِقْتُ[3] معانيَ ما أرى ، ولكنّي لم أعرف أنّك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحبُّ فيها بينك وبين قلبي وجهَ مَنْ أهواها ، كما يوضَعُ التّفسيرُ إلى جانب كلمة دقيقة .

عندئذٍ وصَلَتْك قَرابةُ الجمال بوجهها ؛ فاتّصلَ بك شعوري ، وبِتَّ على بُعدِك في أفلاكِ السَّماء تسبحُ أيضاً في دائرة قلبي ، واستويت مُتّسقاً ، كأنَّ عملك لي أن تُتَمِّمَ فَنَّ جمالها بإظهارها أجْمَلَ منك ، وأمسيْتَ عندي ولك مثلها شكلُ السِّرِّ المُبْهَم المُحيطِ بالنّفس المعشوقة : يدخل كلُّ جمال في تفسيره ، ولا يكمل تفسيرُه أبدًا !

ومن شبهك بوجهها أزهرَ الضوءُ فيك ما يزهرُ اللّحم والدَّم فيها ، فتكاد أشِعّتُك تقطِف منها القُبْلَة ، ويكاد جَوُّك يساقط من نواحيه تَنَهُّداتٍ خافتةً ، وتكاد تكونُ مثلها يا قمرُ مخلوقاً من الزَّهْرِ والنّدى وأنفاسِ الفجر !

* * *

أمّا قبلَ حُبِّها ، فكنتُ أراكَ أيُّها القمرُ بنظرات لا تحمل أفكارًا .

كنتَ جميلاً ، ولكنْ جمالَ ورق الزَّهْرِ الأبيض.

(١) أي لا تظهر محاسنها إلا مع مقدارها من المساوي ، ولا يريد مساوي الخلق ، بل الصد والدلال ونحوهما .

(٢) في كتابنا « حديث القمر » تشبيهات كثيرة وأوصاف مختلفة ، فانظرها هناك ؛ إذ هي نمط آخر غير ما تجده في هذه الرسالة .

(٣) علمت . *

وكنت في رقعتك المضيئة تُشبهُ النّهار مَطْوِيًّا بعضُه على بعض ، حتى يرجع في قَدْرِ المِنْديل . وكنتَ ساطعًا في هذه الزّرقاء ، ولكنْ سطوعَ المصباح الكهربائيّ على منارةٍ قائمةٍ في ماء البحر . وكنْتَ زينةَ السّماء ، ولكنْ كما تُناطُ [1] مرآة صغيرة من البَلّور إلى حائط ، فتشبه من صفائها موجةَ ضوء أمْسِكَتْ ، و وضعت في إطارٍ مُعَلّقٍ !

وكنت يا قمرُ ... كنت ملءَ الوجودِ ولكنَّك ضائع من فكري .

وأمّا بَعْدَ حُبِّها فأمسيتَ أراكَ أيُّها القمرُ ، ولست إلا طابعَ الله على أسرارِ اللّيْلِ في صورة وجهٍ فاتن . كما أنّ كلّ وجهٍ معشوق هو طابعُ الله على أسرار القلب الّذي يُحِبُّه .

فأنت جميلٌ جمالَ الجسم البَضّ العاري ، تكاد تُشبه صدرَ الحبيبة ، كشفت أعلاه فظهر في بريقِ الفضّة المَجْلُوّة .

وأنت فاتنٌ تُحاكي في ضوئك وجْهَها ، لولا أنّك بلا تعبير .

وأنت ساطع بين النُّجوم . ولو تجسّمت صورةٌ من أجمل ضحكاتِ ثغرٍ معشوقٍ لكانَتْكَ . ولو تَجَسّمت القبلاتُ المُنتثرة حولَ هذا الثّغر لكانتها . [2]

وأنت زينة السّماء ، ولكنّ السّماء منك كمرآة سحريّة اطّلعَتْ فيها حوريّةٌ من حور الجنّة فأمسكَتْ خيالَ وَجْهِها في لُجّةٍ من النّور ، فأنت خيالُ وجهها !

وأنت يا قمر ... أنت ملء الوجود ، ولكنّك أيضًا ملء فَنّ الحبّ .

* * *

أ تذكر أيُّها القمر إذا طلعت لنا في تلك الحديقة ، وتفيّأتَ بنورك عليها ، فغمرت أرضها وسماءها بروح الخلد ، حتّى وقع في وهمنا أنّك وصلتها من سحر أشِعّتك بطرف من أطراف الجنّة ، فهي ناحيةٌ منها ؟

أ تذكر وقد رأيتك ثَمّةَ قريبًا من الحبيبة تصبُّ عليها النّور حتّى خُيِل إليّ أنّها إحدى الحور العين مُتّكئة في جنّتها على رفرف خُضر [3] ، وقد وقف لخدمتها قمر ؟

أ تذكر وقد لمسْتَ فكري بضوئك لمسةَ نورٍ ، فأظهرتها لي كأنّها في جمالها الطّاهر شكلٌ دينيٌّ وُضِعَ ليكونَ مثالاً لعبادة القلب الإنسانيّ ؟

أ تذكر إذ نزلْتَ علينا بآيات سحرك ؛ فخيّلْتَ لي أنّ العالم قد تحوّلَ فيها هي إلى صورة جميلة مرئيّة أمست لي وحدي ، فملكت العالم كلّه في ساعة من حيثُ لم أملك إلا الحبَّ ؟

أ تذكر ساعةَ جئتها بها مِن فوق الزّمن ، وكان فيها للحديقة جَوٌّ من زهر ، وجَوٌّ من قمر ، وجَوٌّ من امرأةٍ أجملَ من القمر والزّهر ؟

* * *

أ ترى يا قلبي كأنّ في الوجود الذي حولنا أنوثةً وذكورة ، فهو بالقمر تحت الليل يُعبِّر عن نفسه تعبيرًا نسائيًا في منتهى الرِّقّة ؛ لأنه قويٌّ شديد ؛ وفي غاية التّفتُّر ؛ لأنّه مشبوب مُتَضرِّم ؛ وفي كمال الدلال ؛ لأنه في كمال الإغراء ؛ وفي أقصى الحياء ؛ لأنّه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة ؟

تعبيرَ امرأة معشوقة جميلة ترفُّ بأندائها ، وليس فيها إلا صفات .

وبالشّمس على النّهار يُعبِّرُ الوجودُ عن نفسه تعبيرَ رجلٍ مقدامٍ ، ليس فيه غيرُ القُوّة والحركة والاندفاع . تعبيرَ رجلٍ جبّار يحمل عزائمَه التي يحترقُ بها ، وليس فيه إلا صفات النّار ؟ [4]

أ ترى يا قلبي كأنّ مدنية الحياة في النّهار بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعيٍّ ، يفرّ إليه

(١) تُعلّق . ＊ (٢) أي كأن القمر قطعة اجتمعت من أنوار ضحكات ثغر جميل ، وانتثرت قبلات هذا الثغر نجومًا ، فكل نجم هو ضوء قبلة .

(٣) في صفة أهل الجنة « متكئين على رفرف خضر » وفسرت بالمخادّ أو البسط . والمراد بها هنا منثورات الروض الخضراء التي تفرش أرضه . (٤) هذا رأي لنا لم نجده لأحد ، فكأن من المرأة مظلمة أبدًا كليالي المحاق ، ومنها مضيئة ، ولكن على تفاوت باختلاف الأسباب « ومنها ليلة البدر » وهي الحبيبة عند محبها : كلها جمال و وحي وضوء ورقة وسحر !

أهلُ القلوب الرّقيقة بضع ساعات ، فلذلك يخلق لهم القمر صحراءَ واسعةً من الضّوء ، يجدون فيها بعد تلك المادية الجيّاشة (١) المصطخبة ، روحانيةَ الكون وروحَ العزلة وسكينةَ الضمير ، ويبدو فيها كلُّ ما يقع عليه النّور كأنّه حيٌّ ساكنٌ يُفكِّرُ ؟

أ ترى يا قلبي كأنَّ ضوء القمر صُنِعَ صنعةً بخصائصها ؛ ليبعث في القلوب معانيَ القلوب الرّوحيّة من الفكر والحبّ ، كما صُنِعَ نور الشّمس ليبعثَ في الأجسام قواها ومعانيها المادية من الحياة والدّم ؟

أ ترى يا قلبي كأنَّ هذا القمر إنما يلقي النّورَ على الحلم الرّوحاني اللذيذ الغامض الذي يحلم به كلُّ عاشق من أوّلِ درسٍ في الحبّ ، ساعةَ ترْسِلُ الحبيبةُ إلى قلبه رسالة عينيها ، ولا يحلم بمثله في غير العُشّاق إلا أعظم الفلاسفة ، وفي آخر دروس فلسفته ، وبعد أنْ تكون اللّيالي الطّويلة قد أطلعت في سماء عمره قمرَ الشّيخوخة من شعره الأبيض ؟

أ ترى يا قلبي كأنَّ هذا القمر في الحبِّ (تلسكوب) يُكَبِّرُ نورُه العواطفَ حين تبث في ضوئه، فلا يطّلع على حبيبين أبداً إلا كبَّر أحدَهما في عين الآخر ؟

أ ترى يا قلبي أنّه ليس في الحب إلا عواطف مُكبّرة ، يُثيرها دائماً وجهُ الحبيب ، فلا بُدَّ أن يكون دائماً وجه الحبيب طالعةً فيه روح القمر ؟

أ ترى يا قلبي ... ؟ آه ! أ ترى ؟

* * *

قال القمر

يا ليْلُ ، هيَّجْتَ أشواقًا أداريها
فَسَلْ بها البَدْرَ : إنَّ البَدْرَ يَدْريها
رَأى حَقيقَةَ هذا الحِسِّ غامِضَةً
فَجاءَ يُظْهِرُها لِلنّاسِ تَشْبيها
في صورَةٍ مِنْ جَمالِ البَدْرِ تَنْظُرُها
وَتَنْظُرُ البَـدْرَ يَبْدو صـورَةً فيـها

* * *

يَأْتي بِمِلْءِ سَماءٍ مِنْ مَحاسِنِهِ
لِمُهْجَتـي ، وَأَراهُ لَيْـسَ يَكْفيهـا
وَراحَةُ الخُلْدِ تَأْتـي فـي أَشِعَّتِهِ
تَبْغي عَلى الأَرْضِ مَنْ في الأَرْضِ يَبْغيها
وَكَمْ رَسائِلَ تُلْقيها السَّماءُ بِهِ
لِلعـاشِقينَ ، فَيَأْتيهـمْ وَيُلْقيهـا

* * *

يَقولُ لِلعاشِقِ المَهْجورِ مُبْتَسِماً :
خُذْنـي خَيـالاً أَتـى مِمَّنْ تُسَمّيها
وَلِلّذي أَبْعَدَتْهُ في مَطارِحِها
يَدُ النَّـوى ، أَنا مِـنْ عَيْنَيْكِ أُدْنيهـا
وَلِلّذي مَضَّهُ يأسُ الهَوى فَسَلا :
أُنْظُـرْ إِلَـيَّ وَلا تَتْـرُكْ تَمَنّيهـا

* * *

أَمّا أَنا فَأَتاني البَدْرُ مُزْدَهِيًا
وَقالَ : جِئْتَ بِمَعْنًى مِنْ مَعانيها
فَقُلْتُ مِنْ خَدِّها ، أَمْ مِنْ لَواحِظِها
أَمْ مِنْ تَدَلُّلِها ، أَمْ مِنْ تَأَبّيها
أَمْ مِنْ مَعاطِفِها ، أَمْ مِنْ عَواطِفِها ،
أَمْ مِنْ مَراشِفِها ، أَمْ مِنْ مَجانيها
أَمْ مِنْ تَفَتُّرِها ، أَمْ مِنْ تَكَسُّرِها
أَمْ مِنْ تَلَفُّتِها ، أَمْ مِنْ تَثَنّيها ؟
كُنْ مِثْلَها لِيَ جَذْبًا في دَمي وَهَوى
أَوْ كُنْ دَلالاً وَكُنْ سِحْرًا وَكُنْ تيها
فَقالَ وَهْوَ حَزينٌ : ما اسْتَطَعْتُ سِوى
أَنّي خَطَفْتُ ابْتِساماً لاحَ مِنْ فيها !

---

(١) المضطربة المتدفّقة . *

نظراتها

أكتبُ إليك يا حبيبتي كتابَ عَيْني ، إذ أكتب عن نظرتك السِّحريّة ، الّتي أجد لها في قلبي مَعْرِضَ فَنٍّ كامل من صُوَر المعاني الجميلة . فإنّ نظرة الحُبِّ تقع موقعَها في العين وحقيقة معناها في القلب ، كأختها قبلة الحب هي في الفم ، وحلاوة طعمها في الفكر .

أ تدرين يا حبيبتي كيف أراك ؟ إنّ في عيني من أثر حُبِّك ما جعل في نظري قُوّةَ خلق معنويٍّ ، تريني كلَّ شيء من فوق معانيه ، كأنّي خلقت فيه جمالاً أو معنًى ، أو خلقت فيه القدرة على أن يسمو في روحي ، ويرتفع بها فوق ما هو في نفسه وحقيقته . وعلى الجملة فكأني أسبغ الفنَّ على المادّة ، فإذا كلُّ شيء يُرى هو في نفسي شيء ألبس مجازاً أو استعارة أو نحوهما ، مما يحقق فيه مع صنع مادته عمل فكري وخيالي .

في نظري من أثر حبك حسٌّ من الفكرة ، فهو نظر وتقدير معاً ، والأشياء لديه مادّة وعبارة سواء ، والإدراك به حقيقة وخيال جميعاً ، وبكلّ ذلك فالجمال في نظري جمال من ناحيتين : حسنُه في ذاته ، وحسنه في خيالي الّذي يجعله أسمى من ذاته.

ولو أردت مثلاً أضربه لقلتُ لك : خذي جمالين في معنى واحد ، فإني أنشأت حديقة زهر . ولكنّي لا أقول لك أنت غرست حديقة ، بل أقول لكِ : غرستِ الفجر .

ومن ذلك يدع لي الحبُّ فكرة عنك ، لو هي كانت في خاطر مَلَك من الملائكة يمرُّ بها في السّماوات لما زادت ولا ارتفعت عمّا هي في نفسي ولو دخل بها في الجنّة ، في هذه الفكرة عنك ، يا حبيبتي ، الجنس كلّه بأحسن ما فيه ، وبهذه الفكرة أراك وفيك الجمال النِّسْويُّ [1] ، فإذا نظرت إلى غيرك لم أرَ فيها إلا شخصها هي حسبه . [2]

كذلكِ أراكِ بحسِّ الشّاعر الّذي يُضيف دائماً إلى الحياة والطّبيعة زوائده وفنونه ، ولكنّي أراك أيضاً بحسِّ الطُّفولة التي تُضيف إليها الحياةُ والطّبيعة دائماً مثل تلك الزّوائد والفنون . فما أحسبني رأيتك مرة إلا وكأنّي رأيت فيك أوّل أنثى ، وكأنّما الحبُّ هو بدء الدُّنيا مرة ثانية من أوّلها ، أي ولادة خيالية ، إنْ لم تولَدْ بها الأشياء في أشكال جديدة فبألوان جديدة ، أي زخرفة الوجود كلّه ونقشه لعين العاشق بجمال المعشوق ، كأنَّ الوجود بيت قد طُلِيَ وزُخْرِفَ ونقش؛ لأنه ستدخله عروس الحب .

* * *

وانظري الآن يا حبيبتي صور نظراتك في قلبي ، فإنَّ لها بَعَثات من ورائها بعثات [3] ، وفيها المعاني من تحتها المعاني .

فهذه نظرات تمتدُّ ، تأمر ، تُشعرني قوة سطوتها كأنها تقول : أريد ... أريد ... ثمّ لا يُرضيها الرِّضا ، فكأنها تقول : أريد منك أكثر مما أريد !

ونظراتٌ تَجيء تُشْعِرُ النَّفْسَ قوةَ سحرها ، فلا تنفتّر بها عيناك حتى أرى الحياة وقد ملأت وجهك بفنٍّ من الأنوثة السّاحرة ، كأنما أبدعته لك خاصّة .

ونظرات من عين ساجيةٍ ساكنةِ الطّرف ، كأنّها تقول لي : إنّ نظراتي إليكَ بعض أفكاري فيك !

ونظرات يتقطّع الطّرف بيني وبينك فيها ، كأنّها تقول لي : أ فهمت ؟

ونظرة طويلةٌ صارمة لها سيماء قاضٍ مُحقّق ، تبحث فيَّ عن توكيد لتهمة أو براءة !

ونظرات من عين تسأل مُتجاهلةً وقد شطرت بصرها [4] ، كأنَّ فيها فكرين ، أحدهما يقول أعرفُك ، والآخر يقول لا أعرفك !

---

(١) نسب إلى كلمة نِسْوة . *

(٢) حسب : أي فقط ، والهاء : هاء السكوت للوقوف على الكلمة .

(٣) أي لها في نفسه أمارات مما تبعثه وتهيجه في النفس .

(٤) يقال هذا في الشخص الذي كأنه ينظر إليك وإلى آخر ؛ فشطر من بصره هنا وشطر هناك .

ونظرات الحبيبة لألأت بعينيها (١) ، كأنها تقول لقلبي : أنت جريء كالفراشة ، ولكنْ على الشُّعلة المحرقة !

ونظرات الجميلة المزهُوّة ، كأنَّ فيها شيئاً أعلى من أرواحنا يوضح لمحات من الجمال الأزلي .

ونظرات الضّاحكة اللّعوب تنفر وتتدلّل ، كأنّما تقول لي : إنّها تحسُّ بأفكاري ، تداعبها وتلمسها .

ونظرات الخَفِرَة (٢) الحيِيّة التي كأنما تُحاول أن تُخفي سِرَّ قلبين تحت كسرة طَرْف ضعيفة .

ونظرات العذراء أوْمَضَتْ بعينيها وسارقت اللحظ (٣) ؛ لأن روحها تريد أن تقول : إنّها للحبِّ مُتيقِّظة .

ونظرات ترنو في سكون واسترخاء ، كأنها تقول : إنَّ تعبيري هو أن يموت في التّعبير .

ونظرات أراها مُحَدِّجة (٤) كما تنظر من روعة وفزع حين لا فزع ولا روعة ، فأعلم أنَّ الجمال يهاجمني بسلاحِ خَوْفِه .

هذه نظرةٌ بريئة ، ولكنْ في شكلٍ خاصٍّ من البراءة ؛ لينبعث منها فجأةً معنى ظريف يتماجنُ ويمكر ويعبث .

وهذه نظرة ناعسة ، كأنَّ وراءها فكراً خطراً نائماً تجهد أن لا ينتبه .

وهذه نظرة — نظرةٌ واحدة — يقول من يعرف أنساب معاني الحبِّ : إنها رُبّما كانت ... أخت القبلة ، فهي قصيرة لا ينفتح بها الجفن حتى ينطبق .

وهذه نظرة طويلة قويّة في جذبها ، فربما كانت أخت العناق .

وهذه نظرة — نظرة واحدة — يجشع (٥) فيها بصرك ؛ لأنَّ تهمةً لك من عيني التقت مرَّةً باعتذار لي من عينك .

وهذه نظرة بين المعنيين تحتمل كِلَيْهما : إساءةُ الدّلال إليَّ ، وإحسانه عليَّ .

وهذه نظرةٌ بين اللقاءين (٦) تجذبُ في قلبي الخوفَ والأملَ بمقدار واحد .

* * *

تلك ، يا حبيبتي ، صُوَرُ نظراتك في مَعْرِض قلبي ، وتقابلها هناك الصُّوَرُ الأخرى الّتي لا تريدين أن أصِفَها لك ، لأنّها الصُّوَرُ المسكينة — صور أحلامي !

استمداد فلسفة

« وكتب إليها » :

جاءني كتابُك ، بل جئتنِي أنت في كتابك ، فضممت الصَّحيفة إلى قلبي ضمَّةً عرفتك فيها من خفقات هذا القلب واضطرابه . وقبّلْتُ الكلمات قُبَلاً شعرت من سحرها في نفسي أنَّ هذه الألفاظ قد خرجت من فمك الورديِّ ، فجاءت عطراً وحياة وجمالاً . ونقلت في الكتاب جوّاً رقيقاً نديّاً ، كان مُطيفاً بشفتيك عند كتابتها ، كأنّه نسمة من الفجر حول وردة تتنفَّسُ بعطرها الذّكيِّ .

كُلّما قرأت لك شيئاً نفذ إلى روحي بالعطر الّذي عطّرك الله به . كأنَّ الكلام بيننا أثيرٌ تسبح فيه مادّةُ نفسينا : ولو أنَّ كلَّ الجميلات في العالم لَفَظْنَ كلمةً واحدة ، ثُمَّ لَفَظْتِها أنت لكنتِ أنت وحدك القادرةَ على أن تصنع روح الجمال وروح الحبِّ وروح المرأة في تلك الكلمة ؛ لأن روحي لا تعرف الجمال والحبَّ والمرأة إلا فيك !

ترينني حين أقرأ كتابك بين سحرين تَظاهرا من ألفاظك ومعانيك ، فتجدينني كالنّائم ، تخلُقُ الذاكرة في خياله أجسامَ المعاني المحفوظة لتُخرِجَ له من الاسم صاحبَ الاسم ، وتردُّ عليه من الحكاية واقعة الحكاية ، وتجرد منه شخصاً لا حقيقة له ،

(١) كما يقول العامة (برَّقت) وذلك يكون من إعجاب ودهشة . (٢) شديدة الحياء . *

(٣) أي كأنها تنظر وميضاً ينبعث ويختفي .

(٤) تنظر ملء العين . (٥) يجزع أو يفزع . *

(٦) لقاء الغضب ولقاء الرضا ، فهي في حالة بينهمّا لا من هذا ولا من ذاك ، لا عابسة ولا باشة في وجهه .

ينطلق في عالم مسحور ليست له حقيقة . ويألم النائم ويلذّ كأنه من اليقظة لم يزل .

* * *

يذكرني هذا بما جادلتك فيه يوماً من أنّ هناك عالماً معنويًّا يخلق ممّا ننساه ونحن ننتقل إليه أحياناً بالنَّوْم ، وأنّ هذا تمثيل لمعنى الخلود ، أو هو من بعض أدلّته ؛ إذ لست أرى الموت إلا رجعة الرّوح إلى عالم أنشئ لها من أعمالها في رحمة الله ونقمته . فنحن على الأرض نبني لأرواحنا في السّماء ، ومنّا من يبتني لنفسه المدينة العظيمة بخيراته وحسناته ، ومن يبني لروحه السِّجن الضّيّق الوعر بآثامه وجرائمه .

ما لي أراني قد اندفعْتُ إلى ما وراء الحياة ؟ ولكنْ هل الحب إلا روحانية ترجع بنا إلى ما وراء أنفسنا ؛ لتضيف بعض المجهول إلى وجودنا ، وتزيد لنا في نعيم الدُّنيا وآلامها ما لا يزيده شيء آخر غير الحبّ ؟

لو سألْتِني من هو العاشق لأجبْتُكِ إنّه لن يكون عاشقاً إلا من أحَسَّ أنّه قُذِفَ به في الابتسامات والنَّظرات بمرّةٍ واحدة إلى مَهْبطِ السّماوات ، فيشعر أن نعيمه أهنأ من نعيم الأرض ، وأنّ عذابه أشدُّ من عذابها ، وكأنّه إذ يتنعّمُ لم يُصِبْ أسبابَ النّعيم ، بل أسباب الخلود في الجنّة ، وإذ يتألّم لم يجدْ مادّة الألم ، بل مادة نارية خالدة على قلبه .

كذلك لا يبدأ الحب إلا من آخر الدنيا ، فهو دائماً على طرفها ، ولو نُصِبَ ميزان الآخرة لعاشقٍ من العُشّاق المتيّمين ، و وضعت كرة الأرض بكنوزها وممالكها في كِفّة منه ، ثم وُضِعَ حبيبه في الكِفّةِ الأخرى ، لرجحت هذه عنده ؛ لأنّ فيها حبيبه وقلبه، وبقيت الأخرى ، كأنْ لم يكن فيها شيءٌ وإن كان فيها المشرق والمغرب .

وأعجب من هذا أننا نجد من الزُّهّاد والمتنسّكين مَنْ يقطع دهره كُلّهُ متعبّداً منصرفاً عن الدُّنيا إلى ما بعدها ، جاعلاً لسان حواسِّهِ الأرضيّةِ [١] دائماً سماويَّ اللُّغةِ ، ثم لا يجد مع هذا النُّسك وهذه الرّوحانيّةِ مَنْ يقولُ إنّه كالملائكة ، على حينٍ أنّ الكلمة الأولى الّتي يقولها العاشق في وصف حبيبه ساعة يمسّ قلبه إنّه ملك ، وإنه من السماء ، وإنّه قانون من قوانين القدر ، وإنّه الوجود كُلّه مختصراً في نفس إنسانيّةٍ ، والطّبيعةُ كُلّها ممثلةً في ذاتٍ لِذاتٍ أخرى ، وإنّه مظهرٌ من مظاهر التّقديس ، لا تحيط به إلا معاني الجلال والعبادة ، فلا يزال القلب يركع أمامه ويسجد .

* * *

أ تذكرين أيّتها الحبيبة ما قلته لك ذات مرة ، وقد رأيت كلبك الصّغير الجميل كأنّه من ترامیه عليك ، ومن معاني نظراته إليك — عاشقٌ يريد أن تفهميه ، فقلت لك : إنني أراه يُحِبُّك بقوة أحسبها تحاول أن تقلبه إنساناً يُحِبُّ ويعبد ، فإنْ كان هذا في الحيوان ، ولم يزد على معنى الوفاء والأمانة شيئاً ، فليت شِعري كيف تصنع هذه القُوّة في الإنسان ، وهي فيه أمانة ثم رغبة زائدة عليها ، و وفاء ثم غاية أعلى منه ، وحب إنساني ذاهب إلى طرفه الإلهيّ ، وشيء معلوم ثم شيء مجهول في المعلوم ؟

إنها والله لن تدعه إنساناً أبداً ما دامت لا تدعه في نفسه . آه ، آه ! ما أرى الحب إلا قوةً تُخرج النَّفس وتُشيعُها في الوجود كلّه ، أو تدخل الوجود كله إلى النَّفس وتدعه شائعاً فيها ؛ ولهذا فمهما يبلغْ من سعة العالم فإنّه لن يمتلئ عند المحبّ إلا بواحد فقط ، هو الذي يحبه .

أعرف هذا منك أيتها العزيزة لأنّي في هذا البعد أراكِ في كلّ مكان ، حتى لكأنّ هذا الوجود كلّه وَرَقةُ تصوير حسّاسة مصوَّبة بآلتها إلى قلبي ، تلتقط رسمَك منه ، وتلقيه على كلّ شيء صرفت إليه عيني. وهذا — ولا ريب — معنًى من معاني اللانهاية، فلعلّ ناموس الحبّ لم يخلق إلا لتدرك منه الإنسانية ما يقرّب بها فكرة ما لا ينتهي ؛ فمادة الحبيب

(١) كناية عن الرغبات والشهوات لأنها هي نطق الحواس ولغتها.

المُمثّلة في جسمه وتكوينه لا تفنى أبداً ولا تحصر أبداً ، بل هي تنصبُ من عيني مُحِبِّه على كلِّ شيء وملء كل شيء .

الحبيب محدود بعاشقه فقط ، وهذا مثال يقرب للعقل كيف يفهم الخلود الذي لا يفنى ولا ينتهي ؛ لأنه أبداً ممتدٌ مع الخالق الأزلي الذي لا ينتهي ولا يفنى .

* * *

عذراً أيّتها الحبيبة ، فمهما أكتبْ فلا يزال وراء الكلام ذلك المعنى الدّقيق الذي لا يظهره الكلام ، وذلك المعنى المعجز الذي هو بلاغةٌ فوق البلاغة . ذلك المعنى الجميل الذي هو أنت .

* * *

صرخة ألم

وسألتْه مَرّة أن يكتب إليها في أوصاف الألم وفلسفته ، قالت : لأنّ قلبي يجد فيك ، يا أستاذي ، من يؤلمه ، أعني يداويه مما يؤلمه .

فكتب هذه الرّسالة والتي بعدها :

وأنا والله ، يا حبيبتي ، كسارٍ وقع في ظلمة مُدْلَهِمّةٍ [١] تحت ليل كأنّه رماد قد هيل على جمرات النُّجوم فأطفأها . وهو على ذلك يخبط في قفر أشد وعورة واستغلاقاً من جفاء الحبيبة الهاجرة المتعنتة . لا يعرف الطّريق الذي يؤدّي إليها كأنها ليست في جهة . ثم بينا هو يعتسف [٢] ، وقد ضلَّ ضلالهُ ، شامَ [٣] البرق فحسب الملائكة جاءته من فوقه تحمل مصباحاً ، ولكنّ ظلام حَظّه جعل الملائكة أيضاً تُطفئ مصباحها ، وتدعه لما بين يديه .

« وكذلك أطفأت أنت حتى كلمات الأمل ، التي هي كالبرق تُضيء ولا يثبت منها شيء ، وتلوح معانيها ، ثم إذا هي مُظلمة من كلِّ معنًى . وتركتني لآلامي كالحنظلة المُرّة ، لو أنّك أمْسَسْتِها قطراتٍ من العسل لما أحلتْها ولا بقيتْ حلوة .

لا .. لا ، بل قطرة واحدة من هذه القطرات تجعل حنظلتي كلها ، يا حبيبتي ، قرصاً من العسل ما دامت منك .

تريدين أن أكتب أوصاف الآلام وفلسفتها ؟ ألا فاعلمي أن آثاركِ فيَّ هي كتابي إليك ... لا ... لا ، بل سأتكلّمُ عن أخرى مثلك هي ... هي الحياة .

* * *

أكثرُ تكاليف الحياة في ألمها وتعبها كأكثر أمراض الحياة ، فهل من هذا إلا أنّ كلّ إنسان مريض ما دام حيًّا – بأنّه حيّ ؟

ونعيش بين الأشياء والمخلوقات ، ومنها ما يسرُّنا كأنه أجزاء في وجودنا قد زيدت علينا ، ومنها ما يؤلمنا كأنّه أجزاءٌ قطعت منّا . فهل يؤخذ من هذا إلا أنّ الإنسان ما دام مُضطرًّا فهو مريض بأنّه مضطر ؟

فأين إذن يلقي الحي آلامه ، وفي جسمه مرض ، يخلقها مندفعة منه ، وحول جسمه مرض آخر ، يردُّها راجعة إليه ؟

أ هما مرضان في القوة أم سجنان للقوة ؟ أم الألوهية تحقق بهذا الأسلوب الجبار قدرتها في ضبط هذا الإله العقلي المُسمّى الإنسان ، فشدّته وَثاقًا من شعوره بآلامه ، وجعلت أكثر معانيه الإنسانية هي أكثرَ سلاسله .

* * *

إنّما أمرُ الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ومن شقاء الإنسان أنه طولَ حياته يزوِّر كلمة الألوهية

(١) كثيفة شديدة الظلام . * (٢) يسير على غير هدًى . *
(٣) نظر إليه مترقبًا ، يريد أن يعرف أين يكون مطره . *

« كن » ويريد أن يقبض من الأشياء قيمتها .

وأشدُّ ما يؤلمه أن يهزأ منه ما يقول له « كن » فلا يكون منه شيء ، فالحكيم لا يتألَّم إلا ألم الحكمة ، والجاهل يتألَّم بآلام الخيبة والعقاب .

على أنَّ كلَّ ألم لو حققنا راجع بلذة أو حكمة أو منفعة ، وأفراحنا وأحزاننا – على تناقضها – تلتقي كلُّها منسجمةً في الحكمة الأزليَّة التي قدَّرتها لمن يفرح ومن يتألَّم .

وما أشبَه آلامَ الإنسان بألم الطِّفل المدلَّل ! تراه يحزن لكثرة ما يفرح ويحوِّل ابتسامَهُ دموعًا في عينيه فيتغيَّر في صورته دون أن يتغيَّر في معناه ، فيضحكُ باكيًا ، ويشكو فتكون شكواه طريقةَ مرحٍ في غير شكلها ، ويكون في نفسه معنًى واحد ، ولكن وجهه الغضَّ اللَّيِّن يضع لهذا المعنى أساليب مختلفة هي أنواعٌ من ألعاب الطفولة .

* * *

إنَّنا نُسَرُّ حين تخضع لنا القوَّة المحيطة بنا فتؤاتينا، ونألم حين تتمرَّد علينا . ولكنْ يا ويحنا !! أَلا يجوز أن نكون نحن قد تعالينا ففتناها ، وتكون آلامنا آتية من سموِّها على المادَّة ، كما ترى وجه الفيلسوف عابسًا، تحسبه منظر لوعة ، وهو منظر فكرة سامية ؟

ترفعنا الهموم والآلام ؛ لأنَّ عواطف الحزن والشَّقاء لا تكون إلا من سموٍّ ، وهي لا بدَّ أن تكون؛ لأنَّها وحدَها الحارسة فينا لإنسانيتنا ، إذ تخلق مع حياة الجسم المادية حياةً معنوية للقلب ، ونحسُّها من فَقْدِ ما نفقده ؛ لأنَّه لا بدَّ للضمير الإنساني من صوت أليم يقول له أحيانًا : أنت سماويٌّ فاتركْ هذا ، وكأنَّ كلَّ لوعة ألم يحسُّها المرء هي صرخة عاطفة جديدة ولدت في النَّفس .

* * *

حين يموت الميت العزيز يولد من موته لِذويه الحزنُ عليه . تلك بعينها هي طريقةُ خلق الفضيلة ، نفقد شيئًا فنجد مِنْ فَقْده معنًى .

والمرأة بكُلِّ قواها ترعى طفلها وتحوطه وتُربِّيه ، ولكنَّ ابنها بكل ضعفه يُربِّي عواطفها ويرعاها ويحوطها . وإنَّ دمعه ليجعلها ترى للأشياء مدامعَ ؛ فهو خالق فيها ؛ لأنَّه مخلوق منها . وهذا هو التفسير الذي لا غموض فيه ؛ لأنَّه هو ذاتُه الغموض الذي لا تفسيرَ له .

وكذلك آلامنا هي أطفال معانينا .

* * *

وقفتُ يومًا على شاطئ البحر ، فخُيِّلَ إليَّ أنَّه عينٌ تبكي بها الكرة الأرضية بكاء على قَدْرها . وتأمَّلْتُ الجبال فحسبتها همومًا ثقيلة مُطبقةً على صدر الأرض ، وفكَّرت في البراكين فقلت : لوعةُ أحزانها تثورُ وتهمد .

ثمَّ رجعْتُ بهذا النَّظر في الإنسان ، فإذا له على قَدْره بحرٌ وجبال وبراكين .

عند الطَّبيعة : لا ألمَ ولكنَّه نظام ، وعند الإنسان: لا نظام ولكنه ألم .

وَلَعمري ؛ لو أُتي للأقدار أن تخاطب اليائس المُتألِّم لكان الخاطب بينهما جملتين من القَدَر وحرفًا واحدًا من اليائس على هذا النَّسق :

القدر : هل عرفْتَ كلَّ السِّرِّ ؟

الإنسان : لا .

القدر: ويحك ، فهذا الذي أصابَك بعضُ السِّرِّ !

* * *

... وألم الحبّ ؟

أمّا ألم الحب ، فذاك حين يأتي على اللّحم والدّم معنًى لو تجسّمَ لكان هو الذي يَصْهَرُ الحديد في موج من لهب النّار ، ويحطم الصّخر في زلزلة من ضربات المعاول .

هناك الألم المُدمِّر لا يكابده إلا إنسان ، كأنّما يُرادُ خَلْقُه مرة ثانية فيُهدَم ويُبنى ، أو يراد تنقيحه فيغيّر ويحوّل .

وأعظمه لأعاظم الحكام والشّعراء ، فهم وحدهم الخارجون دائماً عن هندسة الحياة المُنسجمة ، وهم الّذين يتحوّلُ كلُّ شيء في أنفسهم إلى حقيقة عاملة فلا يبرحون في تغيير ، ومن ثم فلا بُدَّ فيهم من هدم .

ولا بُدّ لهم من آلام على قياس العظمة ، تكون لكلٍّ منهم كالبراهين عن نفسه أنّه غير إله ، وأنه حين يكون بين حكمتين إنما يكون بين ضربتين .

تجد الشّاعر العظيم ، وإنّه ليكاد يملأ الكون ، فلا يُضْرَبُ بالحبِّ إلا الضربةَ الدّاوية تنطبقُ بها أقطار المشرق والمغرب .

وإنّه لضغط بالوجود نفسه على بعض النّاس ، كضغط الأرض بآلاف الأجيال على بعض الفحم المطمور في أعراقها ليتحوّل فيكون منه الماس الكريم المتلألئ . ألا ما أهولَها قُوّةً في تبييض الأسود بطبيعته ، إلى جوهر النّور بطبيعته ، وفي خلق شمس ألماسيّة وَهّاجة ، ولكن من ظلمة حالكة انعقدت في التّراب !

وما أهولَ مثلَها من الآلام في مُضاعفة الحكيم أو الشّاعر بقدر إنسانيتين ؛ لِيَتّسعَ لبؤس الأشياء وسرورها جميعاً ، وليكون على مدرجة [١] بين الخليقة وخالقها ، وليبقى دائماً من ضغط الوجود عليه كأنّه محصور في عمر ساعة ألم قد جمدت حوله !

(١) طريق . *

أولئك يتأوّهون لا بالأنين كغيرهم من النّاس ، ولكن برعد الأرواح يرجُفُ إذ تنفجر بكهربائها ، ويَبْكون لا بالدُّموع ، ولكنْ بسحائب من معانيهم ، يُؤلّفها القدر ويراكمها ويضربها ، فيسوقها لتمطر على ناحية الجدْب الإنساني .

أولئك يتألّمون لا بالألم ، ولكن بتمزيق في أنفسهم كتمزيق الأرض حين تودَعُ أسرار الزرع ؛ ويتوجّعون لا بمقدار عمل الواحد منهم بنفسه ، ولكنْ بمقدار عمل الدُّنيا به . وليس منهم البائس الحزين الّذي نزل به الألم رغماً وذُلًّا ، ولكنِ البائس الجميل الّذي اتخذته الحكمة ؛ ليبدع الصّورة الكلاميّة من جمال نفسه لجمال الكون شعراً وبياناً وفنًّا .

في موضع تقع الشّرارة لتنطفئ ، وقد تنطفئ قبل وقوعها ؛ وفي موضع آخر تقعُ وكأنّها وُلِدَتْ ثمة لتحيا وتكبر ؛ فإذا هي من بَعْدُ نارٌ تعمل أعمالَها . وكذلك الألم ومن يتألّمون « وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرَة » [٢] .

* * *

ومن قسوة القدر على الشّاعر العظيم أنْ لا يجعل حُبّه حبًّا خالق الوحي إلا في امرأة على قدر تألّهه عظمةً وسخرية .

يقول هو عنها : ما أحوجَني إلى معجزة نبيٍّ تُحوّلُ الحجرَ الّذي في ضلوعها إلى قلب ! وتقول هي عنه : ما أحوجني إلى بعض الملائكة أو الشّياطين ليكشف لي سِرَّ نفسه المخبوء تحت مكان الصّبْر في قلبه !

ويعيشان في الحب كما يعيش اثنان في قِصّةٍ وضعها مؤلف خيالي فأحكَم عقدتها . وتُخاصِمُ

(٢) آية مقتبسة من القرآن الكريم . وفي اعتقادنا أن الحب ليس اختياراً كما مر في « رسالة للتمزيق » ، وإنما هو استعلان معنى الجمال بالصورة التي يمكن أن تفرض فرضاً على محبها ، فما هو إلا أن يراها فتخالطه فيحس الجمال فيحب . وسيأتي هذا المعنى .

سعادةُ كلٍّ منهما سعادةَ الآخر ، ويعملان كما يعمل الغنيُّ الشّحيح ؛ يفقد الحياة لينال الدنيا .(١) ثم إذا سألت ذلك المسكين الأعظم : ما لذّة هذا الحب الأليم اللهفان ؟ قال لك : لذته أنّه حبٌّ !

هي حينئذ كل العذوبة السّيّالة في روحه ، وهي بذاتها كلُّ الأقذاء التي أُلقيت في ينبوع نفسه . وآلامها ميلاد حقيقيٌّ لمعانيه ، ولذاتها أكفان حقيقية لموتى هذه المعاني ، إذا أُريدَ لها الموتُ ، وكل ما يضع الآلامَ والأوجاعَ فيه يضعُ منها النّور والنّار في كلماته !

ومن كونها هي في قلبه يشعر أنّ الكون فيه ، حتّى ليقولُ في وحيه للجبال الرّاسية على أعضاد الأرض : آكمتِني يا أعضائي .

وتُلقي في حياته ألوانَ عينيها وخدّيْها وثغرها ألوانًا وألوانًا ، فإذا حياةٌ فنّيّة مُزخرفة منقوشة بأبدع وأجمل مما في الطّبيعة ورياضها وألوانها .

ولاتّصالها بموضع السرّ من روحه ، تُشعِرُه السرّ العجيب – سرَّ الحب الذي يُحيِّر العاشق حين تفتنه من يهواها ، فيحسب كأنّ الجنس كلّه مستحيل وأمكنت واحدةٌ ، أو كأنّ الجنس كلّه ممكن واستحالت واحدة تعلّقَها ، فكأنّه لا جنسَ بل واحدة فقط .

وتتصرّف به في دلالها وهواها تارةً وضِدّها ، فيراها حيناً كما ينظر طفل إلى سكّرة ، وحيناً كما ينظر المريض إلى مقبرة !

وإذ هي أنفقتْ أهلكتْ بلذّة ، وإذا هي امتنعت أهلكتْ بألم . داءٌ لا يدري أنّى يؤتى له .(٢)

يا رحمةً للمُحِبّ الّذي يتوجّعُ بآلامه وحقائقها ، ثم بمعانيها في روحه وأمانيه ، ثم بالصّبر عليهما : ثلاثة آلام من ألم واحد !

ويا آلام الحُبّ ، أنت ثقيلة ثقيلة ؛ لأنّك نظامُ التّراب في روحانيتي !

ويا آلام الحب ، أنت جميلة جميلة ؛ لأنك إشراق السرّ الأعلى في نفسي !

ويا آلام الحب ، أنت حبيبة ولو أنّك آلام ، بل حبيبة لأنّك آلام !

* * *

منّي السّلام

منّي السّلامُ عَلى مَنْ لَوْ تُصافِحُها
يدُ النّسيمِ ، أحَسّتْ غَمْزَ آلامي
مَرّتْ على الوَرْدِ في الأكْمامِ فارْتَعَشَتْ
أسًى ، وَقالَتْ : أ هَذا قَلْبُهُ الدّامي ؟
وَأبْصَرَتْ غُصْنًا ظَمْآنَ مُنْطَرِحًا
فَما رَأتْ فيهِ إلا بَعْضَ أسْقامي
وَتَسْمَعُ الطّيْرَ صَدّاحًا بِأيْكَتِهِ
يَشْكو ، فَتَسْمَعُ في شَكْواهُ أنْغامي !

* * *

حَقيقَةُ الحُبِّ فيها ، ثُمّ تَظْهَرُ لي
كَأنّني عالِقٌ مِنْها بِأوْهامِ
يا لَلْعَجيبَةِ لِلْمِرْآةِ ! أنْظُرُها
وَلا أراني فيها وَهْيَ قُدّامي

* * *

يا أخْتَ شَمْسٍ كَلَوْنِ الخَدِّ مُشْرِقَةٍ
وَأخْتَ بَدْرٍ كَنورِ الوَجْهِ بَسّامِ
ما كُنْتِ مِثْلَهُما إلا لِتَبْتَسِمي
عَلى لياليَّ في حُبّي وَأيّامي

* * *

(١) أي يتصرف كلاهما بعناد وتهور وخطأ . ومقدمات تستحيل معها النتائج السعيدة لأحدهما أو كليهما ، فهو ذو عناد وهي ذات معاسرة !

(٢) أي لا يدري كيف يتأتى له ولا كيف يداويه ، إذ لا يدري ما هو ، ولا أين هو .

الحبيبات والمصائب

« وكتبت هي إليه » :(١)

كنت أقرأ السّاعة في كتابٍ لذلك النّابغة الفَرَنسيّ الذي أخرجه الحبُّ للشّعر فأخرجه الشّعر للإنسانية .

هو (فلان) ، هذا الرّجل الذي ولِدَ مراراً في الحياة ، فإن الشّاعر العظيم لا تلد منه أمُّه إلا الجزء الأرضيَّ الآتِيَ من المادّة ليفنى في المادّة ، أمّا الأجزاء الرّوحية السّماوية التي هي زيادة فيه على النّاس ليكون أكبر من النّاس ، فهذه – كما قلت لي أنت مرة – تلدها الحبيبات و .. ومصائب الدّنيا !

أ ترى يا عزيزي مصائبَ الدّنيا نوعاً من الحبيبات في بعض وجوه الشّبه ، واتّحاد الغاية ومُطابقة الحكمة ؟ لك فلسفتك ، ولكنّي أرجو أن لا أكون أنا الموحية إليك بهذا المعنى .

الألم في الحبِّ والألم في المصائب : كلاهما أسلوب إلهيٌّ رحيم على قدر ما هو عنيف ، يؤتي من القوّة بمقدار ما يَبْتَلي من الضّعف ، وينتهي إلى السّعة في الروح كما يبتدئ بالضّيق في الحاسّة ، وينشئ فينا مع النّظرة المتألّمة أو المُتحزّنة أو المُتكسّرة نظرات أخرى ، منها النظرة المفكرة والشاعرة والمتحدثة في صمتها واسترسالها بأسرار عالية ، كانت معانيها من السّمو الرّوحي ؛ لأنّ لغتها من الأوجاع والأحزان .

ذلك الأسلوب القاهر لا يزال يتقصّى بالوجيعة ، ويتتبّع بالشّدّة حتى يُخرجَ من الإنسان الموهوب ما تُخْرِجُ حبّةُ الرّمل من حيوان الصّدف ، حين تندس بخشونتها في لينه ، وتنغرز في لحمه إبرة حياة ، فإذا تاريخُ ألمٍ طويل حيٍّ ، لا يزال يستخرج ما يُكوِّنه حتى يلتفَّ ويتغشّى ويستكمل ، ثم تكتنز منه الطّبيعة كنزها ، فإذا أنت من حبّة الرّمل بحبّة لؤلؤ .

* * *

شاعرنا الفَرَنسيُّ هذا يشبهك يا صديقي شبهاً تامًّا ، حتى كأنَّ التاريخ يُعيده فيك ، مملوء من كبرياء العقل وكبرياء الغضب على الحياة ، فليس يراه أحدٌ في وقت يكون فيه مع الأشياء إلا حسبه – لاهتياج نفسه وعُنفوانه – كأنّه خارجٌ لتوّه من عراك أو خصام .

لقد قلت لي يوماً ، إذ كلمتك عن خصومك والمفترين عليك من حاسديك : إن عداوة الأعداء مهما كثروا ينسيها حب حبيب واحد ، ولكنَّ عداوة حبيب واحد لا تنسيها صداقة الأصدقاء مهما كثروا.

فشاعرنا هذا دائماً يرى كأنَّ به عداوةَ حبيب ، ومذهبه هو مذهبك بعينه ، هو أنَّ الحبَّ الّذي هو في جملته أعلى الصّداقة ، هو في أشياء كثيرة ألطف العداوة أيضاً .(٢)

* * *

وَلْنرجعْ إلى الكتاب .

أ تذكر إذ التقينا وليست بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في أساليب الحديث ، غير أنّنا قُلْنا ما شئنا بالأسلوب الخاصِّ باثنين فيما بين قلبيهما ؟

وشعرنا أوّل اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التّلاقي بعد فراق طويل ، كأنَّ في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد .

(١) ليعلم القارئ أن الصديق (صاحب الرسائل) تلقّى من صاحبت « رسائل كثيرة ، ولكنها كالصحافيين : لها من دلالها « قانون مطبوعات » تراقبه ... وقلمها قلم فنانة ، فيه مع الجمال خبث جميل ... وهي إلى الآن لم تأذن بنشر رسائلها ، وإنما استرقنا هذه وبعض فصول من غيرها . أما لغة الرسالة فليست لها ، بل هي من تهذيب صديقها . وفي يقيننا أنها لو كاتبته لإتمام رسائله ، وأفرغت له قلبها وفنها كما فعل هو ، لظفر منها الأدب العربي بأثمن كنز في معاني الحب ، وأهل ذلك كانت وكان صاحبها ، فقلما وجد مثلهما .

(٢) أكثر دلال الحبيب هو عداوة لطيفة لعواطف محبه ، فالمنع مثلاً عداوة للطلب ، والبعد عداوة للقاء ، وهكذا .

ولم تكد العين تكتحلُ بالعين [١] حتى أخذت كلتاهما أسلحتَها . وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب .

وقلتَ لي بعينيكَ : أنا .. وقلتُ لك بعيني : وأنا .. وتكاشَفْنا أنْ تكاتَمْنا !

وتعارفنا بأحزاننا ، كأنَّ كلينا شكوى تهمُّ أن تفيض ببثِّها .

وجذبتني سَحْنَتُك الفكريَّة النّبيلة الّتي تضع الحزن في نفس من يراها ، فإذا هو إعجاب ، فإذا هو إكبار، فإذا هو حبٌّ .

وعودتَ عينيَّ من تلك السّاعة كيف تنظران إليك .

وجعلتُ أراك تشعر بما حولك شعوراً مُضاعفاً ، كأنَّ فيه زيادة ولم يزد .

وكان الجوُّ جَوَّ قلبينا .

وتكاشَفْنا مَرّة ثانية بأنْ تكاتمنا مرة ثانية !

* * *

آه ! قلت : ولنرجع إلى الكتاب ، ففي الكتاب قِصّة مُحِبٍّ تبدأ هذه البدأة وتجري في هذا المَنْزَع ، ثم تَطّرد وتنساق ، فلا يقرؤها من عرف الحبَّ إلا أحسَّ كأنَّ خيال ذلك المحبِّ قد خرج من الكتاب ولزمه ؛ لشدة ما تؤثر القصّة في النّفس ، حتّى لكأنّها حادثة وقعت لمن يقرؤها ، أو كأنّه يرى القصّة رأيَ عَيْنٍ .

رجل وقع من الحبِّ بين لا ، وليت ، وهيهات ولات [٢] . بين التّمنّي بأسلوبين ، والبعد عما يتمنّى بأسلوبين أيضاً . فأحبَّ ليتعذّبَ ، وتَعذّبَ ليتّصل بمعنى نفسه . واتّصل بنفسه لينفُذَ منها إلى طرف من معنى الألوهية ، وإن أردتَ الاختصار قلت لك : إنّه أحبَّ ليتألّه !

هل تفعل بسمات الحبيبة كلَّ هذا ؟ ألا قل لي من أنت ، فإنَّ الكتاب لا يقول لي شيئاً ؛ وما كنت أقرؤه بل أقرؤك . [٣]

ماذا ترى في الابتسامات ؟ أ هي تسقط عليك بندى السّماء في نشر [٤] الرّوض وعِطْره ؛ أم تَلذعُ قلبك بالجمر الضّاحك الذي لا يقال فيه حين يشتعل إنه اشتعل بل إنه ، بل إنّه تندى — ذلك الجمر الذي يُحرق من غير أن يتَضرَّمَ ، فلا يُفني ما يُحرقه ولا يأخذ منه ، بل يُصبح كلهيب الياقوت في الياقوت وديعةً إلهيّة جميلة في شكل النّار ؟

* * *

في كلِّ صفحة من الكتاب كنت أراك ، فأرى المعانيَ شُعاعاً فكريًّا منبعثاً من جبهتك السّامية ، لا من الأسطر وأوراقها .

كأس الكتاب مملوءة بماء الشِّعر العذب ؛ ولكنَّ مؤلّفه لم يناولْني كأساً ، بل نقلني إلى الينبوع المُتفجِّر ؛ إذ نقلني إليك . أعطاني هو مادة القراءة وهيأتَ لي أنتَ مادّةَ الفكر فيما أقرأ ، فوضعني هو في الكتاب و وضعتَني أنت في نفسي .

روحيّة الكلام المكتوب ، يا صديقي ، هي وحدها الّتي تجعل الكتاب عالَماً من العوالم ، يحمل دنيا مُستقِلّة ، وإن كان هو يُحْمَلُ في اليد . ولن يستطيعَ مؤلّف أن يخلق في كتابه هذه الرّوحية ، بل يبثُّها القارئ فيها ، يقرأ من ذات صدره أو ذات نفسه . فلا بد للمؤلف النّاجح من ثلاث : نوع الكتابة ، ونوع الأسلوب ، ونوع القراءة . ومتى أصاب هذه الثّلاث ؛ التأمَ قليلُه بالكثير ، واجتمعت فصولُه بالحوادث ، وتلبّست كلماتُه بالأعمال ، و وجد من قُرّائه تفسيراً لكلِّ ما يقول ؛ فإذا هو قد ارتفعت به الحال فلم يعد كاتباً ينتظر قرّاءه بل نبيًّا ينتظر المؤمنين به ؛ لأنه خارج من إحدى نواحي القلوب ، وراجعاً إلى القلوب من ناحية أخرى .

(١) هذا تعبير عربي بديع ، يقولون : لما اكتحلت العين بالعين . كأنهم يقولون : لما التقتا ووجدت كل عين من الأخرى جمالها وقوتها وزينتها ... فتأمل !

(٢) أي وقع من الحب الممتنع المطمع في مثل معاني هذه الكلمات نفياً وتمنياً وبُعْداً .

(٣) ستأتي فلسفته في رسالة الابتسامة بعد هذه ، وكيف يرى الابتسامة .

(٤) رائحة طيّبة . *

وقصص الحبِّ مُتشابهة ، ولكنَّ لكلٍّ منها طعماً ومذاقاً وأثراً ، كأنَّ كلَّ حبٍّ هو نفس جديدة ، فهو بذلك قصّة جديدة ، وعلى هذا القياس يمكن أن نقول : إن الحبَّ هو تجديد النّفس .

هذه النّفس تسأم الحياة فتريد أن تخرج منها وهي فيها ، فلا يصنع لها هذه المعجزات إلا الحبُّ .

والنّفس قديمة ، فتحاولُ أن تتوَهّمَ إنسانيّة جديدة خاصّة بها ، فلا يأتيها بهذه المعجزة إلا الحب .

والنّفس بين سماء و أرض لا بدَّ لها منهما ؛ فتنزع أحياناً إلى أن تكون بين سماوين رَجاةَ أن يكمل إشراقها ، فلا يَخلق لها هذا الخلقَ المعجز غيرُ الحب !

* * *

أنا الآن حزينة وقد حضرني بثي [1] ؛ فأطرقت إطراقة طويلة عند هذه الكلمة ؛ إذِ الجديد لا يبقى جديداً إلا مدة ما ، فهل تُرى يستمر الحب حيًّا ؟

آهِ من سيل الزّمن الطّاغي العنيف المندفع دون ردٍّ على وجودنا بهذه القوة الماحقة المستأصلة ، قوةِ ما لا ينتهي ، تندفع لتكتسح في طريقها ما ينتهي .

أيها السّيْل الأزَليُّ الّذي لا يرحم ولا يُبقي ! مَنْ هذا الذي يستطيع أن يضع لك سواحل وشطآناً ويقولَ لك : استقِرَّ هنا يا بحر الزّمن ؟

وأنت أيها الحبُّ ! من الّذي يقيم عليك سواحلك وشطآنك ويقول لك : استقر ولا تذهب في السّيْل ؟

أيُّها الصّديق ! وأنت ... ؟

* * *

(١) أي اشتد حزني .

رسالة الابتسامة

يُدَمْدِمُ الحُبُّ عَلى قَلْبِهِ
كأنّهُ في نَفْسِهِ يَنْهَدِمْ [2]
بِرَجْفَةٍ حامِلُها لَمْ يَزَلْ
مُمزَّقاً في القَلْبِ لا يَلْتَئِمْ

* * *

زَلازِلُ البُرْكانِ لمّا دَعَتْ
أنْ سَئِمَتْ بُرْكانَها المُحْتَدِمْ
أجابَها اللهُ اطْفي وَارْجُفي
مِنْ شَفَتَيْ مَحْبوبَةٍ تَبْتَسِمْ .. !

لا يمكن القلبَ أن يعانق القلب ، ولكنّهما يتوسلان إلى ذلك بنظرة تُعانِقُ نَظْرَة ، وابتسامةٍ تضمُّ ابتسامة .

تلك ، يا حبيبتي ، كلمة سماويّة مخلوقة من الضّوء في شفتيك الجميلتين ، تُعبّرُ عن كلِّ شيء بحركة واحدة لا تتغيّر ولا تختلف ، على حينِ أن معانِيَها في النّفس دائبة في تَغيُّرها واختلافها .

وفي عينيكِ الأحلامُ رهيبةً غامضة ، ولكنْ على شفتيك معاني الأحلام واضحةً مفسرة : فابتسامك هو كلامك الّذي لا تتكلمين به ، وهو يختلج لأنّهُ حركة ظاهرة لفكرك في الحبِّ ، ولذلك هو دائم ، رقيق ، متنوع ، دالٌّ على معنًى . وهو يُضيء ليومئ بإشارة سماويّة إلى سرِّ المجهول الّذي يتحجّبُ في جمالك ، ولكنّه لا يكاد يومض حتى يُطفئه هذا السرُّ ، فيعود فيستطير ، ثم يعود فيختفي ، ثم يعود ثم يعود .

أ هناك نزاع على حقيقة خَفِيّة من الحقائق

(٢) أصل الدمدمة : الغضب ، ودمدم عليه إذا كلمه مغضباً ، والمراد هنا عنف الحب في هز القلب من اهتياجه وشدته كأنه مسلط عليه يهدمه .

الجميلة ، لم تجد لها مخبأ إلا ثغرك الجميل ؟

أم لك فكر شعريٌ موسيقيٌ ، فهو يرقص دائماً على وزن من ابتسامك ؟

أم في قلبك مادة من النجوم فهي دائماً تلمح لمحها في سماء وجهك النيرة ، فيسمون لمحها ابتساماً ؟

أم ثغرك يبتسم دائماً ، لأنّه بطبيعة جمالك وظرفك يتهيّأ دائماً لقبلة ؟

* * *

يجد الطّفل على كلّ حالة ، وفي كلّ مكان سرور نفسه ، لسببٍ واحد وهو أنّ ابتسامه أبداً معه ، فهو لم يملك من الوجود شيئاً بعد ، ولكنّه أغنى مَنْ عليها بهذا الكنز الذي خبّأته السماءُ فيه فينفق منه فيما لا تبيعُ كنوز الأرض ولا تَشْري .

ولولا هذا الابتسام في هؤلاء الأطفال – وإنّه على أفواههم كالنّبض في قلوبهم – لما نفعتهم نافعة في تحصيل النّموّ للجسم ، والصّبر للطّبيعة والاستقرار للعاطفة ، والهدوء للنّفس ، والسّعة للعقل ، ولضَغَطَتِ الحياة أجسامَهم ونفوسهم اللّيّنة في قوالب معانيها المحدودة الضّيّقة المصبوبة من الضّجر والآلام والهموم ، فما يكبر من بعدها على الأرض طفل أبداً .

ولكنّ ابتسامهم سراجٌ من كلّ قيود المادّة ، هو أشعة إلهيّة تذيب ما حول القلب الصّغير من المعاني الضّاغطة عليه ، ولو كان كلُّ معنى روحَ جبل صخريٍّ من الهمّ !

ولا تزال الجنّة مع الطّفل ، حتّى إذا كبر قيل له كما قيل لآدم : اهبطْ منها !

أكلَ آدم من الشّجرة ، ولا شيء يضيع في الكون ، فأين الحلاوة الّتي ذاقها في الجنّة ؟

هي في أفواه الأطفال .

ويتبسم الطّفل ويضحك ، ونحسب ذلك على مقداره . كلا ! إنّه وإنْ يكُنْ طفلاً صغيراً في ملء جلده ، وعلى وزن جملته ، ولكنّ مادة ابتسامه على مقدار الطّبيعة كُلّها ؛ لأنّ عَظَمَة الكون هي الّتي ترعاه بهذا الأسلوب الصّغير .

هو لا يحيا في العالم ، بل في معاني نفسه ، وبذلك هو دائماً فوق الدّنيا .

ومن حياة الأطفال المنحصرة في معاني أنفسهم ندرك سِرّ الحُبّ وسرّ السّعادة ، فإن كلّ لذّة الحب ، وإن أروع ما في سحره ، أنه لا يدعنا نحيا فيما حولنا من العالم ، بل في شخص جميل ليس فيه إلا معاني أنفسنا الجميلة وحدها ؛ ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون ، ويُنشئ لنا في هذا العمر الإنساني المحدود ساعات إلهية خالدة ، تشعر المُحبّ أن في نفسه القوة المالئة هذا الكونَ على سَعَته ، فتمر النّفس حينئذ في سبحات اللذة الرّوحية ، من الجميل ، إلى الجمال ، إلى الطّبيعة ، إلى الله جل جلاله .(١)

* * *

أما ابتسامتك أنت ..

أنك حين تمنحين نظرتك وتتبعينها الابتسامة التي تُفسّرها ، أقول عندئذ في نفسي : لقد علم الله علمه في حكمته ورحمته ، فلمّا خلق الحقيقة من

---

(١) لنا في « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » وفي هذا الكتاب آراء مختلفة في كيفية اتصال النفس من الحب والجمال الإنساني إلى مصدر الجمال الأعلى ، وتوفيةً لهذه الآراء ننقل هنا هذه الكلمة من كتابنا « المساكين » الطبعة الثانية :

« والطبيعة نفسها تهيىء الإنسان للدين بأسلوب غريب ، وهو هذا الحب الذي يخلق فطرة على أنواع مختلفة متعددة ؛ حتى لا يخلو منه أحد ، فلا مَعدل عنه ولا محيص ، وإنما هو في مظاهره – أيها كان – دربة للنفس الإنسانية تصعد به درجات من الفضائل: كالإخلاص والإيثار والاتصال الفكري والانبعاث الروحي والشوق الخيالي ، ونحوها مما هو في الحقيقة إيجاد للحياة النفسية في أعمالها ، وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء ، والترابط بين الجاذب والمنجذب . وكل ذلك تهيئة للدين وعمله في النفس ، ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة ، فالحب دين على أسلوب خاص ضيق ؛ ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به ، على وتيرة واحدة ؛ إذ لا يرضى للقلب في هذا ولا هذا غير رأي واحد . »

قوته عابسةً جافيةً ، قابلها من رحمته بالحبيبة مُتَبَسِّمة رقيقة . فلعلَّ المرأة الجميلة أسلوب في الفرع الإنساني ، كأسلوب إنشاء الزّهرة في ذات القوة الخشنة التي تنبت الشّوك .

ولك ابتسامةٌ يزيدُ سكونُ الطّرْف من غموضها ، والأخرى يزيد استطلاقُ وجهكِ من صراحتها ، والثّالثة على استحياء ، كأنَّ وعداً معلّقاً فيها .

ولك ابتسامة ملحّنة كأنّها نَشيدُ وَجْدٍ ، يترقرق فيها صوتك الرّخيم الذي هو أيضاً تصوير الابتسامة بحروف و رنين .

* * *

المعنى الذي لا يتحول بغيره ، يقابله المعنى الذي لا بد أن يُحوِّل غيره . إنها مشكلة عجيبة كان حلها أعجبَ منها .

فما توجد امرأةٌ هي جميلةٌ فاتنة في وَهْمِ رجل ، إلا انبعث من شخصها معنًى ليس في أحد غيرها ، كأنَّ فيها وحدها ما لا يوجد في آدميٍّ ، وفي هذا السّيّال المعنويّ يذوب كلُّ شيء . وترى هذا الرّجل يصغر للحب — ولا أقول يصغر به — فيرجع كالطّفل تتولاه الطّبيعة مُتمثّلةً في امرأة ؛ امرأةٍ تعمل وحدها فيما يسوء ويسرُّ عملَ الدنيا وأكبرَ من عمل الدُّنيا !

لكلِّ مُحِبٍّ مع المخلوقات التي يعيش بينها مخلوقات من خواطره وآماله ، وهذا برهان آخر على أنَّ الشّخص المحبوب أحد قُوّتين متقابلتين في الخلق .(١)

وقد تهمُّ الحبيبة أنْ تكاشف مُحِبّها ، ولكنّها بابتسامة ظريفة تردُّ أفكارها الخطرة إلى أماكنها ، وبهذه الابتسامة عينها تزعج في نفس محبّها تلك الأفكارَ من أماكنها .

آه من تلك الابتسامة المرحة الذّاهلة ! عليها لعَيني المشتاق سمة مَنْ فَتَحَ ذراعيه وَضَمّ وقَبَّلَ !

(١) لأن الحبيب قوة خالقة في العواطف والمعاني ، وكأن هذه هي حكمة وجود الحب ، والله يخلق الإنسان ، والحب يوسعه ويمد من حدوده وقد يضيقه ويختصره .

في ابتسام الحبيب يتنقل العاشق بروحه بين المعاني والخيالات الشّعرية السّماوية ، وفي تلك النّظرات منه يسافر بقلبه إلى أحلامه البعيدة كما يسافر الفلكيُّ بعينه إلى النُّجوم في (التّلسكوب) .

يُسمّونه ابتساماً ، ولكنْ حين يظمأ النّبات لا يقول للنّاس : أريد الماء ، بل يقول للشّمس وحدها : أريد من شعاعك البارد العذب ، يا حبيبتي !

الماء حين يُبصر تحرُّق الإسْفَنْج وقد جفَّ وانكمش يقول : إن كل ثقب من هذه الثقوب نفسٌ ظمأى .

كذلك أُوحِيَ إليَّ أن محبا قبَّلَ حبيبته في روضة عند شجرات من الورد ، فأشارت إحداهن إلى شفتي الجميلة المضمومتين وقالت لصواحبها : أ سمعتن قطُّ أجملَ همساً من هذه الورود الصّغيرة وهي تتفتّحُ ؟

* * *

الزّمن كلّه موسيقى عند المُحبِّ ، ولماذا ؟
لصوت حبيبته .
والزّمن كلّه ربيع في رأي عينيه ، والدّليل ؟
ورد خَدّيْها وشفتيها .
والزّمن كلّه جمال في نفسه ، والبرهان ؟
كلّها كُلّها .

* * *

وهل أبدعَ الله الفم الجميل المُبتسم بهندسته وتقسيمه إلا ليبدع هو في ابتساماته فنَّ الرّوح حين لا تستطيع ، أو لا تريد أن تتكلّمَ فترتعش ؟

كلام الفكر في اللّسان ، وكلام القلب من العينين ، أمّا كلام الرّوح فهو هذه الحركة البليغة وحدها ! وحدها !

أ ليس تألق الماسة هو وحده لغة معدِنها النّفيس ؟

والألفاظ تجيء وفي نطقها معانيها ، ولكن ابتسام الحبيبة هو يستخرج معناه من مُحبّها !

واللغة رابطة بين النّفس والمادّة ، وأما الابتسامة فرابطة بين الحس والقلب .

إنّها الرّوح تأخذ عن روح أخرى في حالة من

الحالات النّفسية الخالقة ، تحوّل كلّ شيء إلى لغة حتّى اللّحم والدّم .

ورُبَّ ابتسامةٍ على شفتي حبيبة هي خطاب لكلّ حواس مُحبّها .

* * *

عندما تبتسمين أشعرُ بحرارة أفكارك في دمي .

وفي تضرج وجنتيك لا أرى احمراراً ولا خجلاً ولا حياء ، بل أرى قلبَك يتكلّمُ بلون خدّيْك .

إنّ للقلب أربع لغات يتكلّم بها : واحدة منهن بالألوان في الوجه ، والثّانية بالدّلال في الجسم ، والثّالثة في النّظر بالمعاني ، والأخيرة وهي أسهلهن وأبلغهن ؛ يتكلّمُ بكلّ ذلك في ابتسامة .

* * *

ومع ابتسامة الحبّ يأبى فم الحبيب أن يلفظ كلمة لا يقبلها فم حبيبه . يا لها فكرةً ملائكيّةً مُعلّقةً على فم !

* * *

جواب الزّهرة الذابلة

وتلقّى منها ذات يوم كتاباً ، فلمّا فض غلافه لم يجد فيه إلا زهرة ذابلة ، فكتب إليها :

قرأت يا حبيبتي هذا الكتاب الّذي لم تكتبيه ، وتَسلّمَتْ شفتاي ذلك السّرّ الّذي فيه ، وكدت أقول إنّها هي نسمات عطرها سحرتها في هذه الأوراق بسحرها ، ولكنّي تأمّلت الأوراق الذّابلة فخيّل إليّ من ذَواها (١) وطيبها ، أنّها أجسام قبلات حارّة احترقت على شفتي حبيبها .

وفهمت من العطر أنّ الرّسالة مُكاشفة بالحبّ أو مُناسمةٌ ، ولكنّي فهمت من الذّبول أنّها معاتبة في الحبّ أو مخاصمة .

وقالت لي الزّهرة ، يا حبيبتي :

بل أنا كوكب عطر كُنْتُ من يَدِها الجميلة في فلك زَهْري غَضّ ، ثُمّ انتثرت من فلكي وذبلت ؛ لأنّي انتثرت من فلكي .

وقد نشأت في روضتي على أُمْلودٍ (٢) ناعم ريّان ، فلمّا صرت في أناملها على أغصان اللّحم والدّم في روضة الجمال ، أحسسْتُ أنّي بِتُّ قلباً يُحِبُّ ويعشق، ومرضت لأنّي بتُّ قلباً يحبُّ ويعشق .

وكنت أنفح بالعطر والشّذى الفيّاح ، فلمّا لمستني شفتاها لمسة ؛ عدت أفوح بالحب. وهجرتني ؛ لأنّي عدت أفوح بالحب .

وكنت تمثال النّشوة والفرح ،فلما رفّتْ بي على خدها رَفّتين ، صرت تمثال السُّكر والعربدة ، واطّرحتني لأنّي تمثال السُّكر والعربدة .

وكنت بملء النّضرة أفيض منها على الكون ، فلمّا وضعتني ساعة على صدرها التهبت كشعلة هوى ، ونبذتني لمّا أحسّت بي على صدرها كشعلة هوى .

* * *

وقلت للزّهرة ، يا حبيبتي :

إنّما أنت كلمةٌ أيّتها الزّهرة الذّابلة ، وما ذبولك إلا سحابة على نور معنًى من المعاني .

أ فمن لغة القبلة أنت ، وقد جئت رسالة من شفتيها إليّ فانكمشت من حياء وخفر ؟

أم من لغة الابتسام ، وقد جئت تحيّةً من وجهها، وفيك ذلك المعنى من غموض الدّلال ، فأنت مُوجّهة إليّ ، ولست موجهة إليّ ؟

أم أنت من لغة اللّمس ، وقد جئت سلاماً من يدها ، وهذا التّجعيد فيك شدّةُ حبٍّ وضغطة شوق ؟

أم أنت من لغة النّظر ، وقد جئت ذابلة مُتناعسة ؛ لأن فيك نظرة من غرامها تنظر ولا تنظر ؟

أم أنت من مادّة العناق وقد جئت هالكةً ضمًّا

(١) ذبولها . *

(٢) الناعم اللّيّن من الأغصان . *

من انطباق صدرين تحتهما زَلْزلتا قلبين ترجفان ؟

أم أنت ... ! آه ! أم أنت من لغة النّسيان ، وجئت رسالة هجر منها ، وهذا الذّبول الّذي فيك هو مرض الجفاء ترسله إلى قلبي ؟

* * *

ولكن ماذا قلت أنت للزّهرة ، يا حبيبتي ؟
أما إنك قلت لها : إنّ كتابة العطر لا تُقرأ ؟
إن كلام النيّة لا يتكلّم !
إنّي أضنُّ عليه بكلمة !

* * *

يا للجلال !

رسالة الجاذبية

آه لَوْ أسْطيعُ أنْ أخرِجَها
مِنْ زَماني ، إنّني لا أسْتَطيعْ
آهِ لَوْ أسْطيعُ أنْ أدْخِلَها
في حَياتي ، إنّني لا أسْتَطيعْ
قَدَرَتْ قُدْرَتَها فِيَّ .. فَلا
أسْتَطيعُ قُدْرَةً لا أسْتَطيعْ

* * *

كُلُّ مَنْ يَكْذِبُ في الحُبِّ قَدَرْ (١)
إنْ أطاقَ الحبَّ – وَاللهِ – غَدَرْ
وَصَحيحُ الحُبِّ حُبُّهُ هَدَرْ
كُلُّ ما يَسْطيعُ أنْ لا يَسْتَطيعْ

* * *

في عينيك ، يا حبيبتي ، سحرٌ ظاهر بمعانيه يلقي الحب على من ينظر إليه .

أ هو سرُّ الضّرورة الذي يُشْعِرُنا من معانيك الرّحيمة بمعانيك القاسية ؟

أم هو روح اضطراب مجهول أودعتك القدرة إياه ليخلق حولك العواطف القلبية ؟

أم هو استبداد الجمال الذي خُصِصْتِ به ليكون قَلْبُكِ وحده في قوّة القلوب كُلّها ؟

أم هو ذلك المعنى الخالق الّذي يفيض على جمالك تمييزَ جملتك البديعة في شيء شيء وفي حُسْن حسن ؟

أم أنت أنت وذلك السرُّ في عينيك معنى « أنت » ؟

* * *

دائماً يضيف وجهك إلى كلامك بلاغة إلهيّة :

ولو نطقت بألفاظ القوّة الّتي تشبه أجراسُها صلصلة (٢) السّلاح لخرجت من شفتيك مُتنهِّدة .

ولو تكلّمت بأشدِّ ألفاظ القسوة لذابت في حلاوة شفتيك . ومتى نطقت باسمي خرج من فمك سكران .

أيُّ سرٍّ هذا الّذي يجعلك على كلِّ أحوالك تفيضين بالقوّة ، كأنّما بنيت على شكلٍ لا يزال يجمعها في نفسه ويبثُّها من نفسه ؟

إنّه ولا رَيْبَ طابع الجاذبية على القوة .

وأيُّ إبداع هذا الذي يُظهرك في محاسنك مظهر كون خُلق كلّه من الزّهر ، وهو جميل في مجموعه بأجزائه وفي أجزائه بمجموعه ؟

إنّه ولا ريب طابع الألوهيّة على المعجزة .

* * *

حولك ما نحسُّه ولا نعرف منه إلا أنّه حولك وحَسْبُ ، والجوُّ الذي أنت فيه ينعكس عن جمالك

(١) المحب الصادق لا يقدر إلا على أن يحب ، والكاذب يقدر على ما شاء .

(٢) الأجراس : الأصوات ؛ والصلصلة صوت وقوع السلاح بعضه على بعض .

في صورة سحرية ، فلو أنّني طفت العالم كُلّه لرأيته من حولي أينما كنت ، وأبصرت وجهك دائماً أمام عيني كأنّي محدود بك في حدود مسحورة ، تدعك حيث أنت ، وتمضي معي حيث أكون !

وما الوجود إلا انسياب قوى المادّة بعضها في بعض ، وفي هواك تنساب القوى من روحك إلى روحي ، فالأصل الّذي بُنِيَ عليه الكون في منافعه بنيت أنت عليه في محاسنك ، كأنّما هو يعرض قوانينه التي تحسّ ولا ترى في صورة منك تحسّ وترى ، وتزيد على الرُّؤية أنّها آخر حدود العشق ، وعلى العشق أنّها أوّل حدود العبادة .

أما والله لو ناديتك بغير اسمك ، يا حبيبتي ، لما وضعت لك إلا اسماً من معانيك ، ولو سمّيتك بهذه المعاني لما ناديتك إلا بهذا الاسم العظيم : يا نِسْوِيَّة العالم !

* * *

نارية في غير نار ! آه من يفهم هذا ؟ ولكنّي أحسّه منك حتى لا أرى جسمك إلا مُضيئاً مُشتعلاً بالشّباب والجمال . وتالله إنّي لأحسبك في بعض سَبحاتي ناراً مدمّرة ، كأنّك تُقذَفين على قلبي منفجرةً فيه . ويشتدُّ بي الوجد وأضيق ، فما أظنُّ الحبَّ إلا عداوة ساخرة تهزأ بالنّاس ، فتجيئهم مُتلطّفة في غير أسلوبها وعلى غير طريقتها ومن غير أهلها ، من الحبيب .. من الحبيب ، على أنّها عداوة !

أ تلك تلك ، يا قلبي ، نار وتدمير وعداوة ؟ أم أنها ترتجف من جاذبيتها على زلزلة لا تهدأ ولا تقرُّ ، ولا بدّ لها أن تُتِمّ عملها بطريقتها العنيفة ؟ إنّ فيها حركة الجذب ، وإنّ فيَّ حركة المقاومة ، فأنا المُتألّم بطبيعتي ؛ لأن انجذابي إليها إنْ هو إلا اصطدام معانيَّ بمعانيها ، واندفاع ما يتحطّم إلى ما يُحطّمه . ولكن يا لها من عجيبة ! إنّ هذه هي بعينها لذّةُ الحُبِّ ، إذ كان تحطيمه فينا هو تغييره فينا ، وبذلك يجدّدُ الحياةَ – أيامَها وأشياءها ومعانيها – ويضع في كلِّ أمر غراماً ، ويجعل لكلِّ شيء عيناً كحيلة .

وراءك ، يا حبيبتي ، فكرة مُختفية ، كأنّك أنت عملها على حين كأنما هي من عملك . أيّكما يا ترى الخطر المستور بجماله ؟

مع جاذبية الألوان والعطور في ثيابك وحُلاك جاذبية أعطر وأزهى في ملبس معانيك من العواطف ، وفي ملبس روحك من الدّلال ، ولا يعدلك في هذه الفتنة الكاسية إلا السّماء في فتنتها للرِّجال الإلهيين ، حين تلبس حرائقها من شفق الصُّبح .

يا للجلال ! إذ تُفَسِّر الطّبيعة نفسَها الغامضة بامرأة جميلة ، لتحقّق بها في النَّفْس العاشقة وَهْمَ الكمال الإنساني المُستحيل ، الّذي يُخيِّل لها اندماج الكون بجلاله العظيم في ذاتية إنسانية ، ذاتية المحبوب المخلوقة على مساواة وتقدير من مُحبّها ؛ لتجذبه وتفتنه ، فتخرجَ به من حكم عقله فتنفذَ أقدارها في أقداره ، فتعقدَ على أطراف حياته بعقدة عاطفية واحدة ، تستطيع بها تلك المرأة أن تهزّه من كلّ نواحيه بأيسر لمسة !

* * *

إنّما الكون كهربائية ، ولا بُدّ في الكهربائية من سلب وإيجاب ، فمن يدري لعلّ كل متحابين هما مظهر كهربائيّ لا يحوطهما إلا جوُّ النّفس المحترقة تشعل بالضّحكات كما تلتهب بالدُّموع ؛ لأنّ هذه وهذه مادّة حُبٍّ ساطعة في مظهرين كاللّهب ؛ تكون فيه مرّةً شدّة الانبعاث ، فكأنما يضحك ، ومرة فترة الانطفاء فكأنّما يبكي . ويقع الإيجاب في السلب فيحدث الحبُّ ، ويحدث فتكون الجاذبية ، وتكون فإذا إنسان بمعانيه قد احتلّ إنساناً في مادته فتتفاعلُ أجزاؤهما ، فلن يكون الحب والبغض منهما إلا فوق الاعتدال ؛ إذ في واحد تتهاربُ أجزاءٌ من أجزاء ، وفي الآخر يفنى بعضُها في بعضها .

إنّما هي قوة تلبّست الصّورة لتعمل بها عملاً في نفسها ، وتدلّ بها دلالة في غيرها . فحبي المخلص الشّديد معناه فيك أنت الحسن الخالص الفاتن ، وتفكيري في محاسنك معناه فيَّ أنا : خلق لغة الأشياء الجميلة ليتّصل عقلي بحقيقتها .

وإحساسي بك وحدك معناه في الوجود إحساسي بجماله كُلّه .

والآن وأنا أكتب إليك .. تتمثّلين لي ، فأرى تقاسيم الحسن فيك فأقول : وما هذه التّقاسيم البديعة ؟

ألا رفقاً بالقلب الّذي أجابني : إنّها تركيب المغناطيس الغرامي ، وتوزيعه في أماكنه على هندسة الجاذبية . رفقاً بالقلب الّذي تلمسينه من جاذبيتك بالنّظرة والكلمة والفكرة ، كأنّه حولك لأنّك حوله بالوحي ، والخيال ، والحسن .

من أجل الإبداع ، والسُّموّ ، والحبّ .

أنت في نفسك ، وأنت في معانيك ، وأنت فيّ !

* * *

الأشواق

هأنذا ، يا حبيبتي ، أجلس لكتاب الشّوق ، وفي يدي القلم ، ومعانيك منّي قريبة تكاد تُحسّ وتلمس على تباعد ما بيننا ؛ لأنّ كلّ ما فيك هو في قلبي .

وهذه عينك الظّاهرة دائماً بمظهر استفهام عن شيء ؛ لأنّ وراءها نفساً مُتعنّتة تأبى أن ترضى ، أو حائرةً لا تكفيها معرفة ، أو غامضةً تريد أن لا تُفسّر ، أو على الحقيقة لأنّ وراءها نفساً فيها التّعنُّت والحيرة والغموض ؛ إذ عرفت أنّها معشوقة .

هذه عينك من وراء البعد تُلقي عليّ نظرات استفهامها ، فتدعُ كلّ ما حولي من الأشياء مسائلَ تطلب جوابها من حضورك ومرآك لا غير ؛ وبذلك يهفو إليك القلب بأشواق لا تَزالُ تتوافى [١] ، فلا تبرح تتجدّدُ ، فهي لا تهدأ ولا تسكن . وكأنّ غيابك سلب الأشياء في نفسي حالة عقليّة كانت لها ، كما سلبني أنا حالة قلبيّة .

وآه من تباريح الحبّ ! إنّها لوحوش من الأحزان ثائرة ، فكلّ راجفة من رواجف الصّدْرِ [٢] كأنّها من حَرّ الشوق ضربةُ مخلب على القلب .

الشّوق ؟ ما الشّوق إلا صاعقة تُنشئها كهرباءة الحبّ في سحاب الدّم ، حين يمور ويضطرب ويصدم بعضه بعضاً من الغليان ، فيرجف فيه الرّعد القلبي يتردّد صوته آه آه آه !

* * *

والآن ، يا حبيبتي ، ألقت عينك السّاحرة عليّ نظرة استفهام أخرى بالصبابة ورقّة الشّوق ، فأحسستُ بروحي كالغصن المخضرّ ، أثقله الزّهر ، وقد طفقت أزهارها تتفتّح وتُسلِم النّسيمَ ودائع الجنّة من نفحاتها وتسليماتها عليك .

وأشعر بالقلم في يدي ، وكأنّ له شأناً مع الكلمات الّتي أكتبها إليك ، فهو يخطّها حرفاً حرفاً ، ويقبّلها كذلك حرفاً حرفاً ! وكأنّه السّاعةَ ذو هيئة إنسانية ، وكأن (الريشة) التي فيه تمتدُّ إلى الكلام امتدادُ الشّفة الظمأى بالقبلات الكثيرة المخبوءة فيها !

وأشعر بالقرطاس وكأنّه قد علم أنْ سيحمل أشواقي وأسرار قلبي فلا يعدُّ صحيفة ورق تموج بالألفاظ ، بل صحيفة صدر ملأها جوّ من التّنهُّدِ آه آه آه !

* * *

وبنظرة استفهام أخرى من عينك أشعر بحقيقتك النّسوية من حولي حافة بي فمُرتجّةً في صدري ، فملقيةً على قلبي المسكين من كلّ خطرة شوق لسعة ألم .

نعم ، إنّك يا حبيبتي ، ترسلين الأنوار في هذا القلب ، غير أنّها لم تكن أنواراً إلا من أنّها شُعَلٌ مضطرمة . والمحبُّ الّذي يُضيئه عشقه ويظهر للجمال وجوده الغراميّ ، إنّما يُنيره احتراقُه وفناء وجوده الذّاتي ، كلُّ قَدْر من النّور بقدر مضاعف من الاحتراق .

(١) تتمّ . *

(٢) رواجف الصدر هنا : كناية عن الخواطر الغرامية التي يضرب لها العاشق .

وكذلك البطل العظيم في الحرب : تنهش من لحمه السُّيوف ويثقب في عظامه الرَّصاص ، وما مزقه الموت بهذه ولا بتلك ، ولكنْ مزَّقه مجده !

أما إنّك ، يا حبيبتي ، لو ضربتني بسيف لقتلتني قتلة مُعطَّرة !

أما إنّك ، يا حبيبتي ، لو ضربتني بسيف لما كنت قد زدت بسيفك وضربتك على أن تكوني خلقت الحسَّ في نظرة قاسية من نظرات عينيك .

وهكذا علّمتني حقيقتُكِ أنّ الحبَّ إنْ هو إلا تفسير كلّ شيء في العالم تفسيراً من القلب !

* * *

أنت ممزوجة بآلامي ، وآلامي منك هي أشواقي ، وأشواقي إليك هي أفكاري ، وأفكاري فيك هي معانيك في نفسي ، ومعانيك هي الحب ، ولكن ما هو الحبُّ إلا أن يكون آلامي وأشواقي وأفكاري ومعانيك في نفسي ؟

ولروحك أنفاسٌ تُناسمني [١] فأستنشقها مهما انصدعت المسافات بيننا ، كأن ما ملأ النَّفس يملأ الكون ، فمن شعوري الدّائم بانسكاب روحك في روحي ينبعث غرامي ، ويرصد بهواك لي في منفذ كلِّ معنى إلى نفسي . ومن هذا تنبعث أشواقي الحزينة ما دمت لا أراك . وإذا كان الغرام هو سكر الرّوح بالرّوح ، فما الشّوق إلا التّمرُّد العنيف من حواسِّ الجسم المُحبِّ ، إذا حرم أن يسكر بالجسم الّذي يحبه .

* * *

في بعدك لا أشعر بالزّمن يفنى من السّاعات والأيام ، بل منّي ومن حياتي ، فأنا في بعدك أذوب ، أذوب فناءً ، أيْ أذوب شوقاً ، وأفنى صبراً وعمراً بين كلِّ ساعة وساعة !

وفي الحياة يفنى الوقت ذاهباً فيما نحن بسبيله من راجباتها وممكناتها ، وتَعِبنا بها وقتاً وراحَتِنا فيها وقتاً آخر ، فكأنّه لا يمسُّنا نحن ، بل يمسُّ أعمالنا ، فنحمله بذلك ونطيقه على ذلك ، ولا نحسُّ أنّنا نموت فيه يوماً بعد يوم ، بل نشعر بالحياة تبدأ فينا ولا تزال تبدأ . أمّا في الحبِّ على امتناع الحبيب أو هجره أو فراقه ، فحاضرنا هو الماضي ويومنا هو أمس ، إذ لا نريد فيما يكون إلا مراجعة ما كان ، فيقع الزّمن على قلوبنا ، ويعتمل فيها ويأخذ منها ، ولا نشعر به إلا موتاً في صورة حياة ممتنعة علينا ، ومن ثمّ فلا يكون الشّوق إلى الحبيب الممتنع أو الهاجر أو المفارق إلا لهفةً ثائرةً ، كلهفة الشّوق إلى الحياة من مريض وقَذَه و رسَّ على جسده السقم [٢] ، فمات أكثره وبقيت منه البقية الذّاهبة نفساً في نفس ، ويشعر بالموت يبدأ فيه ولا يزال يبدأ !

يا رحمةً للمشتاق حين يكون فيما حوله وهو بعيد عنه ، وقد يتكلّم بالكلمة وهو مسيرة شهر من معناها ... [٣] ويعيش في سكوت ملأته أرواح ألفاظ محبوبة ، تريد بما وسعه أن تتكلّم ، ولا يُمكن أن تتكلم ، إذ الفم الجميل الّذي ينطقها بعيد في وديعة النّوى ، ويرى أنّه هو وحبيبَه ناحية فكريّةً من نواحي الدُّنيا بعيدة عن النّاس والأشياء ، كأنّهما مُعتكِفان في عزلة ، ومع ذلك فالحبيب عنه بعيد ، فكأنّما المسكين غريب في دنياه وفي دينه وفكره معاً . ويحسُّ الآلامَ لا تنتهي ، إذ كانت هي أشواقه الدائمة الحنينِ إلى مَنْ يهواه ، فالألم دائماً فيه يبدأ ولا يزال يبدأ .

ومن كل ذلك فأشواقي لك ، يا حبيبتي ، دائماً تبدأ ولا تزال تبدأ ، وأنا دائماً في أولها .

* * *

---

(١) أي أجد نسيمها كأنها بمحضر مني ، وقد مر تفسيرها في المقدمة.

(٢) أضناه المرض وثبت على جسده .

(٣) يريد أنه ذاهل ، أو أن كل كلامه يكون عن حبيبته وهي بعيدة عنه ، أو أن مركز معاني المحب لم يعد فيه هو ، بل في حبيبته ، فالحوادث ليست عنده على نسبة من حقائقها السارة أو المؤلمة ، بل السرور والألم على نسبة بعده هو أو قربه من حبيبته أو من رضاها . وهذا كله يكون من تخليط الحب ، فسيأتي مثل هذا المعنى على وجه آخر .

آه ما هذه الأفكار الحزينة الّتي جاءت تبحث عن دموعي ؟

وما هذا المعنى النّاريُّ الّذي يطير في دمي ؟

وما هذا الرّعد القلبيُّ الرّاجف يتردّدُ صوته : آه آه آه ؟

كتاب رضا

كِتابُها قَد جاءَني حامِلاً
لِقَلْبي الخَفّاقِ قَلْبًا خَفَقْ
وَالتَمَعَتْ فيهِ نُجومُ المُنى
في أَسْطُرٍ مِثْلِ سَوادِ الغَسَقْ
وَأَعْرِفُ القُبْلَةَ في مَوْضِعٍ
يَلوحُ لي كالزَّهرِ لا كالوَرَقْ
وَكَمْ بِهِ سَطْرٌ إِلى آخِرٍ
كالصَّدْرِ لِلصَّدْرِ دَنا فاعْتَنَقْ !
وَكَمْ بِهِ مَعْنًى أَنامَ الجَوى
وَكَمْ بِهِ مَعْنًى أَتى بِالأَرَقْ !

* * *

سَأَلْتُهُ كَيْفَ رَأى وَجْهَها ؟
فَقالَ : جَلَّ اللهُ فيما خَلَقْ
قُلْتُ وَذاكَ الخَدُّ لَمّا اسْتَحى ؟
فَقالَ مِثْلُ الفَجْرِ فيهِ الشَّفَقْ
قُلْتُ : وَذاكَ الثَّغْرُ ما أَمْرُهُ ؟
فَقالَ : لَمّا ذَكَرْتُكَ « انْطَبَقْ » (١)

* * *

يا ثَغْرَها ، فيكَ نَسيمُ النَّدى
فَكَيْفَ قَلْبي في نَداكَ احْتَرَقْ ؟

* * *

(١) كأنها تقبل اسمه حين ذكرته .

رواية القلم

أشعر أحيانًا ، أيتها الحبيبة ، أنَّ لقلمي عليَّ خلافًا ، وكأنَّ فيه عاطفة ترميه بنوازعها ، فهو يجاذبني نفسه ، لا يريد أن يكون في بناني ولا أن يقرَّ معي . وهو السّاعةَ مرتبك مُتبلّد ، تمشي به يدي وكأنّها الشّيخ المتهدّم الفاني يَدَّعِم (٢) على عصاً ، يراه النّاظر إليه متزحزحًا مترجرجًا ، فيحسبه يرتعش ولا يمشي .

وإن يكن بهذا القلم شيء منّي فما به إلا الضّجر مّما يُمليه قلبي الّذي يهابك في رسائله كما يهابك في حُبّه ، فيقذف لقلمي بالكلمة من الكلام ، يكتبها عنه ، وإنّ القلب في ذات نفسه ليُزمزم (٣) بمعنًى ليس في هذه الكلمة ، بل في كلمةٍ غيرها ، قد أخفاها وضَمَّرَ عليها .

أحسب قلمي ، يا حبيبتي ، لا يتمنّى إلا أن يكتب بغير يدي ، على أن لا تكون الرّسالة ، يا ذات قلبي ، إلا من قلبي أنا . وهذا معنًى لو كشفته لكان هكذا . يودُّ قلمي أن يكون في يدك أنت ليكتب بيدك إليّ ، كأنّه يَعْقِلُ ويتلو معي رسائلك ، ويعرف أنّك دائمًا هاربة فيها ، ويتلّهف على كلمة مقبلة . (٤)

* * *

و هَبيهِ الآن في يدك الرَّخْصَة النّاعمة الّتي أودع الله فيها سرَّ ثمرة من أحلى وأنضر ثمار الجنّة ، فتذاق منها حلاوة الجنّة بالتقبيل ؛ إنّه يلمسك ... إنّه تحت أنفاسك ، يرتقب كلام شفتيك ... وربّما أغمضت عينيك ليسعدك فكرك العميق بأسلوب مقلوب ... فإذا أنت في ذلك قد ألصقت القلم بشفتيك ولبثت ساكنة ولبث ساكنًا !

(٢) أي يقوم بها كأنها دعامة . (٣) الزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم . (٤) الكلمة المقبلة : المخصبة من المعنى الذي يحبه . والمدبرة : المجدبة .

ويك يا قلمي الخبيث ! أ تريد أن تَدَعَني ؟ لكأنّك والله نفسٌ مُعلّقة في أصابعي ؟ تحبُّ وتشتاق !

* * *

وماذا عسى أن يكتب إليَّ قلمي ، وهو ذاهل في راحتك ، سكران من أنفاسك ، مُتضَعْضِع من لمسة خدَّيْكِ ، مُترفِّع على الوجود كُلّه بموضعه من شفتيك ، وهو كالميت من إفراط هذه الحياة كُلّها عليه ؟

أحسبه يكتب إليَّ من يدك هذه الرّسالة :

« سيِّدي الأستاذ الفيلسوف ..

« لم يخالجني الرّيب قطُّ في أنّك من نَزَعاتك الرّوحانية ومن ذهولك الرّبانيِّ كأنّك في جَوِّ كوكب ، لا في جسم إنسان ، وكأنَّ عناصرك المطهرة قد أنضجها اللّهب القلبيُّ الّذي يحرق الإنسان و رغائبه وأهواءه ، في شعلة مُتّقدة تُفني منه شكله الأدنى ، لتوجِدَ منه شكله الأسمى ، وتدعه ذؤابة [1] نور ترتعش .

« وإنَّ السّاعة الّتي قرأتُ كتابك فيها لتكاد تُشعرني بأنّها من غير هذا الزّمن . فكأنّها خُلِقَتْ لي تأتيني مع بريد من الملائكة حين يوافي البريدُ بكتابك.

« والله إنَّ كتابك ، يا سيِّدي ، لزهرة من روحك، تحيّتُها عندي في تأمُّلها والإعجاب بها ، أمّا بلاغته ، فبالله أحلف صادقة ، ما رأيت أكمل منك لسان قلم ، ولا أذكى مع هذا القلم قُوّةَ طبع ، ولا أبلغَ طبيعةَ نفس . ولكأنَّ قلمك مهبطُ إشعاع تلتقي إليه سبحات روح الجمال المنبثة المالئة هذا الوجودَ مّما بين أزهار الأرض ، إلى كواكب الفلك إلى خدود الحور في مقاصير الخلد .

« وسألتني اللّقاء ولكنَّ قلمك ساحر قدير ، فهو يستطيع أن يحملك إليَّ دائماً في رسائلك البليغة . ولو شاء هذا القلم السّاحر لجعل من الصّحيفة روضاً يفرشه تحت أقدامنا نثار الورد [2] ، وقد جلسنا فيه تحت خيمة من النّدى ، مُطرّزة بشُقَق [3] عريضة من حرير الشّمس ، ونلتقي وإنْ كنا لم نلتقِ!

« واهاً لقلمك ، يا سيِّدي ، واهاً ! وسَلِمْتَ للمعجبة بآيات هذا القلم المعجز ! »

* * *

على أنَّ هذا القلم الخبيث لو استملى [4] من نشوته وسكره هذا الكلام المُعربد في قلبي ، وركب ذلك الفنَّ من الغيرة ، وأخذته هذه الرّجفة ، وكتب إليَّ بيدك تلك الرّسالة لقرأتها أنا هكذا :

« يا من أنا سيِّدته !

« لم يخالجني الريب قطُّ في أنّك – من حُبِّك – نفس تحترق بذاتها كالكوكب ، فعناصرك المُلتهبة تلفُّنا معاً في شعلة غرام تُفني مِنّا شكلين لتوجِدَهما في الحبِّ شكلاً واحداً ، وتدعه كذؤابتَيْ نور معتنقتين.

« وإنَّ السّاعة الّتي قرأت كتابك فيها لتكاد تُشعرني أنّها منك أنت لا من الزّمن ، لأحيا فيك وأنا أقرؤك .

« وإنَّ كتابك لمن روح أيُّها الحبيب لا من كلام، فإنّي لمّا نشرته في يدي أحسستُ كأنّه غَمَزَ يدي .

« أمّا بلاغته فبالله أحلف صادقةً لقد نقل إليَّ الكلمةَ الّتي لم تكتبها وسألتني اللقاء . . . .

آه ! ما بالك جمدت الآن ، أيُّها القلم الخبيث ، وقُطِعَ بك ؟ فكأنّك تغار حتى من موعد مُزوَّر ! »

* * *

هذه ، يا حبيبتي ، رواية قلمي . فما رواية قلمك؟

إنّك لتنظرين إليَّ نظرات ناعمة من ذلك النّظر الرّطب ، فأجد لها مسًّا كمسِّ يد الحبيبة الفاتنة . فلماذا لا تكتبينها ؟

وتبسمين أحياناً ابتسامات معنويّة تهرب إليَّ فيها بعضُ قبلاتك . فلماذا لا تكتبينها ؟

و أرى على نور قلبي أحرفاً مُختبئة في قلبك هي: ألف ، حاء ، باء ، كاف . فهل تكتبينها ؟

(١) الذؤابة : أعلى كلِّ شيء ، الطرف . *

(٢) نثار الورد : ما تناثر منه في المجلس . وحين ينتثر في المجلس يسمى الجلسان (بضم الجيم وسكون اللام) .

(٣) جمع شقة ، وهي هنا بمعنى ما شُقَّ مستطيلاً من القماش وغيره . *

(٤) استملاء : سأله أن يملي عليه . *

نار الكلمة

تقولين في كتابك أيّتها الحبيبة : ولعمري إنّي لأستحسُّ وهجاً من حرارة الجذوة التي في قلبك ، أشعر به ومن بيني وبينك عرض المشرق . (١) ولقد عرفتُ هذه النّار ، وآمنت بما قُلته لي مرة من أنّها اتّصال الشُّعاع الأزليّ بالقلب الإنساني مُلطّفاً في وسيلة إنسانية ، مُخفّفاً بجمال ، مُزخرفاً بلذّة ، معاناً برغبات كثيرة ؛ كيلا يَمْحَقَ (٢) محقه الذي كان أخفُّه وأيسره أن تجلّى للجبل فجعله دكّاء (٣) ، ولكنْ أيُّها الصّديق ...

ولكنْ بأية نار تُشعل ألفاظَ رسائلك ؟ وكيف ينبض القلم في يدك هذه النّبضات الحيّة المُتمثّلة ، حتى ما يخالجني شكٌّ في أنّه لو وضع على كتابك ميزان الحرارة لجاءت درجته في حرارة قلب ؟

* * *

أ تجهلين ... ؟ يا بُعْدَ ذلك !

أ تعرفينَ ... ؟ يا حُبَّ ذلك !

إنّما تأتي رسائلي أيّتها العزيزة من تحوُّل الكهربائية التي في قلبي إلى ألفاظ ؛ إذ يدفعها الشّوْق أن تكون عملاً منّي ، بعد أن كانت عملاً منك . وهي كالنّور ، لا يُرى حتى يلبَسَ ما يُرى فيه ، فتلبس الكهربائية ألفاظي وتتراءى .

وإنّما تأتي المعاني الّتي أبدعها فيك من تلك العواطفِ الّتي تخلقينها أنت فيَّ . وكما لا ينطق فم الإنسان من شفة واحدة ، فكذلك لا بدّ للحبِّ من اثنين ليتكلم فم الحقيقة بكلام الحب .

وما أكتب لك حرفاً حتى أراك قبلُ في مرآة نفسي ، وأتمثّلني في مرآة نفسك ، ثم أضع بيننا مرآة اللّغة ، فتعكس منّي ومنك أجزاءً وصوراً ، تكون هي كلماتي .

ولو رأيْتِني وأنا أتلو رسائلك ، لرأيت أنّك لا تكتبين لي كلاماً بل تزرعين في الورق زهر أنفاسك فيأتيني فأقرؤه ؛ أي أقطفه . وبهذه الطّريقة أكتب كلماتي ، أي أزرع تَنَهُّداتي ، يا حبيبتي .

والخائف من شيء يرى لاسمه بعض عمله من تأثير الخوف على أعصابه ؛ فاسم الثعبان عند من لُدغ مرّة هو لفظ كالإبرة ، يمسُّ مكان اللدغة . كلمة الذّئب تعضُّ ، وكلمات الحب ، يا حبيبتي تتألّم .

* * *

لست أشعل ألفاظي ولا ينبض القلم في يدي نبضات حيّة ، ولكنَّ هذا وذلك غليان دمي على أربع نيران هي : خيالي ، وغرامي ، والفكر النّاري الذي هو أنت ، والجمال الذي أحْمِيَ على شبابك حتى بلغ درجة الاحمرار في خدّيْك وشفتيك .

هو الوجد ذلك الوجد الّذي يوحي لكلِّ عاشق بأنّه إن امتنع على الفم أن يُلقِيَ في القبلة أنفاسه الحرّى على وجه الحبيب ، فليقابل وجهه بألفاظه الحارّة في رسالة .

هو الحب .. ذلك الحبُّ الّذي يجعل الدّم كأنّما يفور من طعنة سِنان حادٍّ ، فإذا الأفكارُ شلالٌ دمويٌّ يَعُجُّ في النّفس ، يصرخ بصوت الدّم ، ينادي أحبُّه أحبُّه ..

هو الجمال ـ ذلك الجمال الّذي يُريد التّعبير عن نفسه تعبيراً صادقاً حيًّا ، فيتخذ العاشقَ هيئة فكر مثقلة بالآلام وتباريح الصّبابة والشّعر والخيال ، عالياً عالياً إلى الحكمة ، أو نازلاً نازلاً إلى الرّذيلة ، أو هالكاً هالكاً إلى الجنون .

* * *

إنّما أضرب على أوتار نفسك ، ألمسها بأفكاري ونظراتي وأشواقي ، وبأفراح المعرفة الغراميّة وآلامها ،

(١) يعرف القارئ من « رسائل الأحزان » أنّ صاحبة هذه الرسائل سورية .

(٢) ينقص ، يُهلك ، يُبيد . *

(٣) كأن الحب إحساس في الروح بشعاع أزلي ، ولكن هذا الشعاع ملطف في وجه جميل ومعان جميلة ، ولولا ذلك لأهلك وانفجر به القلب من ساعته ، وفي قصة موسى عليه السلام : « قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاء وخرّ موسى صعقاً ».

وأخرجُ من كلّ ذلك أنغام حُبّي الّتي هي رسائلي.

وإذا كنت أنا المتكلّمَ فمعنى ذلك أنّك أنت المتكلّمة بي ، وفنك ، يا موسيقى الجمال ، هو في تركيبك الجميل و انطوائك به على أسرارك ، ولكنّ فني إنّما هو في لمساتي عنفاً و رقة [١] ، وكلماتي كالأزهار تُخلق فيها مادّة ألوانها وأعطارها وديباجها ؛ لأنّ أرواح أغراسها تنسكب فيها . وحين يُلقي الشّعاع كلمته الغرامية في قلب كلّ شجرة من ذوات الزّهر ، تفكر الشّجرة مدّة ثم تزهر وتتفتّح ، أي تجيب بأسلوب نسائي في ظَرْف ورقة ولون وعطر وحرير وتبرّج .

ولست أشكُّ أنّ الجمال في هذا الوجود مظهر مؤنّث ، حتى إنّ مَعْرَفَةَ الأسد [٢] لتظهر كشعر امرأة! ومن ذلك ما تبدو الأشياء الجميلة في خيال العاشق المتدله كأنما في كلّ شيء نظرة أنثى - أنثى جعلت قلبها نحوه . [٣]

إن لم تغلبي على الكون ، يا حبيبتي ، فقد غلبت على نظرتي إليه ! فكلُّ جمال في الكون هو رسالة منك إليّ ، وبذلك أصبحت للعالم خلقةً أخرى في مخيلتي ، عليها أثرك الغرامي ، وكأنما نحن عنصران مُنبثّان في كل ما حولنا ، فما نمسُّ شيئاً أو ننظر شيئاً إلا وضعنا فيه روحانية القلب .

ولن يكون الحبُّ عشقاً ما لم يرتفع بالنّفس عن ذاتها ، ولا تسمو النّفس عن ذاتها ما لم يَعْلُ نظرها إلى الأشياء ، والنّظر الإنساني لا يعلو بشيء إلا إذا ألبسه معناه الإلهيّ .

* * *

أ يكون الحبُّ تنقيحاً في معاني الكون بالنّفس وخيالاتها ، أم في معاني النّفس بالكون وحقائقه ، أم كليهما ؟

أم إنّي لأستروح أنفاسك وقد ناسمتني كُرَيْحَة الفجر عذبةً باردة فما تزيدني إلا ضراماً ، كأنّما تهبُّ منّي على جمرة ذاكية . ولا يكون الشُّعور بالحبِّ ناريًا ما لم يكن الحبُّ نفسه مزجاً للنّفس العاشقة بالكهربائية السّارية في الكون ، المالئة لنواحيه وأطرافه ، النّابضة بكلّ ما فيه .

وإذا كان هو الشّأن فالوجود مقفل حتّى تفتحه للرّجل امرأة ، ويفتحه للمرأة رجل . ولا تزال معاني جماله في قناعها ، و زخارفُ حِلاه في أستارها ، كمتاع القصر من وراء باب القصر المقفل على ما فيه حتّى يدور في قُفْل الكون مفتاح الحب .

النّهار يُفتَح بالشّمس ، واللّيل يُفتَحُ بالكواكب ، أما الحب فلم يفتح إلا بوجهك ، يا حبيبتي .

والشّمس والكواكب نار ، ولكنّها على الدنيا نور، أمّا وجهك فنور ، ولكنّه على قلبي نار !

أ تجهلين ... ؟

أ تعرفين ... ؟

* * *

المتوحشة !

وكان يوماً في مجلسها فامتدّ بينهما كلام ، قالت له في آخره : أنت متوحش ! وقال لها : وأنت متوحشة . فلما ندر [٤] من مجلسها ذهب فكتب إليها هذه الرسالة :

ماذا أقول في (متوحشتي) الجميلة ، وما ظهرت منها على عيب أعيبها به إلا رأيته عند نفسي شكلاً جديداً من أشكال جمالها ، أو فنا بدعاً فيما حنيتُ عليه ضلوعي من هواها ! إذ ليس بيني وبينها حدود تجعل منها ألفاظُ النّقد حدوداً لمعانيها ، بل كلُّ ما فيها من أشياء قلبي .

ولو قالت لي : « أكرهك » لما وقفت الكلمة عند هذا الحدّ ؛ لأنّها من أشياء قلبي ، فيكون معناها: أكرهك لأنّي مكرهة أن أحبّك . أكرهك لأنّك أخضعتني ، وجعلتني مُكرهة أن أحبّك ، أكرهك

(١) الحبيبة كأداة من أدوات الموسيقى ، ففنها في تركيبها الخاص ، ولكن فن العازف في لمساته إياها رقة وعنفاً وما بينهما . (٢) شعر رأسه .

(٣) أي مالت إليه بقلبها وأقبلت عليه

(٤) خرج . *

لأنَّ كلمة « أكرهك » هي الّتي أظنُّ أنّها تُخفي أمام نفسك تواضعي لك في نفسي !

* * *

و والله خالق الجنّة والنّار ، لو كان في سواء الجحيم [١] غرفة من الجنّة بنعيمها و زينتها ، أو كان في سَرارة الجنّة [٢] قاع من جهنّم بعذابه وآلامه ، لكانا معاً أشبهَ بما أجدُ منك . فإنَّ حُبّك لذّة من لذّات الجنّة ، ولكنّه يتضرّم فنوناً على قلبي ، وإنَّ الشّوق إليك عذابٌ كالنّار ولكنّه ينفض من الأمل على روحي مثل الطلِّ والنّدى .

إلا أنّه ليس في الحبِّ نصفُ حب أبداً ، فليس في الحبيب أبداً إلا كل الجمال ، فليس معاني الجميل إلا أنها كلها جميلة .

والوجه الذي نعشقه هو من كلِّ ما خلق الله ، الوجهُ الموسيقيُّ الّذي لا ينسجم غيرُه ولا يتطابقُ مع فنِّ الرّوح في عاشقه . فإن أطربَ أو أشجى [٣] فبلذةٍ أشجى وبلذة أطرب .

وإن لمست يد الحبيب بأناملها لمسة حبٍّ ، فهي يد الحبيب ، أ فلا تكون هي بعينيها يَدَ الحبيب ، إن قرصت بأظافرها قرصةَ حبٍّ ؟

* * *

« قلتِ ، أيتها الحبيبة ، إنيّ (متوحش) فإنّي كذلك ، وإنّي لمتسعّرُ الدّمِ من حبّك ، بفظاعةٍ تجعله كأنّه دمُ وحشٍ فائرٌ تتنزّى به نوازيه للوثبة . ولن يكون الحبُّ القويُّ إلا متوحّشاً ؛ لأنّه ثورة قذفت في الدّمِ الإنساني فيرجُّ فيه تاريخ القتال الوحشيِّ الّذي ينام في دمنا من إرث أجدادنا ، فإذا معركة مرسومةٌ لامتلاك الحبيب ، لم يصنع فيها العاشق أكثر مما يصنع القائد إذا نشر خريطة حرب كانت عنده مطويّة .

ومن العجب أنَّ هذا الوحش النّائم في الدّم لا يُنبّهه إلا أجفى المعاني وأغلظها في سَوْرَةِ الغضب وجنون الغيظ ، أو ألطفُ المعاني وأرقُّها في جمال الحبِّ وخلاعة الجمال .

فالعاشق الرّقيق على فرط رقّته ، هو لفرط رقّته وحش في عاطفة الحبِّ : ما منه فكرٌ لو فتّش إلا فتّش عن معنى يفترس ؛ إذ يشعر بالحياة في نفسه لا غذاءَ لها إلا بمعاني حبيبته ، فيأكلها حتّى بالنّظر ويفترسها حتى بالخاطر !

ولو أنّنا تمثّلنا أسداً غرثان [٤] يطوي البَرَّ أياماً ، وهو يهفو على أثر خيال من أخيلة جوفه ، ولكنّه لا يجد الفريسة ، حتّى إذا انصفق جنبه على جنبه الآخر من الجوع ، فَتَقَتْ [٥] له الهواءَ رائحةُ ظبية من قريب ، ثم تمثّلنا مع هذه الصورة عاشقاً مجفوّاً ، نالته نسمة من قبل حبيبته ، أو نفحته رويحة من عطرها ، ثم ترجَمْنا ما أفزّ الأسد من معاني الظّبية إلى ترجمة إنسانية ، لكانت وحشيةُ اللّيْث في هذه الحالة هي بصورتها لهفةَ العاشق ولوعته ، إلا أنَّ ذلك معنًى في وحش ، وهذا معنًى في إنسان .

ويُخيَّلُ إليَّ أن محبا لو قبّل حبيبته بتلك اللّهفة ؛ أي بتلك الوحشية ، لجاز لها أن تتّهمه قانوناً بتهمة الشّروع في أكلها [٦] !

* * *

« وقلتُ لكِ : أنت (متوحشة) . وإنك لَعَلى ذلك ؛ فإنَّ جمالك لهو أرقُّ الوحشية وأدقُّها وأخفاها ، ولا برهان لي عليك إلا أنّك دائماً تساورينني في قلبي مساورة ظهرت في قلبي جراحاتها ، وعلى كبدي منها الصوادع . [٧]

« ولك صولة عليَّ وحشية وأنت بها غالبة أبداً ، حتى لا أستطيع في مغالبتك أكثر من أن أجعل خضوعي أحياناً في صورة مقاومة !

(١) في وسط الجحيم . (٢) سَرارة المكان : وسطه .

(٣) الشجى : خاص بالنغم المحزن ، لا كما يستعمله الناس من قولهم : الأنغام المشجية وهم يريدون المطربة .

(٤) جائع . * (٥) شقّت . * (٦) في القانون : تهمة الشروع في القتل ، وهي التي ولدت لنا هذه التهمة الظريفة . (٧) أي ما يصدعها ويفرطها من آلام الحب .

والحياة تدلُّ بالوحش على أنها آكلة هاجمة مُصَمِّمة غير رحيمة ، وأنّها الشدّة تحت مسٍّ ليّنٍ ، وأنّها القوة الغازيَة معبأة في إهاب ، وأنّها أسلحة قاطعة من اللّحم والدّم . فيا ليت شعري عنك هل دلت الحياةُ بجمالكِ الفتّان إلا على رقّة قاتلة ، ولينٍ مُهْلِك ، ولُطْفٍ مُعذّب ، ومعانٍ كالأسلحة في لحمي ودمي ؟

لا أُثبتُ لكِ حبّي إلا لتُثبتي لي كبرياءكِ ، ولا تقوم هذه الكبرياء ولا تَثْبت إلا بتعذيبي . والأساليب الّتي تُخفين وراءها حبّكِ بطبيعة الاحتراس الغريزية فيكِ ، هي بعينها الّتي تُعذّبني بطبيعة الجرأة التي فيَّ وما قالت امرأة مثلكِ عمّن تهواه : إني أحبُّه ! إلا وكأنّها قالت : إنّي أعذّبه !

ولقد تركتني وما أظفر منكِ بساعة رضا إلا رأيت في يدي معجزة ، وكأني أمسكت من الزّمن ساعة كانت هاربة في الأبدية !

يا حَرّةَ [١] قلبي منكِ ! ويا رحمتاهُ لكلِّ مَنْ عشقوا !

إنَّ الحبيبة على أنّها سرور مُحبّها ، وليس له عنها مذهب إلى متاع أو لذة في كلِّ ما وسعت الدنيا ، فإنَّ سرورها هي بالمحبِّ لا يُهنئها إلا أن تراه بها معذباً وَلها صبًّا وفيها مدلهاً [٢] ، وقد أحرقه الوجد وأضناه التَيّم [٣] وأهلكه حزن الهوى ، إذ لا تكون عند نفسها مُعذّبته إلا من أنّها حبيبته ولا تُثبت لنفسها القدرة عليه إلا بمحق المقاومة فيه ، ولا تتمُّ كبرياء أنوثتها إلا بتمام الذُّلِّ عليه ، ولا يتألّقُ فيها الجمال يُعذّبُ ويُثيب إلا بتحقُّق العبودية فيه . تخاف وتطمع ، فتبدع ما تبدع في إيلامه وتعذيبه ولو تتابعت له بالسّوء ؛ لأن ذلك هو عمل كبريائها وسرورُها .

وقد تُعذّبه في بعض دلالها أشدَّ العذاب ، وهي تحبُّه حبا ليس عليه صبر ، كما كانت تفعل لو أنّها كانت تبغضه بغضاً ليس فيه مبالاة . وبذلك تجمع عليه الشُّبهة والحقيقة . وما أمرَّ عذابَ مَنْ وجد الضّروري له مستحيلا عليه !

فأوجاع المحبِّ وأحزانه كآلام الفريسة وأوجاعها ، كلاهما ـ باللّغة السّلبية في الحبيبة والمفترس ـ وصف كامل لسطوة وحش .

وإنّي لأحسبُ طبيعة الفرار الّتي رُكّبت في المرأة [٤] قد خلقت فيكِ أنت على الضّعف ، حتّى لأراكِ دائماً كالهاربة عنّي ، وإن كنت إلى جانبي ، وحتى إنَّ معاني كلماتكِ في الحبِّ لَتَفرُّ من كلماتكِ ، وكأنّكِ تحترسين بغريزة وحشيّة بالغة في وحشيتها . [٥]

وإن حقيقتكِ لا تزال وراء آلاف وآلاف من ظنوني ، كأن لها هي أيضاً معنى اختباء الوحش في ألفاف الغابة وأشجارها ، فإذا أنت رضيت فأيسرُ ما توصفين به أنّكِ جذّابة إلى حدٍّ فظيعٍ في التّأثير ، بلْ متوحّشة في الجاذبية والسِّحر والفتنة .

وإذا أنت هجرت فأحقُّ الكلام الّذي توصفين به أنّكِ في الهجر بلا رحمة ولا شفقة ، مُتوحّشة ! مُتوحّشة !

* * *

أما قبل

كتبها إليها بعد أوّلِ مجلس كان لهما يصف ذلك المجلس :

لم يقولوا في لغتنا (أمّا قبل) كما أقول أنا ، يا حبيبتي . ولم تخطر لأحد قطُّ ولا يصحّحُها وجه ولا تعليل ، ولكنّي أضعها من أجلكِ ، وما أشكُّ أنّها

(١) الحرة : العذاب الموجع . (٢) التدليه : ذهاب العقل من الهوى . (٣) تامته وتيّمته إذا استعبدته بهواها .

(٤) هذه الطبيعة من كونها أنثى ، أي محل المهاجمة ، ولذا فلا أسمح في الدنيا من انعكاس هذه الطبيعة في المرأة وانقلابها هي مهاجمة للرجل .

(٥) من أسلحة الوحش غريزة الاحتراس فيه ، وكذلك هي من أسلحة المرأة . والتي تعرف كيف ينبغي أن يكون الحب ، تشحذ هذا السلاح وتجعله ذا حدين وتضاعف احتراسها ، أو كما قالت حبيبة هذه الرسائل في بعض رسائلها التي لم ننشرها « تمشي في كل خطوة من خطواتها بالمقادير والمقاييس » فتأمل ...

ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحبّ عليها . وأقولها لك ولا أرتاب في أنّ ألسنة المُحبّين سترمي بها في كلّ زمن مراميها عند كلّ حبيبة .

إنّها كلمة حنّانة ، فيها الحبُّ والذّكرى ، وفيها من نفسي ومن اللّغة ومنك . وهي غريبة بالغة الغرابة ؛ لأنّي صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان ، ففيها الفنُّ ؛ أي سرُّ الحسّ ؛ أي حروف التّصوير ؛ أي المجلس الّذي كان لنا أمس .

ويد المُصوِّر الملهم الحاذق لا تمرُّ على الصّورة بحركات الرّسم وخطوطه ، بلْ بحركات الفكر والقلب ، ورعشات اللّذّة والألم ، مُستفيضةً بالوحي الّذي من لغته الخطوط والأبعاد والظّلال والألوان . فما الرّسم إلا الوجه الممكن لاتّصال الإنسانيّ من الفكر بالإلهيّ في الأشياء ؛ لخلقها مرّة ثانية . وكذلك ليست (أمّا قبل) إلا الوجه المُمكن عندي لاتّصالي بأمس ، وانتقال قطعة كانت من وجودنا في وقت إلى وجودنا في كلّ وقت ، وخلق ما كان من قبل خلقًا تصويريا في كلمة .

قالوا (أما بعد) وسمّوها فصل الخطاب [1] ،

(١) للعلماء كلام كثير في معنى (أما بعد) ، وإعرابها وتوجيهها يبلغ من التحذلق أحيانًا أن يكون مضحكًا . و (أما) عند بعضهم اسم ، وعند بعضهم حرف ، وإذا قيل (وبعد) قالوا (و) عند بعضهم نائبة عن (أما) وهو المشهور . وعند بعضهم للاستئناف ، وعند آخرين للعطف و (أما) في (أما بعد) حرف تفصيل ، ولكنها في (أما قبل) حرف توصيل . ولا يجوز عندنا أن تستعمل (أما قبل) إلا في الحب أو البغض ، فهي خاصة بالتفات النفس للذة أو ألم ، كما لا يجوز عندنا أن يقال منها (وقبل) كما قالوا (وبعد) ؛ لأنها حينئذ لا تكون كلمة مخترعة ، ولا تدل على أكثر من الظرفية ، وإنما الاختراع وتمام الإشارة وتمام الظرف في التركيب الذي وضعناه ، فليذكر كذلك في اللغة ، وليكن وضعًا جديدًا من أوضاعها لخصوص ما يحب ويكره دون غيرهما . ويجوز أن تقول (أما قبلاً) بالنصب والتنوين ، و (أما قبلٌ) بالرفع والتنوين ، قياسيا على ما أجازه القراء في : أما بعد . ولكن ذلك في كلمتنا يكون ظريفًا إلى غاية الظرف بين الحبيبين .

وقال سيبويه في (أما بعد) : إن معناها (مهما يكن من شيء) ونقول نحن في (أما قبل) إن معناها (لقد كان ما كان ...) . =

وأنا أقول (أما قبل) وأسمّيها وصل الماضي ، وبها نجعل لما فاتنا مما نُحِبُّه أو نؤثره لسانًا ، ونُعيد إليه الصوت ، ونفتحُ له باب السّاعة الّتي نكون فيها ، ونخترع للمُحبّين لفظًا سحريا ، لم تستطع حواء بجنّة خلد أن توحيه لآدم ، وأوحيتِه أنتِ لي بمجلس حُبِّك في لحظة .

* * *

وأما قبل ... فبماذا أصف مكانًا للحبّ كأنّما مرّ به سرُّ الخلود ، فإذا الوقت فيه لا يُشبه نقصانًا من العمر ، بل زيادة عليه ، وكانت ، يا حبيبتي ، كلُّ دقيقة وثانيتها في مجلسك السّاحر ، كأنّما بعض الفكرة والحسّ لا بعض الزّمان والمكان ؟

بماذا أصف الوقت الغَضَّ الّذي كان ينبت لساعته رطبًا نديًّا ، كأنّما انبثق من قبلتين ؛ لأنّه مَرّ بهواء حجرتك الّتي أنت فيها ، ثم جعلني أعرف بعد أن فارقتك ولقيت النّاس أنّ الزّمن قد يكون من جدبه في أنفاس النّاس حطبًا يابسًا وهشيمًا ؟

وبماذا أصف ما لا يوصف ، ولا يوجد بيانه في اللّسان مع أنّه حيٌّ قائم في العين والضمير ؛ إذ أشعر بك في ذلك المجلس ، وكأنّ أكثر معانيك الإنسانية تتهاربُ من حوله لتُسْبغَ عليك من اللّطف معانِيَ ملائكيّةً سامية تتكلّم بوجهك وجسمك كلامًا هو شعر الحب ؟

وإذ أشعر من شدّة ما وجدت بك و وطأة حُبِّك على قلبي أنّه لو حلّ في كرسيِّك شخص من معانيك ، لما كان إلا ملكًا مُوتّرًا [2] في إحدى يديه قوسًا محنيّةً من صاعقة ، وفي يده الأخرى سنان [3] يمور كالشّعلة ، وهو يرمي ويطعن وما يرمي ويطعن إلا لحظًا وابتسامًا .

بل بماذا أصف ما لا يوصف إذا أردت بلاغتي

= واختلفوا في أول من قال : أما بعد ، فقيل إنه كعب بن لؤي ، وقيل بل قس بن ساعدة الخطيب ، وهو الأقرب . ولا اختلاف في أول من قال : أما قبل .

(٢) شَدّ وَتَرها . *

(٣) نَصْلُ الرمح . *

أن تكون على مقدارك وأنت تَلِجِينَ على قلبي من كلِّ جوارحي ، وأراك أمام عينيَّ تحوُّلاً مستمرًا في خواطري ومعانيَّ ، فلا أملك أن أفكِّر في شيء ثابت ، كأنَّ دلالَك قد سلبني حتّى قوّةَ التّحديد ، ويأبي لك أن يخضع لي منك شيء ، ولو بالمعنى للّفظِ في الذّاكرة ؟

* * *

وأما قبل ... فلقد كنت وما أحسُّ منك ، في جملة ، ما أرى إلا أن الجمال الرائع في معانيه الإنسانية إنما هو قدرة في بعض النساء على اختراع أمثلة أرضية من الجنة .

وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنّي بإزاء سِرٍّ وضعني في ساعة من غير الدُّنيا ، وحصرني فيك وحدك ، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا حركة إلا خُيِّل إليَّ أنّها لم تكن في امرأة من قبل ، حتّى ولا فيك أنت . وشتّى بعد ذلك فَرْقٌ بينهما فيك وفي كلِّ امرأة ؛ إذ لا تواسمك [1] في الحسن امرأة .

وهاجَمْتِني من يقظتي ، واقتحمتِ عليَّ من حَذَري ، وتركت بعض أفكاري من بعض كالمجروح يمشي على المقتول في معركة ، ورميتِني بما لا أجد له اسماً إلا أنّه زِلزال روحيٌّ عنيف كان في قلبي ، أو كأنَّ يداً امتدّت إلى قلبي فنالته فضغطَتْه .

وخلّيتِني وعينيك ، وخلّيتني وما كُتب عليَّ .

وضاعفتْك رهبتُك في نفسي فكثرت وكثرت ، وضاعفتِني أيضاً فزدت وزدت ، حتى إنَّ مع كلِّ قوةٍ فيَّ عادة فكرة حبِّك قُوّة أخرى .

واتّسعت روحي لتشملك ؛ فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي .

وكان نور الكهرباء وهو يشعُّ في وجهك يُغمغم أيضاً بكلمات من النّور لتلك الشُّعل الّتي اضطرمت في قلبي .

وملأت حياتي بك وعرفتني من ذلك أنّي كنت من قبل حيًّا من الأحياء الفارغة .

وأشعرتني أجمل السّعادة ، سعادةِ نسيان الوقت ، كأنّي في هُنَيْهَةٍ خلقتْ لي وحدي ، تجري بي وبك فوق المقادير .

ثم دفعت بي إلى ما وراء السّعادة ، إلى منطقة الأحلامِ الّتي لا يكاد يُصدِّق الإنسان فيها أنَّ الحقيقيَّ حقيقيٌّ .

ثم رفعتني إلى حسٍّ خالق ، فإذا أنا أرى كيف تخلقين فيَّ خَلْقَ معانيك ؛ لتعود معانيك فتخلقك كما أحبُّ وأهوى [2] ، وتُحقّق بجمالك فنَّ عواطفي وتنشئ بعواطفي غرامي .

* * *

وأما قبل ... فقد كنتِ موجودة معي ، ولكنّك ضائعة فيَّ ، إذ كُنّا من وراء الشّكل الإنساني كالعطر والنّسمة الطّائفة به .

وكنت أمامي ولكنّي أحتويك ، وما أدري كيف كنت مملوءاً بك وأنت أمامي ؟

وكُنّا نتكلّم ولكنَّ ألفاظنا تتعانقُ أمامنا ، ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا عيناي وعيناك .

وكنت أقطف الحياة بالتّنسُّمِ من هواء شفتيك ، وكأنَّ هذه الأنفاس هي فرع ممدود من شعاع الشّمس في روحي .

وتراءت النّفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السُّرور على جمالك بمعنًى كلون الزّهرة النّضرة ، هو عطرها للنّظر .

وقلت لي بجملتك : أنا ... ، وقلت لك بجملتي : وأنا ... !

* * *

(١) لا تضاهيك . *

(٢) أي تطابق معانيها صور الفن الكامنة في مزاجه وروحه ، فتنبه فيه هذه الصور ، فكأنها خلقتها ، ثم تعود الصور فتزين الحبيبة في خياله بأهوائه في الحقيقة لا بجمالها ، ولذلك قال شاعرنا (صاحب الرسائل) لحبيبته يوماً في رسالة لم ننشرها : ما أذللتني بأنك كما أنت ، بل بأنك كما أشتهي .

وأما قبل ... فقد رأيت عندك الفجر وأخذت منه نهاراً أحمله في روحي لا يظلم أبداً .

وخالطت عندك الرّبيع ، وانتزعت منه حديقة خالدة النّضرة في نفسي لا تذبل أبداً .

وجالست عندك الشّباب ، وترك في قلبي من لحظاته ما لا يهرم أبداً ! واجتمعت عندك بالحبّ ، وكشف لي عن مخلوقات الكون الشّعري الّذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبداً !

ورأيتك ، يا فجري ، وربيعي وشبابي ، وحبيّ ، فلن أنساك أبداً ... و أما قبل ...

* * *

جواب غريب

حدّثنا الصّديق قال : لما بعثت إليها برسالة (أما قبل) لم يكن جوابها غير أن أهدت إليّ كتاباً مطبوعاً ، ولم تزد على أن كتبت على غلافه هذه الكلمة : « أما بعد ، فإليك ، يا صديق ، جواب أما قبل، والسلام ! » (١)

قال صاحبنا: فقرأت الكتاب سطورَه وبين سطوره، وأعنتُ نفسي في تأويل كلّ عبارة وتعرّف سببها الذي أتخيّله ، وتبين موقعها الذي أتمثّله ، وجعلت أتوجّه بالكلام مستقيماً تارة وملتوياً ، ثم لا أجد الكلمة الّتي هي من جوارحي ، ولا الّتي يقف عندها قلبي ، ولا الّتي تقول لي أنا من لغتها ، ولا الأخرى الّتي عليها أثر عينيها . وكنت في كلّ ذلك أرى الكتاب كأنّه بين يدي ، يموت ويحيا من كثرة ما أقول ليست هذه بل هذه ، ولكنْ هذه . وجعلت لا أكاد آنس بكلمة حتّى أجد الوحشة في الّتي إلى جانبها ، وقدرت أنّ الجواب رُبمّا كان جملة قصيرة أو كلمة مُفْرَدة ، فصدعني ذلك تصديعاً ذا فنون ، وكأنّ مؤلّفة الكتب كانت تعلم من علم الغيب أنّها ستضرب بكتابها يوماً هذه الضّربات على قلب إنسان من النّاس ، فكانت في تأليف كلامها تصدُّ وتُعرض ، وفي ترتيب مقالاتها كأنها ترتب ثورةَ غيظ من سببها إلى نشأتها إلى اهتياجها إلى عنفوانها .

قال الصديق : ثم كأنّي كنت نائماً في ليل طويل ، وطلعت على وجهي الشّمس ضاحية ، فإذا أنا كنت أُجهد في غير طائل ، وإذا الجواب في آخر الكتاب صفحاتّ متلاحقة ، فضلاً عن صفحة ، فضلاً عن جملة ، فضلاً عن كلمة ؛ فكان هذا من ظرفها ومَكرها معاً . انتهى .

وهذا نصُّ الجواب (٢) :

« قد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم للضّحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض أحياناً .

« أنا منهم وإياك ، غير أنّ شبهك بهم يسوؤني ؛ لأنّي إنما أقلّدهم لأريك وجهاً منّي جديداً . وأنت ، أ تجاريهم بمثل قصدي أم الهزؤ والاستخفاف فيك طويّة وسجيّة ؟

« ولكنْ رغم انقباضي للنُّكتة منك والظَّرْف ؛ ورغم امتعاضي للتّغافل منك والحبور ، أراني وإياك على تفاهم صامت مُستديم يتخلّله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتّأثّر .

« بنظرك النّافذ الهادئ تذوّقت غبطة مَنْ له عين ترقبه وتهتمّ به ، فصرت ما ذكرتك إلا ارتدت نفسي بثوب فَضْفاض من الصّلاح والنُّبل والكرم ، متمنية أن أنثر الخير والسّعادة على جميع الخلائق .

* * *

« لي بك ثقة مُوثّقة ، وقلبي العتيُّ يفيض دموعاً. سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأماني ، وأبثّك شكوى أحزاني ، أنا التي تراني طروبة طيّارة ، وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفيّ ، وحنت رأسي منذ فجر أيامي ، أنا أسير محفوفة بجناحين متوّجَةً بأكاليل.

« وسأدعوك أبي وأمي ، مُتهيِّبة فيك سطوة الكبير

(١) ذكر الأستاذ محمد سعيد العريان في إحدى طبعات كتاب « أوراق الورد » أنه كتاب « ظلمات وأشعة » ، وهو للأديبة مي زيادة . *

(٢) لا تحسب هذه الرسالة من كتابتنا لأنها اقتباس ، ولولا السبب الظريف الذي جاءت به لاطّرحناها . على أن معانيها من أحسن ما تكتبه امرأة !

وتأثير الآمر . وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا الّتي أعلم أنّ هؤلاء ليسوا دوامًا بالمحبين . وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق . وسأطلعك على ضعفي ، واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيّل فيَّ قوة الأبطال ومناعة الصّناديد .

« وسأبيّن لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ، وسأطلب منك الرّأيَ والنّصيحة عند ارتباك فكري ، واشتباك السبل . وإذ أسيءُ التّصرُّف وأرتكب ذنبًا ، سأسير إليك متواضعة واجفة في انتظار التّعنيف والعقوبة . وقد أتعمّد الخطأ لأفوز بسخطك علي ؛ فأتوب على يدك وأمتثلَ لأمرك . وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدّمة لك عن أعمالي حسابًا ؛ لأحصل التحبيذ منك أو الاستنكار فأسعدَ في الحالين . سأوقفك على حقيقة ما ينسب إليَّ من آثام ، فتكونُ لي وحدك الحكَمَ المُنصف .

« وما يحسبه النّاس لي فضلاً وحسنات فسأبسطه أمامك ، فتُنبّهني إلى الغلط فيه والسّهو والنّقصان .

« ستُقوّمني وتسامحني وتُشجّعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين ؛ لأنّك تقرأ الحقيقة منقوشةً على لوح جناني .[١] كما أكذّبُ أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدّق سوى نظرتي فيك ؛ وهي أبرُّ شاهد . كل ذلك وأنت لا تعلم .[٢]

* * *

« سأستعيد ذكرك مُتكلّمًا في خلوتي ؛ لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المُجمّعة في فرد واحد . وسأتسمّعُ إلى جميع الأصوات ، عَلّي أعثر فيها على لهجة صوتك . وأشرّح جميع الأفكار وأمتدح الصّائب من الآراء ؛ ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك . وسأتبيّن في جميع الوجوه صور التّعبير والمعنى ؛ لأعلم كم هي شاحبة تافهة ؛ لأنّها ليست صورة تعبيرك ومعناك . وسأبتسم في المرآة ابتسامتك في حضورك . وسأتحوّل عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحوّل عن الآخرين إليك لأفكر فيك .

« سأتصورك عليلاً لأشفيك ، مصابًا لأعزيك ، مطرودًا مرذولاً لأكون لك وطنًا وأهلَ وطن ، سجينًا لأشهدك بأيّ تهوّر يجازف الإخلاص ، ثم أبصرك متفوّقًا فريدًا ؛ لأفاخر بك وأركن إليك .

« وأتخيّل ألفَ ألفِ مرةٍ كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلّبُ على عاريِّ الانفعال برزانة وشهامة ؛ لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل . وسأتخيّل ألفَ ألفِ مرّة إلى أيّ درجة تستطيع أنت أن تقسوَ ، وإلى أيّ درجة تستطيع أنت أن ترفق ؛ لأعرف إلى أيّ درجة تستطيع أنت أن تحبّ .

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشُكر لك بَخورًا ؛ لأنّك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون .

« أ تعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم ؟ أ تعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم ؟

* * *

« هناك في تلك الزّاوية الضّائقة ، حيث أقام القدر من دواهيه على صدري جدران الحديد ومعاقل الرّصاص . هناك قربَ حلول الشّفق ، برزتَ فجأة أمامي ، وأخذتَ تتكلّم عن معانٍ اختفت طيَّ المعاني ؛ وأشياء توارت في الأشياء ، وممكنات حجبت في المُستحيلات . وكانت يدك تتحرّك متريّثة متأنّية ، فبدت الإشارات سحريّة ساهية ، كأنّما هي انعكاس إشارات خفيّة على المرايا المُتبحّرة في مهجور القصور. وضاء الجوّ حولي بلألاء الشّرف والأبّهة والسّؤدد ، ومشى نظرك توًا إليّ يكتشف فيَّ جديد العوالم .

« نظرت فعلّمتني إعزاز الوجود ، وأدركتُ أنّي ما تخيّلت أجَلي عند حينه إلا لأتشدّد وأتحفّز لوثبة كبيرة ، كما يتنفّس المتسابقون منتعشين متجدّدين قبيل خطير الأشواط .

(١) الأمر الخفيّ ، وما ستّر ، والقلب . *

(٢) في هذا الأسلوب تظهر الروح النسائية المحبة الكاملة ؛ إذ تعتبر الحبيب وجودها كله كما ترى . وننبه القارئ إلى أننا لم نمس ألفاظ هذه الرسالة .

« فارتدّت الحوائط قليلاً قليلاً ، وتنحّت الحصون مُسفرة عن المروج والرِّياض ، واتّشحت الكائنات بنقابٍ وسيمٍ ، لا تنسجه سوى يد الوَجْدِ على زعم المُتيَّمين . ولكنْ ، أنّى جاء الوجد ؟

« أنت لم تكن تهتمُّ بي ، وأنا لم أكن أهتم بك . ولكن عَلامَ تُشَلُّ أوصال روحي للدُّنوِّ من مكانٍ حللْته ؟

« وعلامَ اضطرابك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالي عن بعد ؟

« أنت لم تكن تنظر إليَّ ، وأنا لم أكن أنظر إليك . ولكنْ لماذا كانت تتبلبل خواطري وأهرب عند قدومك ؟

« وأنت إن لم تستطع السكوت فلماذا يخرج صوتُك متقطّعًا مُتهدّجًا ، كأنّك تجاهد لتقهر تأثّرًا ما ؟

« أنت لم تكن تعبأ بوجودي ، وأنا لم أكن أعبأ بوجودك . ولكن لماذا كنت أخاشنك مُتعمِّلةً (١) الإعراضَ وعدم الانتباه ؟ لماذا وأنت مثال الوداعة والتّهذيب ، كنت تكفهرُّ لحضوري وتنقبض كمن يودّ أن يتجنّى عليَّ أو كمن يخشى أن يُرمى بالبشاشة والمُجاملَة ، ثم يعود نظرك في المرّة التّالية يستصفحني عن زلّته ؟ أنا الّتي كنت أغتفر لك وأتناسى قبل أن تُحدِّث نفسك بالاستغفار .

« أنت لم تكن تُفكّر فيَّ ، وأنا لم أكن أفكّر فيك ، ولكنْ لماذا كنت أحيد عن طريقك لئلا ألتقي بك ، وأنا الّتي أودُّ أن أبحث عنك في كلِّ مكان ؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك ، إذ تعلم أنّي أراقبها ؟ وتُنغِّم نبرات صوتك وتُنوّعها ، إذ تعلم أنّها واصلة إليَّ ؟

« أنت لم تكن لي شيئًا ، وأنا لم أكن لك شيئًا ، ولكنَّ وجوه القائمين حولك كنت أراها مُتألّقة بنورك ، وأنت كانت تدهشك كلُّ حركة منّي ، كأنّها لم يأتها قبلي إنسان .

(١) متكلّفة العمل . *

« أنت لم تكن لي شيئًا ، وأنا لم أكن لك شيئًا ، ولكنْ أ ليس أنَّ إرادتك حلّقت فوق خواطري كَيَدٍ آمرة ، فَتَفَتَّتْ لأجلها إلى الطّاعة والخضوع ؟ أ وَ ليس أنّكَ كنتَ تحاول إرضائي وإثارة إعجابي حتّى ارتفعْتَ بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجلّيْتَ بهيًّا عظيمًا ؟

« من أنت ؟ وماذا كنت ؟ أ كنت وحيًا من فيض شاعريّتي المكتظّة ، وطيفًا من أطياف شوقي وعذابي ؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي مرور السُّفُنِ في البحر إلى الشواطئ النّائية ؟

« لقد كنتَ وحيًا من فيض شاعريّتي المُكتظّة ، وكنت طيفًا من أطياف شوقي وعذابي . أنت حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتي مرور السُّفن في البحر إلى الشواطئ النّائية .

« يا مُهَذِّبي ! »

كذب مصور

يا حَبيبًا إذا حَنَنْتُ إلَيْهِ
حَنَّ في رِقَّتي عَلَيْهِ حَنيني (٢)
أنْتَ شَخْصانِ في الفُؤادِ فَشَخْصٌ
عِنْدَ ظَنّي ، وَآخَرٌ في يَقيني
واحِدٌ كَيْفَ شِئْتَ أنْتَ ، وَثانٍ
كَيْفَما شِئْتُهُ أنا وَظُنوني
لا بِهذا رَحِمْتَني أوْ بِهَذا
بَلْ بِعَقْلي عَذَّبْتَني وجُنوني !

* * *

أمَلي فيكَ كالخَيالِ عَلى المِرْ
آةِ كِذْبٌ مُصَوَّرٌ لِلعيُونِ

(٢) أي لحنينه في الرقة والوجد حنين أيضاً ، كأنه صوت عليه معاني البكاء .

لماذا .. لماذا ؟

وكتب إليها : (١)

قرأت كتابك وهو أسطر قليلة ، ولكنّها إمّا ساحرة أو مسحورة . فلقد خُيِّلَ إليَّ أنّها لا تنتهي ، إذ كنت فيها كأنّي أطارد معنًى فارًّا مذعوراً ، لا تمسكه الألفاظ ، فلا يبرح فوق السُّطور . إذا بلغ آخرها وثب إلى أوّلها ، فإذا كان في أوّلها عاد إلى آخرها ، دواليك (٢) بدءاً وعوداً ويتلجلج مثل ذلك في صدري ، فلا ينتهي حتى يُنتهى عنه .

تقولين يا حبيبتي : أي شيء عندك هو جديد فيَّ ؟ ولماذا لا تراني رؤيتك غيري ؟ وكيف بعدت في نظرك المسافة بين وجه امرأة و وجه امرأة أخرى ؟ وهل في وجوه النساء طرق متشعبة ، تذهب برجل يميناً وتلتوي بغيره شمالاً ، وتتوافى إلى غاية وتتفرّق عن غاية ؟ ثم ما الذي جعلني عندك لغزاً لا تفسير له ، وجعل النّساء من دوني واضحات مُفسَّرات كألفاظ الحياة الجارية في العادة والواقع ، المبذولة بمعانيها لمداولة الأخذ والعطاء ، على حين تزعم أني كالعبارة العقلية الّتي يُضرَب فيها الظّنُّ على وجوه شتّى ، وأنّي كما تقول : كلمة بسرّها ؟

لا أكاد أفهم ، يا صديقي ، معنى (كلمة بسرّها) ، ولا معنى قولكَ الذي قلته لي : إن الحب فيك أنت كتعتيق الخمر ؛ يُضيف إليها الوقتُ كلَّ يوم أسراراً وقوًى وخيالاً وعملاً وسطوة ورقّة ، وأراه في سواك كتعتيق الماء . (٣)

لماذا لماذا ؟ ليس عندي جواب كلامك ، وإنّما هو عندك ؛ إذ تَجاوَزَ قدر معرفتي ، يا صديقي ، فلماذا لماذا ؟

* * *

وأمّا قبل ، يا صديقتي ، فلا أزال أقول لك ما قلته : إن من النّساء في مقابلة أشعّة النُّفوس معاني ؛ فمعنًى كحائط ، ومعنًى كمرآة ، و واحدة تمسخُ ظلًّا طامساً ، أراني فيها تحت الشّعاع كأنّي ظلٌّ ممدود على التّراب ، والأخرى تَبَرّقُ وتتلألأ . وأراني فيها سويًّا كاملاً كأنّما خلقت في ضوئها .

ومن النّساء في مقابلة أهواء القلوب معانٍ ؛ فمعنًى كالقفر ، ومعنًى كالحديقة ، و واحدة يكون وجودها حول فراغها ، والأخرى وجودها القلب فهو حولها .

لماذا لماذا ؟ لأنَّ الإنسان غامض وتفسيره ليس فيه ، والعالم كذلك غامض وتفسيره ليس فيه ، ولابد من تفسيره وإلا كان كلُّ شيء عبثاً . إنَّ الوجود كلّه مفسر للطّفل تفسيراً صغيراً مَثَله في حبِّ أمّه وحنانها . وقد يكون ثدي الأمِّ مثالاً مُصغّراً من الكون كالمثال المُصغَّر من كرة الأرض في تعليم الجغرافيا ، بل الأم تفسير على قدر العقل لرحمة الألوهية نفسها .

وكذلك تبدأ الحياة من أوّل أنفاسها بالحبّ . ولعلّ أوّل قبلة على وجه الطّفل من أمّه ساعةَ ينفصل منها ، إنّما هي استقبال الحبّ لهذا الإنسان الجديد ومسه من شفتي أمّه بالطابع الّذي لو قرئ نقشه لكان هكذا : أنت وحدك .

فإذا كبر الوليد فلا بُدَّ من تغيير في أسلوب التّفسير حالاً بعد حال ، ولا يزال كذلك تغيّره الأشياء والحوادث حتّى يبلغ أسلوب الفلسفة العُليا إذا انتهى إلى العشق . وحينئذ تكون قبلة الحبيبة إنّما هي استقبال الحبّ لهذا الإنسان المُتجدِّد ومسّه من شفتي حبيبته بالطّابع الّذي لو قرئ نقشُه لكان هكذا (أنا وحدي) .

لذلك أنتِ ، يا حبيبتي ، الفلسفة العليا ، وأنت (كلمة بسرّها) ، أمّا غيرك من النّساء فجمالها عندي جمال الشّكل لا جمالُ السّرّ .

ومن ثمّ فهي مُفَسَّرة واضحة ؛ إذ لا يرى قلبي ما يعسر فهمه ولا ما يبحث عن تفسيره ولا ما يُفَسَّر لي

---

(١) من ظرفها أنه لقيها بعد هذه الرسالة ، فابتدرته ضاحكة وقالت : هل أحضرت معك لماذا ؟!

(٢) دواليك : أي مرة بعد مرة .

(٣) تعتيق الخمر هو إحياؤها وإصلاحها وقوتها ، وتعتيق الماء : إماتته وإفساده وضعفه .

شيئاً من المعاني .

ومن ذلك فليس الجمال المعشوق إلا انطواءَ الجميلِ على أسرار مبهمة ، وبذلك فكلُّ نظر في المرأة لا يرجع إلا بزيادة الوضوح فيما يعلو منها وما ينزل (١) ، على حين كلُّ ما في الحبيبة يزيد على تكرار النّظر غموضاً كأنّه شيء جديد ، ودائماً شيء جديد ، ويأبى جمالُها أن يُفسَّر ؛ إذ كان تفسير الشيء إنّما هو إضافته إلى ما فرغت النّفس منه . وبهذا وذاك وذلك فما دام الحبُّ قائماً ، فكلُّ ما في الحبيبة من تكوينها وأوضاع جسمها وشمائلها ومعانيها ، إنّما هو (مضاعفات) للمرض بها .

لماذا لماذا ؟ لأنَّ الحبَّ يريد أن يُثبت أنّه الحبُّ ، وأنّه تحقيق كلِّ إنسان روحانيته في غيره ؛ ليشعر بما هو أسمى من شعوره الإنساني ، وأنّه امتلاء حياة بحياة لتدرك معنى الكمال ، فلا يكون الحب إلا كمال الوجود الإنساني لشخص ما في وقت ما بمعنًى ما .

ومتى حقّقت الرّوح وجودها في روح محبوبة ، وامتلأت حياة بحياة ، صار لها عالمها الخاصُّ بها ، وعادت قوانين عالمنا هذا لغواً هناك ، وارتفع الحبُّ عن أن يكون صلة أو اعتباراً ـ كما يقع بين النّاس في الوجود الإنساني الذي يسع الخلق جميعاً ـ إلى أن يصير حقيقة وحياة يعملان بقوانينهما في الوجود القلبيِّ الّذي لا يسع إلا اثنين من الخلق .

* * *

إن جمالك ، أيّتها الحبيبة ، ليس جمالك كما تَظُنّين ، وإلا فقد شركتك الحسان فيه ، لكنّه بكلمة واحدة فَنُّ قَلْبي أنا .

والحياة الّتي تفيض عليك تملؤك وتملؤني معاً ، ولذلك فكلُّ معنًى منك له معنًى آخر فيَّ .

وأنا لا أعرف الحبَّ إلا أن أفيض من وراء حدودي ، فأنفذَ بروحي إلى جمالك ومعانيك ، وأنفذَ من معانيك وجمالك إلى كلِّ ما يتلقّاني في هذا العالم بجمال أو معنًى ، فكأنّك أنت السِّرُّ ، وكأنَّ جمال الوجود ليس شيئاً من ناحيته إلا معرفة أنَّ لكلِّ صورة معناها ، فإذا هو جاء من ناحيتك فلكلِّ صورة معناها ومعنًى زائد فيها كما أراها بنظر الحبِّ ، وبهذا يرجع العالم . وإنّه في نفسي عالمٌ تعبيرٍ فتتّسع به ذاتي ، وتتطور الإنسانية فيها ، وتدنو من أصلها الإلهيِّ ، وأكون قد أحببتُ والمعنى أنّي استضأت بالقبس الأزليِّ الّذي أضْرَمَ الشّمس والكواكب ، وأصبح دمي لا يجري ، بل يشتعل ويتوهّج ، وعاد قلبي لا ينبض ، بل يرجُّ ارتجاج الأفلاك في مداراتها .

وأكون بالحبِّ قد وجدتّك ، والمعنى أنّي وجدتُني ؛ إذ كانت نفسي تنقصها المرآة الّتي أراها بها رؤية قلب . وأكون قد عشقتّك والمعنى أنك أدخلت على قلبي حاسة تُشيع السُّكونَ كله فيَّ أو تشيعني أنا فيه ؛ حتى لا أفرح ولا أحزن إلا بمقدار يملأ الوجود ، حين بك وحدك أفرح وأحزن .

لماذا لماذا ؟ لأنَّ الحياة في هذه الأرض الثّقيلة المُستَوْخمة هي مثلها مادةٌ ، مهما تتنوع بَقِيَ لها أصلها الجافُّ الثّقيل ، كالشّجر : مهما يكن عمله من تحويل التُّراب فيلبسَ منه الأخضر والأبيض والأحمر وغيرها من الألوان ، ويُثْمر بالحلو والمرِّ ، فإنَّ جذوره على ذلك لا تعرف الأخضر ولا الأحمر وليس لها إلا شيئان ؛ ترابها وعفن الأرض . فلا بدَّ لهذا المنجم التُّرابي الإنساني مما يُغلي قيمته ويُشعره أنَّ فيه ألماساً أو ذهباً أو فِلْذَة من أفلاذ الجمال كائنةً ما كانت . وهنا عمل الحب ، وموضعه وسحره ؛ فهو يأتي بالمعشوق ويمكّن لمعانيه في القلب وببضع ابتسامات ولحظات وكلمات وحركات ، يكشف من قلب العاشق عن كنز عظيم من الأحلام الجميلة الّتي تخفق بها خَوافقُ السّماوات والأرض (٢) فإذا القطعة البشرية العاديّة من النّساء والرّجال قد تحوّلت بالحبِّ إلى قطعة فنيّة نادرة ، لا نظير لها في جمال

(١) أي في محاسنها ومقابحها ، فتزداد النظر ، يزيد ذلك وضوحاً في النساء إلا مع الحب ، لا يزيده إلا تأويلاً فهو كأن هناك معنى لا يستقر .

(٢) أي تملأ ما بين السماوات والأرض .

الكون ، وعلى ما يصف الواصف لا يبلغ ما هي أهلُه في رأي مُحبِّها ؛ إذ هي تخلق في نظره ضوءاً لها خاصّةً يرفعها فوق المادّة وفوق الحقيقة ، فكلُّ ما تبصره العين الإنسانية ، فإنّما تراه للفكر أو للعاطفة وحسب ، أمّا هذه فتراها عين مُحبّها للفكر والعاطفة ، ثُمّ للجمال والفنّ ، ثمّ للشّهوات والآمال. فلو أنّ جنّة الله تحيا على الأرض في امرأة ما عَدَتْها.

بل يرى المحبُّ كأنّ سرَّ الحياة أخذ يتجلّى له ويعمل أعماله على عينه ، فكلُّ شيء من الحبيب جديد مع أنّه هو هو من قبل ، وكلُّ ما يصدر منه ففيه روح وخلق ينبثق لساعته ؛ إذ كان سرُّ الحياة هو الّذي يتحرّك في كلّ هذا ويستعلن به للنّظر للعاشق.

ومن هذا تتغيّر الطّبيعة نفسها في أعين المُحبّين؛ إذ لا يكونون منها في الحقيقة – بعمل ذلك السّرّ– إلا بإزاء قصّةِ عشق مُمثّلة في الطّبيعة ، ولها مُمثّلون وممثّلات من الأنهار والأطيار والأشجار والأزهار والألوان والأصوات والنّجوم والشّمس والقمر ، وما في السماء وما في الأرض ، على حين ليس في الطّبيعة لغير المُحبّين إلا مناظرُها .

ألا إنّه بالحبّ وحده يحيا الإنسان أكثر من حياة إنسان ، وتكون الطّبيعة أكثر مما هي ، ويزيد كلُّ شيء في حسّ العاشق ؛ لأنّه هو زاد بحبيبه .

تسألينني لماذا لماذا ؟ لأنّك ، لأنّك ... يا حبيبتي.

* * *

كتاب لم تكتبه

وانقطعت كتبُها عنه مدّة ، فرأى أن يُجري في طريقه بعض الأساليب السّياسية الّتي تخلق الواقع متى شاءت كما تشاء ، فتوهم أنّها كتبت إليه كما يجب . ثم ردّ على رسالتها :

وصل كتابك أسرع مما قدرت فعلمتُ أنّ قلبك أشفقَ عليّ وخشيَ أن أتألّم إذا انتظرت . وتناولته فأحسَسْتُه فيّاضاً بمعانيه ؛ إذ كان في يدي كأنّه لهفةُ قلب مجسّمة ، حتّى ما شككت أنّ كُلّ كلماته كانت خفقات .

وفضَضْتُه فطالعتني منه صحيفةٌ تضطرب بأشواقها ، كأنّها رجّة صدر عاشق أمْسِكَتْ في زفراتها وطُوِيَتْ وخُتِمَ عليها وجُعِلَتْ رسالة . ونظرتُه فإذا هو ترجمةُ شخصك في حسنه وجماله وظَرفه ، وابتدرَتْني منه جملةٌ باسمة أمطرتها لثماً ؛ إذ خيّل إليّ أنّها ترجمة عن شفتيك .

وقرأته بفكري كما أقرأ نظراتك وابتساماتك ورجفات الدّلال على جسمك حين تتناثرُ أفكاري عليه ؛ فإذا في موقع كلّ فكر على هذا الجسم الفاتن خطرةُ دلال أو اختلاجُ صبابة [1] أو انثناءة تيهٍ أو هزّة نشوة ، وإذا معاني الجسم تجاوب معانيَ الفكر ، وإذا روحُ الجمال ترتعش بك من لمسات الحبّ .

وفهمته كما أفهم حسنك الّذي جعله الحبُّ من أسرار قلبي ، فجعله القلبُ من أسرار روحي ، فجعلتْهُ روحي من أسرار الكون ، فأظهرَه الكون كأنّه ومضة من النّور القدسيّ أحبَّت أن ترى رؤية وَلَهٍ وعبادة ، فكانُ سطوعها فيك أنت ، وكان الخشوع لها في قلبي أنا ، وذهبت بي كلّ مذهب ، تقديساً وخضوعاً ومحبّة .

و وقف الهوى بي عند قولك ... وهو كلام كما أرهفَتْه لحاظك تفتحت له جراح قلبي وانصبّ يُكلّمها فتجاوبه ألماً ودماً .

وعند قولك ... وهو كلام كما رفّت عليه أنفاسك ، احترّ إليه صدري الهائم ، فأقبل يتخطّفه يتنفّسه يقطف منه الحياة .

وعند قولك ... وهو كلام كما رنّت فيه ضحكاتك طربت له روحي فاهتزت له هِزّة ، حسبتها تناولت الكون أو تناولها .

وعند قولك ... وهو كلام كما غرّدت فيه

(١) اضطراب ولوعة الحبّ الحارّ . *

نغماتك انسرقت له حواسي [١] ، فكدت أظنُّ أنَّ فرحة من الخلد لم تجد على الأرض إلا هذه النَّغمة من صوتك تحملها دون أن يتغيَّر مدار تأثيرها السَّماوي .

ثمَّ انتهيت ، يا حبيبتي ، إلى قولك ... وهو كلام لم أجِدْك فيه [٢] كأنَّه كان بدء اليقظة من حلم الكتابة إلى مُحبِّك ، وأول تباشير البياض الَّذي ينتهي عنده سواد الأسطر .

وعجبت ، يا حبيبتي ، من قولك ... وهو كلام إنْ كانت ألفاظه وُجِدَتْ فمعانيه غير موجودة ، وإنْ كانت في هذه الأرض من له روح تُفْتَحُ وتُغْلَقُ [٣] فهو أنت ، ولقد جعلت كلمتك الأخيرة كأنها باب أقفِلَ في وجهي .

ولكنْ لمَّا بلغتُ اسمك ، يا حبيبتي ، ارتدَّت عنه ألحاظي مُكْرَهة من قوَّة في نفسي . وبهذه القوَّة الَّتي أغمضَتْ عينيَّ قرأت اسمك بشفتيَّ .

ثم لم أملك نفسي أن قبَّلْتُ الكتاب ألفاً وألفاً ، حتى خُيِّلَ إليَّ أنِّي أكلته وشربته ، ولمَّا نظرت فلم أر في يدي شيئاً تيقَّنْتُ أنِّي أكلتُه وشربته ... وأطيَب ما كان فَنِيَ . [٤]

* * *

يا ويحاً لي ولخيالك ! إنَّما أنا معه كالسِّياسيِّ إذ يُقبِّل سياسيا بعد معاهدة بينهما ، فيمسُّه بشفته مسَّة ليس لها إلا طعم ورقة مكتوبة .

و آه كم تتمثَّلين لي وكأنَّك لا تزالين في ذلك الموقف ، تحاولين بدلالك وألفاظك أن تَدْخلي إلى نفسي من غير أن تدخلي ، وأراك ــ وما أراك إلا روحي الخارجةَ عنِّي ــ فأحاولُ بأساليب الحبِّ الكثيرة أن أردَّها إليَّ وهي لا بدَّ لها أن تبقى خارجاً ؛ لأنَّها جسم آخر . وأنا لا بدَّ لي أن تكون فيَّ ؛ لأنها روحي الأخرى .

خَلَد على قلبي ذلك الموقف منكِ ، فلا بدَّ لك ولا بد لي ، وبينهما لا بدَّ ثالثة ، لا بد من تألمي وعذابي !

* * *

قالت وقلت

هذه رسالة تجمع من كلامها وكلامه ، مما كان يتساقط به الحديث بينهما ، وقد دوَّنها هو في مجالس شتى ، وكلُّ فصل من هذه الفصول كان يصلح أن تبنى عليه رسالة طالت أو قصرت .

* * *

في بعض القصص أنَّ لإحدى الغابات ملكاً يحكمها ، وكان من شريعتها أنْ لا يَتبَوَّأ عرشها إلا مَنْ يذبح الجالس عليه ؛ فالملك فيها أبداً يقظانُ مُنتبه ، عيناه من سلاحه ، ولا يزال السَّيْف في يده مُصْلَتاً . ولو أنَّ في كلِّ إصبع من أصابعه سيفاً قاطعاً ، ثم غفلت عيناه غفلة ؛ لما نفعته عَشَرَةُ أسياف ، ولكانت إغماضته الموتَ لا محالةَ ، ومع هذا الشَّقاء الحيِّ فإنَّه يأتي إليه من يذبحه ليجلس في موضعه ؛ أي ليتهيأ للذبح .

أما والله إنَّ عاشق بعض النِّساء لكالجالس على هذا العرش ، كلُّ لذته من بلائه أنَّه لم يذبح بعد .

* * *

الموت ينتزع الرّوح ، والهجر يترك الرّوح كأنَّها منتزعة ، فهو موت لا ينتهي .

أ يكون الحبُّ في الحقيقة هو قدرة شخص جميل على تزوير نفسه وتزوير الكون في نظر شخص آخر ؟

* * *

---

(١) أي استرخت ذهولاً ، ويقال : انسرقت مفاصله ؛ إذا ضعفت ، فاستعملناها كما ترى . (٢) يريد أنه كالكلام المألوف ، ليس عليه أثر حبيبة ولا محبة ، كأن تذكر حادثة ، أو تسأل عن أمر . (٣) الظاهر ... أنها اتهمته في آخر كتابها ... بالسلو بعد الحب ، ثم أظهرت غضبها من ذلك في كلمة هجر . (٤) أي انتهى عند ألذ ما فيه .

قالت له : لم أعدك شيئًا .

قال : نعم لم تعديني بلسانك ، ولكن وعدت بما فيك من الشّفقة ما ترين فيّ من الاضطرار .

* * *

« لو أنّي سميتُ النّهار ليلاً واللّيْل نهاراً ، لانتقل السّواد والبياض إلى اللّفظ بسهولة ، ثم لا يكون ليلَ الله ولا نهارَ الله ، فاجعلي لي منك دقيقة واحدة واقعة على زمنها ، وخذي الثّلاثمائة والسّتين يوماً كلاميًّا ، دقيقة إنجاز ولا ولا سنة مواعيد .

* * *

« أ أنت تخطئين ؟ أما إنّك لو تكلّمت خطأ صرفًا ، لكان وجهك وحده برهانًا وحجة .

* * *

« أ لم أرَ مثل هذا الفم الجميل : إذا افترّ عن ابتسامة ، وإذا انطبق انطبق على هيئة ابتسامة ، هو دائماً إشارة أو تعبير ، هو دائماً تعبير أو إشارة .

* * *

عندما أراك لا أتمالك أن أطرب وأهتزّ ، أ فهناك ألحان من جمالك تنطلق فيّ ؟

* * *

قالت له : كلماتي لا تتم بمعانيها ، ولكن بفهمك أنت لمعانيها !

* * *

وقالت : إنّ ساعة كتابتي إليك هي ساعة من الحياة معك ، وإنْ كنّا على بعد .

* * *

ليست المسكرات ولا المُخدّرات هي ما يعدونه من كذا وكذا ، بل ومنها النّظر إلى بعض الوجوه ، والفكر في بعض النّاس .

إنّك تتكلّمين ولا تعرفين أنّ وجهك يُنقّح فيّ معانيَ كلامك .

* * *

في الحبّ درجة من درجات الملائكة ، يرتفع إليها من قدر أن ينسى من حبيبه المادّة الإنسانية وهي مالئةٌ عينيه وحواسّه . آه ما أشقّ أن يتحوّل العاشقُ في حُبّه إلى شريعة ، ولكن ما ألذّ أن يتحوّلَ !

* * *

من العجيب ألا يكون المحزن في الحبّ إلا وسيلة لزيادة جمال الحبيب باهتياج مُحبّه والتياعه ، فهموم الغرام أشبه (بعمليات) جراحيّة في العواطف لترقيقها وإرهافها ، كيما تُرى أحسن مما كانت تُرى ، وتحسُّ أكثر مما كانت تحسُّ .

* * *

« هل الطّبيعة الإنسانية بتأليفها بين حبيبين تضرب المثل على إمكان هذا الائتلاف بين الجميع؟ أم على استحالة إمكان التّآلف الصّحيح إلا بين اثنين فقط من الجميع ؟

* * *

العقل يدلُّ على نفسه بالنّظر في الكون ، ويُعبّر عن ذلك بأفكاره . والقلب يدلُّ على نفسه بالنّظر في الحبيب ويُعبّر عن ذلك بأشواقه .

* * *

كلُّ كلمة فيها معناها ، وحين تكون الكلمة منك ، يكون فيها من معناها ومنك .

* * *

قالت : أنا في نفسي كما أنا ، ولكنّي في حُبّكَ كما أرى ، فأنا أكتشف نفسي الجميلة فيك ، وبهذا أجد حُبّك من عظمتي وسروري .

* * *

إنَّ مواعيدَكِ من الكلام الّذي يموت دائماً بمرض النِّسيان .

* * *

قالت : ينصح علماء القوّة والرّياضة للرّجل القويِّ ألا يغضب ؛ فيذهبَ على الأقل نصفُ قوّته ، وأنا أنصح لك أن تغضب ؛ فتزيد قوتك على الأقل بقدر نصفها .

* * *

أساسُ الحبِّ شيء خاصٌ لا يُعرف إلا بالشّخص الّذي هو فيه ، وحينئذٍ فليس في الوجودِ كُلّه مثل الشّخص الّذي هو فيه .

* * *

كمال لذّةِ الحبِّ حين تتآخى الإرادةُ مع الإرادة .. لا حين تتنافر أو تتعادى .

* * *

ليس في الحبِّ مسافات ؛ فالمتحابّان مُجتمعان دائماً في فكرة ، وإن كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب .

* * *

قالت له : إذا كنت تريدني سماء تستوحيها وتستنزل منها ملائكة معانيك ، فلماذا تُنكِرُ عليَّ أن يكون لي مع أنواري سحابٌ وظلمات ورعدٌ وبرق ؟

* * *

من تألّه الجمال أنَّ الحبيبة لا تُريد الحقائق من الطّبيعة إليها ، بل من الطّبيعة إلى مُحبّها أوّلُ ، ثم من الحبِّ إليها بعدُ . تريد في حقائق الكون شعور تقديس الله وشعوراً آخر بتقديسها هي أيضاً . الحبيب دولة قوية والمحبُّ دولة ضعيفة : ولهذا لا يكون معه أبداً إلا كالمستعمرة .

* * *

الغضبى

تَحَيَّرَ قَلْبي وَهْوَ مُمْتَلِئٌ بِها
كَما يَمْلأُ المِرْآةَ ناظِرُها ظِلّا
بِأيِّ مَكانٍ فيهِ قَدْ حَلَّ شَخْصُها
وَأيِّ مَكانٍ شَخْصُها فيهِ ما حَلّا ؟

لقد غضبت وكر هجرها على وصلها ، وانشقَّ الزمن زمنين ، أحدهما مثلها غضبانُ مُبتعد ، وكأنّما كان لها خاصّةً ،فلمّا ذهبت لحق بها .

إنّه الحبُّ يخلق بها خلقاً فيَّ وبزمنها خلقاً في زمني ؛ ليشعرنا بهذا التّغيير الخالق المُتصرِّف أنّنا لا نتحابُّ في ذات نفسينا ، بل في الجلال الأعظم الّذي منه نفسها ونفسي ، فإذا تغاضَبْنا ، وقَسَمَتْنا أهواؤنا رجعنا قطعتين من المادّة ليس في كلتيهما إلا قانون الثّقل ، و زادت عواطفنا وزناً جديداً من الغيظ.

أين زمنها ؟ لقد فرغ وَقتي منه حتّى يُخيَّل إليَّ أنَّ اليوم الّذي هو أربعٌ وعشرون ساعة لا يكمل لي بعدِّها عشرين وأربعاً . وأنظر في ساعتي فإذا كانت السّابعةَ مساءً والتي إليها والتّاسعةَ الّتي معهما (١) شَبَهَ لي وغَمٌّ عليَّ ، وحسبت أنَّ في هذه السّاعة منطقة خارجة عن الزّمن تخطّاها العقرب ، ولا يشير إليها .

* * *

وإنّي لأحملُ في غضبها من الهمِّ ما لا أُرْهَقُ بأوجَعَ منه لو عاداني كلُّ مَنْ معي ، وجفاني كلُّ ما حولي ، ولكانت والله قد هانت لو أنّها غَضْبَةُ عدوٍّ ، ولكنّها غَضْبَةُ حبيب هو بحبّه فيها .

يا ظلامَ القمر كيف تكون ظلاماً ، وقد تعلقت بمخلوقِ النّور ؟ (٢)

* * *

---

(١) كانت ساعات اللقاء بينهما على ما يظهر .

(٢) أي تعلقت بالقمر .

كلا كلا ! لقد غضبت ؛ لتزيد في أسرار حُبِّها سرَّ الماضي ، ولتمرَّ على أيامها اللَّيِّنة بمسحة من القسوة ، تخلق فيها إلى جمال الحقيقة جمال الذِّكرى .

وكانت ... وتريد أن تأتي في الحبِّ من وراء ما كانت فذهبت ، وهذا في فلسفتها هو المجيء من وراء ما كان . فما غضبت إلا لتعطيني الرِّضا من بعد .

الفرح بالجمال لذَّة تقتل نفسها ، ولا يمسك على الجمال روح النِّعمة خالدةً في القلب إلا الحزن به أحياناً ؛ كيوم الغيم ، ترى في سمائه قطعاً كأنَّها الهاربة من اللَّيل ، تختبئ الشَّمس فيها ، ثُمَّ تسطع من بَعْدُ سطوعاً يخيِّل إليك أنَّها ما توارت في خيمة الغمائم إلا لتنضو [1] غلائلها الشَّفَّافة وتتعرَّى .

يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنَّا ، إذ كان بذلُهُ يُفني منه على قدر ما يعطي ، فإذا هو امتنع وعَزَّ مناله كان جمالاً في نفسه بمعانيه وجمالاً فينا ، بالمعاني الَّتي هي فينا . وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث ، هي في ألم الرَّغبة المستعرة أو ألم الغيظ المجنون ، ومتى خَلَقَ لنا الجمالُ من قِصَر الزَّمن طولَ الزَّمن ، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنِّيه ، ومن الحبيبة الرَّاضية حبيبة هاجرة ، ومن الحاضرة غائبة ، فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سرِّه الإلهي .

* * *

كلا كلا ! لقد غضبت لأحبَّها صورةً مُبهمةً ليس فيها إنسانة ، بل حبُّ إنسانة ، وانتزعت نفسها منِّي بعد أن انتزعت لنفسي كلَّ معانيها الَّتي جعلتها ما هي . [2]

ألا ، يا ثمرة ، أفرغت في قلبي عصيرها الحلو ! لئن بقيتِ ثمرة في لغة نفسك فإنك القشرة في لغتي أنا .

* * *

إنَّه ليس معي إلا ظلالها ، ولكنَّها ظلال حيَّة ، تروح وتجيء في ذاكرتي ، وكلُّ ما كان ومضى هو في هذه الظِّلال الحَيَّة كائنٌ لا يفنى . وكما يرى الشَّاعر الملهم كلام الطَّبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فاتن مُترجمة بجملتها إلى لغة فكري .

كان لها في نفسي مظهر الجمال ، ومعه حماقة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ، ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرُّها.

وما أريد من الحبِّ إلا الفنَّ ، فإن جاء من الهجر فنٌّ فهو الحب .

* * *

كُلَّما ابتعدت في صَدِّها خطوتين رجع إليَّ صوابي خطوة .

* * *

كلا كلا ! فلا صوابَ مع مادَّة الفتنة ، وهل يَفْتَتِنُ الإنسان إلا حين يظهر مجنوناً بأسمى ما فيه من العقل ؟

أنا عاشق أضمُّ الطَّبيعة في مهجتي مُصغَّرة ، فأنا الأكبر . إنَّ هذا لجنون ، ولكنَّه عقل . وأنا عاشقٌ أفسِّر الطَّبيعة في هذه الحبيبة الجميلة فهي الأجمل . إنَّ هذا لعقلٌ ولكنَّه جنون !

وقد كانت لهذه الحبيبة نظرة معنويَّة ، هي مفتاحها في قلبي . وها هي ذي غضبى نافرة لا أُراها ولا تراني . ولكنَّ المفتاح لا يزال يدور في قفله . أ جنونٌ هذا أم عقل ؟

وهي الحبيبة ولكنَّها كالعَدُوِّ : صورة من أقسى ما في الطَّبيعة جاءت تُمضي فيَّ قانوناً من عقوباتها . أ عقل هذا أم جنون ؟

لن يقال في الَّذي تحمله عاصفة وتطير به : إنَّه مسافر في طيارة ... ولا في الَّذي رأى صورة دينار في مرآة ، فحطم المرآة ليأخذ الدينار : إنَّه وجد شيئاً .

---

(١) لتنزع . *

(٢) انه لا يحبها إلا إذا انطبعت معانيها فيه ، وأصبحت كالأجزاء من حياته وفكره ، فإذا هي تركته بعد ذلك ، فلن تنزع منه شيئاً مما جعلها عنده هي هي .

ولكنْ يُقالُ في الّذي دلّهه الجمال وشفّه الحبُّ (١) : إنّه في نعيم الهوى .

وفي المحبّ الّذي يحطم قلبه على امرأة إنّه وَجْدُ الحُبِّ .

* * *

كلا كلا يا قلبي ! إنّ الغضب يجمع جنون الحبّ من شخصين في شخص واحد : هأنذا يحوطني الآن هدوء الأشياء ، وابتسام الجمال الأزلي المفترّ عن نور الدنيا . أنا في كل ذلك ولست في هدأة ولا ابتسامة غريق في البحر ولا يبتلُّ .

لعمري لو غضب قاع الأقيانوس غضبة حب لانتفخ به الغيظ حتى يعلو فوق الماء جزيرة جافة فلا يتندى ولا يرقُّ ولا يعود إلا خلقة غيظ . (٢)

فليكن ما طاوع مني هو الذي يأبى ، وما أحبّ هو الذي يُبغض . ولثأت على الحب غابرةُ الدهر وآخرة الليالي (٣) ولو ترامى بها غضبها إلى قتلي لوعة وكمداً .

لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ، ولن أطلب إلا في عصيان الحب . أريدها غضبى ، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي ، ودع جرحي يترشش دماً ، فهذه لعمري قوة الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك المخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقوَ أول شيء على الألم .

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها . تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث ولكنّ له في القلبين عملَ كلام طويل .

أما والله ما أدري ، أ حاجتي في حبها كانت إلى عزيمة أم إلى صبر أم نسيان أم خضوع ؟

يا رواجف صدري ! كل ذلك ليست منه فائدة ترجى ، فإن حاجتي ألا أكون عرفتها من قبل .

ويا قلبي ، ما هي المعجزة الّتي يُمكن أن تمنع الأمر الّذي وقع بعدما وقع ؟

* * *

كلا كلا ! ما ذهب الحب ، وإن الذي يكذّب حبه بإظهار غيظه من الحبيب ليكذّبه الغيظ ، وإذا انتهى أمر من الأمر وبقي في نفسك حيًّا فما انتهى .

كلا كلا ! ما استوفيتك يا رسالة الغضب ، فما أكثرك عندي فنونًا وما أوسعك معاني في نفسي !

كلا كلا ! فلو أنّي كتبتك ملء ليل مظلم طال على محموم ، ثم اطلعَتْ هي عليكِ فأغضبتِها ثم جاءت ... جاءت تسألني ... تسألني : أ أنت كتبت هذه ؟

آه ، تالله إن أجبتُها إلا « كلا كلا ! » .

ولست أطيل في زينتك يا رسالة الغضب ، فإنّك كالنّعش ؛ لا يزيّنه قوم إلا ولهم ميّت ! كلا كلا !

* * *

هدية شتم

ونشرتْ مرة في بعض المجلات الفَرَنسية مقالاً فهم منه القُرّاء كلمات نبيلة ، وفهم هو منه كلمات شتْم فكتب هذه الرسالة :

في الحب يتكلّم قلب المرأة العاشقة بمنطق فصيح من أعمالها ، فأعمالها عندها على طريق اللّغة والتّعبير قبل أن تكون لعلّة أخرى من العلل ، فإذا أنت حملتها على ظاهرها ، وكنت المقصود بها فقد جُزْتَ بها عن طريقها ، وأخطأتَ سحرها وجمالها ، بل تكون قد أهنتها وابتذلت المعنى السّامي المخبوء لك فيها ليكون لك وحدك .

قد تشتُمك من تحبُّها لأنّها تحبُّك وتُعزُّك ، ويأبى لها شعورها بكبرياء الحبّ إلا أن تَنْبِذَ لك بلفظة

(١) التدليه : ذهاب العقل من الهوى ، وشفه الحب : إذ لذع قلبه . (٢) أي ينقلب قفراً متحجراً كأنه خلقة غيظ وهيئة عناد . (٣) كناية عن انتهائه وذهابه في الزمن .

متكبِّرة ، وهي قد وثقت أنّها تخصُّك منها بمعنًى ما . وقد تُعْرِضُ عنك من دون الباقين ؛ لأنّك وحدك الآمر النّاهي المُتسلّط عليها ، فهي تخصك من إعراضها بهدية . وقد تعالنك بأشدِّ البغض ، وتدع قلبك يُشبِّهها لك مُراغِمَةً [1] جافية مُتعسِّرة غليظة الكبد ، لا من بغضة ولا جفاء ولا معاسرة ولا غِلظة ، بل من أنّك أذللتها بهواك ، فكلُّ ما تشتمك به إنمّا تتأوّه فيه . والكلمة التي تفصل عن المرأة في مثل هذه الحالة من سرِّها المجروح : لا تُراد لتكشف عن معنًى يكون فيها ، بل لتُغطِّيَ على معنًى يكون في غيرها .

وهي كلمة وتاريخ وشعور في وقت معاً ، وهي كالموجة : تحتها التيّار وفوقها الرّيح ، وشرحها وأسبابها في هذين لا فيها ، تشتمك لتقول لك إنّي أعلم أنّي أحبك ، فإيّاك أنْ تظنَّ أنّي أحبُّك .

* * *

وما أشبهها بالشّمس ، وهذه المَسبَّة منها كالغيم ، أثقلَه الماءُ فإذا الشّعاع على قطراته رأيت فَنَّ الشّمس لا فنَّ الغيم ، وإذا قوس قزح في سبعة ألوان جميلة زاهية يذوب بعضها في بعض تبراً ولجيناً وجواهر شتّى .

وكلمة الشّتم من العدوِّ تنزل من القلب منزلة الدُّمّل يأكل موضعَه ويتّسع ليأكل مواضع أخرى ، ولكنّها من الحبيبة تُضاف إلى دواعيها [2] في القلب، فإذا هي كالورقة الجافّةِ في شجرة خضراء ذوت هي ومنبتُها حَيٌّ فما أسرع ما ترفُّ في مكانها ورقةٌ أخرى أزهى وأنضر .

* * *

الآن أذكر قولها إذ سألتني مرّة : هل ترى قيمة الدّينار في يد ملك أو أمير أكثر منها في يد مفلوك [3] أو صعلوك ؟ وأذكر جوابي إذ أجبتها :

إنّ الدّينار في نفسه مَلك يحكم الملوك والفقراء ، فهذا من رعيته ، وهذا من رعيته ، وهو فوقهما فلا يعلو به من يعلو ، ولا ينزل به من ينزل . وكذلك دينارُ شَتمها : هو على كلِّ حال في يدي كما هو في يدها ، ولو أنّها جعلت قيمته في يوم غضبها مئة لعنة لما منعني ذلك أن أصرفه منها هي في يوم رضاها مئة قبلة .

* * *

أ صحيح أنّ شتمها كلمةُ حبٍّ محترقة ، وأنّها عبارة ذات تأويل ، قبل أن تكون عملاً ذا صراحة ، وأنّها من باب قول المرأة لمن تُحبُّه : ابعد عنّي ! إيّاك أن تُصدِّقني وتبتعد ؟

ذلك صحيح لا ريب فيه ، ولقد قالت لي مرة في أمر سبق إلى قلبي منه شيء فعاتبتها : إنها مسألة لا تُهِمّ .

فقلت لها : نعم لا تهمُّ ، ولكنّها تدلُّ .

فقالت : نعم تدلُّ ، ولكنْ معها الحبُّ فلا تهمُّ ولا تدلُّ .

عندها أنّ الحبَّ يُغيِّر كلَّ شيء ، وقد فهمنا من قبل أنّه يُغيِّرُ المرأة المحبوبة في نظر مُحبِّها ؛ لأنّها زائدةٌ على النّساء رغباتِهِ وأوهامَهُ . ويغيِّر الرجلَ العاشقَ في نظر حبيبته ؛ إذ هو زائد على النّاس إمّا برغباتها وإمّا بحمقه وجنونه وغفلته . ويغيِّر الطّبيعةَ في نظر العاشق ؛ لأنّها مع الحبِّ لا تُرى إلا زائدةً لونَ النّفس . والآن فهمنا أنّه يُغيِّر الكلام أيضاً ، إذا صار الكلام زائداً تفسيرَ الحبيبة المُتكلّمة ، وانضافَ إلى ظاهره مُكتّمُها .

ذلك صحيح ؛ لأنَّ هذه الشّاعرة الفيلسوفة تُشعِرُني في كلمتها الجافية بأثر من الرِّقّة والظّرف يدلُّ على أنّ قلبها مرَّ في بعض مواضعَ من مقالتها ، وخفق على موضع وأنَّ في موضع .

ذلك صحيح بلا ريب ، والحبُّ كالحرية : هذه تأتي أهلها بالثّورة المُدمِّرة ، وفيها أسباب من الحياة

(١) مُعادِيَة. * (٢) الأسباب. * (٣) المفلوك: الفقير المدقع ، والفلاكة: الفقر ، ومن الكتب كتاب « الفلاكة والمفلوكون » وقد طبع في مصر. وللكلمة أصل في الاستعمال لا محل لذكره هنا.

لها ما بعدها ، وذاك يُهدي الشّتم وفيه أسباب من الدّلال ولها ما بعدها .

يا صَباحاً أهْدى الصَّبَابَةَ دَكْنا
ءَ ، فَغَطّى الضّيَاءَ مِنْكَ [1] ظِلالُكْ
أنْتَ أهْدَيْتَها ، وأنْتَ أذَبْتَ الطّـ
ـلَّ مِنْها ، فَتَمَّ مِنْها جَمالُكْ

* * *

متى يا حبيب القلب ؟

ألا يا نَسيمَ الفَجْرِ سَلِّمْ عَلى فَجْري
فَقَدْ غابَ في اللَّيْلِ الطَّويلِ مِنَ الهَجْرِ
تُضيءُ اللّياليَ بِالنُّجوم وَبَدْرِها
وَلَيْلُ الجَفا مِنْ غَيْرِ نَجْمٍ وَلا بَدْرِ
وَقَفْتُ وَماذا أسْتَطيعُ بِوقْفَتي
حَسيراً ، وَأقْدارُ الغَرامِ بِنا تَجْري ؟
أدورُ بِعَيْني نَحْوَ كُلِّ شُعاعَةٍ
عَلى الأفْقِ في نَجْمٍ ، أوِ الأرْضِ في زَهْرِ
فيا وَيْحَ قَلْبي ! ما لَهُ حَنَّ كُلَّما
تَراءى لَهُ شِبْهُ ابْتِسامٍ عَلى ثَغْرِ ؟
مَتى يا حَبيبَ القَلْبِ هَجْرُكَ يَنْتَهي
وَمِنْ أوّلِ الأيّامِ فيهِ انْتَهى (صَبْري) [2] ؟

* * *

ألا يا نَسيمَ الفَجْرِ إنْ جُزْتَ في الرُّبى
خَفيًّا كَتَسْليمِ الحَبيبَةِ في سِرِّ ...
وَقامَتْ عَذاراها لِلُقْياكَ تَنْثَني
دَلالاً وَتيهاً في غَلائِلِها الخُضْرِ ...
وَفَتَّحَ نُوّارِ الغُصونِ جُفونَهُ
وَفيها البَقايا النّاعِساتُ مِنَ السِّحْرِ ...
وَأصْبَحْتَ كالسَّلْوى تُرَفْرِفُ نازِلاً
سَلاماً عَلى قَلْبِ الغَديرِ أوِ النَّهْرِ ...
... فَجِئْني بِسِرِّ الزَّهْرِ وَالماءِ والنَّدى
لَعَلّي بِها أطْفي جَوى الحُبِّ في صَدْري

* * *

صلاة في المحراب الأخضر
شجراتي

وَلَمّا غضبت ويبس ما بينهما ، ضاقَ بهجرها ، فانصرف إلى شجرات كان يخلو إلى نفسه في ظلّها ونضرتها ونسيمها وما فيها وما حولها ، وظَنّ أنّها تُنبت شيئاً في جدب الهوى ، أو ترمي بظلٍّ على رمضاء القلب ، فكان في وهمه كالّذي يحاول أن يجد نساء من الشّجر . وهناك كتب هذه الرّسالة في الرّبيع ، ثم الّتي بعدها في الشّتاء :

لي صديقات من الشّجر ، أعرفهن ويعرفنني منذ سنوات ، وهن ينزلن منّي بعض الأحيان منزلة الحُبّ ؛ لأنّ فيهن شيئاً من دلال النّساء الخفرات أجد أثره في قلبي ، ولا أجد برهانه في لساني . فإذا هممت أن أبين عنه وأبتغيه بالعبارة أخفته العبارة ، حتّى لا يزيده البيان إلا غموضاً وسوء معرض . ولكنْ إذا مضيت أفكّر فيه تبيّنته أشدّ تبيُّن ، فأحسست في ظلّهن المستحي ونسيمهن المُتنهّد وغصونهن المتثنية ، شمائلَ حبيبةً إلى نفسي ، ورأيت لها معاني لا تقع إلا في القلب ، ثم لا تقع منه إلا في الموضع الذي مسّته يوماً نفحةٌ أو قبلة أو تنُّهد .

وإنّما قيمة الأشياء بما فيها من أثر القلب ، أو بما لها في القلب من الأثر ، ولَرُبَّ شيءٍ تافه لا

---

(١) استعمال ضمير الخطاب بعد ضمير الغائب في (أهدى) لقوة الالتفات وبلاغته في هذا الموضع ، والمعنى أن شتم الحبيبة كضباب الصبح ، يسوقه ظلالاً سوداء ليقطره بعد قليل ندى يتم به جماله . (٢) يذكر الأستاذ محمد سعيد العريان في إحدى طبعات « أوراق الورد » أنه كان من أصدقائها الشاعر المرحوم إسماعيل صبري باشا . *

خطر له ولا غناء فيه ، ثم يكون في يد محبٍّ من حبيبه النّائي أو الممتنع أو الهاجر ، فإذا هو قد تحوّلَ بموقعه من القلب إلى غير حقيقته ، فأطلعَه الهوى من مطلع آخر ليس في الطّبيعة ، فيرتفع ثم يرتفع ، حتّى كأنّه عند صاحبه ليس شيئًا في الدّنيا ، بل الدنيا شيء فيه ، ويكون ما هو كائن ، ومع ذلك تنبعث منه روحٌ ذات جلال ، أقلُّ ما فيه أنّه فوق الجلال الإنساني .

هذه صغائر الحياة متى خالطها أثر القلب أصبحت في الحياة أكبر كبائرها ، كأنَّ قلب كلِّ إنسان هو النُّقطة المحدودة له من الكون ، والكون كلُّه مبعثر من حوله ، فلا بدايةَ لشيء ولا نهايةَ لشيء ، ولا قربَ ولا بعد ، ولا صغر ولا كبر ، ما يكن له قياس إلى القلب . والحبُّ قدرة إنسان على قلب إنسان ، فهو من ثم قدرةٌ على الكون المتّصل بالعاشق ، وهو بهذه القدرة أشبه بألوهية لو ساغ في الظّنّ أنْ توجد ألوهيةٌ عاجزة عن كلّ شيء ، إلا عن التّصرُّف في مخلوق واحد . وهو بكلّ ذلك إما حقيقة كبرى وإمّا سخرية كبرى .

* * *

تقوم شجراتي على مَسيلٍ من الماء في قاصية بعيدة عن المدينة ، وتراهُنَّ فوق الماء صفًّا إحداهن إلى إحداهن ، كأنَّ هناك بقعة من الجنّة قامت فيها قصور الزُّمُرُّد على طريقٍ أرضُها من الفضّة البيضاء المجلوّة.

وأراهُنَّ كلَّ سنة يتجرَّدن من الأوراق ليكتسين أوراقًا مثلها ، لا تخالفها في شيء من الهيئة ولا تباينها في معنى الطّبيعة ، ولكنْ بين ما يخلعن وما يَلْبسن تزيد فيهنَّ الحياة وتشبُّ الرّوح وتتجدّد القُوّة فتلقي الشّجرة أوراقها ، وتستقبل الشّتاء مُقشعِرّةً جرداء ؛ لتظهر في الربيع كاسيةً : جميلة جديدة في حسنها ، تتبرّج بروحها قبل ثيابها ، كالحسناء الفاتنة أوّلَ ما يتحرك في دمها الحبُّ .

كذلك لا تتبرّج الرّوح إلا خارجة من شقاء أو مقبلة على شقاء ، وما أشبهَ الحبَّ في النّاس بهذا الرّبيع في الشّجر : هو الطّريق الأخضر ، يمتدُّ إمّا إلى الجدب واليُبْس والألم ، وإمّا إلى غاية منسية مهملة في الجفاء أو السّلوة .

وذهبت في ضحوة النّهار إلى صديقاتي أحييهن كعهدي بين حين وحين ، وما أكْرَمَهُ عهدًا لمن لا يختلفن من مَلَلٍ ، ولا يتغيرن من كذب ، ولا يتبدلن من خيانة ! فلما جئتهن تَحَفَّيْنَ بي وتناولن قلبي يمسحنه ويتحببن إليه ، وأقبلن يغازلنه ويأخذن فيه مأخذ من تحب فيمن يحبها ، حتى لم أشعر منه إلا ما أشعر من زهرة فيها أَرَجُها العاطر ، أو ثمرة فيها ماؤها الحلو ، أو نبتة فيها لونها الأخضر .

وَنَبَّهْنَ فيه برفقهن هذه القوةَ المتواضعةَ المظلومة التي تتوجّه بالإنسان إلى ربه فتكون عبادة ، وإلى الناس فتكون رحمة ، وإلى « بعض الناس » فتكون الحب ، فإني لتحت ظلالهن الوارفة وكأنني من السمو تحت أجنحة الملائكة ، وإني لمع أغصانهن النضرة وكأني من السرور أداعب أطفالاً صغارًا تبسِمُ لي ، وإني لبين أنفاسهن وكأني من النشوة مع الخيال الذي أتخيل .

وتجلّت عليَّ القوة التي تحوّل الشّعاع إلى ظلٍّ ، والهواء إلى نسيم ، والزّمن إلى ربيع ، والنّظر إلى حبٍّ . فكنت في الشّجر الصّامت شجرة مُتكلّمة ، وانسللت من طبيعة إلى طبيعة غيرها ، ووقفت بين عفو الله وعافيته في هذا المحراب الأخضر ؛ ومن قلبي المُتألّم أرسلت إلى السّماء هذه التّسابيح ذاهبةً مع تغريد الطّير .

* * *

يا من غرسني في الحياة كهذا الغراس بين الماء والنّور ، ولكنّه جعل جذوري كُلّها مستقرّة مثله في الطّين .

يا من لا يؤتيني معنًى شريفًا ساميًا على هذه الأرض إلا إذا عرفت بإزائه معنًى وضيعًا سافلاً ، ولا

يُنضج ثماري ويُحلّيها إلا بعد أن تنبت فِجّة مرّة لا تُذاق .

يا من خلقني إنسانًا ، ولكنّه قضى عليّ أن أقطع الحياة كُلّها أتعلّم كيف أكون إنسانًا ، كالبذرة : تقضي عمرها في إخراج شجرتها ونموّها ، حتّى إذا اكتملت الشّجرة ، قطعت لأغراض أخرى غير الّتي من أجلها نبتت .

يا مَنْ وهب عبادة العقل بين هذه النّواميس الّتي لا تعقل ، حتّى لا يتمّ أبدًا عقلُ إنسان ، ولا تكمل أبدًا حكمة حكيم ، فيظلّ باب الخطإ مفتوحًا لأكبر العقول وأصغرها ، وتكونَ الحيرة قاعدة من قواعد العقل ؛ ليخرج من ذلك أن يكون التّسليم قاعدة من قواعد القلب .

يا من جعل في شفائنا بالعلم داءً آخر من العلم ؛ حتى لا ترتفع المضرة من الأرض ، ولو صار أهل الأرض كلّهم علماء .

يا من جعل النّاس في الحياة كأوراق الشّجر ، من اليابسة الّتي تتقصّف إلى جانب الخضراء الّتي ترف ، ثم إذا النّاس جميعًا كالأوراق جميعًا ؛ ييبست فارفتّت [١] فطارت بها الرّيح تذروها ، فلا يعلم مُستقرّها ومُستودعها إلا هو .

ويا مَنْ خصّني بهذا القلب العاشق الّذي يتألّم ويضطرب ، حتى عندما ألمِسُ كتابًا أعرف أنّ فيه قصّة حبٍّ ، وهو مع ذلك يتكبّر على كلّ آلامي ولا يخضع أبدًا إلا جوابًا على خضوع آخر ، فكأنّه لا يُدنيني ممّن أحبّهم إلا لأعرف ما أكرهه فيهم ، وكأنّه من فرط رقّته آلة إحساس جامدة لا قلبٌ حيّ .

ويا مَنْ جعل هذا القلب فيّ كجناح الطّائر : لا يطير ولا يرتفع ولا يسمو ولا يتقاذف إلا إذا نُشِرَ هو وجناحه الآخر ، فلا أبحث عن الحبّ لأجد الحبيبة وجمالها وحبّها ، بل قوّتي وسموّي وكبريائي.

يا إلهي ! تقدّستَ وتباركت ! إنّي لا أنكر حكمة آلامي ، فما أنا إلا كالنّجم : إنْ يسخط فليسخط ما شاء إلا ظلمة ليله الّتي تَشُبُّ لونه [٢] وتجلوه ، ولولاها لما رأت الأعين شعاعةً تلمع فيه .

لم تعطني يا رب ما أشتهي كما أشتهيه ، ولا بمقدار منّي ، وجعلت حظّي من آمالي الواسعة كالمصباح في مطلعه من النّجوم الّتي لا عدد لها . ولكنْ سبحانك اللهمّ ، لك الحمد بقدر ما لم تعط وما أعطيت . لك الحمد أن هديتني إلى الحكمة وجعلتني أرى أنّ المصباح الضّئيل الّذي يُضيء جوانب بيتي ، هو أكثر نورًا في داخل البيت من كلّ النّجوم الّتي تُرى على السّطح وإن ملأت الفضاء .

سبحانك اللهمّ ! إنّ هذا الشّجر ليتجرّد ويذوي، ثم لا يمنع ذلك أن يكون حيًّا يتماسك ويشِبُّ ، وإنّه ليخضرّ ويورق ، ثُمّ لا يعصمه ذلك أن يعود إلى تجرّده ويُبْسه . فما السّعادة أن نجد الزّينة الطّارئة ، ولا الشّقاء أن نفقدها . وما الشّجرة إلا حكمة منك لعبادك تُعلّمهم أنّ الحياة والسّعادة والقوّة ليست على الأرض إلا في شيء واحد ، هو نضرة القلب .

سبحانك ! إنّ السّاخط على الحياة – والحياةُ منك – ليس إلا كورقة في شجرة قد بدا لها فسَخِطَتْ شجرتَها وعَمَلَها ونظامَها ولونَها ، فانتزعت نفسها ، وهوت في التّراب ، لتخلق أوهامها ، وتخرج من نفسها على ما تحبّ شجرة جمال ولون وثمر ، فإذا هي أهون على الأرض والسّماء من أن تكون إلا ورقة يابسة قد هلكت حمقًا ، وارفتّتْ رَغْمًا وهوانًا وضاعت فيما يضيع .

سبحانك سبحانك ! اللهم لا تجعل ما يرفعني يقذفني ، ولا ما يمسكني يرميني ، ولا ما يَنْضُرني يجفو بي .

* * *

ولما فرغت من ابتهالي ، اتّكأت إلى حبيبة منهنّ وجعلت أفكّر وأنا أحسّ كأنّ كلّ شجرة تضع قبلة نديّة على قلبي ، أو كأنّ غصنًا مطلولاً ينفض طلّ الصّباح قطرات في دمي .

(١) أي تفتتت ، ومتى ييس النبات وارفتّ سمي ذراوة (بضم الذال) لأن الريح تذروه .

(٢) يقال في الحسناء التي تلبس السواد : إنه يشبُّ لونها ، أي يجعله يتوهج ويتألق .

وسألت نفسي : لم لا يكتسي الشّجر كلّ عام جنساً من الورق فإذا اخضرّ هذا العام احمرّ مِنْ قابلٍ ، ثم يصفرُّ في الّذي بعده ، ثم يكتسي من الوشْي الأزرق في الّذي يتلوه ، ثم يطلع في الدّيباج الأسود ، وهلمّ إلى عدد الألوان خالصةً أو مُتمازجة ؟

أ ذلك لأن الطبيعة عاجزة عن التّفنّن ، أم لأنّها شحيحة مُقتصدة ؟ أم لأنّ تركيب العالم قائم على أن تبقى الحقيقة كما هي لا تتغيّر ؟ أم لأنّ كلّ شيء يستمرُّ على وتيرة واحدة ليُظهر جانباً مُعيّناً من حكمة الله ، فينشئ جانباً مُعيّناً من ذوق الإنسان وفكره ؟ أم العالم كلّه كلمات صريحة تقول لهذا الإنسان : إنّك أنت وحدك المُتقلّب المُتلوّن ؟

* * *

ثم مددت يدي فهصرت [١] غصناً من تلك الأماليد [٢] النّاعمة اللّيِّنة ، فإذا هو ريّان [٣] تجدُ مَسّ الماء في قلبه . ولكنّه أقبلَ في يدي بعد قليل على الموت وأنشأ يذوي [٤] مضمحلّاً ، فجعلت أتأمّله فلم أر جزعاً ولا خَوَراً ولا إشفاقاً من أمر يأتي ولا حنيناً إلى شيء مضى ، فعلمت أنّ القوّة كلّ القوّة ألا يجزع الحيُّ ، فإذا هو لم يجزع يجبن . وإذا أمن الجبن لم يستذلّه شيء ، ولم يكن الشّقاء في رأيه شقاءً ، بل مصادمة بالحياة لبعض نواميس الحياة. ومضى كما هو جزءاً على وضعه من الكلّ الّذي هو فيه ، فتَساوق [٥] مع الكلّ وبقوة هذا الكلّ ، فأمن المنافرة واتّقى على نفسه آلامها . فإنْ لم ينعم بشيء ، فقد نعم بأنّه راضٍ مطمئنّ ، وما في المهنأ أكثرُ من الرِّضا .

قال لي ذلك الغصن الأملد وهو يموت في يدي ويعالج سكراته : أيها الإنسان الضعيف ، هأنت ذا تراني رؤية عين ، وتعرف بي سرعة انقطاع الحياة ، وتستيقن منّي أنّ ما يجيء بطيئاً يذهب حين يذهب سريعاً ، وأن طرفة عين من ساعة الموت تمسح السّنين الطّويلة والعمر المتقادم ، وتقفل الباب على هذا العالم كلّه . فكن غصناً في شجرة الحياة ، ولكنِ اعلم ـ مثلي ـ أنّ الشّجرة لا تعرفك مُثْبَتاً فيها بالمسامير ولا مشدوداً إليها بقوة أزليّة : فلك منها المنبت على أن تكون قابلاً للكسر ، ولك منها الزّينة على أن تكون قابلاً للتّجرُّد ، وإنّما أنت فيها كما أنت لتظهر فيك حقيقتها كما هي ، فليس لك أنت حقيقة .

أيّها الإنسان ، إنّ للشّجرة تماثيل يرفعها الله في كلّ مكان يوجد الإنسان فيه ؛ لتقول له : كن دائماً ذا فروع لتُظلّلَ بأبنائك موضعك من التّاريخ . كن كريماً في حياتك تعطي مما تأخذ . كن طاهراً تعرف كيف تستمدُّ من كلّ شيء شيئاً واحداً تعيش عليه . كن مع جنسك مختلف الظّاهر على جرثومتك وموضعك ؛ فذو ثمر أو زهر أو شوك ، ولكن ابْقَ في داخلك وعنصرك مع غيرك من النّاس على قانون واحد .

* * *

يا شجراتي ! ما أنتنّ إلا من بعض صور الحب، ولكنّ حُبّكُنّ من النّعمة والعافية ، إذ لاتُنَبِّهْنَ في النّفس معانِيَ شهواتها ، بل معانِيَ لذّاتها فقط .

أنتنّ المثل الهنيء الّذي لا بؤس فيه ولا حظّ ، كالمعبد الذي تُحمل إليه الآلامُ والأوجاع لتُنسى فيه هنيهة من الزّمن ؛ ولهذا يقبل عليكن الحكماء وأهل النُّفوس الحاسّة والطّباع الرّقيقة ، يأتون بالأنفس الذّابلة والقلوب المتوهّجة في ضعفة وسأم ؛ ليرجعوا في هذه وهذه باللّوْن الأخضر ، وبروح النّسيم في قُوّة وعزيمة .

* * *

لا بؤس ولا حظ في القاعدة المُطّردة التي تجري على وتيرة واحدة ، ولكن حين تختار الحكمة الإلهية

(١) كسرْتُ . * (٢) الناعم من الناس والأغصان . *
(٣) أي يروي الظمأ . * (٤) يذبل . * (٥) تتابعَ وتَسايَرَ وتَجارى . *

شخصاً بعينه لتجري عليه حكم الشاذ من القاعدة وتُهيّئ له الأحوال الشاذّة ، فهناك إمّا حقيقة البؤس وإما حقيقة الحظّ . وما أصل الهمّ والشقاء في النّاس إلا أنّ كُلّ إنسان يتمنّى لنفسه أن يشِذّ من قاعدة ما .

* * *

شجرات الشتاء

يمّمتهنّ (١) اليوم فإذا هنّ ذابلاتٌ ، عليهنّ الضُّحى عريانًا . وكن من ورقهن في حُلَل الظّلّ ، وفيهنّ انكسار ذي العارية ، وكان يتجمّل بعاريته ، ثم ردّها ، فما يتوارى إلا من الأعين الّتي كان يتعرّض لها من قبل ويحسُّ كأنّه أصبح لحنًا من خطأٍ فاحش في لغة النّعمة واليسار ، لا يكاد يظهر نفسه إلا قيل له : يا غلطةً تحتاج إلى مَنْ يُصحّحها !

ورأيتهن واقفات في مثل ذلك الحزن النّسائي الغراميّ الّذي يخلط المرارة في حلاوة المرأة الجميلة ، فتبدي عن عاطفة مسكينة لا يصورها لك إلا أن تتخيّلَ جَزَعَ لؤلؤة تخشى أن تتحوّل إلى حصاة .

ذليلات ذليلات كأنّهنّ مُطلّقات الرّبيع .

* * *

وقالت لي صديقة منهنّ : لقد كنت في جانب منّا ، أ فمنحرف أنت إلى الجانب الآخر ؟ وكان لك فينا من رأي الحب ما يكسونا مع كسوتنا ، أ فيكون لك من رأي البغض ما يجردنا مع كسوتنا ؟ أم ستقول : طاووس أنسلَ ريشُه الجميل فردّه القبح دجاجة ، وشجرة سُلِبَتْ زينتَها فعادت كأنْ لم يخلقها الله ، ولكنْ أقامها النّجّار ؟ أم أنت رادُّنا إلى المسخ فمُجْرٍ علينا حكمَ الرّجل على المرأة : متى قبحت في عينه قبحت في قلبه ؛ إذ لا يطلب إلا معنى فيها تحت الرّونق لمعنًى فيه هو تحت الدّم ، فإذا هي لم تعد من إيمانه كفى ذلك وحده أن يجعلها من كفره ؟

أ ظالمني أنت فتعرف لي ذلًا بعد عزّة ، وتصف لي خضوعًا بعد كبرياء ، ولا تضع بإزائي في ميزان قلبك إلا المعاني الثّقيلة الّتي تُلقيها ، تزن بها ما تكره ؛ لكي تملأ نفسك منه بغضًا وكراهة ؟

* * *

كلا ، يا صديقتي ! إنّما تتحوّلين لأجد منك معنًى جديدًا في نفسي ، فكأنّك تخرجين منّي رجلاً في الرّبيع ورجلاً في الشّتاء ، وكأنّي أعرف بك كيف أتحوّل في بعض معاني الحياة من نسيم إلى عاصفة . أنت كالحبيبة المخلصة حين تبالغ في إصفاء الودّ ، فتمتنع وتهجر ؛ لتهب مُحِبَّها الفكر في جمالها ، كما وهبته النّعمة بجمالها ، فيُصيبُ اللّذّة ومعناها ، ثم يجد الشّوق الّذي يضاعف معناها. فإنّي رأيت الذي لا يفكر في معاني الجمال حين يمتنع ويبعد ، لا يدرك كلّ معانيه حين يمكن ويدنو.

ومن امتلأ من فقد السّرور ، كان حقيقًا أن يكون هو الّذي يمتلئ من وجوده ، فاللّذّة لذة واحدة بنفسها ، ولكنّها تتعدّد بموقعها وبحالتها ، وبمقدار فهمها ، وبقوة الشّوق إليها . وما أشبهَ النّفْسَ في هذا المعنى بقصر العروس ، إنْ لم تتقدّمِ العروس معانيها فتزيّن القصر وتزخرفه وتكسوه ، وتجعل في كلّ مكان منه جمالاً يومئ إليها ، وزينة تُشاكلها وحسنًا يتمّمها أو يفسر منها ؛ لم تكن العروس على القصر إلا أرملة .

كلا ، يا شجراتي ، فلست ظالمًا ؛ فأجري عليكنّ حكم المرأة في شتاء حُبّها ، فإنّ المرأة متى بردت ظهرت كالسُّحب الثّقيلة المُطبقة بأرجائها السّوداء : لها في سمائها لون الوحل قبل أن تستوحل بها الأرض ... ، وبها من الظّلمة ملءُ ليل طويل ، يموت فيه النّهار الطّالع وشمسه معًا ، ويكلح بها وجه الحبّ ويبرد ويظلم ؛ لتكون في بلائها مادّة

(١) قصدْتُهنّ . *

إنسانية تقع منها صاعقة .

آه لو أنَّ شجرة لم تحمل كلَّ أغصانها إلا من قشور الثَّمر المطروحة في الطَّريق ، لكانت هذه المرأة أسخفَ منها ؛ ولو أنَّ شجرة حين أورقت لم تورق من جذعها إلى بواسقها [١] وأعاليها إلا بأجنحة الذُّباب ليتقذرها صاحبها ، لأشبهتها هذه المرأة .

كلا ، يا شجراتي ، فقد ذهب ربيعي مثلكن ، ولم يكن ربيعاً في قلبي ، فسأقضي شتائي وأنتظر أنا وجذوري . إنَّه عهد ليس أشقى منه لوعةً ولا أسعد منه ذكرى ، إذا جعلنا نحنُّ إلى حياة ليست في حياتنا ، بل ذهبت عنّا بحبيب نأى أو حبيب هجر .

* * *

عجباً ! ماذا يحدث في الحياة من هنات وهنات ؟ تمرض الشَّجرة فصلاً من سنتها ، وتشرف على الموت فصلاً آخر [٢] ، ثم يطير فيها لهب الشَّمس ، فإذا هي تغلي بالشُّعاع وعليها ضبابة خضراء من غليان ألوان الشمس في جوفها [٣] ، فليس من جمال إلا وبعض مادَّته في أصلها من القبح كما ترى ، يظهر لك في الطَّبيعة الجميلة ؛ لأنَّها عدوّة التَّصنُّع ، ويخفى في النِّساء الجميلات ؛ لأنهن عدوات الطَّبع . حتى أجمل ما في المرأة الجميلة ، لا تراه بعيداً من أقبح ما فيها حتى دلال المرأة الَّتي تحبُّها ، فهو بعينه لو حقَّقْتَ ، هو معنًى ظريفٌ رقيق من .. من .. من وقاحتها !

* * *

أين الجزء المسكر في الكأس إلا مع غير المسكر فيها ؟ وأين المرأة الجميلة إلا مع مكروهاتها يغرُّك منها ما يغرُّ ؟

لَهْفـي لأشْجارِ المَحبَّةِ مَـرَّ فَصْـلُ رَبيعِهـا
جَدَّ الهَوى فيَ غَرْسِها لِيَجِدَّ في تَقْطيعِها ... !

(١) البواسق جمع باسقة ، وهو المرتفع .

(٢) أي تمرض في الخريف ، وتشرف على الموت في الشتاء .

(٣) يسمى البخار المجتمع فوق القدر من غليانها : ضبابة القدر . وكأنما ورق الشجرة ضبابة خضراء فوقها .

كُلُّ الفُتوقِ لَها الرِّقا عُ تَرِمُّ مِنْ تَصْديعِها
وَإذا تَمَزَّقَتِ المَحبَّةُ جِـرْتُ في تَرْقيعِها ... !

* * *

رسالة الطيف [١]

ألم بي طيفها بالأمس ، فاقتحم بناء النِّسيان الذي رفعته بيني وبينها ، وألقيت كبريائي في أساسه ؛ حتى لا يرجف ولا يتصدَّع ، وأعليته بهمومي منها ، وشددته بعزائمي وثقتي ، وجعلته بإزائها كالمعبد من الزنديق : إن يكن لا يسخر من ذلك إلا هذا ، فما يلعن هذا إلا في ذاك .

ولم ينكشف الليل حتى رأيت معبدي أطلالاً دارسة قد خلعتها روح السَّماء فلبستها روح الأرض ، فتحوَّلَ كما يتحوَّلُ الزّاهد في سمته و وقاره وتعفُّفه إلى الشَّحّاذ في تَبذُّله وحرصه وإلحافه ، وتصدَّعَ فنوناً وتبدَّلَ أشكالاً ، وسرى طيفها في نِيَّتي مسرى الزَّلزلة الرّاجفة في بقعتها من أرضها : تشقُّ في الأرض والصَّخر والجبل ما يشقُّ المقراض في سرقة من الحرير [٢] ، بل أسرع وأقطع وأمضى . ولو حدث بعد الَّذي فعل طيفها أنَّ مدفعاً ألقى ظلَّه على الأرض ، فانفجرت من ظلِّه القنابل تُخرِّب وتُدمِّر ، وتأتي على ما تناله ، والمدفع ذاته قارٌّ ساكت ؛ لقلت عسى ولعله ، وأمر قريب ، ولعلَّ المدفع كان امرأة .

* * *

ولكنْ تحت أطلال نسياني وما تَخَرَّبَ من عزيمتي ، انكشف لي كنز من الخيال دخلته وملكته ، ولم أر فيه الدُّرَّ والجوهر والماس والياقوت في جسم الأرض ، بل رأيت فيه الحبيبة تسطع من جسمها البديع ، حقائق كلِّ هذه الجواهر الكريمة ، حتى لكأنَّها والله في غرابة الحلم حسناء من درٍّ

(١) ألم به طيفها بعد الهجر ، فاعتذرت إليه وصالحته وأعطته الرضا ، فكتب هذه الرسالة .

(٢) الشقة من الحرير الرقيق ، وجمعها سرق (بفتح السين والراء) .

وماس وجوهر وأشعّة تتلألأ ، وما شئت أن أرى صفاءً ولا جمالاً ولا حسناً ولا فتنة إلا رأيت فيها .

ولكمْ كنت أتخيّلُ – إذ أجلس معها وأقلّب عيني في محاسنها ومفاتنها – أنّ أظافرها المصقولة الملتمعة إنْ هي إلا لؤلؤ من جوهر جسمها ، وأنّ الحلي على هذا الجسم الجميل إنْ هو إلا شُعَلٌ تتوهّج من ضوء لحمها ، وتورّد دمها ، لا من ذهبها وجوهرها .

غير أنّي في كنز الخيال رأيت ذلك هو الحقيقة بعينها ، وعلمت أنّه لمعنًى جميل تنجذب الحسان إلى الحلي والجواهر ، إذ كانت من طبيعة أجسامهن.

طيف جاء الرّوح المهجورة بالحبيبة ، فاستنْشَتْها [1] كأنّما هي نسمة طائفة على روضة من الورد . ومرّ بروحي التي جَفّتْها هي وجرحتها مروراً أنعمَ من لمس الشّفة للشّفة ، وغمرها بمحاسن تملؤها ذوقاً وطيباً . وتحول هو معها روحَ قبلةٍ مُشتهاة على انتظار طويل ، ففيه مَسُّها ولذّتها وحلاوتُها .

وفي الحلم يتجلّى الحبيب لمحبّه كما هو داخلٌ في نظام عقله وكما هو مستقرٌ في أمانيه ؛ فيكون على ذلك كأنّه من خلق النّفس وتصويرها ، فتفتن به أشدّ الفتنة ، وكأنّها لم تر معانيه في أحدٍ قطُّ ولا فيه هو نفسه ، ومن هذا قلّما ناجى الحبيب حبيبه في رؤياه أو طارحه الهوى أو ساقطه الحديث أو نوّله مما يشتهي إلا انتبه المحبُّ ، وكأنّه لم يُلمّ به من هذا كلّه شيء ، بل ذاب هذا كلّه في دمه حلاوةَ روح لها طعم ومذاق .

* * *

يا للرّحمة من طيف يُعذّب العاشق بالرّحمة ! إذ ينقل الحبيب كلّه إلا الحبيب نفسه ، ويُحقّق للمحبّ أمانيه إلا بهذه الأماني ، ويُخيّم على ظلمة الصّدّ بألوان من نهار يموت قبل النّهار . وفي عالم معذب من الهواجس والخيالات العاشقة المُسْتَلَبَةِ إرادتُها ، ينصبُ عالمُ نعيم من الهواجس والخيالات المعشوقة مُسْتَلَبَ الإرادةِ أيضاً ، فكأنّها سخرية النّفس من جنون صاحبها . يا للرحمة !

وتحت أطلال نسياني ، وما تخرّبَ من عزيمتي ، ظفرت بمقصورة كأنّها من مقاصير الجنّة ، لها جوٌّ عبق [2] نافح مليء من الإحساس الخالد والشّعور الطّروب ، كما مليء بالأسرار والألغاز . ترفُّ عليه معاني الضّحكات والنّظرات والابتسامات ، تمازجه تعابير الصّوت والموسيقى والثّياب الحريرية والرّوائح العطرة ، يسبح في كلّ ذلك جلال الحبّ وجمال المحبوب و روحي العاشقة .

وارتفعت حقيقتنا كلينا إلى عالم من الكنايات والمجازات والاستعارات ، فكان الحبُّ ثمّةَ يتّخذ شكله السّماوي ، فيتّسع بالإدراك في كلّ شيء ، إذ يجعل الحاسّيّة كأنّها من حواسّ الخلود ، فلا نهاية لمسرّة تتّصلُ بها ، ولا نهاية للذّة تُخالطها . ومن ذلك لا نهايةَ لأفراح قلبي في الحلم .

وكانت هي في كل تقاسيمها تعبيرات معنويّة ، حتّى لكأنّها صورة مُتجسّمة من أوصاف بارعة في الحبّ والجمال خُصّصتُ بعلمها أنا وحدي ؛ إذ لا يمكن أن يُهتّدى إليها إلا فيها وحدها ، وكنت مع طيفها كأنّي مُلقّى في حالة من حالات الوحي ، لا في ساعة من ساعات الكرى .

ورأيت حبّاً رائعاً معبوداً أشعرني إذ ملكته في تلك الخطرات أنّ الإنسان قد يملك من الجنّة نفسها ملكاً ، وهو على الأرض في دار الشّقاء ؛ إذا هو احتوى بين ذراعيه مَنْ يهواه .

* * *

وقالت نفسها لنفسي : هَلُمّي ، يا حبيبتي ، في غفلة هذين العقلين العدوين ، نهدم عليهما المنطق الذي يُعذّبنا بأقيسته وقضاياه ، وإنما نحن روحان فوق الأقيسة والقضايا .

هلمي إلى حكم الحبّ في رقدة الفلسفة العنيدة القائمة بصاحبينا قِيامَ محكمة بقاضيين جاهلين معاً مكابرين معاً ، فلا يرى كلاهما إلا أنّ صاحبه هو الجاهل ، وبذلك تتضاعف البليّة منهما متى حكما .

هلمي ، من وراء هذين المتغاضبين إلى شريعة

(١) شمّتها . *

(٢) طيب الرائحة . *

الرِّضا ، فليست إحدانا من الأخرى إلا كالصدى يجيب على الكلمة بالكلمة نفسها ، إذ ليست إحدانا إلا الأخرى .

هلمي ، فما منّا إلا من ضاقت وأعيت بحمق هذين الأحمقين ، أحدهما من أحدهما كالصّخرة الّتي تريد أن تبتلع الجبل ، وهي قطعةٌ منه .

هلمي نتكاشف بالابتسامتين المخبوءتين تحت عبوسهما الكاذب المنافق ، فإن كذب العبوس متى لبس وجه الممثل والممثلة ؛ لم يعد نهاية فيهما ، بل في الرواية . ورواية هذين هي رواية العناد والتّعنُّت الّتي تمتدُّ من نفسها ؛ لأنَّ كلّ كلمة فيها إنّما هي بين متقاذفين ، فلا تُرمى إلا ارتدّت ، ثم لا ترتدُّ إلا لتعود فتُرمى .

هلمّي ، يا حبيبتي ، فإنّنا تحت هذا اللّيْل نهار مع نهار في عالم بعيد عن الأشياء ، وبعيد حتى عنهما .

هلمّي ، فإنّنا الآن في جسدين روحيّين لا تحدُّنا الحدود . وهذان الجسدان النّائمان هما التُّراب الذي كنا فيه ، وهما قذى المادة ، وهما الخصمان ، لا نحن ؛ فهلمي ، يا حبيبتي .

* * *

وقالت نفسي لنفسها : وهلمي ، يا حبيبتي ، فاجعليني في روح شبابك الذي ألبسني الضّنى على أنه لو نُقِلَ إلى الأجسام لأحْيا الموتى .

هلمّي فضعيني في أشعّة الخلود من نظرات الرِّضا التي في عينيك ؛ لأقوى على هذا الفناء الماحق من هجرك ؛ فإنَّ قربك ليس قربًا ، بل هو إعطاء ، وبعدك ليس بعدًا ، بل هو سلب .

هلمّي فارفعيني بقوّة منك على قوتك الأخرى التي تهلكني بالخضوع والصبر .

هلمّي فلْنتصالحْ بين الكلمة ومعناها ، فإنَّ هجرك هذا فرق بين ألفاظ الحبِّ وأرواحها ، فمسخها كما هي في كلام ، وأنا أريدها كما هي في الحياة ، وهل تحيا كلمة القبلة في القاموس أم في شفتيك ؟

هلمّي ، يا حبيبتي ، نرتفعْ فوق دنيا الحزن والألم ولو ساعة ، ليست في ليل ولا في نهار بل فيَّ وفيك .. ساعة ليس فيها ستّون دقيقة ، في كل دقيقة ستون ثانية ، بل فيها ستّون عناقًا ، في كلِّ عناق ستون قبلة ؛ فهلمّي ، يا حبيبتي .

* * *

عاد الحبُّ أكبر من كلمة ، ورجع الرِّضا أكثر من ابتسام الشّفتين ، وصارت الأذرع حدودًا [1] بعد أن كانت على فضاء وفراغ ، وحيّا طيفها وسلّم .

حيّا وَسَلّمَ ثُمَّ صافحَ تارِكًا
يَدَهُ عَلى الكَبِدِ الّتي أدْماها
وَأتى لِيَعْتَذِرَ الغَزالُ ، وَلَجْلَجَتْ [2]
كَلِماتُ فيهِ فَفي فَمي أخْفاها
وَدَنا لِيَعْتَرِفَ الهَوى ، فَتَهالَكَتْ
أسْرارُهُ ، فَرَمَتْ بِهِ فَرَماها ...
قَلْبُ الحَبيبِ مَتى تَكَلَّمَ لَمْ تَجِدْ
كَلِمًا ، وَلَكِنْ أذْرُعًا وَشِفاها ...

* * *

وانتهى حلم الصُّلح لتوِّه لحظة شعرت أنّه ابتدأ ؛ فلم يكن هذا الحلم « إلا عملية » حب جراحية مؤلمة في القلب الّذي كاد يبرأ وينسى .

كأنّما طَفِقَتْ من الهجر مكواة كانت مُحمّاة على كبدي فجاء طيفها بما معه ليضع مكواة غيرها .

وأصبحت – والله – أعتقد أنَّ الشّيطان لي خلق مضاعفًا لمّا خُلِقَ إلا امرأة معشوقة .

* * *

(١) كناية عن العناق ، لأن الأذرع تكون حدودًا على الجسمين المعتنقين . (٢) اللجلجة : التردد في الكلام وتكرير بعض ألفاظه ومقاطعه ، قال الطيف : أنا أنا أنا لم لم لم ...... وهذا التلجلج يكون من حدة العاطفة وإذهالها الفكر .

في العتاب

وكتب إليها مرة كتاب هوى ، فتفترت في الرّدّ عليه ، تريد أن يطولَ به الانتظار فيؤلمه ، أو تريد أن تزيد به الشّوق فيؤلمه ، أو كأنّها تطمعه بألا تطمعه ليتألّم .

فلما انتهى فيه دلالها إلى الضّجر ، كتب إليها هذه الرّسالة يؤلمها بها وجعلها على طريقة السّجع التي كان يتراسل بها فحول الكُتّاب في القرن الرّابع للهجرة وما بعده ؛ لأنّها هي تكره هذه الطّريقة وتجد لها ألماً في نفسها ، ولذلك مضى بها مسجوعة إلى آخرها ؛ ليبالغ في إيلامها والتّهكّم بها وبفلسفتها ، وردّت في الرّسائل بكلّ ذلك إرادته على إرادتها ، وهذه هي الرسالة (١) :

كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنّها بعيدة وتمر قديمة ، ولكنّ ما في هذه النفس منها ومن آلامها يجعلها دائماً جديدة وكأنّها تجري بي إلى الفناء فهي تطول إلى غير حدٍّ، وتأخذ معنى اليأس الذي يمضي به الأمس ، فتلقي به في معنى الأمل الذي يأتي به الغد ، والأيام تعدُّ بالأرقام ، ولكنّك أنت جعلت هذه الأيام تعدُّ بأنّها لا تعدُّ .

وانتظرت ردَّ كتابي ، أو ورقة من شجرة عتابي ، فما زالت تتقطّع السّاعة من السّاعة ويلتقي اليوم باليوم ، ويذهب اللّوم إلى العتاب ، ويجيء العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنّه مُغمىً عليه ، لا هو في يقظة ولا هو في نوم .

فسبحانَ من علّم آدم الأسماء كلها لينطق بها ، وعلمك أنت من دون أبنائه وبناته السُّكوت ....

والسّلام عليك في أزلية جفائك الّتي لا تنتهي . أمّا أنا فالسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت .

ما هذا ، يا سيّدتي ، وليس خيط عمري في إبرتك ، ولا ما يتمزّق من أيامي تصلحه « ماكينة الخياطة » بقدرتك . وإن كنتُ أنا أقلَّ من (أنا) فلستِ أنتِ بأكثر من (أنتِ) . وما علمنا أنّك مع القدر تحرّكت ولا مع القدر سكنت .

أ تحسبينك ولمّا خفت (المحاكم) ، في قتلي جعلت تقتلين بهجرك أيامي ، ولمّا عرفت أنّك من أشدّ سروري أردت أن أعرف كذلك أنّك من أشدّ آلامي ؟ أم أنت في نورك وظلامك تريدين أن تنقصي من الأعمار ، كما ينقص منها اللّيل والنّهار ؟ أم تحسبيننا خلقنا بهذه الرّقّة ؛ لنعرف بها كيف يتحجّر قلبك ويجمد ، وأنبتنا الله في مزرعة العمر ؛ ليجيئنا منك صاحب المزرعة فيحصد ؟ أم أنت خلقت في يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك اتّكالاً ، وجئنا على الطّاعة شكلاً واحداً ، وجئت أنت من يد الله في الكبرياء أشكالاً ؟

فإنْ كان قلبك ، يا سيّدتي ، شيئاً غير القلوب ، فما نحن شيئاً غير النّاس . وإن كنت هندسة وحدها في بناء الحبّ ، فما خلقت أعمارنا في هندستك للقياس . وهبي قلبك خُلق « مربعاً » أ فلا يسعنا « ضلع » من أضلاعه ؟ أو « مدوراً » أ فلا يمسكنا « محيطه » في « نقطة » من انخفاضه أو ارتفاعه ؟ وهبيه « مثلثاً » فاجعلينا منه بقية في « الزاوية » أو « مستطيلاً » فدعينا نمتد معه ولو إلى ناحية .

ما بال كتابنا يمضي سؤالاً من القلب ، فيبقى عندك بلا « جواب » ، و « تبنيه » نحن على « حركة » قلوبنا ، فتجعلينه أنت مبنيًّا على « السكون » ثم لا محلَّ له من « الإعراب » ؟ وما بالنا نقطع في انتظار الرّدّ مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات والسّيّئات إلى السّماء ، ولو طاف الأرض لتقدّمَ حتّى لا يبقى في الأرض أمام ، وتأخر حتى لا يبقى من الأرض وراء ؟ فإن كنت تضنين أن تُوجّهي إلينا من عرشك خطاباً ، أو تُنزلي علينا من

(١) هذا النوع من العتاب كالذي يقول فيه العباس بن الأحنف :

إن بعض العتاب يدعو العتـ ـب ، ويؤذي به المحب الحبيبا

فهو عتاب لمحض التهكم وأذى المحب ، لا للاستعطاف ، ولا للاسترضاء ، فإن هذا نوع آخر له أسلوب غير هذا ، وكبرياء صاحب الرسائل أبت عليه أن يكتب في هذا النوع الأخير !

سمائك كتاباً ، فقد أقفلَ باب النُّبوة من قبلنا ، فما هذا الباب ؟ واحتجب الوحي من زمن بعيد ، فيا سيدتي ، ما هذا الحجاب ؟

لعلّك تخشين إذا جاءني كتابك الكريم أن يزعم النّاس أنّ « جبريل » أصبحَ في الأرض من سعاة البريد ، وأنّ السّماء عادت تُشرّعُ لأهل الأرض ، فجاءت فلاناً من فلانة بكتاب جديد ، أم لعلّك تخافين إن تحرّكَ في يدك القلم الأعلى أن يتحرّك به القدر العاجل فلا يحتمل التأجيل ، ثم يجيئني كتابك فتقوم قيامة العالم المسيحي ، لأن هذا الكتاب صفحة ناقصة من الأناجيل ... (١)

* * *

لقد هممت أن أعاقب القلم الّذي كتبت به إليك فأحطم سنّه ، وأجعله من ناحيتي في خبر (كان) حتّى لا يبقى من ناحيتك في خبر (إنه) ، وقلت : كيف – ويحك – سوّدت وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد مع المداد ، وفي نفسه سواد أقبح من السّواد ؟ فقال : وهل أنا في (نغمات) حُبّك إلا « عود » ، وهل صورت إلا حركات وجدك من قيام وقعود ؛ وسل الدّواة من أمدّها ، والصّحيفة من أعدّها ؛ وسل أناملك كيف كانت تضغط عليّ كأنّها تُسلّم على الحبيبة سلاماً ، ولا تخطُّ إليها كلاماً ؛ وسل نفسك كيف كانت في حركتي تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد ، وفي كلمة يقترب ؟

فما ندري – يا سيّدتي ، وقد أحببناك – أ نعدُّك في ذنوب الزّمان أم في أعذاره ؟ وهل نأخذك في الحبّ من وقائعه أم في الجفاء من أخباره ؟ فإن أبيت أن تكوني منّا إلا كالسّماء من أرضها ، وأن نكون منك إلا كالسُّنّة من فرضها ، وأبيت وأنت « مفرد » الحسن إلا أن نعدك أنت وكبرياءك « مُثنّى» بألف ونون ، وإلا أنْ تكوني على غير ما نريده ، ثم لا نكون إلا كما أردت أن نكون ، فإذا خاطبناك قلنا يا فلانتان ، ويا أيّتها الحبيبتان ويا غضباوان وراضيتان ، وأنشدنا في هواك :

« ولو كان همًّا واحداً ... ولكنه هم وثان ... » (٢)

وإن أبيْت إلا ما نأبى ، ولم ترضيْ مع صدقنا في حُبّك إلا كذباً ، قلنا لك بلغة اليأس منك : لشدّ ما أصابَ الزّمان فينا وأخطأ ! فليصب بك أو فليخطئ وكثيراً ما أعطانا الدّهر وأخذ ، فلتكوني فيما يأخذ أو يعطي . ونقول : مع الذّكر نسيان ، وما عسى أن ينقص العالم بإنسانة أو إنسان ، ومن ظنّ « بصرفنا » عن نفسه أنّه كبير ، جعلناه من « نحونا » في باب « التّصغير » ، ومثلنا لا يتكلّم إلا بفائدة ، ولا يسكت إلا بفائدة . فإن أخطأنا معك فيْ واحدة أصلحناها واحدة . وما أكثر ما يجد الكاتب إذا عَزّ عليه أن يعاتب ، وفي ذكائك – لا محالة – بقيّة الرّسالة .

ولعلّنا ولعلّك ... والسلام .

* * *

في الأحلام

تَصَبْت لي في الكَرى حِبالَه
أصْطادُ صَيْداً مِنْ الصُّوَر
رَأيْتُ جِسْمي انْتَهى لِحالِهِ
تُضيءِ كالشَّمْسِ وَالقَمَر

* * *

فَطِرْتُ في النّور أجْتَليه
محاسِناً تَمْلأ السّما
وَلا ضَوْءَ بِلا شَبيه
إلا حَبيبي تَبَسّما
فَقلْتُ : هَلْ بي يا قَلْبُ فيه
لَعَلّني أطْفِئ الظّما ؟

* * *

(١) هي سورية مسيحية كما يعرف الذين قرءوا «رسائل الأحزان» و « السحاب الأحمر » ، وهما الكتابان الموضوعان في فلسفة جمالها وحبها وبغضها .

(٢) جملة من بيت شعر ، وأصله :

ولو كان همًّا واحداً لاحتملته ... ولكنه هم ، وثان ، وثالث

نَاجَيْتُ قَلْبي بِذِي المَقالَة
فَدَمْدَمَ الأُفْقُ بِالشَّرَر
صَرَخْتُ : ما لِلْفَضاءِ ما لَه ؟
فَقالَ : في قَلْبِكَ الخَطَر

* * *

يا أُفْقُ هَلْ خِفْتُ مِنْ شَرارَة
تَحْتَ الضُّلوعِ اسْمُها الفُؤاد
أَمْ سَعَّرَ الهَجْرُ فيكَ نارَه
تَوَقَّدَ مِنْ يابِسِ الوِداد ...
أَمْ يومُ حُبٍّ قَضى نَهارَه
وَحَلَّ مِنْ بعد السَّواد ... ؟

* * *

فَقالَ : وَجْهٌ نَرى خَيالَه
في قَلْبِكَ الحامِلِ الضَّرَر
ارْجِعْ فَلَوْ أَنَّ ذي « الغَزالَة »
تُغازِلُ النَّجْمَ لانْفَجَر

* * *

في معاني التنهدات (١)

تسكن قلبي رغبةٌ ما أراها تتحقّق له فيتخلّى عنها. ولا هو يتخلّى عنها إذ لا تتحقّق له .

هي بعض المُمكنات الخيالية الّتي لا تخرج أبداً من القلب . وكيف تخرج منه ولا مكان لها في الواقع ؟

القلب وحده مكان المستحيل .

* * *

رغبتي كأنّها حكم من أحكام الشّوق النّافذة على قلبي .

حكم عليه بأن يظلّ أبداً يريد ويشتهي .

أيْ حكمٌ عليه بأن يطلب ولا ينال .

يبحث في الموجود عن غير الموجود .

يراك ولكنّه فيك أنت يبحث عنك أنت .

وأنت كسبيكة الذّهب : ليس فيها موضع أحسن من موضع .

ولكنّ قلبي مع ذلك يظلّ يبحث عن الأحسن .

قلبي المسكين محكوم عليه ، لا بالأشغال الشّاقّة ، ولكنْ بالأمانيّ الشّاقّة .

* * *

رغبتي ستبقى دائماً بين معاني التّنهُّدات .

في مكان القلب لا تتحرّك فيه كلمات الأمل إلا تحرّكت معها كلمة آه .

أ تدري ، أيُّها الحبيب ، ما هي رغبتي ؟

هي أن أراك حين تتلقّى رسالتي وتتلوها .

لأرى حقيقتك كيف تكون وليس أمامك إلا حقيقتي .

ولأرى بنفسي كيف ترى نفسي مكتوبة .

ولأعرف برأي العين : أنا أرسل إليك كلماتي أم خفقات قلبي ؟

ولأنظر كيف تخرج لك أسرار الكلمات من الكلمات ؟ لأرى ، وأعرف ، وأنظر .

* * *

(١) لهذه الرسالة خبر يعدُّ من الغايات في ظرف المداعبة ، وذلك أنه قال لها يوماً : إني لأتمنى أن أراك حين تفضين رسالة حبي وتقرئينها ، فإن الحب إن يكذب على إنسان لا يكذب على ورقة . فقالت : بل هذا ما أريد أنا ، لأرى كيف تكذب حتى على ورقة . ثم سألته أن يضع هذه المعاني في هذا الموضوع الطريف لتنظمها قصيدة باللغة الفرنسية ، فأتعب نفسه فيها وكتبها وبعث بها إليها ، ولبث أياماً ينتظر كتاباً منها حتى جاءه ، فلما فضّ غلافه رأى كلامه بحروفه ولكن ... ولكن بخطها ! أ تراها تخاطبه بها أم كأنها نسخت له صورة من مقالته التي عندها بخطه فلا رسالة ولا خطاب ، أم تقول له : أنا كالذاهلة من الهوى .

ولكنْ يا صديقي ، لو رأيتُك حينئذ لكنْتَ أنت رسالة إليّ ، فلا تكون ورقتي إلا ورقة .

ويشغلني عن رؤيتها أني أراك .

ويصرفني عنها أنّي مُنصرفة إليك .

ويكون عقلك قد استولى على عقلي .

وتُذهلني أسرار عن أسرار ،

فلا أرى ، ولا أعرف ، ولا أنظر .

* * *

ومع ذلك أتمنّى أن أراك حين تتلقّى رسالتي وتتلوها ؛

لأرى كيف تتلقّاني من خيالك حين ليس معك إلا خيالي .

ولأعرف رأيَ العين أن هَوايَ جزء منك ،

وأنّ كلماتي هي لمسات من قلبي لقلبك ،

ولأنظر كيف أكون لديك في صورة رسالة .

وأضحك من رؤيتك الورقة وجهاً له فم تُقبّله .

لأرى ، وأعرف ، وأنظر .

* * *

ولكن ، يا صديقي ، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إليّ ؛

فلا تكون ورقتي إلا ورقة ، وينسيني إياها أنّك حاضر معي ، وتموت الكلمات المكتوبة كلّها في كلمة واحدة تنطق أنت بها .

وتَحولُ معرفة دون معرفة ، فلا أرى ، ولا أعرف ، ولا أنظر .

* * *

إذن فرغبتي ستبقى دائماً بين معاني التّنهّدات .

وقد تحرّكت الآن بكلمات الأمل .

ولكنّه الأمل الخائب الذي تأتي دائماً في آخر كلماته : آه ! آه !

* * *

أليس كذلك ؟

نظرة حب إلى الكون

إن شيئين هما أروع ما نعرف وما نجهل ، أحدهما : ذلك المجهول الأعظم المُنبسط وراء العقل ، يترامى قفراً في قفر إلى ما لا نعقل من أسرار اللاّنهاية . والثّاني : ذلك المعروف الأعظم المختبئ وراء القلب ، يتعمّد صفة في صفة إلى ما لا ندرك من أسرار النّفس .

وفي ذلك التّعقيد السّماويّ تلتمس الرّوح وضوح الألوهيّة ونعيم الجنّة الخالد ، وفي هذا التّعقيد النّفسي يلتمسون وضوح الحبّ ونعيم الحبيب المعشوق .

أليس كذلك يا حبيبتي ؟

كلٌّ ما في الكون هو من الضّرورات لوجود الكون لأنّه ممتلئ لا ينقص ، وما كان ضروريًّا فهو مذهب واحد ليس فيه ما هو أكبر ضرورة ولا ما هو أصغر . الكبير الكبير كالصغير الصغير . ولو أنّ مكانًا ليس فيه نفس واحد من الهواء لقتل الحي كما يقتله انتزاع كرة الجوّ كلّها من مخارق هذا الفضاء .[١]

وكلٌّ ما في الحبيب هو من ضرورات عشقه إنْ صحّ العشق ، فكأنّما هو يتّجه أيضاً مع الكون إلى اللاّنهاية ، بل كأنّ كلّ حبيب في خيال مُحبّه إنّما هو الوسيلة الّتي استطاع الكون أن يعبّر بها عن جماله لإنسان في إنسان ، ببلاغة تختلف مع الأذواق كما تختلف البلاغة الإنسانية . هذه يقولون في تعريفها إنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وتلك يقول الكون نفسه في تعريفها إنّها مطابقة الشّكل الجميل لمقتضى الإحساس .

يضيق هذا الكون ثم يضيق ، حتّى كأنّما يجتمع

(١) أي من حيث ينخرق الفضاء ، أي منه كله .

عند العاشق في المعشوق وحده ؛ وبهذا لا تجد حبيباً إلا بلغ عند مُحبّه ما تناهى إليه الحسن في أرضه وسمائه ، حتّى لهو الشّمس والقمر وكلُّ ما جرت فيه أشعّتهما من ذهب الجمال وفضّته ، وبذلك جمعت اللغات أحسن ما في الكون وأجرته في تشبيهات الحبيب وألّفت من ألفاظه لغة الحبّ .

فهل يكون في العقل من هذا ومن ذلك إلا أنّ الكون قد تناولَ النّفس العاشقة حين ضاق ثُمّ ضاق ، فوسعها ثُمّ وسعها حتّى أفاضَها من معاني الحبيب على المعاني الأزلية ، وجعل عهدها بالحبّ أيّاماً – في لذّتها ، أو نكدها – كأنّها ليست من أيام هذه الدُّنيا ؟

لعمري لو أمكنَ أن تأتي إلى الأرض رسالة من إحدى الحور العين في السّماء لما أمكنَ أن يتلقّاها إلا عاشق على شفتي حبيبته أو خدّها . ولو بعثت الجحيم برسالة من زفيرها وشهيقها ، لما وقعت إلا في صدر عاشق يتلهّفُ من هجران حبيبته أو صدّها .

أ ليس كذلك ، يا حبيبتي ؟

* * *

في الكون حياة أبدية فيّاضة لا تفتأ تعمل بالسّلب والإيجاب ، كأنّ هذا الكون العظيم يتحوّل في كلّ لحظة ليخلق ؛ فهو في كلّ لحظة صورة جديدة ، وما كان فيه سلباً فهو الّذي يجذب في مذاهبه وتصاريفه ، وهو مبعث القوة المبدعة ، وهو الّذي يُحقّق أشكال الحكمة في جلالها .

وفي المعشوق حياة فيّاضة تُخيّل لمحبّه أبديّة وهي إلى وقت ، ولا تزال كذلك تعمل في خيال محبّه ، بالسّلب والإيجاب . وهي السرّ في بقاء الحبيب طريفاً جديداً ما بَقِيَ حبُه ، كأنّما يتحوّل في كلّ يوم ليخلق ؛ فهو في كلّ يوم صورة غير صورة أمس ، وهو دائماً معشوق السّاعة ، وقد خلدت عليه النظرة الأولى ، وكلُّ ما تكرّرَ منه من ضحكة أو كلمة أو نظرة أو ما إليها جاء لوقته كأنّ فيه حياة .

وكأنّه مولود لا مصنوع ، ولدته رغبتك ولم يصنعه هو ، فأنت تتلقّاه كما يتلقّى الأب أو الأم أولاده وقطع كبده ، لا يزال عليهم كلَّ يوم طابع قلبه .

وما كان في الحبيب سلباً فهو الذي يفتنُ في دلاله وامتناعه ، وهو مبعث سحر الجاذبيّة ، وهو الّذي يُحقّق من جماله الخياليّ أشكالاً تتلهّف عليها الرّوح لهفة الظّمآن الضّائع في القفر على تموُّج السّراب وصبغة الرّمل الجافّ الملتهب بلون الماء البارد الصّافي .

يمنعك الحبيب ما تشتهي منه ، فإذا هو قد منحك الخيال ولذّته وسحره ، وإذا هو قد جعلك بالسّلب كالمرآة لا تتلقّى إلا لتعكس ، فأنت للحبّ والشّوق ، ولكنّك أيضاً للتّفسير والتّعبير . وتجد في قلبك من أثر ذلك النّقص تكامُلَ الحياة ، ويصبح عندك فهم الجمال جزءاً من الخلق والفكر ، كما هو فيك جزء من الحاسّة والعاطفة ، فإذا نار قلبك تُحرق المعاني ، وإذا كلُّ شيء يتفجّر لك عن ضوء أو شعلة ، ويُحقّق لك الحبُّ : أنّ الله نور السّماوات والأرض .

يا حَبيبتي ، أ ليس كذلك ؟

* * *

إذا لم يكن ما نعدّه بغيضاً شيئاً مفصولاً عن الكون فهو – ولا ريب – من ضروراته ، وهو بهذا من أجمل جماله في معنى التّكوين والإبداع ، غير أنّنا لا ننظر منه إلى هذا المعنى ، ولا نعتبر صلته بالوجود ، بل ننظر إليه بمعنى التّكوين الّذي فينا ، ونعتبر صلته بنا ، فلا يكون من هذا إلا أنّه قبح وسمج من قبحنا لا من قبحه .

فالكون بما فيه من أثر الخالق هو اتّساق واحد منسجم ، لا شذوذ فيه ولا تنافُرَ ولا قُبْحَ ولا بُغْضَ . ولكنّنا نحن بما فينا من قوّة الخلق [1] ، نتمرد على

---

(١) لا تستعمل كلمة الخلق للإنسان إلا في إيجاد الأوهام والخيالات والصور الكاذبة ، ومنه قوله تعالى « وتخلقون إفكا » ، أو في التحويل ، ومنه قوله تعالى « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » ، ولا تجوز غير ذلك مما يستعمله ضعفاء الكتّاب في هذا العصر.

الانسجام والاتساق ، إذ لا نملك من ضعفنا إلا خلق هذا التمرد ، وتتطلع شهواتنا ورغباتنا إلى شيء ما فيكون جميلاً وحبيباً ، وتنصرف عن شيء ما فيكون قبيحاً وبغيضاً .

ومن هذا فليس في الكون إلا الحبُّ والجمال والخير ؛ إذ سقطت الشّهوات ؛ إذ كلُّ شيء حينئذ يكون مقصوراً على حقيقته الّتي لم نفسدها بتغييرها؛ ولأنَّ قبح شيء من الأشياء إنّما هو صورة انحرافنا عن إدراك حقيقته وجهلنا بناحية اندماجه في قانون الاتّساق الإلهي .

أ فليس بذلك يكون المعشوق الجميل كأنّه تهذيب علميٌ لروح من يهواه ، وتدريب له على الاندماج بفكره وعاطفته في جمال الخليقة ؟

أ ليس بذلك يكون المعشوق الجميل هو الوسيلة الّتي يتعلّم بها العاشق علم قلبه ؛ أي فنَّ الارتفاع بالأشياء الجميلة عن سذاجتها الفطريّة ، وإكسابها في روحه الإشراق الإلهي ؟

أ ليس بذلك يعمل العاشق في جمال العالم ، ويكون الجزء الإلهي فيه هو الّذي يحرّك للحبّ لينكشف حبيبه بمعانيه السّامية ، ويشهد جمال ذاته في الصّورة الجميلة الّتي يهواها ، حتى ليستطيع أنْ يقول لحبيبه : يا نفسي ويا روحي ؛ وهو يحسُّ أنّه على الحقيقة نفسه وروحه ؛ إذ يرى أنّه مُتعلّق به تعلّقَ الطّفل بروحه الكبيرة في أمّه وأبيه ؟

وهل غير الحبّ علّم الإنسانَ كيف ينادي روحه ونفسه في غيره ؟

أ ليس كذلك ، يا نفسي ويا روحي ؟

* * *

النجوى

وَبي زَهْرَةٌ في جانِبِ النّيلِ قَدْ نَمَتْ
فَرَفَّ عَلَيْها إذْ يَروحُ وَإذْ يَغْدو
لِطافَتُهُ في طَبْعِها الحُبُّ والرِّضا
وَتَيّارُهُ في طَبْعِها الهَجْرُ والصَّدُّ
وَيَحْكي وَفاءَ النّيلِ فَيْضُ وُعودِها
وَيا شَدَّ ما يَنْحَطُّ مِنْ بَعْدِها الوَعْدُ !
وَفي زَمْنٍ تَصْفو عَلَيَّ كَما صَفا
وَفي زَمْنٍ ما مِنْ « تَكَدُّرِها » بُدُّ
وَ واللهِ ، ثُمَّ اللهِ ، إنَّ حَلاوَةً
مِنَ النّيلِ لِلْعَيْنَيْنِ في فَمِها تَبْدو
وَإنّي وَإيّاها عَلى ظَمَإ الهَوى
أنا الفَمُ في هَذا الهَوى وَهيَ الخَدُّ

* * *

آه ! وأنا حين أقول آه ، أحسبها شعلة تتلوّى ذاهبة مُمتدّة في قلبي .

آه ! وأنا حين أقول آه أشعر أنّ قلبي يمدُّها طويلاً طويلاً لتصل إلى قلب آخر .

آه ! وأنا حين أقول آه ، أراني كأنَّ روحي طارت إلى آخرِ مَدّها و وقعت .

* * *

وكُنّا في يوم من أيام الرّبيع ، وكلُّ شيء حولنا يتكلّم بلغة الشّمس في لمعة وضوء وجمال ، وفي الأزهار معانيها الغزليّة الّتي بها وحدها تظهر الطّبيعة في رقّة امرأة عاشقة .

وفي الهواء نسمات بليلة مُتعطّرة قد خيّمت (١) فيها روح قبلة مُتعرّضة . كأنَّ الرّياض في نشرها (٢) الزّكي مصانعُ يقلد فيها الرّبيع صنعة أنفاس الحبيبات .

وفي الزّمن ذاتيّة واضحة أشعرتني أنَّ كلّ ما حولي هو تعبير يَهمُّ أن يتكلّم .

وكأنّما سقط قوس قزح من السّماء ، وماجت

(١) خيمت الرائحة في الثوب أو المكان : إذا أقامت .
(٢) النشر : الفوح الطيب .

ألوانه بعضها في بعض ، فغطى الأرض ألواناً شتّى بأزهارها وأعشابها .

وكأنَّ السّماء مازجت قلبي في تلك السّاعة فأضاءته بنور الفجر النّديِّ العبق بالنّسيم ، الملوّن بالشفق ، المتحرّك بالسّحاب .

وكنّا في صباح جميل يشعرنا بكلِّ ما فيه أنَّ شمسه طلعت لنا وحدنا .

وكان كلُّ شيء يرفُّ ويزهو كأنّه طُبِعَ بقبلة من شفتيها .

وبدا الصّباح عليها بمعاني الرّياض ، وعلى الرّياض بمعانيها هي ، فاجتمع نشاط الكون ونشاط قلبي ، وتقتّلَتْ كما تتقتّلُ [١] ، وقالت ضاحكة : لا أحبك .

قلت : إن فيها « أحبك » وهذا يكفي .

قالت ، وزادت في ضحكها : أعني أبغضك .

قلت : ولكنّه بغض مَنْ تضحك كما أرى .

قالت ، و زوت من وجهها وتكلّفت العبوس قليلاً : أعني ...

فابتدرتها أقول : إنَّ تكلُّف وجهك ينطق بأنه لا يعني .

فذهب بها الضّحك مذهباً ظريفاً ، وقالت : الآن قُطِعَ بك [٢] ، فلقد كنت أريد أن أقول « أعني أحبك » فنفيتها أنت فانتفت .

قلت : بل الآن وُصِلَ بي ؛ ما دمت قد قلت « أعني أحبك » وأثبتُّها أنت فثبتت .

قالت واستطلق وجهها : إنّي واللهِ أجد من سروري أن أعْجِزَك ، ولكنّك داهية لا تعجز ، ولا يزال في لسانك جواب ما أقوله وما لم أقله .

فقلت : وأنا والله أجد من سروري أن أقدر ، ولكن هل أقدر على ما هو مقدّر ؟ إن بعض كلماتك هي الآن كلمات ، ولقد تكون غداً حوادث .

فاعترضتني قائلة : أنت تنظر في نور من خيالك مع نور الطّبيعة ، فترى أشياء كثيرة غير الأشياء .

قلت : ولكنّه هو النّور الّذي يقيد الطّبيعة كلّها بمنظر واحد .

قالت : أ هو منظر جميل ؟

قلت : بل الجمال بعضه .

قالت : وما عسى أن يكون باقيه إذا لم يكن الجمال إلا بعضه ؟

قلت : إنَّ في قلبي كلاماً يسمع من غير أن أتكلّم به . وفيه جواب سؤالك .

فاستضحكت وقالت : وعلى هذا فهمت من غير أن أفهم . ألا قل لي ، لماذا تكون لغتك هكذا ؟

فقلت : لأنَّ الحبَّ يجعل كلَّ سهل واضح في الأشياء غامضاً مُعقّداً في النّفس ، وهذا هو سرُّه ، وبهذا يرتفع عن الإنسانية ويجنح إلى التّألّه ، وبسرّه وتألّهه يخلق كلَّ ما يمسُّه في صورة ثانية مع صورته الّتي تقوم به ، فيجعله بصورتيه من الكون ، ومن النّفس العاشقة أيضاً ، وليس من شيء خلق مرتين ، ولكنَّ أشياء الحبِّ كلها كذلك خلق ثم خلق .

ليت شعري أ يعذّب العاشق المسكين بهذا التألّه الخيالي ؛ فيكونَ عقاباً شديداً بطريقة غير أرضيّة ؟ أم ينعم به ، فهو ثواب عظيم بطريقة غير أرضيّة كذلك ؟

إنّه لسرٌّ عجيب رائع في قلب من تيّمه الحب ، يدلُّ عليه أنّه ما من عاشق إلا وهو يرى أنَّ رضاه عن جمال حبيبته ، وتكوين أوضاعها وتناسقها ومشاكلة بعضها بعضاً ، كرضا الصّانع عن صنعته وافتنانه بما أبدعَ واخترع وبما أتقنَ وأحكم ، كأنّه هو قدّر وسَوّى ، وسَوّى وخلَق . ولو جاز أن يهبه الله القوّة على أن يذرأ ويبرأ [٣] ، ثم أمره أن يخلق لنفسه

---

(١) يقال : تقتلت له المرأة ، أي تعرضت له ، هكذا فسروه ، والتعبير من أدق ما في لغات البشر قاطبة ، ولا نظن أن في غير اللغة العربية ما يقاربه . ومعناه : أن المرأة الجميلة حين تتعرض لحب الرجل تبرز مقاتل أنوثتها واحداً واحداً ، فكأنها تتقتل له ... وهذا تعبير دقيق جدًّا إلى الغاية . (٢) انظر الرسالة السابعة من « رسائل الأحزان » ، ففيها ما يشبه هذه المحاورة الطريفة على طريقة أخرى ، وهناك وصف مجلس كهذا المجلس .

(٣) يَخْلق .

امرأة ، لما صنع إلا هذه التي أحبّها بكلّ ما يحبّه فيها ، وإن لم يستطع الحبُّ أن يخلق إنسانًا فهو يخلق إنسانية .

بذلك لا يفهم هذا الحب إلا في أسلوب ملتوٍ ؛ لأنّ له طرفًا غائبًا وراء النّفس ، كالعود من الأعواد غمس أسفله في الماء ، فلا يتراءى للعين في صفحة الماء إلا ملتويًا متثنّيًا ، لا بعمل من ذات نفسه ، بل بموضعه وبتأثير أحكام الضّوء في موضعه .

والحبُّ يشبه ألوهية دون حدها ، فهو بهذا مفهوم غير مفهوم ، ويشبه إنسانية فوق حدها ، وهو بهذا أيضًا مفهوم غير مفهوم ، ولا نراه أبدًا إلا مصرحًا غامضًا . إن صرّح من جهة الحاسّة غمض من ناحية الفكرة ، وكلُّ شيء دونه هو في النّفس يأتي من بعده في الموضع والقيمة والاعتبار ؛ لأنّ في الحبّ وحده المعنى الأكبر للحياة في وهم المحبّ ، على حين كل ما في الحياة هو في الواقع أكبر منه ، ولن يعيش من لا يأكل ولا يشرب ، على أنّ من لا يحب نراه يعيش . (١)

قالت وضحكت : بذلك لا يفهم الحب ، وبذلك استطعت أن تجعل لغتك هكذا .

قلت : وبذلك أيضًا استطعتِ أنت أن تجدي مخابىء لغوية كثيرة تخبئين فيها الكلمة التي تريدين النُّطق بها ولا تنطقينها ، فصارت لغتك عندي تفسر من معجمات كثيرة : من نظرة والتفاتة وخطرة وحركة ، ومن شيء ومن لا شيء . وتقولين الكلمة بما شاء دلالك من أساليبه الكثيرة ، إلا بأسلوب النُّطق ، كأنّها تراغمك على أن تظهر وتراغمينها على أن تختفي . أ تعلمين أنّك كالدّولة من الدُّوَل العظمى ، حاشدة كل وسائل الحرب ، معدّة لها في كل وقت ، فهي بذلك ظافرة غالبة من غير حرب ، كأنّ وسائل الحرب تُقاتل من غير أن تقاتل (٢) ؟

قالت : يا ويحك ! فإذا قبلت منك أنّي دولة عظمى ، فكيف أقبل أنّي « أكاديمية » عظمى ؛ حتى تجعل لي معجمات كثيرة ؟ وترى ما الذي يمكنك أن تفسره من معجماتي ؟

قلت : يا ويح غيرك ! (٣) أمكنني يا جبارة المستحيلات ما أمكن الغزال من جبار الممكنات .

قالت : أسألك عن مستحيلاتي ، ولكن ما هي ممكنات غزالك ؟

قلت : إنّ غزالي هذا كان فيلسوفًا لا يصدّق إلا ما يقرُّه ، ولا يقرُّ ما لا يمتحنه ، على طريقة الفيلسوف (كانت) (٤) ولم يكن رأى سبعًا قط ، وهوّلوا عليه في أوصافه ورهبته وسطوته ، فلم يُصدِّقْ شيئًا من ذلك إلا أن يراه ويدرسه درسًا تحليليًا ، كما تُسَمّين أنت كلامك وفلسفتك . قالوا : فأطال الغزال الفكرة في ذلك ، ودبر أن يلقى الأسد ويدرسه . ثم إنّه قسّم الدّرس إلى أعمال خمسة على هذا النّسق : فالأول أن يتجسّسَ مخالب السّبع ثم يعجمها ، ويدقُّ عليها بحجر ، ليعرف مبلغ صلابتها ويقف على سرّ تركيبها . والثّاني ألا يكتفي بمثل هذا الصّنيع في الأنياب ، بل قرّر أن يُحطّم واحدًا منها ليعلم ما سر قوتها ومضائها . والثّالث أن يتناول عضلات الأسد في زوره ورقبته وأعضاده فيغمزها غمزًا شديدًا ، لعلها من ورم أو شحم وما يدري الناس . والرّابع أن يجيء بالموسى فيحلق لبدة الأسد فيكشف عمّا تحتها ، ويرى منظره وقد عري منها ؛ فلعلها من شعوذته في القُوّة واحتياله على مظهرها ورهبتها . والخامس أنّه متى فرغ من كلّ ذلك حملق في عيني الأسد

---

(١) قالوا : اجتمعت أدبية بمحبها ، وشغلهما الحديث ومر وقت الطعام فقال : ما لي لا أرى ذكرًا للطعام ؟ فقالت له : أما في وجهي ما يشغلك عنه ؟ قال : بأبي أنت وأمي ! لو أن جميلاً وبثينة اجتمعا يومًا لا يأكلان ولا يشربان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وانصرفا .

(٢) تمنع الاعتداء فكأنها تقاتله وترده الدولة المستعدة ، إذ يقيها غيرها .

(٣) يقول العرب : ويحك ! واستعملها عدي بن الرقاع في شعره : ويح غيرك ، اضطرارًا لإقامة الوزن ، ولكنها بذلك تكون في غاية الظرف إذا وقعت في مثل موضعها هنا .

(٤) هو الفيلسوف الألماني الشهير المتوفى سنة ١٨٠٤ وكتب على قبره (الناموس الأخلاقي فيّ ، وسماء النجوم فوقي) وكان في دروسه يجعل الأخلاق والدين فوق كل شيء ، ومذهبه في البحث والامتحان أساس التفكير المستقل .

ودرس ذلك اللمح المُخيف من شعاعهما ، فإن لم يبلغ من ذلك ما أراد علمه وفلسفته اقتلع إحداهما وأسالها وبحث فيها ما شاء !

قالوا : ولما جاء العرينَ ، وأصبح من الأسد بمرصد ، وهبّت رائحة لحمان أجداده ، قال : النّجاة النّجاة ! ما هذا بالذي خُلِقَتْ له فلسفةُ رأسي ، ولكنّه الذي خُلِقَ له عَدْوُ ساقي . و وثب يشتدُّ مع الريح .(١)

ولكن آه من تعقيد الحبِّ ، إنَّ الفيلسوف المنهزم الآن هو الأسد بلبدته وأنيابه ومخالبه وبكل ما هو به أسد ، والمنتصر هو الغزال بلينه ونعومته وبعينه الكحيلة وبكلِّ ما هو به غزال !

قالت : آه !

ولم تزد .

* * *

قلت : آه ! أنت ، يا حبيبتي ، فيَّ وأشعر بك دائمة الاندفاق والانصباب في نفسي ، كأنّك جمال لا ينتهي ، وكأنّي عشق لا يمتلئ وأنت خارجة عنّي. وبي شوق دائم النُّزوع إليك ، يُخيَّل إليَّ والله أنّه ملء الكون لا ملء صدري ، وأنّه لا يزال شارداً مُتَسحّبًا على الوجود كلّه لا يجد ما يستقرُّ عليه ، مع أنّه واجدك ، ومع أنّه حائم عليك ، وما ذلك إلا لأنّك دائمة الدّلال ؛ أي دائمة الانحراف عن لمسات قلبي ؛ أي دائمة الاهتزاز بمعانيك الجميلة ؛ كيلا تثبت صفة منك على صفة منّي ؛ كيلا تتعانق حتّى ولا في المعاني .

أنت اثنتان عندي وليس في يدي من واحدة شيء، وإذا كثرت الآمال لتكثر حسرات الإخفاق عليها ، فلماذا لا نقول إن الأمل هو الاسم الصحيح للخيبة ؟

إنّك لي كالرّؤيا من الرُّؤى السّماوية ، فالّتي هي أنت ليست في الّتي هي أنت ، وبذلك فالّتي أحبُّها فيك لا يمكن أن أجدها فيك (٢) ، كأنما نتلاقى في عالم بعيد من وراء ظواهرنا .

كأنّما قامت منّا في الحبِّ حدود دولتين ، فلن يتقدّم حدٌّ منهما إلى حدٍّ ويكون بينهما سلم ، ولا سلم إلا في هذه الوقفة الثّابتة ، ولا إخلاص ولا محبّة ولا ثقة إلا أن يدقَّ مسمار الزّمن في كليهما ، فإذا هو من الآخر بعيدٌ على قرب ، قريب على بعد .(٣)

كأنّنا نعيش في أمس ، يجيء يلبس كلَّ يوم من أيامنا ، لا قوة تناله فتنزعه ، ولا قوة تناله فتُبْليه ، فما تزال تتجدّد من تحته أيام الحبِّ في سرٍّ منّا ، ونُعْطى كل يوم عالمنا ولا نأخذه ولا نتلقاه .

كأنّنا في يوم هجر خالد علينا ، فكلُّ ما يأتي بعده من الأيام ميت فيه لا محالة ، إذ أيام الحب إنّما هي بنسبتها إلى الحبيب لا إلى الزّمن .

كأنَّ هذا الحبَّ قد ضرب بيننا وبين الحقائق بسور ظاهِرُه فيه الرّحمة وباطِنُه من قِبَلِه العذاب ، فكلُّ ما رأيناه رأيَ العين من فرح الأشياء ولذّاتها ، علمناه في علم أنفسنا أوجاعَ مكابدة وآلامَ حرمان .

* * *

فأضجرت فلسفتها هذه الفلسفة فقالت وابتسامتها ظاهرة على قولها : وأما قبلُ (٤) ؟

قلت : وأما قبلُ فكأنّما أنا المكان الحيُّ الذي تئنُّ فيه الأشياء أنينها الباكي ، وتبتغي فيه موسيقى الحبِّ من أوتار مُتقطِّعة متبعثرة ، إن جاءت بشيء فبأنغام موتى أو مرضى . وإنّي لأحسب الدّنيا كلّها تصدح (٥) من حولك ، تلقين فيها النّغم ، ثم لا تحبسين الصّمت إلا فيَّ أنا وحدي .

---

(١) ترى أمثالاً من هذا النحو في كتابنا « تحت راية القرآن » وفي النية إن شاء الله وضع كتاب منها في معارضة كليلة ودمنة ، فإن العربية خالية من كتاب في ذلك تسميه كتابها وتقابل به ما في اللغات الأخرى ، كما كانت خالية من رسائل الحب .

(٢) أي هو يهوى التي يهواها ليجد فيها مسرات الحب ، وهذه ليس فيها إلا عذاب الفلسفة .. كما يعرف من وصفها في « رسائل الأحزان » .

(٣) إذا كان السلم بين دولتين متجاورتين ، فأبعد الأشياء منالاً عن كل منهما حد جارتها الذي هو أقرب الأشياء إليها .

(٤) مرت رسالة « أما قبل » فانظر فيها وفي سبب هذه الكلمة ومعناها .

(٥) ترفع الصوت بالغناء . *

قالت : أفٍّ للشّاعر من الشّاعر نفسه ! أنت كما تريد من الحياة مسرّة لابتسامك تريد منّا آلاماً لعبوسك الشّعريّ . وإذا لم تجد الألم أوجدته واخترعته ، كأنّه لا بدّ لمن يصنع شعراً أن يصنع مقادير يفرح بها ويحزن .

ما أراني أفهم عنك حين تقول : السّماء والطّبيعة وهي ، والشّمس والقمر وهي ، والخير والشّرّ وهي . فأنت وحدك تفهم هذا ؛ لأنّ للشّعراء شياطينهم ، فلك مثلهم شيطان يُحدّثك وتُحدّثه ، وترى ما اسمه ؟

قلت : اسمه هي ...

وكأنّما كان الشّيطان غائباً في سفر طويل ورجع عند ذكر اسمه ، فلمّا رآها هي اسمه ألقى فيها سحراً من سحره ، فإذا على ثغرها برهان ثغرها . وقالت : اسكت .

قلت : لقد عرفنا الشّيطان باسمه .

قالت : اسكت .

قلت : ما يُسكتني ولا الشّيطان نفسه .

فمدّت إليّ نظرة طويلة كلّها براهين على قوة هذا الشّيطان الفاتن ، وقالت : اسكت اسكت .

ثم لا أدري ما الذي أسكتني حينئذ ؟ أحسب أن الشيطان سدّ فمي بفمه .

* * *

آه ! وأنا حين أقول آه ، أحسبها شعلة تتلوّى ذاهبة ممتدة في قلبي .

آه ! وأنا حين أقول آه ، أشعر أنّ قلبي يمدُّها طويلاً طويلاً ؛ لتصل إلى قلب آخر .

آه ! وأنا حين أقول آه ، أراني بعدها كأنّ روحي طارت إلى آخرِ مدّها و وقعت ، آه !

* * *

هل أخطأت ؟

قالت له يوماً في أمر من الأمور : « قد أخطأت . » وغضبت أو تغضبت ؛ فكتب إليها هذه الرّسالة :

لقد قلت ، يا حبيبتي ، إنّي أخطأت ، ورميتني بها كلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج ، ولا أدري والله كيف أخطأت ، ولكنّك لما قلتها ، وتغضّبْتِ فيها ، وتعتّبت لها أثبتّ في الكلمة معناها .

ولو أنّي راجعتك في ذلك مئة مرة ، ولكلّ مرة برهان ومع كلّ برهان اقتناع ، لما استطعت أن أنتزع دلالك أو تعنُّتك من هذه الكلمة . فأنا بدلالك أخطأت لا بعملي ، وبرغبتك في الإساءة إليّ قد صرت مخطئاً لا بإساءتي ، والتُّهمة ثابتة عندك لا بواقعة ولا دليل ، ولكنْ بثبوت حُبّي لك .

ولقد نظرتُ إليك حين قلتِها ونظرتِ إليّ ، فكانت شفتاك تتّهمان وعيناك تعتذران ، وكان لساني يعتذر وعيني تتّهم ، وكانت الكلمة نفسها تكاد تقول : ما جئتك لأدلّ على معنى وقع منك أنت ، بل على معنى وقع فيها هي .

وقد اعتدت منك في بعض حالات قلبك أن لا تضعي المعنى في اللفظ الذي هو تعبيره ، بل في الذي هو تعبير ما بيني وبينك . فمعنى قولك : إني أخطأت ، يجيء في تعبير آخر كأنك تقولين : تذلّلْ لي .

* * *

لا تزال الكلمة كلمة من اللغة حتى تقوليها أنت ، فإذا هي كلمة من الفنّ ، وإذا فيها ذاتية وحياة ولها تاريخ ، ولو بمرورها من شفتيك .

أنا أخطأت لأنّي لم أخطئ ؛ فهي كلمة حب من معناك أنت لا من معنى الخطأ اللّغوي ، ولذلك أقرُّها ، فإذا قلت لك ، نعم أخطأت فاعلمي أنّما أجيب بذلك على أسئلة أحسّتْها نفسي من نفسك تجيء هكذا : هل ترضيني ؟ نعم أرضيك . أ لست تطيعني ؟ بلى أطيع . هل تتذلل ؟ نعم أتذلل . هل أخطأت ؟ نعم أخطأت .

وأرضيك ، وأطيع ، وأتذلل : كلها بمعنى أحبك أحبك أحبك .

فما رميتني بخطأ ولا أجبت بإقرار ولا بقيت

للكلمة عقدة تمسكها في معناها ، ولو رأينا لرأينا الحبَّ يضحك في هذه اللّفظة بمقدار ما تعبس فيها اللغة .

* * *

وكلمات الحب كلمات يتغيّر عليها الحسُّ ؛ فتفهم على أوجه مختلفة وتشاكلها معانٍ كثيرة ؛ وكأنَّ طريقة قولها تخلق طريقة فهمها . فما هي من عامِّ اللغة بل هي من خاصِّها ؛ إذ اللغة بين أهلها جميعًا ، وهذه بين اثنين خاصَّة ، واللُّغة ألفاظ مُفسَّرة بما تلبسه ، وهذه تفسر بما يلبسها ، واللغة تشير إلى الموجود إذ لا يراد بها إلا التَّعبير للفهم ، وهذه تشير إلى غير الموجود أيضًا ؛ إذ تريد مع الفهم العاطفة ، ولا بد أنْ يُعْطي فيها القلبُ إرادةً .

ورُبَّ كلمة ينبِذُها إنسان لإنسان فإذا هي على قلبه كالرِّيح السَّافية [١] تعقد في الظهيرة ضبابًا خانقًا من تراب الأرض ... فإذا ما لفظها حبيب لحبيبه نسمت على قلبه كرويحة الفجر في ضباب من الطل والندى ، على حديقة ملتفَّة ؛ إذ كانت هناك في منطقة اللسان وكانت هنا في منطقة القلب ، وكانت ثمة في جو من عداوة قائلها وكانت هنا في جوٍّ من حبِّ قائلها .

* * *

أنت علَّمتني بحبِّك أنَّ هذا الكون على اتساعه موضع خاص بقلبي وحده ، فمهما اتَّسعت اللُّغة في مذهب تعبيرها ، ففي قولك : إنِّي أخطأت ، معنًى خاصٌ بي وحدي ، يا حبيبتي .

وأنت أريتني أنَّ الجمال هو تصوير الحياة بك ، فكلامك لي هو تصوير اللُّغة بك وحدك أيضًا ، يا حبيبتي .

وإذا ابتسمت وقلت : إنِّي أخطأت ، فتلك ألفاظ متبسمة من دلالها ، وإذا عبست وقلت : إنِّي أخطأت ، فتلك ألفاظ مُتعنِّتة من دلالها . إذًا فاعلمي أنَّ في كلمات غضبك معنًى كذلك أراه لي وحدي ، يا حبيبتي .

(١) التي تحمل التراب والرِّمال . *

وكلام الكبير مع الطِّفل يكون بلغة واحدة ، وهو في الحقيقة بلغتين لمعنًى عاجز في الطِّفل [٢] ، وكلام الحبيب مع المحبِّ بلغة واحدة هو كذلك بلغتين لمعنًى قادرٍ في المحبِّ . فالمعنى المفهوم من إحدى اللُّغتين في قولك إنِّي أخطأت ، هو ، يا حبيبتي ، لي وحدي وكما أفهمه أنا وحدي .

وإدلالك عليَّ برهانُ خاصيَّتك منِّي ، فلِمَ لا يكون اتِّهامك إيّايَ برهانَ خاصيَّتي منك ؟

سأتذلَّلُ لك ، يا حبيبتي ، وسأرضيك وسأطيعك و ... وسأخطئ .

* * *

قلت وقالت [٣]

قطرات الماء القليلة جدًّا إذا أصابها الظَّمآنُ الذي بلغ به الظمأ جفاف الروح ، تحوَّلت في تسعير خياله والتَّضرُّم على كبده قطرات من اللَّهب الأبيض . وكذلك في ظمأ الحبِّ ، فإنَّ القليل جدًّا مما يُداوى به الحبيب ، هو الكثير جدًّا مما يمرض به المحبُّ .

* * *

قالت له : اغضب ما وسعك من الغضب ، وما وسعت منه ؛ فإن غضبك هو نفسه من مقاييس الرِّضا ؛ أ لم تر إلى الحريق في البرق وإلى الصَّواعق في الرَّعد ، أ ذاك من امتلاء السَّحاب بالنَّار أم من امتلائه بالماء ؟

* * *

(٢) الكبير قوي في الإدراك محيط بصور كثيرة من المعاني ، والطفل قليل الصور الذهنية في إدراكه ، فيفهم من كلام الأول إذا فات قدرته عجائب وغرائب في لغة ليس فيها عجيب ولا غريب . وكذلك المحب ، يتأول الكلمة من حبيبه فيخرج منها تهاويل وتهاويل ، وربما قضى ليلة إلى صباحها في تفسير لفظة واحدة صحبتها إشارة أو لابستها قرينة ، وقد لا يكون فيها غير معناها ولكن العاشق يريد فيها رغبة لا معنى ، فكأنه من همه بها مكلف أن يخلق منها خلقًا ... وهكذا. (٣) انظر فصل «قالت وقلت» صفحة ١٩٥ (من هذه الطبعة) ، فهذا تكملة لما هناك .

الحبُّ أن يخيِّم جوٌ موسيقيٌّ على بعض أيام العمر ؛ ليتمَّ فيه الانسجام بين نفس عاشقة وصورة جميلة ؛ إذ لا بدَّ لانسجام الجمال في الحبِّ من أن يكون المعشوق عند مُحبِّه في مثل تناسق اللّحن الفنّيّ ، لا يخرج منه شيء عن الوزن والطّرب ، فإذا كان العمر صفحات مكتوبة ، فأيام الحب هي الصّفحة المكتوبة بعلامات النّغم ، لا يقرأ شيء فيها إلا طَنّ و رنّ ورجع وصلصل .[1]

* * *

وتعاتبا مرّة فغضبت ، فقال لها : فلنفترق ، فما في الغضب من شيء إلا أنّه عناد الموقف . إنّ الموقف بين مُتكلّمَيْنِ أو متساجِلَيْنِ هو موقف حيّ ، فما أسرعَ ما يثبُ القلب إلى القلب في لفظة غاضبة ، فإذا اللفظة من ذلك كأنّما ملأها الدّم ومثّلتها الحياة ، فأصبحت شخصاً غير الاثنين لا يبالي بهما نفعاً ولا ضرًّا .

فاستضحكت لهذه الفلسفة وفكهت لكلامه – وما يعجبها شيء ما تعجبها المعاني – ثم قالت : إذن يمكن الاتّفاق وتقرير الأمر مع الكلمة ؛ أي مع الشّخص اللّفظيّ الغضبان ، لا معك أنت .

* * *

وقالت له في أمر : أنا راضية بحكمك فاحكم .

قال : قد عرفت الحكم ولم أنطق به .

قالت : فهل الحكم عطر في منديلك أعرفه من الهواء ؟

قال : بل عرفتِه بنفسك الرّقيقة الملهمة . وأما والله ، يا حبيبتي ، لو كنت محامية لسرقت من أدمغة القضاة أحكامهم .

قالت : منزلة رفيعة ، ولكنّها على سرقة وتلصّص.

قال : يا عزيزتي ، يلذُّ لي أنّها سرقة ؛ لأتخيل لها قانوناً ومحكمة وقضاة .

قالت: ثم ماذا بعد قانونها ومحكمتها وقضاتها ؟

قال : أرافعك إلى تلك المحكمة ، وأتّهمك بتهمة سرقة قلب .

* * *

الحبُّ طفولتنا الكبيرة كلُّ ما تملكه أن تبكي وتضحك وتمكر وتنافق ، ومعنى ذلك كلّه أريد أريد . ولو أمكن أن يكبر الطّفل ، ويبقى طفلاً ، لكان هو العاشق بذاته ، ولكان حبّه لأمّه وأبيه مُضاعفاً ـ عند السنين الّتي كبر فيها – هو العشق بعينه .

* * *

الدّموع أوهى من أن تهدم شيئاً ، ولكنّها تهدم صاحبها .

* * *

الدّموع هي روح المحيط السّماويّ ، أ لا ترى أنّها لا تسيل إلا مع الأقدار ؛ متى نزل القدر نزل الدّمع ؟

* * *

المعنى الّذي يكون في النّفس أكبر من الكلام في الحزن ، والفرح هو وحده تُعبر عنه النّفس بدموعها .

* * *

وسألها مرّة : ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من عين مهجور ؟

فقالت ، إنّه يقول : إنسان أحمق أو مخبول يحاول أن يجعل له بحراً من قطرتين !

قال : أراكِ ، يا فيلسوفتي ، لا تفهمين لغة الوجود .

قالت : فما ترى أنت ؟

قال : إنّه يقول عندئذ : تباركت يارب . أنا الجبّار المالئ ثلاثة أرباع الأرض ، قد آلمتني دمعة محبٍّ مُتألم ، فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهمّ في الأرض ؟

* * *

في نوح اللّحن الشّجيّ صورة الدّموع الّتي في

(١) الصّلصلة : الصّوت الرّنّان . والتّرجيع : أنْ يرجع بعض النغم على بعضه للتطريب .

أعيننا ، وإذا حنّ كانت فيه شهوة نفس ، وإذا جنح إلى الطّرب كانت فيه رغبة واقعة . وليس في الكون ما يجمع هذه الألحان الثّلاثة المتباينة في صوت واحد إلا زفرة الحبّ ، يأسى العاشق ويحنّ ويطرب ؛ فيقول: آه .

* * *

لو سألتني : من أعظم أهل الفنون على وجه الأرض ؟ لقلت لك : كلّ حبيب جميل هو في عين مُحبّه أعظم أهل الفنون ؛ لأنّه في نظر هذه العين هو وحده الذي يخلق الجمال الحيّ الرّائع ، ويضع معناه في كلّ ما يتّصل به ، حتّى لكأنّ جماله تفرّق على أجزاء العالم ، أو كأنّ أجزاء العالم التفت على جماله .

* * *

وقالت له : أنا لا أشفق على آلامك . وهل تراني أكره لك النّبوغ والعبقرية ؟ إنّ الألم في رجل الفنّ العبقري إنّما هو (عملية) التّصوير والطّبع في مخيلته ؛ فمواهبه الحسّاسه تخزن الوجود في [1] . وكُلّما رأى جمالاً أو قبحاً أو سروراً أو حزناً غمزته ليتألّم بمعنى ما رأى وحكمة ما أبصر ؛ لأنّ جهة الفنّ في كلّ شيء هي معناه وحكمته ، فيتألم ، فينطبع المعنى ، فيكون في المخيّلة مادّة من موادّ العمل الفنيّ حين يعمل . فذلك ليس ألمًا في إنسان كما ترى ، بل هو أداء طبيعيّ في أداة حيّة متّخذة لهذا العمل خاصة ، ميسرة له بكلّ حوادثها . ومن هنا فلا رحمةَ ولا مهاونة فيما يؤلم رجال الفنّ ؛ إذ لا تعرف منهم الحكمة الّتي خلقتهم إلا آلات ، آلات يجب أن تعمل حتى تتلف أو تتحطّم .

تزداد الجميلة إشراقًا وجمالاً بالحبّ ؛ لأنّ أثر نظرات مُحبّها يلازمها ، حتى إنّها لتحسّ في غيبته كأنّ نظره واقع عليها من عينه لا من فكرها ، وبذلك تتجرّد معانيها النّسائيّة لعملها الفني وتدأب عليه ، فلا تزال تجمل وتحسن ما دامت محبوبة معشوقة .

* * *

الحبُّ إيمان النّفس بكائن ظاهر ، والدّين إيمانها بكائن خفي . أ لا يكون ذلك أسلوبًا في الطّبيعة لحفظ الإيمان في الإنسانية ؟ [2]

* * *

أشعر أحيانًا كأنّه ما من رجل في العالم يحبُّ امرأة إلا ألم بحسّي شيءٌ من لذّة هواه ، فإن لم أكن أنا العالم كلّه فلقد جعلت حُبّي هو الحُبّ كُلّه .

* * *

أنت فيّ ، وأنا أنظر بك إليك ، هذه هي المشكلة الّتي جعلتك لغزًا لا حلّ له ، فما أقرب الحبّ من العبادة ، ما دام هذا الحبُّ هو تجلّي نفس في نفس ! وما أشبه بدين يعبد فيه الجسم الجسم ! فالمعشوق حالة نفسيّة مُتألّهة معبودة ، والعاشق حالة أخرى مُتولّهة عابدة .

* * *

لو عشق أعظم علماء الدّنيا لأيقنَ أنّ حيرة عقله في أسرار الكون لها شكل أدقّ وأغمض مع أسرار الحبّ ، ولعرف أنّ في أعماق النّفس الإنسانية مثل ما في أعماق الوجود : مسائل لا حلّ لها ، أ لا يخرج من ذلك أنّ كلّ مُحبٍّ يقابل في الطّبيعة بقلبه أو إحساسه أعظم العلماء بعقله وآلاته ؟

* * *

قد عرفنا أنّ لنا أعمارًا محدودة ، أ فلا يجوز أنّ ساعات الهناءة والسّعادة إنّما كانت محدودة لأنّها أعمار لأعمارنا ؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللّقاء الّتي تنفق بعدها ، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور ؟

إن كان هذا صحيحًا فما أقصرَ عمرك يا عمري!

* * *

كلّ الأمانيّ التي لا تتحقّق ، هي وجودٌ مخنوق في القلب .

(١) لعله يقصد « فيها » . *

(٢) تقدّم وجه آخر من هذا المعنى فيما نقلناه من كتابنا « المساكين » في صفحة ٩٦ من الشرح .

من تألّه الحبّ أنّ أوقاته هي الأوقات الّتي تتغيّر فيها الأشياء ، فتلبس في أفكارنا غير حقائقها ؛ وبذلك يثبت الحبّ أنّه أقوى من الحقيقة ؛ إذ كان يخلق فيها خلقة ويغيّرها في الفكر ، وأنّه أقوى من الزّمن ؛ إذ كان يطول به على العاشقين ويقصر مع أنّ الزّمن لم يقصر ولم يطل ، وأنّه أقوى من الوجود ؛ لأنّه دائماً إمّا ينقص منه في نظر العاشق ، وإما يزيد عليه .

* * *

إنّ المحبّ ليشعر أحياناً من شدّة القلق والاضطراب أنّ فكره يعدو بين الأشياء والحوادث وراء الاطمئنان الذي فرّ من قلبه .

* * *

حين يجدّ العشق بصاحبه يحبس عليه الزّمن كلّه في نقطة همّ ثابتة لا تتحرّك ، فتشتبه عليه الأيام حتّى لا يشعر أنّه يقضي يومين أحدهما يختلف عن الآخر.

* * *

العيون الّتي وراءها ضروب الأفكار المختلفة ، هي وحدها التي فيها ضروب التّعبير المختلفة .

* * *

في الحبّ لا فصل بين الصّغائر والكبائر ؛ إذ كانت قيمة الصّغيرة والكبيرة في اعتبارها لا في ذاتها . والحادثة في الحبّ تكون بالحالة الّتي تقع فيها أكثر مما تكون بنفسها ، فالهجر – وهو أشقّ وأعنت ما في الحبّ – قد يكون لوعة مطمئنة إذا كان عن دلال أو سلوان من الحبيب ، ولكنّه أشد الفظائع كلها وأكبر من القتل إذا كان سببه الميل إلى محبّ آخر ، فهو في سببه أكثر ممّا هو في نفسه؛ لأنّه خرج من المكان إلى الشّعور .

* * *

اللّيل والفجر والشّفق والأصيل ، هي أوقات الجمال في النّفس ، ولن يجعل لها سحرها السّاحر إلا أن تكون ذات مرة قد وقعت دقائق ملونة ... في ساعة حبّ .

* * *

ما وقفتُ أمامك مرة ، يا حبيبتي ، أنظر إليك إلا قلت في نفسي : من هنا يبدأ ما لا يدرك .

* * *

أصل الحبّ العاشق اتّساعُ الرّغبات المنجذبة وخروجها عن حدّها ، وأصل الجمال المعشوق اتّساع الأسباب الجاذبة وخروجها عن حدّها كذلك ، فمن ثمة لا أناة في الحبّ ولا عقل ولا استقرار ؛ إذ هو اجتماع فوضَيَيْنِ بأثَرَيْنِ على نفس ضعيفة .

* * *

هل تأمّلت مرة في اسم حبيبك ؟ وهل تعرف في الأسماء الكثيرة الّتي تماثله ما يماثله ؟

إنّ كلّ الأسماء من اللّغة ، وهو وحده من النفس . والأسماء كالأرقام الحسابية ، وهو وحده كالواقع المدلول عليه ، تقول : مئة ألف ، فتذهب كلمة في الهواء ليس لها ولا حقيقة واحدة ، ثم تعدّ الذّهب وتقول : مئة ألف دينار ، ففي هذه وحدها مئة ألف حقيقة .

* * *

أنا ، يا حبيبتي ، قد تجاوزت المنطِقة الإنسانية ، الّتي يقع في حدودها المدح والذّمّ ، فلا تأبهي لمن يذمّني عندك أو يمدحني .

أنا فوق هذه الطّبقة التي يتنفّسون منها كلامهم ، فإن ارتفع يريدني أحد منهم فوصل إليّ ، خنقه وصوله إليّ .

* * *

فلان وفلانة ، هو بدونها ناقص لأنّه وحده ، وبها ناقص أيضاً لأنّه معها .. هي كالفصل له عن الكمال . وهذا أكثر عمل المرأة وعمل أكثر من النساء .

أنت لا تحفلين ، أحببتك أم أبغضتك ؟ ولا تدافعين عن شيء منك في نفسي . ولكنّ كلّ شيء

منك يدافع في نفسي عن نفسه ، وينتصر ويتغلب .

هل تلبس الزّهرة أوراقها ولونها إلا لتظهر عارية الجمال ؟

هل تلبس الحبيبة كبرياءها ودلالها إلا لتظهر عارية الحبّ ؟

ومع ذلك فروح الشّجر المُرّ هو الماء العذب .

يا قلبي !

كانَ لي قَلْبٌ ، فَيا عَجَبي
لَيْسَ فـي جَنْبـي سِـوى أَثَـرِه
ضـاعَ مِنّـي فابْحَثوا تَجِدوا
فـي ابْتِسامِ الحُسْنِ أو نَظَرِه
وَيْحَهُ قَلْبًا أعيشُ عَلـى
صَفْوَةِ عَيْشـي عَلـى كَدَرِه
يَرْتَقـي كالنَّسْرِ ثُمَّ تَرى
مُرْتَقـاهُ عَيْـنَ مُنْحَـدَرِه

* * *

هَهُـنا قَلْـبٌ وَحـامِلُه
مَيِّتُ الأمـن علـى حـذره [1]
ذابَ ذَوْبَ العِطْرِ مُذْ وُقِدَتْ
لِلْهَـوى نـارٌ عَـلى زَهَـرِه
ضُـرُّهُ مـا كـانَ مَنْفَعَةً
نَفْعُهُ مـا كـانَ مِـنْ ضَـرَرِه
عـابِسٌ كاللَّيْلِ لَيْسَ بِـهِ
أَمَـلٌ إلا سَنـا (قَمَـرِه)

* * *

وهنـا قَـلْبُهُ وَصـاحِبُهُ
قَـدْ بَنـى الدُّنْيا عَلى حَجَرِه ...

(١) من كان حذرًا مستمرًا في حذره كان ميت الأمن ؛ إذ لو أمن لما حذر .

تَقْـرُصُ الآلامُ مُهْجَتَـهُ
مِثْلَ قَرْصِ الوَحْـشِ مِنْ ظُفُرِه [2]
وَالحَديدُ الصُّـلْبُ تَحْسَبُهُ
صـورَةً عَمْيـاءَ مِـنْ صُـوَرِه ...
لَـمْ يَلِـنْ لا بِمِـطْرَقَةٍ
مِـنْ قَضـاءِ اللهِ أَوْ قَـدَرِه

* * *

وَسُـؤالٌ لا جَـوابَ لَـهُ :
أيُّ ذَنْـبِ الحُـلْوُ فـي ثَمَـرِه ؟
لَـوْ يُبينُ الحُلْوَ خالِقُـهُ
كَيْـفَ يَسْقـي المُرَّ مِـنْ مَطَرِه ؟

* * *

البحر

وكتب إليها من شاطئ البحر ، وكان قد ذهب إلى هناك مستشفيًا من علّة أصابته [3] :

لقد كنت والله من وثاق المرض كالسجين المُغَلَّل ؛ يحمل على أعضائه أعضاء من قيود وسلاسل ، فلا يجد في كلّ الأمكنة أوسعها وأضيقها إلا جسمه والجسد الحديدي الذي فيه جسمه ، وكأنّه من الكرب لم يقيد وإنّما أقفل على روحه من ذلك الحديد بقفل يكفّ هذه النّفس ويحول بينها وبين الدّنيا .

فلمّا احتواني البحر جعلت سلاسلي تذوب فيه شيئًا من شيء في يوم من يوم ، ثم كأنّها لم تكن إلا آثار لون أسود فغسلها البحر ومحاها ، أو كانت جمرات ألم أحمر فأطفأها وسال عليها .

(٢) الإنسان لا يشعر إذا هو قرص في ظفره الرقيق ، فكيف بالوحش وظفره كمخرز الإسكاف ؟

(٣) كان صاحب الرسائل قد مرض مرضة طويلة بالنزلة الشعبية ؛ فجزعت لمرضه ، وكانت تعالجه بأسطر من بلاغتها كالدواء . وذهب إلى البحر متنقلاً ، فلما وجد خفًا من نسيمه وروحه كتب إليها هذه الرسالة . ولم ننشر رسائلها إليه في مرضه لأنها خاصة .

ألا ما أعجبَ رحمة الله ! فبينا هموم الإنسان في موضع هي أشدُّ اندماجاً من الحديد ، إذا هي في موضع غيره متخلخلة أسرع ذوباناً من الملح المُبتلّ : كأنّ مكاناً يلبس أنفسنا ومكاناً يخلع عنها ، أو كأن الأرض يتباين ِ أمكنتها وبقاعها تقابل الأقدار في اختلاف عللها وتصاريفها ، حتّى يكون السَّفر من بلد إلى بلد أحياناً كأنّه تحوُّل من قدر إلى قدر .

كان المرض يُخيَّل لي أنّ هواء ناحيتي مستنقع مُعلّق ؛ فجئت إلى هواء البحر ، فإذا هو بحر ذائب [1] يحسُّ المتنفّس منه أنّ في صدره مثل الموج على ما ركد فيه مما تركته الأيام والليالي من أحداثها وهمومها ، فإذا صدره جيّاش مصطخب بالحياة يفور بها ويتضرّب ، وإذا موجة من العافية قد اندفقت في هذا الصّدر فثلج وابترد وتنقّى ، كأنما غسل ثم غسل إلى ملء بحر .

وأرى السّماء هنا والبحر مُتدلٍّ منها ، فكأنّها محيط أزلي وهذا البحر كلّه موجة واحدة ، وَثَبَتْ من هناك عن ثبجها الأزرق [2] و وقعت إلى الأرض ، أو هذا بحر سائل موّار إذ هو يدفع أنفاس الحياة الأرضية الفانية ، فلا بدّ أن يجري ويتحرّك ، وذاك بحر مستقرٌّ لثباته على الأزلية الخالدة . ويقع من أحد البحرين ثبات اليقين في روحي ، ومن الآخر حركة الأمل في قلبي ، وتندمج بهما في حياتي روح أيام زاهية مضيئة كأنوار السّماء ، وروح آمال بلية مُنعشة كأنفاس البحر .

وأرى البحر مائجاً يترشّش ويتناثر وهو بارد ، ولكنّه يبدو كما يغلي الماء في وعاء على النّار ، يتقاذف من شدّة ما يغلي ، يضطرب ويدوي كما يرجف الرّعد تردّدت هدهدته [3] يجاوب بعضها بعضاً ، فكأنّما البحر سحاب عظيم قد حبسه الله في الأرض ، فهو أبداً ثائر يضجُّ ويرعد ، ولا يبرح ينازع الأرض أن يفرَّ منها .

(١) جو البحر : ظهره يكون مشبعاً من بخار مائه ، فكأن تلك البلة بحر ذائب في الهواء . (٢) ثبج البحر : ظهره ، ومن ينظر إلى البحر في آخر الأفق يتخيله كذلك .
(٣) الهدهدة : رجفان الرعد على السحاب .

وأعرف للبحر في نفسي كلاماً فهو يوحي إليّ : أن تَجَدَّدْ تَجَدُّدْ في آمال قلبك كأمواجي لكيلا تملَّ فتيأس ، وتحرّكْ تحرُّكْ في نزعات نفسك كتياري لئلا تركد فتفسد ، وتوسّعْ توسُّعْ في معاني حياتك كأعماقي لئلا تمتلئ فتتعكّر ، وتبحّرْ تبحُّرْ [4] في جَوِّك الحرّ كرياحي لئلا تسكن فتهمد .

كن مثلي جبّار الحياة مجتمعاً من ألين اللين وأعنف القوة . كن مثلي قدّيس الحياة واسع الرّوح نظيف المادّة مستعيناً لواحدة بواحدة . [5] كن مثلي جميل الحياة ثابتاً على الرّقّة والصّفاء ، وإنّ من وراء شاطئيك الرّمال والحجارة وطين الأرض وناس الأرض. كن مثلي حُرّ الحياة محتفظاً بالسّعة والحركة والعمق . كن مثلي إلهيّ الحياة ، ليس بينك وبين السماء شيء يحجبك أو يحجبها ، وعلى وجهك دائماً أنوار الشّمس والقمر والكواكب . كن مثلي شابَّ الحياة ، فلن تهزم أبداً إذا ثلجت روحك بالرّضا فتبلّل شبابك بأندائها ، فعمرك كلّه عمر الفجر .

* * *

ولكن ، أيها البحر ، ما هذا البريق الّذي تسطع به حتّى لكأنّك تحت الشّمس أرض من الزُّمرُّد والفيروز والماس ؟

وما هذه الرّقّة في هذا الأديم الذي تتعرّى به ، حتّى لكأنّ كلَّ موضع فيك عليه بَضاضة [6] وإشراق من جسم فاتنة عارية ؟

بل ما هذا التّوحُّش في هذا الموج الذي تزأر به زئيراً يتردّد في كلّ نواحيك ، حتّى لتلوح كلُّ موجة من كلّ موجة كأنّما هي لِبَدُ أسودٍ بيض غاطسة في الماء ، يحمل بعضها على بعض للقتال ؟

وما هذا الهدوء ساعة تستقرُّ في جوٍّ خافت كهمس التّسبيح ، فتبدو كقلب المؤمن رسب في أعماقه اضطرابُ الظّنّ بالحياة ، وطفا على اطمئنان التّوكّل على الله ؟

(٤) التبحر : التشقق والتوسع . (٥) كل واحدة من هذه المعدودات تعين على اكتساب الأخرى .
(٦) امتلاء الجسم ونضرته . *

وما هذه الثّورة ساعة تستفزٌ في جوٍّ صاخب كمعمعة المعركة ، فتظهر كالمخبول ثارت خواطره ، فهنّ كأمواجك مبعثرة طائرة ، وكأن زوبعة سكنت فيها ؟

* * *

ولكنْ ، أيها البحر ، هل يقال لك : ما هذا ؟ وما هذه ؟

كلا ، فما أنت إلا كذلك الجمال المعشوق : يسطع ويرقٌ ويتوحّش ويهدأ ويثور ، وله الأشعّة الزّاهية البرّاقة ، والعري الحريري المُخْمَل [1] ، والزّئير والهمس ، والأعاصير والزّوابع ، ثم لا يسأل في كلّ هذا ولا مرّة واحدة : ما هذا ؟ وفي كلّ هذه ولا مرة واحدة : ما هذه ؟

* * *

ورأيت ، يا حبيبتي ، هذا البحر مضيئًا ممتدًا كأنّه نهار أبديٌ أمسكته الدُّنيا لينير النّور في قلوب أهلها ؛ فإنّ النّور يظلم فيها .

ورأيته كالمعاني النّديّة بثّها الله من رحمته في جفاف الحياة ومعانيها . ورأيته استواء واحدًا في وضع الجمال ، ليس فيه موضع أعلى من موضع .

ورأيته دائم التّرجرج ، كأنّه مُتهيّئ أبدًا ليسكب معانيه في فكر النّاظر إليه .

ورأيته لا يحمل أن يوضع لإرادته حدّ ، فهو دائمًا يصدم الشّاطئ كأنّه يقول له : اذهب من هنا .

* * *

رأيت فيه كلّ هذا ؛ لأنّ مثل هذا كلّه في جمالك أنت وفي معانيك . فأنت بجمالك المشرق لمعة من نهار أبدي .

وأنت بعواطفك رحمة من الله لقلبٍ ، لولاك لجفّ .

وأنت بحسنك لؤلؤة كلّها وَضْعٌ واحد في الحسن .

وأنت دائمة التّرجرج في خواطري دائمة الانسكاب في قلبي .

وأنت لا تحتملين أن أضع شاطئًا لإرادتك .

وأنت ، أنت ، أنت ..

فلسفة المرض

ولمّا برئ من مرضه كتبت إليه تسأله فلسفته في المعاني الّتي ينشأ المرض لإيجادها في النّفس ، فكتب هذه الرّسالة وتجافى عن ذكر الحبّ فيها ؛ إذ كان الشّأن حينئذ شأن الحياة . وقد كتبها وهو في أعقاب العلّة . ولولا أنّها هي طلبت منه هذه الرّسالة ، وأنّها أعجبت بها وعدّتها من آثارها فيه لما نشرناها هنا :

خلقت نفس هذا الإنسان وكأنّها ثلاثة أنفس ، إذا كان دأبًا لها أن تكون طامعة مُتلفّتة وثابتة ، فهي لا تكون على رزق ترزقه ، ولا تثبت على حال تحول إليها ، ولا تقرّ في منزلة تسفل بها أو تعلو .

وهي كذلك لا تبرح تنزع مما وجدته إلى ما لم تجده ؛ لأنّ الشّوق أحد عناصرها . ولا تنفكٌ مُتقلّبة تجعل ما ترضاه يومًا هو ما تسأمه يومًا ؛ لأنّ الرّغبة إحدى طبائعها . ولا تزال تتخطّى حدود الأشياء ؛ لأنّها من الأزل بنيت على الخلود الّذي لا يقف على حدّ ، فالشّوق الثّائر في حاجة إلى فترة تكسر من حدّته ، والرّغبة المجنونة في حاجة إلى ضعفة تُهدّئ من ثورتها ، وخطوة الخلد الّتي لا تزال دائبة تتقدّم ، في حاجة إلى عثرة بمعنًى من معاني الفناء المعترضة في طريق الحياة .

وبذلك يكون الإنسان دائمًا في حاجة إلى بعض الأمراض ، لا ليمرض ولكنْ ليصحّ ، إلا أنواعًا من أساليب الموت تسمى أمراضًا لا حيلة فيها ولا يكون المريض معها إلا كالوعاء يشقٌ ليحطّم وينتهي ، لا كالوعاء الذي يصبٌ ما فيه لينظف ويملأ ويبتدئ.

فالمرض الرّحيم وضع النّفس في وثاق يُمسكها

---

(١) النسيج الناعم .

حيناً ليحبسها على تأمّل حقائق الحياة المُغطّاة ، ويكرهها على أن ترى الدُّنيا أهون من أن تصغر لها نفس ، وأحسن من أن يسقط بها قلب ، وأحقر من أن تتهالك عليها الأحياء . ثم ليريها رأي العين أنّ العالم مصبوغ بأخيلتها الوهمية الّتي نفضت عليه ألوان الجنّة ؛ فأفسدته بهذا التّمويه ، وتركت أهله يتكذّبون في أوصافه فيخطون في حقائقه ، وجعلته كالقمر : هو في ذاته حجر مظلم ، ولكنّ ذهب الشّمس يجعله كلّه فضة بيضاء .

إنّه لا يفسد الإنسانَ إلا الغرورُ . ولا يكون الغرور إلا من الطّيش ، ولا يطيش بالرأي إلا سوء التّقدير . ولا يكون هذا السّوء أكثر ما يكون إلا من بلاء العافية على الإنسان . وإن من بلاء العافية ثلاثاً : عافية الجسم وعافية الهوى ، وعافية المال . فأما الجسم فأقرب ما وجدته إلى الحيوان الضّاري الخبيث أشدّ ما وجدته قوة وعافية . وأمّا الهوى فلم يخلق الله شيئاً كلُّ هلاكه في قوته غَيْرَهُ ، وأمّا المال فعافيته في رجل واحد مرض في ألف رجل إلى ألوف كثيرة ، فهو حصر الدنيا كلّها في بعض أجزائها .

فكأنما تطوف الأمراض في هذا العالم لتصلح نواحي الإنسانية فيه ، فتضعف الحيوانية ، وتكسر شرة [1] الهوى ، وتكف طغيان المال عن النّفسِ حتّى لا شهوة فيه ولا قُوّة له . ولو جمعوا ما أصلحته الأديان والقوانين من أحوال النّفس وطباعها ، ثم ما أصلحته الأمراض منها ؛ لرأيت أنّ لله أنبياء من هذه الأمراض يرسلها إلى الدّم الإنسانيّ ، وأنّ « الميكروبات » السّابحة في الهواء كالأملاح الذّائبة في البحار : لولا هذه لتعفّنت الأرض ، ولولا تلك لتعفّنت الإنسانية .

* * *

تأمّلْ هذا المريض وهو خاثر النّفس ، مُتخاذل الأعضاء ، كاسف الوجه ميت الهوى ، لا يتماسك مما به من الضّعف ، ولا ينبعث لما به من الخمود ولا يتشهّى لما به من الفتور ، ولا يتذوّق بما في روحه من المرارة ، ولا يجرؤ لما في حسّه من الإشفاق ، ولا ينظر إلى الدُّنيا إلا بملء عينيه زهداً فيها ، كأنّما بثّ المرض في عينيه شعاعاً يُنفذ الأمور إلى حقائقها ، ثم يخترق الحقائق إلى صميمها . أ فلا ترى هذا الإنسان قد عمل فيه مرضُ أيامٍ قليلة ما لا تعمل العبادة مثله في أزهد النّاس إلا في السّنين المتطاولة ؟

إنّما هي ثلاث وسائل للجمع بين الإنسان وحقيقته العليا : العبادة القويّة ، وقد عجزت إلا في أفراد قلائل ؛ والحكمة الصّحيحة العالية ، وهي أشدُّ عجزاً إلا في الأقلّ ؛ ثم لم تكن الوسيلة العامّة التي تتناول النّاس جميعاً ولا يستعصي عليها أحد ممن أطاع أو عصى ، إلا المرض .

يوجد الإنسان ليُمحى ويزول . ولم تتمكّن الفضيلة الإنسانية من نفس إلا إذا تمكّنت هذه الفكرة منها . فإنّ الزّائل يرى ليومه ما بعد يومه ، ويعلم أنّ حقّه على النّاس ليس شيئاً أكثر من حقوق النّاس عليه ، ويحتاج إلى العمل لروحه كما يعمل لجسمه . وما يكون زادُ الرّوح إلا من آثارها في الأرواح الأخرى ، ومن آثار هذه الأرواح فيها . فإذا كانت حقوق الأجسام تدفع النّاس إلى التّنازع على البقاء ، فإنّ حقوق الأرواح تقابل هذا النّاموس بما يصلحه ، فتزيد في النّاس إلى القوة الرّحمةَ ، وإلى الغنى الإحسانَ ، وإلى العزّة المروءةَ ، وإلى كلّ طغيان ما يمازجه ، فيكفُّ من جماحه ، ويجعله إلى الخير أو من الخير .

وإنّ أعجب ما في الإنسان أنّه يرى الموت والموتى بين السّاعة والسّاعة ، ثم لا يستشعر من كلّ ذلك معنى زواله ، كأنّ عادة الحياة أخمدت هذا الحسّ فيه أو أخملت منه ، وما هو إلا أساس التعاطف الإنساني ، ثم لا يكون إلا أن يمرض هذا الإنسانَ يومٌ ، فإذا هو قد تلقّى الدّرس على أحكم أساتذته ،

(١) شَرَّة : مؤنث شر ، وتستخدم للتفضيل ، وأيضاً حدّة الشيء ، وهي المقصودة هنا . *

ورأى نفسه كان يمشي فقعد ، ويستطيل فتقاصر ، ويشمخ فانهدّ ، ويُسَرُّ فحزن ، وإذا هو قد بدل من الصّوت خفض الصّوت ، ومن الإعجاب مقت الإعجاب ، ومن الخلاف ترك الخلاف ، ومن جفوة النّاس حاجته إلى رحمة النّاس ، ثم إذا هو قد أمسكَ عن كلّ ما كان فيه من العمل ، وأقبلَ على الصّحراء المخيفة التي بين الدنيا والآخرة ، وأحسّ من غمزة يد الله في مواضع آلامه أنّ الإنسان مهما يكن من قوة الأسر وشدّة البأس فما هو بعدُ إلا حبّة صغيرة واهنة بين شقّي هذه الرّحى العظمى الدّوّارة الّتي حجراها الشّمس والقمر .

* * *

سبحانك اللهمّ ! إنّما هذه الأمراض أخلاق أنت تنشئ بها الرّحمة في قلوبنا المتحجّرة ، وتصرفنا فيها إلى نفوسنا بعد أن نكون قد جهلنا هذه النّفوس في أعمال الحياة أو جهلتنا ؛ وتعلّمنا جميل صنعك في تواتر حلمك علينا مع قبيح صنعنا في ترادف عصياننا لك ؛ وتنقّلنا بها في خطوة سريعة من خطى الأزلية لنرى الدّنيا من آخرها فلا نجد نعيمها إلا معاني الهلاك ، ولا ملذّاتها إلا أسباباً من النّدم ولا غناها إلا فنوناً من الحسرة . ثم لا ننظر في أجسامنا إلا أشكالاً قائمة من التّراب ، ولا نعرف من أعمارنا إلا أنفاساً كانت تصعد من فم القبر . وإذا أذنت بعد في شفائنا ومسحت بيد العافية علينا ، كانت الأمراض وسيلة من وسائل تجديد العمر ، وخرج المريض وكأنّه مُقبل على الدنيا من ناحية لم تكن فيها ، فينسم من كلّ شيء رائحة الحياة ، ويرى على كلّ جمال أثراً كأثر الحبّ ولذّته وحنينه ، ويستقبل نفسه الرّاجعة إليه في موكب الحواسّ القويّة ، فلا يكون له إلا ما قد يكون مثله في الملك المخلوع أعادوه إلى العرش ، فجاءوا بالتّاج وأقاموا له الزّينة ، وحشدوا له الحفل وقالوا : سمعنا وأطعنا .

سبحانك ! إنّما هذه الأمراض مواعظ منك تُعلّمنا كيف نضع شهواتنا في موضعها من الضّرورة ، ونحصرها في حدودها من الازدراء والمقت ، فلا تعدو بطبائعنا علينا ولا تعدو بنا على سوانا ، وإنّه ما يخطئ امرؤ في الحياة إلا من إقرار شهواته في غير أمكنتها ؛ حتّى تأخذ من عقله وتنال من رأيه وتجور على حواسّه، فيقلبها ذلك من أن تكون حركة في الحياة إلى أن تصير الحياة كلّها حركة من حركاتها ، وحينئذ لا تكون الشّهوات إلا أكثر ممّا هي ، فتقتضي أكثر مما تستحقّ من الجهد والعمل الإنساني ، ولا تكون الحياة إلا أحقر مما هي ، فلا تخرج إلا أقلّ ما يمكن أن تخرجه من القيمة الإنسانية .

سبحانك اللهمّ ! إنّما هذه الأمراض في الدّنيا بعض موادّ البحث الفلسفيّ العميق لدرس أساليب الطّبيعة البشريّة . فكم من « عملية جراحية » في طبّ النّاس هي في الحقيقة « عملية حسابية » في وزن هذه الطّبيعة وتقديرها ، وكم من أنّةٍ وَجَعٍ في المرض ، وهي نفسها كلمة عتاب بين الطّبيعة والنّفس ، وكم من ضجعة للدّاء هي في الواقع نهضة للأخلاق من ضجعتها .

سبحانك ولك الحمد ! إن ساعة النّجاح وتحقيق الآمال وانتعاش الحظّ وتبديل صورة من الحياة بحياة غيرها تكون أسمى وأكمل ، وساعة الغنى وإقبال الدّنيا ومسالمة الأيام ، وتزيين الحياة بحياة أجمل منها وأبدع ، وساعة الحبّ وفيضان الجمال على النّفس ، ونسيان الحياة بالحياة الّتي هي أمتع منها وألذّ — كلّ هذه السّاعات لا تعدُّ إلا دقائق وثواني من السّعادة إذا اتّفقت بعد المرض ساعة الحياة ساعة رجوع الصّحّة .

* * *

يوم النوى

يا ظُلَّةَ المَوْجِ يطغى البَحْرُ مُنْتَفِضاً
بِها ، كَأَنَّ جَبَلَ في البَحْرِ يُقْتَلَعُ
تُظَنُّ زَلْزَلَةً في الماءِ قَدْ جَلَسَتْ
أَوْ لا ، فَزَوْبَعَةً في الماءِ تَضْطَجِعُ
تَقَلْقَلَتْ ، فاسْتَطارَتْ فانْثَنَتْ ، فَهَوَتْ
فَأَطْبَقَتْ ، فارْتَمَتْ كالرُّعْبِ تَنْدَفِعُ
عَلى غَريقٍ بِحَبْلِ الماءِ مُعْتَصِمٍ
وَالحَبْلُ في لَمَساتِ الكَفِّ يَنْقَطِعُ
لَهُ بَقِيَّةُ روحٍ في أَصابِعِهِ
يُنازِعُ المَوْتَ فيها وَهْيَ تَنْتَزِعُ
بَيْنَ الحَياةِ وَبَيْنَ المَوْتِ مُرْتَكَسٌ (١)
يَقيئُهُ البَحْرُ أَطْواراً وَيَبْتَلِعُ
أَ ذاكَ أَعْظَمُ هَؤلاءِ في فَجيعَتِهِ
أَمِ المُحِبّونَ في أَحْبابِهِمْ فُجِعوا ؟

* * *

يا لُطْفَ نَفْسِيَ لِلعُشّاقِ ! تَحْسَبُهُمْ
يَوْمَ النَّوى نُزِعَتْ مِنْ قَلْبِهِمْ قِطَعُ
الحُبُّ قاتِلُهُمْ بِالصَّبْرِ إِنْ صَبَروا
وَالحُبُّ قاتِلُهُمْ بِالهَمِّ إِنْ جَزِعوا
إِنْ وَدَّعوا ذاهِباً لَمْ تَلْقَ حُزْنَهُمو
مِنْ أَنَّهُ سارَ ، بَلْ مِنْ أَنَّهُمْ رَجَعوا
رَبّي ، مَتى تَهَبُ الأَحْزانَ مُخْتَرِعاً
في هَذِهِ الأَرْضِ لِلنِّسيانِ يَخْتَرِعُ ؟

* * *

(١) الارتكاس : أن يرجع آخر الأمر على أوله .

الهجر

ولما تهاجرا كتب هذه الرّسالة (١) فيما كتب لنفسه :

رسم الماضي من الحبِّ صورته في نفسي ، وأتى الهجر يمحوها ويرسم غيرها . ففيما يثبته ، ألم الأيام المكروهة تأتي ، وفيما يمحوه ، ألم الأيام المحبوبة تذهب . ومضى الزّمن الذي يومه ساعة ، وجاء العهد الذي ساعته يوم وأيام . وانقضى عمر الحقيقة ، وبقيت من الحادثات كأنّها قبر من اللّغة قد أُنزلَ فيه تاريخ حبٍّ مات .

وكما ينزع المرض عافية لبسها الدّمُ ، نزع الهجر أيام قلبي ، وتركني في أيام كأنّها من غير زمني ، و وضعني منها في حياة كأنّني لا أحياها ، وانتهى بي إلى حالة كأنّما وقفت الحياة عندها وقالت لي : سر وحدك وعش في آلامك لا فيَّ .

هي حالة النّار الّتي كانت مشبوبة ، وتهمُّ أن تخمد ، فتقول للأثر الّذي تخلفه : عش وحدك ، يا رمادي .

أما إنّي مثلك ، يا رمادَ الجمر : قطعت حياة اللّهب والشّعاع إلى آخرها المنطفئ .

* * *

أية عاصفة احتملتني من أيام الشّمس وليالي القمر ، وألقت بي في هجر منقطع كليالي القطب المضيئة بجبال قائمة من الثّلج ، كأنّها شموع تنير في ذلك الهول المحيط بها ، إذ لا تظهر فيه النّجوم على سمائها إلا كحصىً من الجليد ، ولا تمر الشّمس هناك في أفقها إلا وهي ترتعد من البرد ؟

كان الجو العاصف كلمة غضب صغيرة ، ولكنْ أرادها قلبي بمعنًى وأرادها قلبها بمعنى غيره ،

(١) انظر « رسائل الأحزان » لتستتم معاني رسالة الهجر هذه .

فلم يبق للكلمة على ما أردت وأرادت لا معنى في نفسها ولا معنى في نفسينا ، وبطل منها عمل اللّغة فإذا هي قدرٌ عاتٍ لا زمام لنا من الفهم على جَمَحاته .

كلمة كانت من المادّة النّفسيّة المُشتعلة بالعناد ، المنفجرة بالغضب ، المُصوّبة بعد ذلك كالرّصاصة المُنطلقة ، لا تراها بدأت إلا قلت انتهت . وربما قالوا رميت والمعنى قتلت . وإذا قيل في الرّصاصة المنطلقة قد ذهبت ، فاعلم أنّه قد مات من اللّغة إلى الأبد لفظ رجعت أو ترجع .

وعلى ظهر كلمة الغضب وضع الماضي رحاله المملوءة جمالاً وفكراً وعاطفة ولذّات ، وانحدر على طريق النّسيان فذهب حيث لا يلحق ، ورمى إلى حيث لا يعود .

ألا ما أشأمَ السّاعةَ الّتي تُعارض فيها كلمة قلب كلمة قلب آخر يحبُّه ، وتقف لها كبرياءُ معشوقة بإزاء كبرياءَ تعشقها ، وتُضيّق نفس على نفس ، تحاول كلتاهما أن تحبس الأخرى في سجن كلمتها!

تلك ساعة تكون والله بين العدوّيْن أخفَّ وأرحم ممّا هي بين الحبيبين . ولعمري وعمرك ما التقاء العدوّ بعدوّه في مناجزة إلا صورة همٍّ وروعٍ مُصغّرة من صورة ابتعاد حبيب عن حبيبه في هجر . إن معركة الدّم لأصغرُ من معركة الدّمع .

* * *

كبرياؤها الآتية من أنّها هي المعشوقة ، وكبريائي الّتي أستشعرها من أنّي أنا مُحبُّها ، كلتاهما كانت العزيمة الهائجة المحتدمة الّتي أدت شدّة المبالاة فيها إلى عدم المبالاة ، وجمعت منّا جهلتين غير مبصرتين ، واستكبر لها الواقع المحدود، فانتهى من غضبه إلى سورة معركة ، واندفع بها التّيار الّذي جعل يزحزحنا واحداً عن واحد ، حتّى فصلنا انفصال شاطئين ، وفقدنا ما يُسمّى في اللّغة السّياسيّة (إدراك حقيقة الحالة) فانتثرت بيننا ما تُسّميه تلك اللّغة (بالمسائل الشّائكة) وأصبحنا من حيرة وعجز وسوء بصيرة في مثل الحالة الّتي يُطرح فيها اللّغز لحلّه فإذا منه لغز آخر ، وكان عقدة ناعمة كملمس الحيّة فانتهى إلى مسّ السُّم النّاقع . ثم ضلّت في ضلالنا الكلمة الّتي كانت تصلح للصُّلح، وضاق عنّا الحبُّ بأخلاقه فلم يَبْقَ منّي ومنها غير (لا) قائمة في وجه (لا) .

* * *

إنّه الموقف العقليُّ المصبوب على قالب فلسفتها حين تقول إنّك لن تحكمني ، ولو أنّك في الواقع تحكمني . وعلى قالب فلسفتي حين أقول إنّني لن أغلب في شيء ولو أنّني في كلِّ شيء مغلوب .

كلمة بيننا ليس لها ناهية ولا آمرة من العقل ، فلا تنزل في خاصِّ معناها ولا تقرُّ في معنًى يمسكها على وجه مفهوم ، وكأنّها في موضع مسحور لا يستقيم فيه برهان ولا يحقُّ حقٌّ ولا يبطل باطل ، وفيها ملء القفر من الإصرار الجافي الموحش ، فإذا تقدّمت لها شفاعة الحبِّ لم تقع من كلينا إلا بأبعد البعد : كالّذي يضلُّ في صحراء فيظمأ ويلتاح [1] ، ثم يذهب يحفر عن بَلّة أو جرعة ، حتى إذا أوشكَ أن يذبحه الظّمأ بنصل من خيال الماء عثر على إناء مختوم فيفضُّه فإذا فيه جرعة تاريخ قديم تنبئ عن مدن وأطلال ودولة وشعب كانت هنا – هنا في موضع قبره هو .

وليس التّعب أشدَّ شدّة ولا أثقل ثقلاً من موقف عقلي تقفه مغالب نفسك على حقيقتها ، فتبغض أنت وهي عاشقة ، أو تماري وهي مقتنعة ، أو تجحد وهي تقرُّ ، أو تعزم العزمة وهي تنقضُ عليك ، فأنت في تزوير فكرك على نفسك ، وفي ردِّ نفسك على الفكر ، ثم في التواء حقيقتك الّتي جعلتها محركاً واحداً يعمل في حركتين متناقضتين ، ثم تهلك بعناد باطل تزعمه ضروريا لنفسك على أن يكون كفكرة فقط وأما كعمل فلا ، على حين هو واقع عملاً فقط وأما كفكرة فلا .

---

(١) يعطش . *

ويحك يا من يزعم لأحد الشّاطئين رجلاً يمشي عليها ليتخلّص من مقابلته الشاطئ الآخر ، ومن تقييده بمضادّته وممادته على مداه ! أ رأيت ذلك يكون قبل أن يكون للبحر الذي بينهما جناحان فيطير من بين شاطئيه ؟

ويحك ! فما معنى الهجر والمراغمة عليه ، ولم يطر من بينكما الحب ؟

* * *

أتجنّبها وهي في وجودي ، وأحطّم بعقلي هذا الفؤاد الشّعري الرّقيق الذي بين جنبيّ ، وأتخذ لها في نفسي من الهجر اسماً جافًا يابساً كاسم الحطب، وهي باقية زهرة هذه النّفس .

إنّ هنا وهناك وهنالك ثلاثة مواضع للغيظِ وللكمَدِ ، ولكنّها أيضاً ثلاثة مواضع لعظمتي وسُموّي . إنّه لا صلح لقلبين لم يصطلح فكراهما .

فآه من ألم السُموّ الّذي يجعلني أفرّقُ حياتي على الأشياء والمعاني ؛ لتتغير في نفسي ، وأعيش أنا في مثل هذا الهجر على المعنى الذي لا يتغيّر كمعنى البلى ، ولا يتسامح كمعنى الضّغينة ولا يترخّص كمعنى العقيدة .

وآه من كِبْر النّفس على صغائر الحياة ، ومن صغائر الحياة على كبر النفس ! ولقد يكون الملك العظيم في حشده وجنده وحوله وطوْله ، ثم لا تعبأ ذبابة من الذُباب أن تقع على وجهه ، ولو نطقت لقالت صادقة : وإنْ كان ملكاً فإنّي ذبابة .

وآه من عين الحكمة التي تبصر كرة الأرض هباءة طائرة في اللانهاية ، وترى الكون العظيم ذرّة مكبّرة ، وتضاعف الأشياء على النّفس مرة ، والنّفس على الأشياء مرة أخرى ، ولا تبرح تخلق خلقها على ما تحبُ وتكره ؛ لأنّ فيها ألوهية الفكر .

آه من هجر هو سموّ ، ولكنّه من الصّغائر . هو حكمة ولكنّه من الألم . هو هجرها لكنّه هو حبُها .

* * *

من قلمها

هذه فصول منتزعة من بعض رسائلها ، نشرناها مقتضبة [1] تلمّح بمعانيها لمحاً ؛ ليكون في هذا الاقتضاب شيء من الإبهام ، فتكون مع الإبهام كأنّها لم تنشر ما دامت هي لم تكتبها لتنشر كما تزعم .

فلسفة تأخير الرد :

أخّرت جواب رسالتك لتجيب عنّي بظنّك . وستجيب بأنواع متناقضة مما يسوؤك ويسرُك . وتضع في أجوبتك مئة (نعم) ومئة (لا) ، ثم يأتيك بَعْدُ كلامي فينزل من نفسك منازل لا منزلة واحدة ؛ إذ تقابله بكلّ ما قدرت في نفسك من قبل ، فيسرُك على قدر ما أحزنت هذه النّفس ، ثم يعطيك من اليقين ما يسرُك من ناحية بإثبات الحقيقة ومن ناحية أخرى بمحو الظّنّ .

هذه سياسة بعض ما يحتاج إلى الشّرح في بعض علاقات النُفوس ، يكون السُكوت الطّويل فيها هو أطول شرح للكلام الّذي يأتي بعده ، يُفسّره تفسيراً غير مكتوب .

* * *

طفولة فلسفية :

أظنُ هذه الفترة الّتي انقضت في سكون ظاهر كانت كلُها أحاديث ، أحاديث طويلة لو تعلم .

إذا أنا سألتك مرّة : أين البرهان ؟ لم يعجزك أن تأتي به من بلاغتك . وقد لا تكون ثمة قضيّة يقوم برهانها ، ولكنّك تجعل البلاغة السّاحرة نفسها قضية على ما ترسم ، كأنّك مهندس منطق . وبذلك تطمئنُ دائماً لتأثيرك قوّة براهينك ، أي لإقناعي أنا راضية أو غير راضية .

(١) مختصرة . *

أمّا أنا فأقدّم برهاني بسذاجة الأطفال الذين لا يعرفون ولا يستطيعون إلا أن يكونوا أطفالاً . وأقوى برهان الطّفل أن يكون الطّفل نفسه برهانًا عليه ، فما عساك تقول ؟ أ ترى الطّفل هو عندك أيضاً قضيّة بلاغة ؟

لله من الكتابة إليك ! ما أشدها طرباً ، وأشدها صعوبة في وقت معاً ! فأنا أخافك لأنّك تستشفُّ من الأحرف ما لا يتبيّنه سواك من الصّفحات . وغريب أنّي – مع شدّة هذا الخوف – لا أكاد أمسك القلم حتّى أسير به أو يسير بي أو نسير معاً : ليس في أحدنا تروئة [1] ولا حذر ، كأنّني أخاطب نفسي ، أو هو يكتب مذكراتي ، أي من قلبي لقلبي . أ تعجبك هذه الطّفولة في الحديث ؟

نعم هي ألفاظ كالّتي في ألسنة الأطفال ، لا كتلك الّتي في الكتب أو في صناعة البيان ، ولكنْ إذا أنت لم تُغْض ِ عن ظاهرها فأين إذًا الحفاوة بالمكنونات الّتي لا يراها إلا من خُبِئَتْ له ؟

* * *

قياس الأشياء في الحب :

كم أراك تحتاط بطريقة ناعمة لا تصدم كبرياء النّفس إلا قليلاً ! ولكن أ يذهب عنك أنّها حين تصدمها قليلاً تكون قد صدمتها وكفى ؟

ليس كلُّ قليل هو قليلاً [2] ، ولا كلُّ كثير هو الكثير ؛ فقياس الأشياء بين الأصدقاء لا يكون في الأشياء ذاتها ، بل في صلة الإحساس الّتي تكون في أنفسهم ، لأنّها إنّما تقدر بمقادير الشّعور لا بمقادير المادّة . أ ما رأيت هذه الصّلة الوثيقة أيام كنت مريضاً ، قد جعلتْكَ مريضين ؟

إذا كنت على ثقة من هذه القضية ، فأنا الآن راضية عن هذه الابتسامة الطّويلة التي أثق أنّك تبتسم بها ، وإن كنت لا أراها .

* * *

البربرية :

باركتُ الوخزة التي فجرت منكَ هذه الآيات السّاحرة ، وكدت أدعو لك بالآلام والأوجاع ما دمتَ لا تكتب إلا من جرح . أ تعجبك تمنّيات هذه الصّديقة البربرية ؟

ألا فليهنأ بك هذا القلم الذي أوتيته ، فإن ما كتبت به سيبقى دائماً على آفاق هذه اللّغة سحابة وحي تحمل تنزيلها .

وتالله إنّ من يتذوّقُ طعم هذه الحلاوة التي تقطر بها براعتك ، ليظلُّ من بعدها في جوع دائم إليها كجوع الأغنياء للذّهب .

أراكَ تبسم الآن بسمة الرّضا : أ فيعجبك لناء هذه الصّديقة الـ .. بربرية ؟

* * *

السيد :

تقول إنّ حبك مسرف وعداوتك مقتصدة ، وإنّ هذا الحبّ كخضوع المستبدّ ، والاستبداد في نفسه قوة ، فهو إذا خضع كان واثقاً أنّ خضوعه قوة أيضاً وإنْ هان وإنْ ذلّ .

يا صديقي السّيّدَ .. نعم ثم نعم ، ولكنّ كلمتك تجعلني أرى في صلتنا هذه نوعاً من تطفّل الفتاة على سيادة الرّجل ؛ إذ تقتحم بها الفتاة ؛ وإذ تجرؤ على ألا تضع هذه الصّلة فوق موضعها الطّبيعي؛ إن هي إلا خضوع وطاعة وعبودية للسيد ...

أ ليس كذلك أيها السيد ؟

أما والله إنّ الرّجل مهما يغلب نفسه ويحملها على الرّقّة ؛ ليصلها بنعومة الأنوثة من جانبها المصقول النّاعم ، فلا بد أن تغلبه نفسه مراراً ؛ حتى تظهر

(١) النّظر في الأمر وتعقّبه دون التّعجّل بجواب . *

(٢) هذا الضمير في مثل الموضع يسمى ضمير فصل ، وهو حرف لا اسم ، فلا يعمل في الأفصح ، ومع أن الصديقة لا تعرف من النحو إلا قليلاً ، فهي لا تكاد تلحن في كتابتها ، ولم نمس إلا قليلاً من ألفاظها بتحوير أو تنقيح .

حقيقته الجافية الخشنة التي خلق منها ولها .

ولو أنّ حجراً أحدُ جوانبه ماس ثمين ، وسائر جوانبه الأخرى حجر ، ثم مَسّته الحياة فتمثّلَ بشراً سويًا ، لكان رجلاً مُتحبّبًا مُتظرّفًا مثلك يا سيّدي . وهو من جانب واحد يُعتبرُ المحب ، أي الماس ، ومن ثلاثة جوانب يعتبر السّيِّد أي ... أي الحجر !

* * *

السيد أيضاً :

لا يسؤك أيّها الصديق ! فوالله ما أنا بالتي ترغب الإساءة إلى عدو ، فكيف بها إلى صديق وإلى صديق عزيز ؟ أ يغضب السيد من وصفه بالسّيِّد ؟

ولكن ما كانت الصّداقة لتحمل في يدها ميزان العدل لكلّ كلمة وكلّ معنى وكلّ إشارة ، بل إنّها لتصفح كثيراً عن كثير ؛ لتجعل الحقّ الّذي لها أن تستوفيه كاملاً كأنّه حقٌ عليها ، تؤدّيه كاملاً ؛ فتكبر بتسامحها وتنمو .

كن أنت الحاكم على نفسك انتصافًا لما ظلمت به نفساً أخرى ...

وإنّي أهزُّ يدك بقوّة تؤكّد لك أنّ حرارة الإخلاص هي أبداً قويّة من أنّها إخلاص ، مُتجدِّدة من أنّها قويّة ، باقية ، من أنّها مُتجدِّدة ، وبكلّ هذا هي الحبُّ وهي الصداقة .

* * *

هو المرض ولكن :

نعم هو المرض الذي استحقّ منّي كلّ هذه العناية ، ولكنّه المرض على أنّه في جسمك .

أنا إنسانية أعطف على كلّ أحزان العالم ، ولكنّي لو تألّمت لكلّ المتألّمين لما أثاروا في نفسي إلا الجزء الأصغر مما تثيره فيّ آلام صديق .

لو تألّمت بنفسي أو لنفسي لاحتملت ، ولكنّ ألمي بك ، وشفاءه فيك ، فهو ألم وجزع واضطراب، أتألّم بثلاثة من حيث لا تتألّم أنت إلا بأحدها .

نعم هو المرض الّذي أثار فيّ كلّ هذا ، ولكنّه المرض على أنّه في جسمك .

* * *

جو طليق وحرية :

« أنا كما تقول : في الجوّ الطّليق وفي حريتي المعبودة ، يحويني الفضاء وأحويه ولا قيدَ ولا حدّ . ولكنْ مع كلّ هذا فهناك هناك في الجوّ جاذبية ، وهناك للحرّيّة أشواق ، وما يُعيّن لنا حدود مسرّاتنا إلا آلامنا .

أضيفت كلمتك إلى سجل هفواتك في حقّ هذه المخلوقة الّتي لا ذنب لها سوى طيبة نفسها . ومن استحقّ أن تكون طيبة نفسه من ذنبه فقد استحقّ أن تكون من عقابه عند نفسه . أ تريد مني التّوبة عن أن أكون لك طيّبة النّفس ؟

* * *

افتح للشمس :

أعجب لقلبك ، يأبى إلا أن يحتبس في هذه الفكرة المظلمة الّتي توهمك أنّي أسأت إليك وقصدتك بالمهانة . هل القلب يعادي صاحبه أحيانًا فيعاديك قلبك ويأبى عليك إلا أن تصرّ وتكابر وتغلق النّافذات كلّها ، ثم تذهب تتّهم الشّمس ؟

ما حيلة الشّمس في الحيطان والأبواب الّتي أنت تقيمها ؟ افتح لها تدخل إليك .

* * *

طفل الحب :

كيف قلت عن الطّفل الذي أشرت إليه ؟ أ ما تعلم أنّه طفل خبيث لا يستحقّ الرّحمة الواجبة

للأطفال من كلّ طبيعة ، وأنّه ذو مكر ، وأنّه ذو دُعابة ، وأنّه يريد كلّ شيء قبل أن يفكّر في إعطاء شيء ؟

إنّه يظنُّ أنّ كلّ ما يُعطاه فإنّما يُعطاه ليجعله ألعوبة يديه ومعرض عبثه ، يلهو به ويسخر منه . إذا كدّه اللّعب أغمضَ عينيه ونام ليجد من الأحلام لذّة لعب آخر ، ثم لا يلبث أن يهبَّ من نومه فزعًا خيفة أن تكون ألعوبته قد أخذت منه ، ولكنّه يجدها فينقلب إلى زهوه ، ويكون فزعه كذلك فنا من اللّعب : أ لمثل هذا الطّفل تفتح ذراعيك ؟

ولكنْ ، ما أكرمَ عاطفةَ الرّجل الذي يكون في ساعة من السّاعات ألعوبة طفله العزيز ! إنّه في الحقيقة عالم جميل من الرّجولة القويّة يكتشفه الطّفل ساعة يلعب به. وفي هذا اللّعب يكتشف الرّجل كذلك في طفله عالمًا آخر أبدع وأجملَ ، عالمًا من عواطف قلبه .

* * *

الطفل وذئبه :

تريد أن أوافقك على ضرورة إيجاد الذّئاب لبعض الأطفال ؟ هذا ما لا أسلّم به إلا إذا أصبحَ الذّئب حملاً وتغيّرَ فهم اسمه ومعناه .

لست أرى من الواجب أن توجد الطّبيعة إلى جانب الطّفل شيئًا مما يخيفه ، ومع هذا فالطّفل جبان يخاف حتّى من تغريد البلبل إذا سُمّيَ له البلبل بغير اسمه ، وصلصلة السّلاح تخيف الطّفل كالسّلاح ؛ ذلك بأنّه لا يقوى لا سلبًا ولا إيجابًا ، لا على أن يَثْبت لما أمامه ، ولا على أن يفرَّ مما أمامه .

أ يعجبك هذا أم أنت تريد أن تنكر عليَّ هذا الحقَّ الذي أسلبه منك ؛ لتعرف قيمته حين أردّه إليك ؟

* * *

من بعيد :

أكاد والله أنسى أنّني بعيدة عنك هذا البعد كلّه، بُعْدًا يتقاذف بكلماتي مسافات ومسافات إلى أن تؤدّي إليك شعوري . ولا أعلم هل يسلبها البعد هذه الصّيغة الحقيقية الّتي أراها لها وأنا أكتبها ، وأراها لها حين تتركني ذاهبة إلى البريد ؟

وأنا – على هذا البعد – يوم أقرؤك أراك وإنّك لأقربُ إليَّ ممن هو أقرب إليَّ ، وأشعر بالكلمات حارّة مُتنفّسة بين يدي كساعة كتابتها ، كأنَّ قلبي كان عندك وأنت تكتبها فلمّا جاءته جاءته على عهده بها .

هناك – مهما ابتعدت – دائرةُ أنسٍ لنفسي تسكن إليها وتتعلّق بها ، ولا تجعل محيطَ أفكارها إلا منها . فأنا بنفسي في هذه الجهة البعيدة التي تفصلك عنّي ، ولكنّي بها أيضًا في المكان الّذي أنت فيه .

* * *

وهم الجمال

وبعد أن تكافأت مقادير نفسه واعتدلت من اضطرابها وأشرف على السّلوان ، كتب هذه الرّسالة (١) :

هذه رسالة أحسُّها قد برئت في معناها من السّلوة والحبِّ جميعًا ، وخرجت بموضعها عن الرّضا والغيظ معًا ، ولم تجئ من برد على الكبد ولا من حِرَّة في الصّدر ، فلا يخيل إليَّ فيها أنّي أنسكب في تعبيري كما كان يعتصرني هذا القلم في غيرها حنينًا وغرامًا أو سخطًا وموجدة . (٢)

« أكتبها وقد تكافأ جانبا الحبِّ في نفسي هونًا هونًا ، واعتدلت مقاديرها شيئًا شيئًا ، فلا أعتدُّ بسبب تصغر به الحقيقة الكبيرة ، أو تكبر الصّغيرة ، أو يجاوز بمعنًى حدّه ، أو يقصر بمعنًى آخر عن حَقّه ، ولا أحجر فيها على كلام صحيح أن يتصرّف بقدر أدلّته وبراهينه لما أخشى من سوء موقعه في الحبِّ ، ولا

(١) انظر كتاب « السحاب الأحمر » لتستجمع تتمة هذه الآراء.

(٢) أي غضبًا . *

أطلق فيها لكلام مُزوّر أن يتزايد في مغالطته وكذبه لما أرجو من حسن أثره عند الحبيب .

وأكتبها وقد أصبحت أرى وجهها الذي تحمله كالصّورة ، يحملها الحائط (١) ، وعدت أراها هي وأمثالها من الحبيبات كفقاقيع الرّغوة في ألوانها وجمالها وانتفاخها وفراغها . وصرت أعتقد أنّ الهول الهائل من النّساء الجميلات إن هو إلا كذلك الرّعب المخيف من جبال الثّلج ، في القطب : لا يمسك الجبل الشّامخ بما حوله إلا خيوط واهنة من غزل الماء ، لو قطعتها نسمة لانهارّ وانكفأ . (٢)

وأكتبها وقد خرجت إلى دنيا النّاس وكنت في الحبّ وإياها كالمنقطع في صحراء ضلّ فيها ضلال القفر ، واختُبل من خبال الوحشة ، فهو يرى اجتماع اثنين في ذلك التّيه وقيامهما معاً كأنّه تكوين دولة من الدّول العظمى .

* * *

إنّ البلاغة الّتي كتبت بها رسائلي من قبل وما احتلتُ لها به وما صوّرتُ من فنونها ، هي بعينها الّتي تنتهي في هذه الرّسالة إلى أنّ جمال المرأة الجميلة ، ليس في ذات نفسه إلا أسلوباً من الخداع ، كالذي يكون في تزويق الكلام وتمويه الحقيقة ببلاغة التركيب . غير أنّه أسلوب حيّ في لحم ودم ، ثم تزيده المرأة بفنونها تزويراً وتعمية ؛ لأنّ جمالها في صورة أخرى من صوره الكثيرة هو نفسه الرّقّ والاستعباد مُحبّباً في خلقة جميلة ليطلب ويعشق . استعباد حي متى بدأ استمرّ يقوى ولا يضعف ، وينمو ولا ينقص . ومن هذا كان قيد الجمال لا يفكّ أبداً إذا غلّ به أسيره من العشاق ، بل يكسر كسراً ، ويصبح فيه أمر العاشق من حبيبه كالاستقلال في الأمم المستعبدة : لا يعطى بل يأخذ (٣) ، ولا بدّ فيه من الجرأة والمصابرة والاقتحام وسلاح من الأسلحة أيّها كان ، إمّا حاطماً أو مُفزعاً أو مُتهدّداً أو محتالاً أو سلاح الرّضا أو سلاح التّمن وما إليها ، لا بد من سطوة ينقلب بها الأسير المستعبد إلى أن يكون مالكاً بوجه من وجوه التّملّك في تلك المنطقة الإنسانية السّحريّة المُسمّاة في لغات النّاس بالحبيب .

* * *

فكأنّ الجمال في حقيقته وسيلة طبيعية لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلها . ومتى كان كذلك فلا حقيقة له في الوجود ، ولم يعد صورة في الطبيعة ، بلْ عملاً أداته الصّورة ، ومن ثم فلن يكون الحبّ إلا إسرافًا لا قصد فيه ، وخيالاً لا عقل له ، ولن يكون في حقيقة بل في وهم ، ومن ذلك ظن ، فلن يكون أبداً إلا تغييراً في معاني الصّورة الجميلة . فإن الإسراف لا يثبت على حدّ محدود ، والخيال لا يقف عند شيء حقيقي ، والوهم لا ينحصر في معنًى صحيح .

وفكر المحبّ كالسّائل الذي يغلي ؛ فما دامت ناره من تحته فهو كلّه لا مقرّ له بين أعلاه وأسفله ، وما دام يهدر (٤) على فورته ، فكلّه في الأعلى ، وكلّه في الأسفل ، وكلّه بين ذلك ، ولا قرار له على وضع إلا أن ينكسر وينفثئ . (٥)

وكلّ شيء جميل في الطّبيعة تراه يتّخذ من هذا الأصل شبهاً عند متأمّله والنّاظر فيه ، حتى لكأنّ الجمال يقول للإنسان : إذا أردت أن تسرّ أيها الإنسان وتبتهجَ بي ، فلا تفهمني في نفسي أنا ، بل في نفسك أنت ، ولا تأخذني على ما أنا للوجود والطّبيعة ، بل على ما أكون لك ولأغراضك ، ولا تدعني لِذاتي ، بل غيّرْني في وهمك وخواطرك ، فإنّك إن غيّرْتني فقد خلقتني ، وإن خلقتني فقد جعلتني لك .

* * *

(١) أي وجه حبيبته . وكأنه لما أمسك عما كان يمدها به من خياله وأوهام حياته انقلبت عنده كالجماد ، وهذا هو الشأن في كل من عشق و سلا .

(٢) تتصل جبال الثلج بعضها ببعض اتصالاً للجيا ، فكثيراً ما تهورها النسمات الخفيفة حين تفصل بينها .

(٣) كذا وردت في الأصل ، والصواب يؤخذ .

(٤) الهدير : صوت القِدْر وهي تغلي على النار وتفور .

(٥) أي تنكسر حرارته وتخف وتبرد .

وعلى ذلك الأصل فجمال المرأة المعشوقة إن هو إلا خرافة رجل من النّاس ، وبكونها خرافة عادت لا حقيقة لجمالها ، وكأنّ الحبّ إن هو إلا زيادة شعاع في العين تنظر النّفس به نظراً نافذاً إلى موضع لذّتها أو فِكرها أو هواها ، فإذا خطف هذا الشّعاع على من يضيء في وجهه بالحبّ ، نقل إليه النّفس ببقيتها و وهمها جميعاً فاختلطا على تلك الصّورة فهما هناك شيء واحد ؛ الوهم هو اليقين واليقين هو الوهم . فكلّ شيء من ذلك الجمال هو عقيدة ثابتة ، لا موضع فيها لجدل ولا مساغ لنقض ولا محلّ لردّ . وحينئذ لا يكون أكبر عمل المحبوب في سياسته وتدبيره إلا أن يلمّ أو يوفّق بين عقله هو وبين جنون عاشقه ، وأن يحاول الملاءمة بين حياة الخيال الشّارد في إرادة هذا المجنون وبين حياة الواقع الرّاهن فيه هو ، وبذلك فلن ترى حبيباً إلا هو من محبّه بمنزلة الطّبيب من مريضه ، يطبّ له أو يَزيد في علّته ، أو يهلكه ... هذا حين ينبعث ذلك الشّعاع ، فأمّا حين يخمد فمنذا الذي تراه مُطيقاً أن يصعد السّماء إلى النّجم الّذي انطفأ ليضيئه كما كان يضيء ؟

* * *

أقول إنّ الحبّ زيادة شعاع في العين ، كأنّه كهربائية تتفاعل في مركز البصر من الدّماغ ، فينقدح منها ضوء على النّفس مُتلوّن نافذ ، لا يثبت فيه حقيقيٌّ من المرأة على حقيقته ، ولا يظهر فيه شيء إلا مصبوغاً مُغيّراً ، ولا يردّه رادّ عن أن ينفذ إلى منتهاه ، حتّى لينكشف له المستور وهو في أستاره قد توارى . وما من حبيبة تجلس إلى مُحبّها المفتون بها إلا هي تحت بصره كالعارية ، وإن لبست ما لبست ؛ لأنّها بالحبّ جسم حيّ من أفكاره وهواجسه ونزعاته .(١)

ولو بقيت عين المُحبّ على عنصرها لكان الجمال في روح الجميل وشمائله وطباعه ، لا في وجهه وجسمه وزينته . ولعلّ أجمل نساء الأرض حينئذ لا تكون إلا عجوزاً من العجائز . ثم عسى أن تكون أشدُّ النّساء فتنةً أشدّهن قبحاً ودمامة ، وأبعدَهن في معاني الشّهوات على النّفْرة (٢) والجفوة والاشمئزاز . وهذا إن لم يكن هو الواقع في اعتبار العين والخيال والحبّ ، فهو الواقع في اعتبار الفضيلة والحقيقة والكمال .

* * *

إنّما التّركيب الجميل في الشّكل الفاتن إتقانٌ للكذب بهذا الشّخص على حواسّ عاشقه ، وهو لن يحبّ ويعشق حتّى تكون معاني هذا الإتقان مُوزّعةً على تكوينه وقسماته وتقاطيعه ومعارفه ومجاهله . كأنّ جسمه بكلّ ما فيه عبارة مُركّبة يؤخذ المعنى من جملتها كلّها ، ولكنّ كلّ جزء فيها يسوق إلى هذا المعنى ؛ ولذا تظهر الصّورة الجميلة الفاتنة كأنّها انتباه نفسي محتفل مستوفز (٣) يشدّ ويتوثّب ليزيد ، ويتكسّر ويتقتّل ليزيد أيضاً ، ويخلق حوله من الثّياب والزّينة والفتنة جوّ الأشعّة والألوان والنّفحات ليزيد كذلك .

وهل رأيت قطّ كذباً يصلح كذباً أو خداعاً يكون خداعاً إلا وهو قائم على مثل هذه الحال من التّنبه في النّفس ، ليتغطّى ولا ينكشف ويبقى ولا يضمحلّ ؟ ثم هل رأيت قطّ شبيهاً لمن أضلّ رأيه وصوابه في وجه فاتن يعشقه ، إلا ذلك الذي أضلّ حذره وفطنته حين أحكمت له الخديعة في حلاوة الظّاهر وطلاقة الكذب وتبرّج الحيلة في زينتها ، حتى غفل و وقع ؟ فهذا كما ترى .

وإذا لم تجد الجمال في فتنته ونضجه وقوّته كأنّه انتباه نفسي محتفل مستوفز على ما وصفنا لك ، فلن تجد معه العشق الذي يُسمّى عشقاً ، ومَنْ ذا — ويحك — يُسْتهام (٤) بامرأة مدبرة قد خلا من سِنّها

(١) ما أحكم الآية الكريمة « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » والآية الأخرى « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » فكأن المرئي لا يمكنه أن يستتر عن شهوات ناظره بشيء ما ، فمن هنا وجب أن تستتر عن الرائي ، وهذه هي حكمة التعبير بـ « يغض ويغضضن » وتكرار اللفظة في الآيتين ، كأنّ العين تختبيء وتستتر ، فهل رأيت إعجازاً أبدع أو أدق من هذا ؟

(٢) اسم مرّة من النّفور.

(٣) مُتهيّئ .

(٤) أي يَهيم .

واقتحمت العقبة الأخيرة [١] ، أو امرأة مريضة نهكتها العلّة ، أو التي بقيت روحها في جسمها ولكن مات وجهها [٢] ؟ !

* * *

وعندي أنّه لو شبّهَ العاشق وجه حبيبه بالصّحراء المُجدبة المُقفرة قد ضلّ فيها رشده وضربته بكلّ جهاتها ، وضاع في معناها الأبدي معنى عمره الوقتي ؛ لما رضيت له الحقيقة غير هذا التّشبيه المُنطبق المُحكم ولا رأت أقرب ولا أدقّ ولا أبدع منه، ولكنّ الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه إلا كذب مثله . ومن هنا فاض الشّعر وأصبحت أوصاف الجمال كلّها تمويهاً على الغريزة ، وتزويراً للبشرية في غير حقيقتها ، وتلبيساً على روحانية الإنسان . وعاد الوجه الجميل كالصّالح المنافق : صالح ومنافق معاً ، أي منافقان في شخص واحد .

* * *

والطّفل يرى في أمّه البداية والنّهاية جميعاً ؛ لأنّ طفولته ستار بينه وبين ما وراءها ، وكذلك العاشق : يرى في حبيبته بداية ونهاية معاً ؛ لأنّ حُبّه ستار بينه وبين ما عداه ، يحصره بين أوّل وآخر في امرأة واحدة . أ فلا يكفي هذا دليلاً على بلاهة العاشق وغرارته ، وأنّ الحبّ كالانتكاس إلى الطّفولة في جهة واحدة من جهات النّفس ؟

وترى الصّغير إذا فارقته أمّه نظر حوله ليستشفّ ما انفصل من آثارها المحبوبة على كلّ الأشياء الّتي فيها حنين نفسه ، وكذلك يفعل المحبُّ في كلّ ما مسّته حبيبته ، حتّى كلُّ شيء عليه لمحة منها ، حتّى ليرى بعض الأشياء يكاد يبتسم له ، وبعضها يرنو إليه ، وبعضها يكاد يتيه ويتدلّل ويصدُّ .

وحول الحبيبة ، تتّفق لعاشقها كلُّ عناصر الحياة المتناقضة إذا شاءت هي ، ومنها هي أيضاً تختلف هذه العناصر إذا شاءت ، كأنّها – أي الحبيبة – حياة لحياته لا مقصر له عنها ، وكذلك أمر الطّفل من أمّه و وهمه فيها .

* * *

خلقت المرأة لتلد الإنسان ، وهي تلد هذه الحقيقة في الإنسانية ، ولكنّ وجهها يلد في الإنسانية الضّلالة .

ولا أدلّ على وهم جمالها وأنّه في نفسه وفي نفسها لا أثر له – لا أدلّ على ذلك من أن تتراءى الجميلة في مرآتها ، ثم تنظر نظرتها السّاحرة ترف بالقبلة من شفتيها على شفتيها في المرآة .

أما إنها وهي القبلة التي تُلقيها الشّفاه الحمراء شعلة منها في القلب أو الفكر ، وهي القبلة الّتي احتوت روح الخمر في سيالها المعنوي ، وهي القبلة ... هي القبلة .

ولكنّ الجميلة حينئذ ستقول : إنّه لا بد من رجل مُغفّل ليخلق هذه المعاني للقبلة ، ويسمي من جنونه تلك الحركة الطّبيعية للشّفتين باسم مجنون .

والمرأة ترى بعينيها في إناث الطّير والبهائم من الجمال ومعانيه ما يروقها ويكثر عندها ، غير أنّها لا تحسُّ ذلك من امرأة مثلها ؛ إذ من الصّدق ألا يصدّق كاذبٌ كاذباً . [٣] فإن لم يقنعك أيّها الرّجل دليل فهذا فليقنعْك .

ومن ثم فما يعرفه الرّجل جمالاً منها إنّما هو فنُّ جسمها ، أي تعبير تكوينها عن حقائقها النّسويّة ، ومجاوبته بمعانيها على ما في نفس الرّجل من معانٍ تقابلها . هذه المعاني الصّامتة والصّارخة معاً – والّتي نُسمّيها تسمية غير مكشوفة وغير مُغطّاة أيضاً – هي الّتي نضع لما يشعرنا بها ويستهوينا منها لفظَ الجمال؛ فيكون بذلك مفهوماً وغير مفهوم .

فليس الحبُّ إلا وقوعك في التّيه الّذي يكون بين الفكر ، وهو رأي ورَغيبة ، وبين الفكر وهو حقيقة

(١) خلا من سنها ؛ أي كبرت وذهب أكثر عمرها ، واقتحمت العقبة الأخيرة: كناية عن دخولها في الشيخوخة. (٢) كناية عن دمامة الوجه وذهاب جماله مع بقاء الجسم فتيا شابا .

(٣) تشذ في هذا بعض النساء المذكرات اللواتي خلقن ذكوراً ، وانحرفن في التركيب إلى الأنوثة ، فتراهن يعشقن النساء عشق الرجل ويغرن عليهن أكثر من غيرته ، وهن قليلات .

وحادثة . ومن هذا نجد لذّة الحبِّ الشّعريَّة بطبيعة الحال لا تملأ إلا المسافة الكائنة بين غير الممكن والممكن (١) ... ومن تهكُّم السّعادة على النّاس أنّها دائماً في غير الموجود إلى أن يوجد .

* * *

قال الشّيطان : أنا لون هذه المرأة الجميلة حين أكون مُنافقاً (٢) ، ولون هذه المرأة القبيحة إذ أكون صريحاً .

قلنا : فلعلّه لذلك لا تتجمَّلُ إلا الجميلة ليتمَّ بها نفاق الشّيطان !

* * *

والسلام عليها

وهذه كانت آخر رسائله في حبِّ صاحبته تلك :

أحببتها جميلة لأوجد بها الجمال في معانيَّ وذوقي ؛ و رقيقة لأسيل منها بالرِّقَّة في عواطفي ونزعاتي ؛ وظريفة لأزيد بها في نفسي طبيعة مرح وابتهاج ؛ ومتوازنة لتدخل فيَّ طباعي الانسجام والوزن وصحَّة التّقدير ؛ وناعمة لتخلص بروحي من خشونة الضّرورات القاسية في الحياة ؛ ومتفتِّرة (١) لألقيَ من تفتُّرها على بعض أيامي ، فتنقلب حبيبة بما تمنع وتصدُّ ، ورشيقة لتهب خيالي سرَّ التّوثُّب والحركة ، وجذّابة لأجد بها المغناطيس الّذي يجذبني في الإنسانية إلى مصدري الأعلى .

وأحببتها وهي بجملتها فنٌّ وجمال و وحي ؛ لأرجع وأنا بجملتي حسن وانفعال وإدراك .

وكنت – كأنّما أضرب من الحياة في قفر من المعاني الجافية – لا أتوسَّم نَضْرة ولا أتهدَّى إلى حقيقة جميلة ، فأرسلتْها الحقائقُ السّامية الّتي تعشقها نفسي ، تقول في جمالها : تعالَ إلينا من هنا . إنَّ الطّريق من هاتين العينين .

* * *

لا أقول إنّه قد وقف نموُّ الكلمة السّحريَّة الّتي تزداد وتعظم بتجدُّد الأيام ؛ إذ كلُّ يوم في الحبِّ هو دائماً أوَّل حبٍّ .

ولا أقول إنَّ ذلك الاسم الجميل قد أُنزِلَ عن عرش الفكرة الّتي كانت تملّكه الوجود ؛ لأنّها ملّكته القلب .

ولا أقول إنَّ الذّكرى قد سُلِّط عليها النّسيان ، فصفّاها من حوادثها وأيامها .

ولا أقول إنَّ ما كان في النّفس جنوناً وعقلاً من معاني الحب قد رجع في النّسيان كالكلمة المكتوبة على ورقة ، حُبِسَ في الورقة معناها إلى أن يوجَدَ من يقرؤه فيخرجه .

ولا أقول إنّها قد بَطلَتِ القوّة المُتضاعفة من ذلك الجمال ، وكانت تجعل كلَّ ما يؤلم من النّاس يؤلم منها هي أضعافاً ، وكلُّ ما يسرُّ من الناس يسرُّ منها هي أضعافاً ، كأنَّ الّذي هو إنسانيٌّ في الخلق ليس إنسانيًّا فيها .

ولا أقول إنّه قد اختفى من ذلك الوجه برهانه

(١) الأكثر أن الحب الشعري هو الحب الخائب ، ولكن في بعض الناس أرواحاً قوية لا ترى أهنأ الظفر إلا في هذه الخيبة ؛ إذ هي لا تريد المرأة بل معانيها كما نبهنا إليه في المقدمة .

(٢) يتفق لنا كثيراً أن نرى في النوم كأننا نقرأ شعراً أو نثراً أو كلمات من اللغة وتفسيرها ، ويجيء بعض ذلك على أتمه من الجمال والروعة والغرابة ومنه هذه الجملة بحروفها ، أثبتناها كما هي ثم أكملناها بالباقي من لون المرأة القبيحة ، لتتم المقابلة . وفي هذا الكتاب بعض جمل مما ألقي إلينا مناماً ولكنّا لم ننبه عليها ، ومنها عبارة (غرس الفجر) في الكناية عن الحديقة بألوانها ونسيمها وجمالها وقد مرت في صفحة ١٦٤ وهي كما ترى قد لا تجد مثلها في الأدب العربي من أول عهده إلى اليوم ، وما كان لنا فيها من عمل ولا فكر ألبتة .

وإنما أثبتنا هذا التعليق ليوقن مَن لم يوقن بأن من الممكن أن يأتي الوحي بأسمى البيان وأعلى الحكمة وأعجب البلاغة ، متى كانت النفس مختارة مصطفاة . كالذي أوحي من الكتب المنزلة ، فليس يشك في ذلك إلا غبي بليد الحس لا يدري ما هو البيان وما الإلهام . ولسنا نزعم أن ما رأيناه هو من هذا القبيل ، وإنما هو الدليل على إمكانه لا غير .

(١) متخامدة . *

الّذي كان يقوم بسحره السّاحر دليلاً مفحماً في كلّ قضايا الحبيبة المُتناقضة ، فلا تتوافى وهي متناقضة إلا على نتيجة واحدة هي أنّها الحبيبة ، مهما تأت أو تدع فليس بشيء منها عليّ هوانٌ .

ولا أقول إنّه ليس بين ما نُعْجَبُ به وما نزدريه إلا رجعةُ خطوة مُنقلبة وإنّها هي قد خطتها فليست هي من بَعْدُ .

ولا أقول إنّ روضة الحبّ قد انتهت إلى أيّامها المُقشعرّة التي تظهر فيها كلُّ أشجارها حاملةً من اليُبْسِ والتّجرُّد إعلان آخر الفصل ..

* * *

ولكنّي أقول ... والسّلام عليها .

* * *

تم بحمد الله تعالى

الصفوة

مصطفى صادق الرافعي

رسائل الأحزان :

رسائله بعد فشلٍ في حبٍّ توهَّمه ، إلى صديق بعيد تخيَّله : تصوَّر طبيعة الحب في رأيه ، وأحوال المحبِّين ، وما يعتور نفوسهم من تحوُّلات بين الحب والبغض .

السحاب الأحمر :

نظرته إلى الحب : تجربة عاطفية ذاتية ، ونظرته إليه : شعوراً إنسانيا ، ينشئ أشكالاً متعدِّدة من الصِّلات والعلاقات والتقاليد .

أوراق الورد :

رسائل متخيَّلة : نثر فيها أشواقه الروحية إلى الحب التالي ، وفزع إلى بعض أصدقائه يحاورهم ، ويتعرَّف آراءهم .

مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات - العبرات - الفضيلة

ثروت أباظة

هارب من الأيام - شيء من الخوف - قصر على النيل - نقوش من ذهب ونحاس

جبران خليل جبران

النبي - رمل و زبد - الأرواح المتمردة - الأجنحة المتكسرة

أحمد شوقي

قمبيز - مصرع كليوباترا - عنترة - مجنون ليلى





يطلب من: شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة